

كيف نفكر استراتيجيا

لواء أ. ح. دكتور
فوزي محمد طايل

1418هـ 1997م

الناشر
مركز الإعلام العربي

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

الناشــــر

مركز الإعلام العربى

٤ ش د. عبد الرحمن محمود المتفرع من ش محمود خليل النحاس

الكوم الأخضر - الهرم ت: ٣٨٣٣٣٦١ ت. ف: ٣٨٥١٧٥١

نهضة أمة

كيف نفكر استراتيجيا

لواء أ. ح. دكتور

فوزى محمد طايل

1418هـ 1997م

الناشر

مركز الإعلام العربى

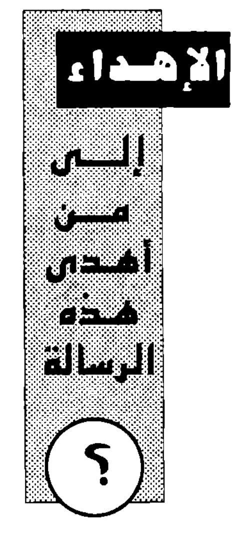
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم
وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم
من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون
بي شيئا ومن كفر بعد ذلك
فأولئك هم الفاسقون﴾

[النور / 55]

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾

[آل عمران / 26-27]



إلى من آتاهم الله تعالى العلم من المؤمنين ؛ أقدم عملا متواضعا لجلال الله وعلمه ، حرصت أثناء إعداده على ألا أغادر كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ ، فأقولَ برأى ، بل أبذل غاية الجهد فى تدبر نصوص الوحى الإلهى وفهمها . ومع ذلك فهو لا يعدو أن يكون عملا عقليا ، يجوز أن يوصف بما يوصف به كل جهد بشرى من خطأ أو نسيان أو قصور ، أدعو الله جل شأنه ألا يؤاخذنى عليه.

ولقد دعانى إلى هذه المحاولة ما نراه مما تعرفون وتدركون جميعا من حال الأمة ـ الذى لا يُرضى أى مؤمن مخلص لربه ـ وما أحاط بالأمة من تهديدات ، وما نفذ إلى داخلها من تشوهات تمس هويتها ... فصارت هذه الأمة فى حاجة إلى تجديد إيمانها ، وتنقيته مما التبس به من ظلم أو شبه ظلم ، وأن تتعامل مع عصرها ، لتُحكّم ما آتاها الله تعالى من شرعة ومنهاج فى ما أحاط بها من مشكلات وأزمات ، وأن تقدم للغد ما يمكّنها من النهضة ، لتستعيد مكانتها التى أرادها الله لها، ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾.

ولكم دعوت جهارا ، وأسررت إسرارا ، طوال السنوات الخمس الماضية من أجل إعداد مثل هذا العمل المتواضع ، وبيّنت أن الأمة فى حاجة إلى عمل فقهي جماعي يقوم به علماء الأمة ، من مختلف المذاهب الفقهية ، ومن شتى التخصصات العلمية ـ عمل تصاغ على أسسه قواعد نهضتها ، ويضيء لأمتنا الطريق فى حركتها المستقبلية ، ويقدم للعالم من جديد النموذج الذى ارتضاه الله تعالى للناس كافة ، كى تعمر به الأرض ، وتصلح به الحياة إلى أن

تقوم الساعة.

ولما لم أجد الاستجابة السريعة لما دعوت إليه ، واستشعرت حاجة الأمة إليه، استخرت الله تعالى فأقبلت على محاولة ، أعلم منذ البداية أنها أجل وأعظم من أن يقوم بها مثلى ، لكننى آثرت القيام بها لمجرد فتح الباب وتحفيز علماء المؤمنين، فيجتهدون جماعيا لعصرنا ، كما اجتهد سلفنا الصالح لعصورهم ، فكان اجتهادهم منارات أضاءت طريق نهضة الأمة الإسلامية وحضارتها لأكثر من ألف ومائة عام.

إلى من آتاهم الله تعالى الملك والسلطان ؛ اعلموا ، حفظكم الله وهداكم إلى ما يحبه ويرضاه ، أن المسلم مأمور بالسمع والطاعة فيما أحب أو كره ، إلا أن يؤمر بمعصية ؛ فعن أبى الوليد عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال:

«بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمَنْشَط والمَكْرَه ، وعلى أَثَرةٍ علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم» [متفق عليه]

واعلموا ، رعاكم الله وجعل نهضة هذه الأمة وصلاح أمرها على أيديكم ، أن المؤمنين بصفة عامة، وعلماءهم بصفة خاصة ، مأمورون بالنصيحة لولى الأمر ، فعن رسول الله ﷺ أنه قال لبعض أصحابه:

ـ «الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [رواه مسلم]

ـ « ... ثلاث لا يُغَل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل ، والنصيحة لولى الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائه» [رواه الترمذى وأحمد]

لقد آتاكم الله تعالى السلطان فأصبحت عليكم مسؤولية إقامة شرع الله ومنهاجه، ومهمة استعادة وحدة الأمة ، وهذه أمور ندعو الله تعالى أن يعينكم عليها ، بأن ييسر لكم البطانات الصالحات، التى تحسن التخطيط ، وتخلص المشورة.

وليس هذا العمل المتواضع اقتحاما لمجال السلطة ، أو بديلا عن فكر أصحابها ، إنما هو أداء لواجبى نحو أولى أمر المسلمين ، امتثالا لقول الله تعالى :

﴿ ... إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾. [هود / 88]

إلى العلماء والعقلاء ومن آتاهم الله تعالى الحكمة من غير المسلمين ؛ قد تعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ ليس دينا جديدا ، وإنما هو تتمة وحى الله إلى خلقه ؛ إذ قال جل شأنه:

ـ ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ [الشورى / 13]

ـ ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قِيِّما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام / 161]

إن الإسلام شرعة ومنهاج ومنظومة كاملة للقيم ، وهو تتمة مكارم الأخلاق ، وهو دعوة موجهة للبشر كافة ، لا يفاضل بين الأعراق أو الأجناس إلا بمعيار واحد منضبط، ذى ثلاث شعب : (العلم ـ التقوى ـ الجهاد فى سبيل الله) ، وخير المؤمنين أنفعهم ، وأقواهم فى الحق .. وخير الناس فى الجاهلية خيرهم فى الإسلام إذا فَقِهوا.

﴿ ...ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ... ﴾ [آل عمران / 110]

والإسلام مشروع كامل ينظم خلافة الإنسان فى الأرض ، وإعمارها ، فى توازن دقيق بين الماديات والروحانيات ، فى إطار أخلاقى لا يرفضه أى إنسان له نفس سوية .. فما بُعث محمدﷺ إلا رحمة للعالمين ، ليتمم مكارم الأخلاق.

وما تحتويه هذه الرسالة ليس إلا المدخل الذى حاولت من خلاله أن أميز بين أمور اختلط بعضها ببعض ، وأن أزيل الضباب الكثيف الذى أُلقِيَ به على الأمة الإسلامية وعقيدتها وقيمها، فالإسلام دين يدعو إلى الخير وإلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فى احترام كامل للعقل ، وتحرير للإرادة ، حتى فى مجال الإيمان :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾. [الكهف / 29]

إن الإسلام ليس سببا فى تخلف المسلمين ، لكن المسلمين تخلفوا بقدر ابتعادهم عن الإسلام ، وعلا غيرهم بسبب تخلفهم ، وليس لأن غيرهم على حق.

وأخيرا ؛ أهدى هذه الرسالة إلى من آتاهم الله تعالى العلم ، وولدوا على الإسلام ، وانتسبوا إليه من خلال أسمائهم ، ثم تنكروا لمنهاجه ، وجعلوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وهجروه ، للبحث في نفايات الأمم ، ومخلفات الحضارات ، يبتغون الهداية ، ولن يبلغوا مغنما أو حقيقة ، بل سرابا ، يزدادون عنده ظمأ ، إلا أن يراجعوا الحق ، فهو خير من التمادى فى الباطل.

ورسالتنا هذه «كيف نفكر استراتيجيًا» تتكون من أبواب خمسة:

الباب الأول – مصادر الأحكام ومراجع الفكر.

الباب الثاني – منظومة القيم الإسلامية.

الباب الثالث – إرهاصات النظام العالمي الجديد.

الباب الرابع -- النظام العالمي الجديد.

الباب الخامس – أساليب وآليات إقامة النظام العالمي الجديد.

وبكل تأكيد وثقة أعلن أنى ما قصدت من وراء هذا الكتاب إشعال حرب ضد هؤلاء الذين يطعنون الأمة فى ظهرها ، فهذه الرسالة دعوة للنهضة ، وليست دعوة للالتفات إلى الوراء ، أو إشعال نيران الصراع الفكرى بداخل الأمة.

لكنى أرجو أن ألقى الله تعالى وقد برئت من كل فعل ، أو دعوى باطلة ، وأرجو أن يكون هذا العمل مقبولا عند ربى ، وأن يكون حجة لى يوم يقوم الأشهاد.

والله من وراء القصد ..

وهو نعم المولى ونعم النصير

فوزى محمد طايل

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

[النساء / 59]

الباب الأول

مصادر الأحكام ومراجع الفكر

ويتكون هذا الباب من مقدمة وفصلين

الفصل الأول : مصادر الأحكام ومراجع الفكر

المبحث الأول :القرآن الكريم.

المبحث الثاني :السنة النبوية.

الفصل الثاني : لا توجد مصادر نقلية للأحكام والفكر بخلاف الكتاب والسنة

المبحث الأول :الإجماع.

المبحث الثاني :الاجتهاد الفكري فريضة.

الباب الأول
مقدمة

الحمد لله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى سائر أنبيائه وعباده الذين اصطفى ... وبعد

فما كان لخالق الإنسان أن يتركه سدى ، بل أنزل إليه من لدنه الهدى ، وضرب الأمثال للناس ، وأنزل الآيات . وقدر الموت حقيقة لا مراء فيها ، ودليلا على أن لهذا الكون خالقا هو الباقي الدائم وحده، وأن الإنسان ليس سيد الكون ، بل هو مستخلف في الأرض وذريته إلى حين ، وإلى غاية محددة.

ولما كان الإنسان مكلفا بمهمة إعمار الأرض ، في حدود كونه مخلوقا وعبدا لله تعالى ، فقد أعانه رب العزة بالعقل ، لتلقى هذا التكليف ، ولفهم ما يحمله إليه الرسل من بيان لطريق الهدى والرشاد، كما أعانه الله تعالى بمكنة الإرادة ، في مقابل ما يتحمله من مسؤولية عن عمله على مقتضى هذه الإرادة .. لذا قال الله تعالى :

﴿ ... فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ . [طه / 123-124]

ولقد أرسل الله تعالى رسله تترى ، مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب والميزان بالحق ، وجعل لكل أمة شريعة ومنهاجا ، إلى أن بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، ليكمل على يديه الدين وليتم النعمة ، وآتاه الكتاب الذى تعهد جلت قدرته بحفظه ، وعلّمه

الحكمـة، وأرسله ـ عـلى خلاف من سبقه من الأنـبياء ـ إلـى الناس كافـة ، بشيرا ونـذيرا، وداعيا إلى الله بـإذنه وسراجا منيرا ، وجعله شـاهدا على من آمنوا به ، وجعل الـذين آمنوا به شهـداء على الناس. وليست الشهادة هنا وصـاية أو عنصرية وتميز عن خلـق الله، بل هي أداء لمسؤولية الأمانة، وقيام بواجب تبليغ دعوة الحق.

ولقد جعل الله تعالى الاجتهاد ، بإعمال العقل استنادا إلى النص ، فريضة فى هذه الأمة ، ومكـنة يتـجدد بهـا الفكـر ، وتواجه بـها الـنوازل والمسـتجدات ، ويُضـبط من خـلاله (أى الاجتهاد) العلم ، ويُكبـح جماحه ، فلا يكون مصدر ضرر وتعاسة؛ فما فـتح الله تعالى باب العلم للبشر إلا ليكون مصدر صلاح وسعادة ، وعون على أداء مهمتهم فى الحياة.



الفصل الأول

مصادر الأحكام ومراجع الفكر

المبحث الأول : القرآن الكريم

وهو كلام الله تعالى المنزل على النبى محمد ، رسول الله ـ ﷺ ـ باللسان العربى المبين[1]، بلفظه ومعناه ، والمنقول إلينا بالتواتر ، قراءة ، وكتابة ، والمدوّن بين دفتى المصحف، المرتبة آياته وسوره ترتيبا من عند الله تعالى ... فيُبتدأ بسورة الفاتحة ويختتم بسورة الناس.

ولا يجوز التعبد بالقرآن الكريم إلا بلفظه العربى ، فلا يجوز ذلك بترجمته ، ولا بتفسيره، فكلاهما عمل بشرى قاصر قصور الإنسان، عقله ومجهوده .. فى حين أن الألفاظ العربية للقرآن الكريم قطعية الثبوت ، لم ينلها تغيير أو تحريف :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾. [الإسراء / 88]

ويخرج عن ملّة الإسلام ، ولا يكون من أمة المسلمين من ينكر القرآن الكريم جملة أو تفصيلا ، أو يطعن فى نسبته إلى الله تعالى ، أو يرتاب فى كماله أو فى آية من آياته :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ . [البقرة / 23-24]

---

(1) يدل هذا التأكيد القرآنى ، الذي جاء في أكثر من ثمانى آيات منجّمات في القرآن الكريم كله ـ على أن الألفاظ التى ظن البعض أنها غير عربية ، إنما هى ألفاظ عربية في الأصل ، انتقلت إلى لهجات أخرى ، وأهمل استخدامها في العربية زمنا ، ثم أعادها الله تعالى إلى العربية من خلال آيات كتابه العزيز ، ومن أمثلتها : الأرائك ، الجبت ، قسورة ، مشكاة ، منسأة ، زنجبيلا ، سرادقها ، سندس ، كنز ، يم ، ... وغيرها . والقول بغير ذلك لا يتفق وتأكيد الله تعالى لعروبة اللسان الذي نزل به القرآن الكريم.. ولم لا تكون العربية هي أصل كل اللغات ، وبها نزل آخر التنزيل ، وبها سيتخاطب أهل الجنة؟!

والقرآن الكريم هو الدليل الشرعى الأول ، والمرجع الأول للأحكام ، فيما جاء به من نصوص (آية أو بعض آية) قطعية الدلالة ، وهو أول ما يُرَدُّ إليه اجتهاد المجتهد ، بحثا عن ما يؤيد رأيه من دليل ، أو حسما لاختلاف فى الرأى عند تعدد الآراء ، فيما ليس فيه نص قطعى الدلالة.

وتتناول آى القرآن الكريم أربعة موضوعات كبيرة : العقيدة ، والشريعة ، ومنهاج الحياة، وسنن الكون ، بشكل متمايز أحيانا ، ومتداخل أحيانا أخرى ، ولا يخرج قصص القرآن الكريم عن هذا السياق.

يروى الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «إن القرآن الكريم أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير ، ومنه آى تقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذُكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب» .. لذا ، فالقول بأن بعض قصص القرآن الكريم قد نزل تسرية عن رسول الله ﷺ ، ومواساة له ، هو قول تنقصه الدقة ، ويكتنفه العجز عن التدبر والفهم ، ويفتقد الدليل النقلى والعقلى.

والقرآن الكريم حاكم غير محكوم ، تخضع العلوم كلها له ، ولا يخضع لها ، لأن العلوم ظنية والقرآن الكريم هو حق اليقين . ومع هذا فمن الآيات ما يستخرج الحكم منه مباشرة ، ومنها ما يحتاج إلى بذل الجهد وإعمال العقل لاستنباط الحكم ، خاصة وأن كثيرا من الآيات جاءت مقترنة بالحكمة من التشريع ، ومعللة بمصالح العباد بشكل ظاهر. ومن الآيات ما لا يكتمل الحكم الشرعي بها إلا أن يُضم إليها آيات أخريات.

على أن دلالة النص فى موضع معين لا يجوز أن تفهم بمعزل عن غيره من النصوص القرآنية ؛ فنصوص القرآن الكريم يقيد بعضها بعضا ، ويخصص بعضها بعضا ، ويشرح بعضها بعضا .. وقد لا يتم التوصل إلى حكم من الأحكام بشكل كامل إلا بعد تدبر أكثر من آية واحدة .ولئن كان الله تعالى قد تعهد بذاته العلية أن يحفظ القرآن الكريم، كما أنزله فقال :﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .... [الحِجْر /9] فإن تفسير القرآن

الكريـم عمل عقلـى بشرى ، غير مـعصوم من أن يـدخل عليه غـير الحق ، وغير مـا أراد الله تعالى ، ممـا أصبح يعرف بالإسرائيـليات ، وهى أمور غير مقـبولة عقلا ، ولا تتسق مـع النقل الصحيح ، وأكثرها من دس أعداء الإسلام لإفـساد عقيدة المسلمين[1] .. وهذه يجب نبذها نهائيا.

ومن أجل هـذا فإن الأقرب إلى الـصحة أن ينـظر إلى غير الإسـرائيليـات من تفاسـير ـ لا تشهـد لها نصـوص القرآن الكـريم الأخرى ، أو السـنة النبـوية الصحـيحة ـ أن يـنظر إليـها للاستئناس ، وليس للاستدلال بها.

* * *

(1) الدكتـور محمد الـسيد حسين الـذهبي ، الإسرائيليات في الـتفسيـر والحديث ، سلـسلة البحـوث الإسلامية ، مـجمع البحوث الإسلامية ، 1407هـ ـ 1987 م ، صـ282 .

المبحث الثاني : السـنة النبويــة المطهـرة

السُّنّة تعنى السيرة ، وتعنى الطريقة ، كما تعنى النظام كقول الحق سبحانه :

﴿ سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ . [الفتح / 23]

والسنة ، فى الاصطلاح الشرعى ، هى ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير . والسنة النبوية موحى بمعناها ، دون لفظها ، من الله تعالى ، وتنسب إلى رسول الله ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى .. لذا فإن منكِر السنة النبوية إجمالا يخرج من المِلّة ، ولا يكون من جماعة المؤمنين لقول الله تبارك وتعالى :

ـ **﴿ ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾** . [الحشر / 7]

ـ **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكَموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيتّ ويسلموا تسليما ﴾**. [النساء / 65]

والسنة النبوية الصحيحة هى الدليل الشرعى الثانى ، بعد القرآن الكريم ، ومن ثم فهى المصدر الثانى للأحكام ، والمرجع التالى الذى يُرد إليه اجتهاد المجتهد ، أو يرفع به الاختلاف بين المجتهدين ، من حيث كونها بيانا لما جاء مجملا فى كتاب الله ، وأنها صدرت ممن هو أعلم خلق الله تعالى بالقرآن.

يقول الإمام الشاطبى : «ولا ينبغى فى الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر فى شرحه وبيانه وهو السنة ، لأن ما فيه من أمور كلية كالصلاة والزكاة ونحوها لا محيص عن النظر فى بيانه».

ولا تؤخذ أمور العقيدة ، والقيم ، والعبادات ـ مما ليس له سند من نص فى القرآن الكريم ـ إلا من سنة متواترة ، وهى ما رواه – رُوى – عن رسول الله ﷺ فى عصور الصحابة[1]،

---

(1) عُنى صحابة رسول الله ﷺ عناية فائقة بأحاديث رسول الله، وحرصوا عليها حرصهم على القرآن الكريم، فحفظوها بلفظها أو بمعناها، وفهموا مقاصدها، وشهدوا تطبيقها عمليا، وبلّغوها لغيرهم امتثالا لأمر رسول الله ﷺ بأن «يبلغ الشاهد الغائب». وما إن توفى الله تعالى نبيه حتى أكثر الصحابة والتابعون من كتابة الحديث فضلا عن حفظه، إلى أن تولى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (الذى يعد خامس الخلفاء الراشدين لعدله وعلمه وورعه)، فأمر بجمع الحديث،

والتـابعين ، وتـابعى التـابعين ، جـمع يمتـنع تواطؤهـم واتفاقهـم على الكـذب ، لكثرتـهم ، وورعهم ، وأمانتهم ، ولاختلاف وجهاتهم وبيئاتهم .

فمعظم السنة المتواترة هى سنة عملية .

والقليل منها قولى.

قال تعالى: ﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ . [الإسراء / 93]

* * *

= منذ بـداية المائة الـثانية للـهجرة.. إلا أنه لم يـصلنا ممـا دون فى هذه المرحلـة سوى كتاب «الموطـأ» للإمام مالـك بن أنس، ووصف لغيره من المؤلـفات. ثم كان العصر الذهبى لتدوين الحديـث فى ما بين عامى 200 -300هـ، وكان أشهر الكتب هو مسند الإمام أحـمد بن حنبل، صاحب المذهب الحنبـلى. وكان من أئمة الحديث من يسير ألـف ميل ليأخذ حديثا عن حامله ويدونه، وكانوا يتحرون صدق الرواة وعدالتهم للتثبت من صحة الحديث لعلمهم بأن «من كذب على رسول الله ﷺ فليتبوأ مقعده من النار». وقد كان الأئمة الجامعون للسنة يحكمون بضعف الحديث لأقل شبهة. ويمكن حصر كتب السنة الصحاح فى ستة: – البخارى – مسلم – أبو داود – الترمذى – النسائى – ابن ماجة.

وقد بذل أصحاب هذه الكتب الصحيح جهدا كبيرا فى البحـث عن الحقيقة وتحرى الصدق، فاستحقت كتبهم أن تكون مقبولـة عند أهل العلم. مـع ذلك فلا يمكن لأحد أن يـدعى لهذه الكتـب الـعصمة، فعلمـاء الأمة لم يتوقفوا عـن دراستها ونقدها والتثبت من صحة نـسبة ما ورد بها لرسول الله ﷺ. ذلك؛ وهناك كتب أخرى تقف عـلى نفس درجة الصحاح الستة المذكورة مثل: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها.

الفصل الثاني

لا توجد مصادر نقلية للأحكام والفكر بخلاف الكتاب والسنة

المبحث الأول: الإجماع

ولا يوجد للفكر والأحكام مصادر نقلية بخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . لذا جاء فى أواخر التنزيل قول الله تعالى : ـ ﴿ ... **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا...** ﴾. [المائدة/ 3]

وكان من أواخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ماجاء فى خطبة حجة الوداع :

(«تركت فيكم ما إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتى ..)

إن القول باعتبار الإجماع مصدرا مستقلا هو أمر، أي أن الإجماع مشروط بأن يكون إجماع العلماء المتخصصين الذين استندوا في إجماعهم إلى القرآن والسنة.

ولا يعتبر قول الصحابي[1] مصدرا نقليا للأحكام ، ولا مرجعية للفكر . حقا لا ينكر مؤمن فضل صحابة رسول الله ﷺ، وقد سبقونا بالإيمان ، ونصروا رسول الله ﷺ، وجاهدوا معه ، وكان منهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين استحقوا رضوان الله تعالى ، فجعلهم يوم القيامة من المقربين ، وكان منهم من بشّرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وكان منهم الخلفاء الراشدون الذين أقاموا دولة الإسلام الأولى ، ومكن الله تعالى لهم بإيمانهم وصالح عملهم ، وكان منهم العلماء والقادة، الذين رفعوا راية الإسلام عالية... وكل هؤلاء كانوا قدوة فى أخلاقهم وورعهم وقوة إيمانهم ، وتمسكهم بكتاب الله تعالى ، الذى شهدوا تنزيله ، وأدركوا مراميه ، وأخذوا مباشرة عن رسول الله ﷺ ، واستمعوا إليه ، ومنهم من حفظ عنه الحديث ورواه.

ومع ذلك كله ، ورغم ذلك ، فما منهم من صحابى جليل قد ادعى أن قوله حجة ترقى إلى حجية كتاب الله تعالى ، أو سنة رسول الله ﷺ ، أو أن رأيه ملزم يأتى بعد كتاب الله وسنة رسوله ، فما من أحد منهم معصوم من الخطأ ، أو قصور الفهم . وقد خطّأ بعضهم

---

(1) الصحابي هو من لقى رسول الله ﷺ ، وآمن به.

بعضا فى ما ذهب إليه من فهم واجتهاد ...

يضاف إلى ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم جميعا لم يطّلعوا على العلم الذى أذن رب العزة أن يؤتيه البشرية بعد عصرهم ، ولم يدرسوا المسائل والمشكلات التى حلت بالأمة بعد زمانهم .. لذا فإن أقوال الصحابة وأفعالهم جديرة بالاعتبار ، إذا وافقت ما جاء بكتاب الله وسنة رسولهﷺ ، فيما يختص بالمبادئ العامة والأمور التى لم تتغير بتغير الزمان . لكن اجتهاداتهم محل نظر ، فيؤخذ برأى هذا الصحابى الجليل ، ويترك ذاك . أما فيما وراء ذلك فرأى الصحابى قد يُستأنس به ، وقد يكتفى المجتهد فى زماننا باستنباط الحكم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مباشرة إذا كان أهلا لذلك.

لئن كان من أركان الإيمان أن نؤمن بكتب الله التى أنزلها على رسله ، وبما أوتى النبيون من قبل ، فإن ما بقى من هذه الشرائع قد طال عليه الأمد ، ولم يدوَّن إلا بعد مئات السنين . واستحفظ الله تعالى الربانيين والأحبار والعلماء ما أنزله وكانوا عليه شهداء ، فما استطاعوا حفظه ، بل خلفت من بعدهم أجيال حرّفوا الكلم عن مواضعه ، وبدّلوا الكتاب ليشتروا به ثمنا قليلا . يضاف إلى ذلك أن الترجمة قد أدت إلى ظهور نسخ متباينة اللفظ والمعنى والمحتوى والترتيب(1).

مجمل القول هو : أن المؤمن لا يسعه إلا أن يؤمن بما أُنزل الله تعالى من كتب ، وأن النسخ الأصلية ــ وقد اندثرت ــ وما بقى صحيحا منها لم ينله التحريف حتى الآن ، قد وصفه رب العزة بأنه «هدى ونور» ، « وهدى وموعظة للمتقين» ، وجاء القرآن الكريم مصدقا له فى آيات محكمات ، تؤخذ مباشرة من القرآن الكريم لدقة اللفظ وإحكامه، وقطعية ثبوته.

ولو شاء الله تعالى أن تبقى تلكم الكتب السماوية السابقة مصادراً للأحكام ، ومراجع للفكر فى أمتنا لكان قد علّمها رسول اللهﷺ ، كما علم عيسى عليه السلام التوراة ، فقال جل شأنه عن عيسى عليه السلام:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾. [آل عمران / 48]

(1) لم ينكر النصارى هذا الأمر ، ففى «الإنجيل، كتاب الحياة ، 1983» يذكر : «الإنجيل كما دونه متى ــ الإنجيل كما دونه مرقس ــ الإنجيل كما دونه لوقا ــ الإنجيل كما دونه يوحنا» ، وأن كل إنجيل يركز على جانب من جوانب حياة المسيح عليه السلام.

لكن الله تعالى لم يعلم رسوله محمدا ﷺ إلا القرآن الكريم وآتاه الحكمة ، ليكون ذلك ـ إضافة إلى أنه كان أميا ـ دليلا على صدق رسالته ، وحجة على أهل الكتاب وغيرهم:

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاْ لارتاب المبطلون ﴾ .

[العنكبوت / 48]

وما أراد الله تعالى أن يبقيه مصدرا للأحكام ، ومرجعا للفكر ، مما أنزله على رسله وأنبيائه من قبل ، فقد أنزله فى كتاب الله تعالى الخاتم : (القرآن الكريم) ، إما بصيغة الأمر ، وإما بصيغة التقرير . وماعدا ذلك لا يعتبر عندنا شرعة ، ولا منهاجا ، ولا قيما ، ولا مرجعا للفكر . يقول الله تعالى حسما لهذا الأمر:

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾. [المائدة / 48]

فالقرآن الكريم أثبت ، ونسخ ، وأضاف من الأحكام ما شاء الله تعالى أن يجعلها تماما للإسلام ، الذى هو الدين عند الله ، ومن ثم فإن أى اجتهاد فكرى لا يكون مرجعه كتاب الله ، أو السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، يحتمل الخطأ فيه ، ومجانبة الحكمة واتباع الهوى هو الغالب عليه.

***

المبحث الثاني : الاجتهاد الفكرى فريضة

يقصد بالاجتهاد الفكرى بذل غاية الطاقة العقلية الممكنة للوصول إلى حكم من الأحكام فى مسألة بعينها ، لا يحكمها نص قطعى الدلالة ، وذلك إلى أن يشعر المجتهد بالعجز عن بذل المزيد من الطاقة العقلية ، ويغلب لديه الظن أنه أصاب الحكم الصحيح.

ولما كانت نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، قد جاءت لحكم حياة البشر إلى أن تقوم الساعة ، فمن الطبيعى أن نجد بعضها مفصلا ، والبعض الآخر مجملا ، يحتاج بذل الجهد العقلى لاستنباط الأحكام العملية التفصيلية من أدلتها الشرعية . كما أن من الطبيعى أن نجد الحكم فى بعض النصوص ظاهرا ، وفي البعض الآخر يحتاج منّا تدبّرا وإعمالا للفكر ، كى نُخضع الأحداث والظواهر التى تجدّ بمرور الزمن وتغيره ، وباختلاف المكان والبيئة والظروف المحيطة والملابسة ، لما يظن المجتهد أنه حكم الله.

والمجتهد إذ يعمل فكره للوصول إلى ما يظن أنه حكم الله ، لا يُعمل مطلق الفكر ، الذى لا قيود له ولا حدود ، إنه إذا فعل هذا كان متبعا للهوى ، يقول الله تعالى:

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾. [ص / 26]

بل يعمل المجتهد فكره لتدبر النصوص وفهمها ، فهو مقيد بما أوحى الله به إلى رسوله ، مراعٍ لحدود الله ، فإذا أصاب حُكم الله فقد أفلح وله أجران ، وإن لم يصبه ، فلقصور ينسب إلى المجتهد ، وهو مغفور له ، وله أجر.

والاجتهاد الفكرى هو الذى يحفظ للأمة الإسلامية القدرة على التطور والتعامل مع متغيرات الزمان والمكان ، والاستعداد لمواجهة الأمور المستقبلية ، والتخطيط لذلك . لذا فالقول بتوقف الاجتهاد ، أو بأن العصر يخلو من المجتهدين ، هو حكم على الحياة بالثبات والتخلف ، وعلى المجتمع بالشلل ، وعلى أحكام الشريعة بالقصور عن التعامل مع الواقع والمستقبل ، وضبط أمور الحياة فى كل جوانبها ... وهذه أمور بالغة الخطورة إذ تحدث فراغا فكريا ، يكون عرضة لأن تملأه الأحكام الوضعية ، والتشريع بالهوى ، والأفكار والشرائع والقيم المستوردة من أمم أخرى.

فالاجتهاد الفكرى بهذا فريضة يدل عليها العقل والمنطق. فضلا عن النص والاجتهاد

يحتاج إليه المجتمع كى يظل متقدما ، محتفظا بهويته . ومع هذا كله فالاجتهاد فرض كفاية ثبت من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

يقول الله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ . [التوبة / 122]

وروى أبو داود فى سننه عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن ، يعلمهم ويقوم ببعض الأمر فيهم ، قال له: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال : فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله. قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيى لا آلو (أى لا أُقَصِّر) قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ بيده على صدرى وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله». (رواه أبو داود)

وقد تعددت وقائع الاجتهاد من الصحابة فى حضرة رسول الله ﷺ وفى غيبته ، فكان يقرهم إذا ما أصابوا ، وينكر عليهم إذا أخطأوا . ومن ذلك ما يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وهو ينظر إحدى القضايا: احكم. فقال: أجتهد وأنت حاضر؟ قال: نعم، إن أصبت فلك أجران ، وإن أخطأت فلك أجر».

الاجتهاد الفكرى عمل إنسانى

على الرغم من أنه يجب على المجتهد أن يسير خلف النص ، وفى إطاره ، فإن الاجتهاد الفكرى يظل عملا إنسانيا تحده القدرة العقلية للمجتهد ، الذى قد يفتح الله تعالى له بفهم لا يتيسر للآخرين ، أو قد يؤتيه حِكْمة لا ينالها غيره. وقد ضرب الله تعالى لنا الأمثلة على هذا فقال جل شأنه:

- ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرْث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهّمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما...**﴾ . [الأنبياء / 78-79]

- ﴿**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنِ مما عُلّمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا. وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبرا**﴾. [الكهف / 65 : 68]

لذا فوصول المجتهد مرتبةً من العلم ، مهما علت ، لا تجعله الأقدر دائما على بلوغ الصواب فى كل المسائل عند تصديه للاجتهاد .. ورغم هذا ، فلا يجوز لمن لا تتوافر فيه

شروط الاجتهاد أن يتصدى له ... فالأمر إذن مزاج بين علم مكتسب ، وملكة ، هى منّة من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده :

ـ ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذّكر إلا أولو الألباب**﴾. البقرة / 269]

فأما العلم المكتسب الضرورى للتصدى للاجتهاد فيتمثل فى خمسة أمور:

ـ العلم بموضع الآية القرآنية التى يستدل بها ، وبغيرها من الآيات القرآنية التى قد تخصصها ، أو التى لا يكمل الحكم إلا بالإحاطة بها جميعا.

ـ العلم بموضع الحديث الشريف ، الذى يستدل به ، ومدى صحته وقوته.

ـ معرفة اللسان العربى ، وطرق دلالة الألفاظ العربية على معانيها.

ـ إدراك مقاصد الشريعة ، وأحوال الناس ، وأعرافهم.

ـ الإحاطة بأحدث المعارف ، المتعلقة بموضوع الاجتهاد[1] ، مما علمه الله تعالى للإنسان، بوجه عام ... فما اصطلح على تسميته «بالعلوم الشرعية» لم تعد كافية وحدها لبلوغ مرتبة الاجتهاد. وأما ملكة الفهم فلا سبيل لاكتسابها ، فهى منّة من رب العباد ، يفيض بها على من يشاء ، ويمنعها عن من يشاء ، فى الوقت الذى يشاء.

ينتج عن هذا كله أنه يجوز للمجتهد أن يجتهد فى مسألة دون أخرى ، ويجوز أن نجد فى الأمة من لديه تصورٌ اجتهادى شامل للأمور (فكر استراتيجى شامل) ، كما أنه من الطبيعى أن نجد الاختلاف فى نتائج اجتهاد العلماء فى المسألة الواحدة ، على الرغم من التزام كل منهم بأصول الشريعة وكلياتها ومبادئها العامة.

الاجتهاد الفكرى فى عصرنا

لقد وضع البعض ممن آتاهم الله علما سياجا عاليا من الأسلاك الشائكة حول ميدان الاجتهاد ، وحرّموا على أنفسهم إلا النقل وشرح اجتهادات علماء ، تغيرت ظروف اجتهاداتهم ومضت عليها مئات السنين. وقد أتى منكرو الاجتهاد بحكمهم هذا من عند أنفسهم ، وحكموا على غيرهم بذات الحكم الجائر ، فتخلفت الأمة بركود الفكر أحقابا كثيرة.

---

(1) يتطلب هذا أن يكون المجتهد قادرا على الاطلاع على المراجع الأصلية للعلوم بلغاتها التى دونت بها، فلا يكتفي بالاطلاع على الترجمات أو النقول.

وقد كانت حجتهم فى الحجر على الفكر هى قصور الهمم وتقاصر العزائم عن البحث والتنقيب ، وهى حجة واهية لا تقوى على الصمود ، وفى ذلك يقول الإمام الشوكانى فى كتابه «إرشاد الفحول» : «**لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا لم يكن للسابقين ، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت ، وصارت من الكثرة إلى حد لا يمكن حصره ، والسنة المطهرة قد دونت ، وتكلم علماء الأمة على التفسير والتجريح والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد... فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين ، ولا يخالف فى هذا من له فهم صحيح وعقل سوى...**».

والحقيقة أن بين أيدينا الآن من علوم القرآن الكريم ، وعلوم السنة المطهرة ، وعلوم اللغة العربية ، ومن تاريخ العصور الإسلامية الأولى ، ومن كتب الفقه ، ما يجعل النظر فيها ميسورا. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن هذه العلوم تدرس بقدر مناسب فى المعاهد والجامعات الإسلامية، بل فى الأمم غير المسلمة .. وامتلأت المكتبات فى كل مكان من العالم بهذه العلوم، وسُجِّل الكثير من هذه الكتب فى أقراص الحاسوب (الكمبيوتر) ، وأشرطة التصوير الدقيقة (الميكرو فيلم) ، وتم فهرستها، وترجمت إلى الكثير من اللغات ـ لأمكن القول بأن الاجتهاد ، فى زماننا ، ممكن عقلا وعملا ، وأن طرقه قد أصبحت أيسر من ذى قبل ، إذا ما أقبل عليه أهله من العلماء الذين يبتغون وجه الله تعالى فيما آتاهم من علم.

ونظرا لتنوع العلوم وتشعبها فى وقتنا الحالى ، ونظرا لتغير الزمان ، وتنوع البيئات والمجتمعات التى يعيش فيها المسلمون الآن ، وبسبب أن المفكر المجتهد يستهدف دائما استنباط الحكم الشرعى الذى يحكم ما يستجد من أمور ، وما يطرأ بسبب التقدم العلمى والتقنى (التكنولوجى) من مسائل ، أو بسبب ظهور الجديد من الأفكار الفلسفية والنظريات فى المجتمعات غير الإسلامية ، وتصدير هذه أو تلك إلى مجتمعاتنا ، أو غزوها لديار الإسلام، فضلا عن ظهور احتياجات إنسانية جديدة ، وأمراض اجتماعية لم تكن تعرفها العصور السابقة ـ فإن من المحتم على المجتهد أن يلم بالقدر الكافى ، بل والمتعمق ، من صنوف المعارف ، وظروف المجتمعات البشرية ، وسلوكياتها، ومراميها ، حتى يأتى اجتهاده موافقا المصلحة المنضبطة بشرع الله ، وحتى يرفع الحرج عن الناس ، ويحفظ عليهم هويتهم الإسلامية ، ويفتح الباب واسعا أمامهم للتقدم ، ولاتخاذ مكان الصدارة فى إعمار الأرض وضرب المثل الأعلى للبشر كافة.

من هذا نجد أن صورة المجتهد المطلق ، الذى يستطيع أن يجمع بين كل هذه الأمور ، كما كان الشأن فى عصور الاجتهاد الأولى ، تعد صورة قليلة الحدوث ، قلة تكاد تقترب من الندرة... فما هو الحل؟

إن الحل لا يكون فى التقليد والنقل عن التراث ، ولا يكون الحل أيضا فى التصدى للفتوى مع الجهل بعلوم الزمان وأحواله وتغيراته السريعة ، التى لم يعد يمكن للأفراد متابعتها، بل تلهث المؤسسات العلمية والبحثية ومراكز المعلومات والاستعلامات للإحاطة بمعظمها . ولا يكون الحل فى أن يتخذ المجتهد (المفتى) ، الذى لا حظ له من علوم الزمان وأحواله وتغيراته إلا النذر اليسير، مجموعة من المستشارين ، الذين لا حظ لهم من علوم الشرع ، ولا غيْرةَ لهم على الدين ؛ لأن ضمائرهم تشكلت على غير مقتضاه ، واقتنعوا بحضارات أمم أخرى ، تربّوا عليها ، وأصبحت عندهم فى مقام العقيدة الراسخة.

الأقرب إلى الصواب أن يكون الاجتهاد الفكرى فى زماننا على مستويين:

ـ **المستوى الأول** : هو اجتهاد فردى فى مسألة بعينها ، يكون المجتهد قد اجتمع لديه، بإذن الله ، ما يحكمها من العلم والخبرة ، وأحاط ، أو ظُنَّ أنه أحاط بكل ظروفها وبالمؤثرات الداخلية والخارجية التى تؤثر فيها ، وبأصولها الفكرية وبالتربة التى نبتت فيها ، فضلا عن توافر شروط الاجتهاد ، سالفة الذكر ، فيه.

ـ **المستوى الثانى** : أن يجتمع العلماء ، الذين اجتهدوا فى هذه المسألة اجتهادا فرديا ، فى هيئة مجلس للشورى ، كى يجتهدوا اجتهادا جماعيا[1] ، يسهم كل منهم فيه بما لديه من رؤية رآها من زاوية تختلف عن رؤى الآخرين.

فأما المستوى الأول ؛ فيفتح الباب واسعا أمام الاجتهاد الفكرى ، ليعلن كل صاحب فكر عن نفسه ، ويعرض اجتهاده للتمحيص . ولا يلام المفكر على اجتهاده ، طالما أنه كان أهلا للعلم ، ولم يخالف أصلا من الأصول الثابتة ، كأن يحل حراما ، أو يحرم حلالا ، أو يبتدع فى مجال العقيدة أو منظومة القيم ، لأنها بمثابة المرجعية الحاكمة والمعيار الثابت للفكر والسلوك.

---

(1) ما نقوله هنا يوافق إلى حد كبير ما خلص إليه ، وأوصى به المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية (شوال 1383هـ ـ مارس 1964). وأوصى به

وأما المستوى الثانى ، ففيه يُرفع اختلاف العلماء فى المسائل التى تتصل بالتشريع وصياغة منهاج الحياة، لأنها أمور إن لم تحسم برفع الخلاف حولها لوقع الناس فى حرج، ولما أمكن تحقيق توافق الأمة حول القضايا الاستراتيجية . ويظل الاختلاف فيما دون ذلك مطلوبا لذاته، تيسيرا على الناس ، وهى الأمور المتعلقة بممارسة كل فرد لحريته الشخصية فى حدود المباح والمندوب.

ومع ذلك فمثل هذا الاجتهاد الجماعى يكون عرضة للمراجعة ، إذا ما تغيرت الظروف والملابسات التى تم فيها ، كأن تطرأ مصالح جديدة ، أو يستقر عرف ، أو يحدث تغير فى العلاقات الاجتماعية بمفهومها الواسع (داخل الأمة الإسلامية، أو بينها وبين غيرها من الأمم)، أو يحدث تطور علمى أو تقنى (تكنولوجى) يجعل هذا الاجتهاد قاصرا عن حكم ما استجد من الأمور. وتظل الآلية المناسبة للاجتهاد الفكرى فى عصرنا هى الاجتهاد الجماعى الذى تمحص خلاله الآراء المتباينة ، وينتج عنه الرأى الأصوب الذى تلتف حوله الأمة، فتستطيع استجماع قواها وتوجيهها ، وتوظيفها لتحقيق نهضتها.



ضرورة الفكر الاستراتيجى لنهضة الأمة

لئن كان الفكر الاستراتيجى[1] كعلم وفن ، قد عرف فقط منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يأخذ مفهومه الشامل إلا بنهاية الحرب العالمية الثانية، فإن المتفق عليه الآن ، فى كل لغات العالم المعاصر ، هو أن كلمة «استراتيجية» **Strategy** تعنى التخطيط بعيد المدى الذى يتم فيه الربط بين الأهداف والإمكانات المتاحة ... وأصبح التخطيط «الاستراتيجى الشامل» **Total Strategy** ، أو «القومى» **National Strategy** هو الوسيلة التى تحقق بها الأمم «أمنها» **national Security** .

فعلى كل أمة تريد تحقيق أمنها ، واستمرارية بقائها ، أن تضع لها غاية ومجموعة من الأهداف المتناسقة ، المترابطة ، بعيدة المدى ، وأن تحشد كل قواها (السياسية ـ الاقتصادية ـ العسكرية ـ والحيوية ، أى البشرية الجغرافية ـ والتكنولوجية) ، وأن تستنهض إرادة أبنائها من أجل تحقيق هذه الأهداف أملا فى بلوغ الغاية.

ودون الدخول فى مزايدات ، أو محاولة إلحاق الإسلام بحضارات أمم أخرى ، فإن من يتدبر القرآن الكريم سوف يجد فيه غاية الأمة الإسلامية ، وأهدافها بعيدة المدى ، وتوضيحا لكيفية التخطيط بعيد المدى ، وهى أمور نعرض لها فى موضعها بإذن الله . أما عن إعداد القوة الشاملة للأمة ، ومردود هذا الإعداد على أمن الأمة فهو مجمل فى قول الله تعالى:

ـ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوَفّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾. [الأنفال / 60]

وإذا ما علمنا أن الأمة الإسلامية لديها قرابة ربع الثروة البشرية ، وأن معدل المواليد بين شعوبها هو من أعلى المعدلات ، وإذا ما أضفنا لذلك أنها تمتلك أكثر من ربع ثروات العالم ، وقرابة ثلاثة أرباع الاحتياطى البترولى المؤكد فى العالم (مصدر الطاقة الذى لا يضارعه

---

(1) الاستراتيجية كلمة مشتقة من أصل إغريقي ، كانت تستخدم بمعنى المكان المرتفع ، أو القائد الكبير ، ثم دخلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وأصبح مفهومها : فن توزيع واستخدام القوات المسلحة لدولة ما بغرض تحقيق أهدافها السياسية . وهي الوسيلة النهائية لحسم النزاع ... ثم تطور المفهوم ليصبح : المهارة في التخطيط والإدارة في أى قطاع ، سواء أكان عسكريا ، أم مدنيا. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ظهر اصطلاح «الاستراتيجية الشاملة»، أو «الاستراتيجية القومية»، للدلالة على التخطيط الشامل والإدارة على مستوى الدولة، في تناسق بين كل قطاعاتها.. أي هي علم وفن استخدام القوى الشاملة للدولة (للأمة).

مصدر آخر حتى الآن) ، وأن بباطن أراضيها كل أنواع المعادن ، وبوفرة ، بما فى ذلك اليورانيوم ، وسائر المعادن النادرة ، وأن ما لديها من أراض قابلة للزراعة ، ومياه تكفى وتزيد عن احتياجاتها الغذائية وغيرها ، ويقال نفس الشيء عن الثروة الحيوانية والثروة السمكية. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن الله تعالى قد حبا هذه الأمة بالموقع الجغرافى المتصل ، والأوسط ، والأفضل فى العالم؛ من حيث تنوع المناخ ، واتساع الرقعة الأرضية، والإطلال على كل المحيطات ، ومعظم بحار العالم ، وأن كل المضايق البحرية فى العالم تقع فى أراضيها ، أو تطل عليها . ولم يحرم الله تعالى هذه الأمة من العلماء فى كل التخصصات، سواء منهم من يعيش فى البلدان الإسلامية ، أو من هاجر ليتولى أرقى المراكز العلمية فى بلدان العالم الأخرى . كما أن لدى الأمة بنية أساسية «تكنولوجية» لا بأس بها ، وكما هائلا من الأسلحة التقليدية والجنود العاملين والاحتياط .. وإمكانات لإنتاج السلاح التقليدى وفوق التقليدى، والنووى، إذا خلصت نوايا أصحاب القرار.

فما هي إذًا أسباب تخلف الأمة الإسلامية ، واستمرار تدنى الأوضاع فيها ، وعدم قدرتها على النهوض؟

يمكن إجمال هذه الأسباب فى الأربعة التالية :

السبب الأول ـ انفصال الأمة عن شرعة الإسلام ومنهاجه وضعف الإيمان فى النفوس.

السبب الثاني ـ عدم وضوح منظومة القيم الإسلامية في النفوس ، واختلاطها بغيرها من الأمور الفاسدة.

السبب الثالث ـ عدم وجود أى فكر استراتيجى إسلامى شامل يتعامل مع المستقبل.

السبب الرابع – تغييب إرادة التغيير والنهوض ... بل والإرادة بشكل عام.

ومن ثم ، فالأمة الإسلامية فى حاجة إلى تجديد الإيمان فى نفوس أبنائها ، وإلى تجلية منظومة القيم الإسلامية ، وبيان مضامينها بدقة ، خاصة وأن منظومة قيم الإسلام لم تحظ بالقدر الكافى من البحث والدراسة التى تبرزها وتميزها من غيرها من قيم الأمم الأخرى ، التى لا يجوز بحال من الأحوال أن تختلط بقيمنا ، كما هو الحادث فى وقتنا هذا .. الأمر الذى جعل من العسير جدا الحديث عن إرادة الأمة ، فهذه الإرادة لا يمكن أن تتبلور ، وتصبح فاعلة معظّمة ومضايفة للإمكانات المادية للأمة ، ما لم تقم على منظومة قيم الإسلام. ولا غرو، فالفكر الاستراتيجى المادى وحده لا يمكن أن يحقق نهضة الأمة، ولا يمكن أن تبنى عليه الحضارة التي تؤدي إلى إعمار الأرض وقيام الجنس البشري بواجب الخلافة فيها.

وكم أهلك الله تعالى من حضارات مادية ، كما ضرب الله تعالى لنا مثلا بعلو الماركسية فى القرن العشرين الميلادى ، على أسس استراتيجية مادية إلحادية ... بيد أن علو تلك الأمة ، التى قامت على فلسفة وفكر استراتيجى مادى لم يدم سوى بضع عشرات من السنين ، ثم انهارت حضارتهم المادية ، كما ينهار بيت ضخم «من بيوت العنكبوت!» ... وصدق فيهم قول الله تعالى:

ـ ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف / 139]

ولقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتى إلى حدوث تطور جذرى فى الفكر الاستراتيجى لدى الغرب خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين ، بعد أن تولت الصهيونية العالمية قيادة الحضارة «اليهودية النصرانية» من واشنطن ونيويورك ، وأعلنت بكل الوضوح والصراحة ، وبشكل متكرر ، وفى كل مناسبة ، أن الإسلام هو عدو ما أصبح يسمى «النظام العالمى الجديد» .. وحفزت بقايا المعسكر الماركسى إلى انتهاج نفس الخط ، ومعاداة الإسلام ، وكلا المعسكرين عدو تقليدى قديم للإسلام.

ويستهدف النظام العالمى الجديد «فرض السلام» على الأرض، من خلال فرض منظومة قيم واحدة ، واحتكار ، والهيمنة على المصادر المادية للقوة (التكنولوجيا ـ الاقتصاد ـ القوة العسكرية ـ المواقع الجيوستراتيجية الحاكمة) . وقد سميت الاستراتيجية الجديدة «بالكوكبية» Globalism نسبة إلى كوكب الأرض.

وجوهر «فرض السلام »هو الهيمنة على النشاط البشرى فى كل جوانبه ، وتغذية العقول البشرية بما يسمى «ثقافة السلام» ، التى تستهدف نزع الإرادة من الإنسان ، وتجعل كل همه الحصول على المتع الحسية ، أو الرضا بأن يعيش حياة أقرب ما تكون لحياة الحيوان الأليف ، الذى يتلقى «المعونات» المسماة «بالإنسانية» وما هى بإنسانية ، فى «ملاذات» تسمى «آمنة» ، وما هى بآمنة.

والسؤال الذى قد يطرحه البعض .. ولماذا يعتبر الإسلام العدو الأول للنظام العالمى الجديد ، رغم ما تعانيه الأمة الإسلامية من تدنٍ مادى وتمزق ، ورغم وجود أمم أخرى أقوى من الأمة الإسلامية ـ بالمقياس المادى ـ كالصين واليابان مثلا؟

لقد درس الغرب الإسلام دراسة متأنية ، خلال المائتى السنة الأخيرة ، وأدركوا يقينا أن الإسلام كلٌّ متكامل ، وأن له نظرة كونية شاملة متفردة ، تستوعب الفكرة «الكوكبية»

المادية ، وتستبعد مثالبها ، وتضيف إليها البعد الروحى الغيبى ، الذى يحدث التوازن فى النفس البشرية، وفي المجتمع، وهى (أي النظرة الإسلامية للكون) تواجه القوى والظواهر الكونية ، الطارئة واليومية ، التى نستشعر العجز إزاءها ، رغم التقدم العلمى والتكنولوجى الذى بلغته الإنسانية ـ ذلك البعد الغيبى الروحى الذى يزود نفس الإنسان المؤمن بمستوى عال من الولاء ، والإرادة ، والغيرة ، والإخلاص ، وحب التضحية من أجل قيمه ومبادئه.

ولقد أدرك علماء الحضارة «اليهودية النصرانية» وساستها ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن فى الإسلام الحلول الأكثر كفاءة وحسما، لكل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى تعانى منها البشرية الآن . ورغم أنهم قد استيقنوا هذا ، فقد جحدوه ، وأبت نفوسهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ... وأبوا إلا أن يحاولوا إزاحة هذه العقبة المسماة بالإسلام من طريقهم ... فاستهدفوا محاربة الأمة الإسلامية ثقافيا ، واجتماعيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ... وذلك بأن يحاولوا فصل المسلمين عن الإسلام ، فيتحول إلى دين بلا مؤمنين ، أو فلسفة مثالية لا تجد لها أنصارا فى أرض الواقع.

لقد توهموا أن هذه هى الطريقة المثلى لفرض ثقافتهم ، ومنهاج حياتهم ، ومن ثم تحقيق الهيمنة الكوكبية(1):

ـ ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

[الصف/ 8-9]

حرىٌّ بنا إذًا أن نفيق من غفلتنا ، وأن نزيل ما ران على عقولنا وقلوبنا من صدأ ، وأن ننزع الخوف من قلوبنا ، فمن يخشون أحدا غير الله تعالى لا يقيمون حضارة ، ولا يرجى منهم خير، علينا أن ننظر أمامنا ، ولا نتلفت إلى الوراء ، فمن يريد السير قدما عليه أن ينظر إلى الأمام حتى يستبين له الطريق ... ومن يعتزم السير فى دروب الحياة عليه أن يحمل معه ما يهديه إلى الطريق الآمن والأصوب لبلوغ هدفه . ذلك هو الفكر الاستراتيجى الإسلامى الخالص، أى الاهتمام بعظائم الأمور ، ووضع التخطيط بعيد المدى لبلوغ أهداف الأمة.

---

(1) إن لهذه الفكرة جذورا عبر عنها القرآن الكريم أبلغ تعبير في قول الله تعالى:

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ . [البقرة / 109]

وإذا كنا نبتغى النهوض من كبوتنا ، ونسعى إلى تبوّء المكانة التى أرادها الله لنا ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ، فلابد لنا من جلاء منظومة قيمنا ، التى تضىء لنا الطريق ، ويقام عليها البناء ، ويصاغ على مقتضاها فكرنا الاستراتيجى، ويتحقق تماسك الأمة ، وتتبلور إرادتها ، وتنتصر بها ، فى صراع كتب علينا ، ولا بديل فيه عن النصر بإذن الله ، هو صراع القيم ..

﴿... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج / 40-41]

* * *

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾. [الأنعام / 161 : 163]

الباب الثاني

منظومة القيم الإسلامية

ويتكون هذا الباب من مقدمة وفصول سبعة :

منظومة القيم الإسلامية

مقدمـــة :

يحيط بكلمة «قِيَم» Values الكثير من الغموض والخلط ، سواء من الناحية اللغوية أو الناحية الاصطلاحية ، وذلك رغم أنها أصبحت الآن من الكلمات كثيرة الاستخدام فى كل اللغات ، وأصبح **الحفاظ على القيم هو جوهر أمن أية أمة**، وعلى منظومات القيم ترتكز الأهداف الاستراتيجية ، وبها يتم تبرير السياسات.

وحسما للأمر فإن كلمة «قِيَم» هى جمع «قيمة» ؛ أى الأمر المعتدل ، فى الوضع الأمثل ، كقول الله تعالى: ﴿ ... **وذلك دين القَيِّمة**﴾ [البينة / 5] وهى الأمر الثابت المستديم ، كقول الله تعالى: ﴿... **ويقيمون الصلاة** ...﴾ [البقرة / 3]، وهى المعيار ، والأمر النافع ، الغالى ، المبتغى ، كقول الله تعالى: ﴿**فيها كتب قيِّمة**﴾ [البينة / 3] ، وهى الأمر الذى بكماله تستقيم النفس ، والطباع . وعلى قدر إدراك الأفراد لمضامينها وتمسكهم بها تستقيم العلاقة بينهم ، وتقل فرص التدافع ، ويزداد قدر التوافق الفكرى ، والتناسق الثقافى، ويسهل الخطاب بين الرؤساء والمرءوسين ، وتسهل تعبئة الأمة ، واستنهاض إرادتها.

والقيم الإسلامية تتناسق ، وتترابط ، وتتماسك ، وتتدرج ، كما لو كان ينتظمها بناء هرمى متجانس ، لا عوج فيه . لذا فإن التعبير عن القيم بأنها منظومة ، يحتوى قدرا كبيرا من الدقة فى التعبير عن حقيقة العلاقة بينها.

وقد يلحظ الباحث أن فقهاء المسلمين لم يفردوا أبواباً خاصة بالقيم(1)، وذلك لأن القيم الإسلامية هى الدين نفسه ؛ فهى الجامع للعقيدة والشريعة والأخلاق، وللعبادات والمعاملات، ولمنهاج الحياة والمبادئ العامة للشريعة، وهى العُمُد التى يقام عليها المجتمع الإسلامى ، فهى ثابتة ثبات مصادرها، وهى معيار الصواب والخطأ ، وبها يميز المؤمن

---

(1) لئن كان الغرب قد عرف دراسة الفلسفة والأخلاق منذ عصر الحضارة الإغريقية ، فإن دراسة موضوع القيم وتحديد مضامينها ، وأساليب اكتسابها والارتقاء بها وقياسها ـ لم يعرف عندهم إلا منذ نهاية عقد الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادى.

الخبيثَ من الطيب ، ويرجع إليها عند صنع القرارات واتخاذها .. وهى التى تحدث الاتصال الذى لا انفصام له بين ما هو دنيوى وما هو أخروى فى كل مناحى الحياة: السياسة، والاقتصاد، والاجتماع ، والجهاد ، والدعوة.

ولما كان جوهر الإسلام هو العبودية الكاملة ، والتسليم بلا تحفظ ، لله الواحد الذى لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ، فإن المسلم مكلّف ، متعامل مع الله تعالى ، تترتب حقوقه على أداء الواجب ، ولا تأتى سابقة عليه ، أو منفصلة عنه. ومن ثم فليس للحريات المطلقة ، الخارجة عن حدود التكليف الإلهى مكان بين قيم الإسلام ... ولا تعد الرفاهية والرخاء ، وإشباع الغرائز بلا حدود قيما إسلامية، بل القيمة هى ضبط النفس وترويضها:

﴿فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هى المأوى﴾ . [النازعات / 37:41]

وتتصف القيم فى الإسلام بصفة الثبات ، سواء فى مسمياتها ، أو فى مضامينها ، وذلك لورودها فى آيات محكمات فى القرآن الكريم . ولا تختلط منظومة قيم الإسلام بغيرها مما يعتبر قيما عند الأمم الأخرى ، حتى وإن تشابهت المسميات ، أو تطابقت ؛ وذلك بسبب اختلاف المصدر والجوهر والمحتوى ؛ لذا فإنه لوصف مجتمع ما بأنه مجتمع مسلمين ، فإنه لا ينظر إلى دستوره، أو مؤسساته ، أو خطب زعمائه ، أو حتى تناثر المساجد هنا وهناك ، وإقامة الاحتفالات فى المناسبات الإسلامية ، وإرسال بعثات الحج ، وتنظيم العمرات ... إلخ ـ وإنما يُنظَر إلى مدى تمسك ذلك المجتمع بمنظومة قيم الإسلام ، فعلى قدر علو هذه القيم فى المجتمع ، ودفاعه عنها ، تكون محافظته على هويته ، ومن ثم أمنه وسعادته:

﴿... فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه / 123-124]

وإذا ما ألقينا نظرة عامة على «منظومة القيم الإسلامية» فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع : القيم العليا ، والقيم الحاجية (التكميلية) ، والقيم التحسينية (الفضائل الخلقية):

فأما القيم العليا ، فهى تلك القيم التى بدونها ينهار المجتمع تماما. ويكون المجتمع مهددا في أمنه إذا غابت إحداها أو ضعفت .. وهذا النوع من القيم لا يمكن إقامة أمور الدين ولا أمور الدنيا بدونه ، فغيابه يحدث الفساد والتهارج ، وضياع المصالح فى الدنيا ، والخسران المبين فى الآخرة...

وقد جاء ذكر هذه القيم : مسـمياتها ، ومضامينها ، وأمرنا بها فى كـتاب الله تعالى وفى سنة رسوله ص، فى نصـوص قطعية الثـبوت والدلالة ، وهى علـى وجه التحديد : الـعلم ، والإيمان ، والعمل ، وتكريم بنى آدم ، ووحدة الأمة ، والعدل ، والشورى.

وأما القـيم الحاجية (التـكميليـة) فهى تلك التـى يصعب التـمسك بالقـيم العليا بـدونها ، صعوبـة تؤدى إلى حرج شديـد ، ويهدد غيابـها بفسـاد الحياة الاجتمـاعية ، ويكون الـضيق والمشـقة ، وفوت المصـالح غالـبا ، وأهمهـا : الصدق ، والأمانـة ، والوفاء بـالعهد ، وإتـقان العـمل، والنظـام ، والنظـافة ، والأمر بـالمعروف والنـهى عن المـنكر ، والـتعاون ، واجتـناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والنصيحة ، وبر الوالدين، ... إلخ.

وأما القيـم التحسينـية (الفضائل الخـلقية) ، فهى الـتى تتجمل بـها الحياة ، وتقل المـشقة ، وتحصل السعادة والرضا ، ويزداد قدر ولاء الفرد للمجتمع ، وتزداد قدرة المجتمع على إعمار الأرض والتنـمية الشامـلة فى كل المجالات ، وأهمـها : حفظ اللـسان ، والعفو ، والـرحمة ، والأخوة ، والتسـامح ، والتواضع ، والتـكافل الاجتماعى فـى ما وراء الفريضة ، والـعزيمة ، والشجـاعة ، والصبر ، والـشكر ، والحلم ، والأناة ، والـرفق ، والحياء ، والورع ، والـتوكل علـى الله ، والـتواضـع ، والمحبة ، والـكرم ، والإيثـار ، واجتـناب سوء الـظن ، وترك الـغيـبة والنميمة والحسد ، وعدم الغفلة أو الإكثار من اللهو ، والالتزام بآداب السلوك ... إلخ.

وقد يكون مناسبا ونحن نتحدث عن «الفكر الاستراتيجى» أن نركز على القيم الإسلامية العليا ، مع الإشارة إلى النوعين الآخرين فى المكان المناسب.

الفصل الأول

العلم أول قيم المنظومة الإسلامية

العلم هو كل ما وصل إلى إدراك الإنسان من معارف ، مرتبة بطريقة نظامية ، ومكتسبة بالملاحظة ، أو التجربة ، أو الاستنباط ، أو التلقين، أو الوحي والإلهام.

والعلم هو القوة ، وبحسن تطبيقه وتوجيهه تُبنى قوى الأمة(1) : التكنولوجية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، وتستطيع ردع أعدائها . وإلى هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم، فعندما عزم سليمان عليه السلام على حسم الأزمة التى نشأت مع دولة سبأ ، وأعد قواته العسكرية التى لا قبل لأعدائه بها ...

﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك...﴾ [النمل / 38:40]، ويرجع سليمان قهره لعدوه إلى العلم:

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ [النمل / 42] وكان العلم هو الرادع : **﴿قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾.**

وقد جعل الله تعالى العلم أعلى القيم التى يحملها الإنسان بصفة عامة ، إذ بدأ به تكريم الله تعالى آدم واختصاصه بالخلافة فى الأرض ، رغم أنه لم يكن مقدرا له أن يكون أعبد مخلوقات الله لله ، بل كان من صفاته ـ التى أعلمها الله تعالى الملأ الأعلى ـ ما استنكره الملائكة على من سيسخر الله تعالى له ما فى السموات وما فى الأرض . يقول الله تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

---

(1) ما قامت حضارة فى التاريخ إلا على أساس العلم ، وما انهارت حضارة إلا وسبق ذلك انهيار نظامها العلمى . وتنطبق هذه الحقيقة على الحضارة الماركسية التى انهارت فى ثمانينيات القرن العشرين:

Pierre Papon, Science et besoins Sociaux, Le Monde Diplomatigue, Fevrier, 1994, p. 15.

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ . [البقرة / 30:34]

كما جعل الله تعالى أولى العلم من ذرية آدم فى معيته جل شأنه، للشهادة بوحدانيته، فقال : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران / 18]

وكان هذا بمثابة تشريف ثان لطائفة من بنى آدم ، أن كانوا ممن فضلهم الله تعالى بالعلم.

ولقد خص الله تعالى خاتم الرسالات بوصف «العلم» فقال: ﴿**... ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين**﴾ [البقرة / 145] ... وجعل الله تعالى أول التنزيل فيها «اقرأ» . وأنزل على رسوله النبى الأمى كتابا هو «جماع العلم»[1] ، وأمره بدعاء فيه طلب العلم:

﴿**فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما**﴾ [طه / 114].

وعلى الرغم من عظم قيمة الإيمان ، فإن الإيمان لا يُتصور إن لم يسبقه العلم ، فبالعلم تُعرف وحدانية الله تعالى وصفاته ... والعلماء هم أكثر الخلق معرفة بقدرة الله؛ فالمؤمنون منهم هم أخشى الخلق لله تعالى ، وجزاءً لهذا تكون مكانتهم هى المكانة العالية ، حتى وإن قلّ قدر ما يأتونه من النوافل عن غيرهم من المؤمنين:

﴿ **... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾.

[الزمر / 9]

﴿ **نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كل ذى علم عليم**﴾. [يوسف / 76]

---

(1) لقد جعل الله تعالى من الأدلة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن حوَى القرآن الكريم إشارات إلى حقائق علمية ، لم تبلغ إدراك البشر إلا بعد تنزيله بأكثر من ألف عام أو يزيد ، فجاءت كما وصفها القرآن الكريم . ولا يزال القرآن الكريم يحتوي آيات كريمة لا يمكن للعقل البشرى إدراك تفسيرها ، لأن الله تعالى لـمّا يشأ بعد أن يعلّم الإنسان ما تصفه هذه الآيات من علم وسنن كونية.

- ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ . [المجادلة / 11]

- ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ . [النمل / 15]

قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى عن أبى أُمامة : «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلّون على مُعلّمى الناس الخير» (رواه الترمذى).

وإذا كان العلم هو أعلى القيم على الإطلاق ، إذْ جعله الله تعالى فى الفطرة هكذا، وَجعله أهم أسس عمارة الأرض ، فإن مفهوم العلم ومضمونه يختلفان باختلاف العقائد والشرائع والنظم، سواء أكانت سماوية أم وضعية .. فلا علم فى الإسلام إلا ما علمه الله تعالى للإنسان. وليس للعقل بذاته أن يبتكر العلم ، أو أن يكتسبه ، إلا أن يشاء الله تعالى له أن يذّكر.

إن الاقتصار على القول بأنه لا تعارض بين الإسلام والعلم هو قول غير دقيق ، يستند إلى معيار غير صالح للحكم على الإسلام، والأقرب إلى التعبير الصحيح هو أن الإسلام، كمنهاج للحياة ، يتضمن فى ما يتضمنه المبادئ العامة والأسس التى تحكم العملية التربوية والتعليمية، والبحث العلمى وقانونا للمعرفة، فى كمال وخصوصية جامعة مانعة ، لا تفصل بين العلم والأخلاق، ولا بين ما اعتاد الناس على تسميته علوم الشرع وغيرها من العلوم البحتة، أو التجريبية، أو الإنسانية .. فكل هذه الأمور لا تنفصل ولا تتعارض بسبب وحدة مصدرها، وهو الله تعالى: ﴿الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق / 4-5]

وإذا كان للعلم وعاء وموضوع ، فإن وعاء العلم وموضوعه فى الإسلام هما الإنسان ، الذى يسّر الله تعالى له سبل البحث ، بل وجعل العلم فريضة عليه ، وأجرى سنة الكون إلى غاية، هى تسخير ما فى السموات وما فى الأرض للإنسان بإذن الله تسخيرا لا حدود له إلا أن يشاء الله:

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمن / 33]

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [يونس / 24].

وطلب العلم عملية مستمرة لا تتوقف منذ الولادة وحتى الممات ، ومن ظن أن علمه اكتمل فقد بدأ رحلته إلى الجهل . والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها ، ولا يبالى من أى وعاء خرجت ، فإنها من عند الله ، الذى لم يحدد صفة لمن ينعم عليه بها ، إذ يقول:

﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ [البقرة/ 269]

وككل الأمور ، لا تقع إلا بقدر الله تعالى ، ومع ذلك تُبتغى أسبابها ليكون الإنسان قد أدى ما عليه من تكليف ، فإن ابتغاء الوسيلة إلى العلم بكل طريق ممكن فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل / 78]

وشكر الله تعالى على هذه النعم لا يكون إلا باستخدامها فى الخير ، وأفضل استخدام يكون فى طلب العلم ... بل إن الله تعالى قد أرشدنا إلى هذا الاستخدام بوصفه فريضة:

﴿ ... إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء / 36] .

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ [الحج / 46]

فطلب العلم بصفة عامة فرض عين ، كل حسب ملكاته ومقدرته ، وعلى أولى الأمر فى الأمة (الآباء ، والمعلمين ، والرؤساء فى كل المستويات) أن يبرزوا من أبناء هذه الأمة من يدرس ، ويبحث ، ويتفوق ، ويلبّى الاحتياجات العلمية للأمة فى كل مجالات الحياة ، من طب ، وهندسة ، وفلك ، وفضاء ... وغيرها ، فإن لم يتم هذا أثمت الأمة كلها ... وتظل الأمة آثمة ما لم تتفوق على غيرها من الأمم فى المجال العلمى والتقنى.

وعلى أولى الأمر أن يحرصوا كل الحرص على ابتعاث طلاب العلم من المسلمين إلى كل بقاع الأرض للدراسة والتحصيل والبحث ، ليعودوا مساهمين فى بناء الصرح العلمى للأمة، ولسد احتياجاتها فى كل التخصصات.

ويحرم على علماء الأمة الهجرة إلى خارجها والإقامة هناك إلا لطلب العلم ، ولاستكمال البحث والدراسة ، ثم العودة فور انتهاء مهمتهم ، وذلك لاحتياج أمتهم إليهم ، ولأن بقاء علماء المسلمين فى البلاد التى تنكر دين الحق ، وتستعلى على الحق ، وتستكبر وتفسد فى الأرض ، يعد بمثابة إعانة لأعداء الله وأعداء الأمة عليها ، بما يقدمونه لتلك الأمم من إبداعات وتطبيقات علمية تضاف إلى قوتهم على حساب قوة أمتنا.

ويقع الإثم على أولى الأمر إن هم قصروا فى التخطيط للبحث العلمى والتقنى . وهذا التخطيط يحتاج عددا مناسبا من المفكرين الاستراتيجيين (الموسوعيين) الذين يقومون بمهمة الربط بين العلماء والتنسيق بين مراكز البحوث . كما يقع الإثم على أولى الأمر الذين يقصرون فى تهيئة المناخ السياسى / الإدارى ، والاقتصادى والاجتماعى ، المناسب لمعيشة العلماء وعملهم ، وأداء مهماتهم العلمية ، وإغنائهم بسد حاجاتهم المعيشية والعلمية ، ووضع نتائج بحوثهم العلمية موضع التطبيق العملى ابتغاء إعمار الأرض ، وجلب النفع للأمة ، وللناس كافة ، حتى لا يضطر العلماء إلى ترك العلم ، أو الهجرة إلى غير بلاد الإسلام. ويقع إثم هجرة العلماء إلى الخارج على الأمة كلها لإهدارها هذه النعمة ، وتفريطها فى هذه القيمة.

كما أن القائمين على أمور الدعوة الإسلامية يقصّرون إن لم يخصصوا قدرا كبيرا من جهودهم ونشاطهم لدعوة العلماء غير المسلمين إلى الإسلام ، سواء من كان يعيش فى داخل الأمة أو من كان يعيش خارجها .. وليعلم الدعاة أن خطاب العلماء بالإسلام ودعوتهم إليه أيسر بإذن الله من دعوة العامة .. فما من آية من آى القرآن الكريم إلا وخاطبت أولى الأبصار ، وأولى الألباب ، والعالِمين ، ومن يتفكرون ، ومن يتدبرون .. إلخ .. وقرر القرآن الكريم حقيقة لا مراء فيها ، وهى:

﴿ ... **إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ** ... ﴾ [فاطر / 28].

وما ذلك إلا لأن العالم كلما بلغ مرتبة فى العلم أيقن أنه لن يحيط أبدا بالعلم كله ، ذلك لأن الله تعالى اختص ذاته العلية بعلم كل شيء ، وجعل الروح من أمره:

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء / 85].

وبإدراك طالب العلم هذه الحقيقة ، التى يشهد عليها أغلى ما عنده ، وهو العلم ، يحس بضعفه وجهله أمام علّام الغيوب ، فيخشع قلبه للعليم الحكيم ، ويكون أكثر استعدادا لأن يتلقى شرعةً ومنهاجا يقومان على مخاطبة العقل والضمير معا ، ويحضان على الإيجابية والقوة ومكارم الأخلاق جميعا ، فيكون قلب العالِم أكثر استعدادا من غيره لأن يقر فيه الإيمان ... وكلما ازداد إيمانه وبلغ مرتبة التقوى واليقين ، فإنه يحصل بفضل الله تعالى ومشيئته على قدر من العلم الاستشراقى من لدن حكيم عليم:

- **﴿ ... واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾** [البقرة / 282]

- **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾** [الأنبياء / 78-79].

والعلم الإلهامي ، أو الاستشراقى الذى يفضل الله تعالى به بعض العلماء على بعض ، هو أمر ينكره غير المسلمين ، الذين يفصلون بين ما يسمونه «علوم الدين ، أو اللاهوت ، أو علم ما وراء الطبيعة» ، وبين ما يعتبرونه من علوم الدنيا ، التى يظنون أنها من شأن العقل البشرى وحده.

وقد ضرب الله تعالى لنا أمثلة أخرى على أن العلم من عند الله تعالى وحده:

- يقول رب العزة عن يعقوب عليه السلام : **﴿... وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [يوسف / 68] .. وعلى لسان يعقوب عليه السلام : **﴿... وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** [يوسف / 86].

- ونجد نبى الله وكليمه موسى عليه السلام يبتغى العلم على يد عبد من عباد الله ، تلقى علمه إلهاما من رب العزة:

﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلّمت رشدا﴾ [الكهف / 65-66].

وكما أن طلب العلم فريضة ، ومع أن من العلم ما قد يمنحه الله تعالى من يشاء بغير حساب ، فإن البحث والتفكير العلمي يظل فريضة على كل مسلم ، وهو فرض عين لعموم

قول الله تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن...﴾ [النساء / 82] ، [محمد / 24].

وكيف نغفل عن حقيقة فرضية البحث والتفكير العلمى على كل مسلم وقد طرح القرآن مسائل فى غاية الحساسية والدقة ، لا نجد لها مثيلا فى نسخ التوراة والإنجيل التى هى بين أيدى الناس حاليا ، فقد ناقش القرآن الكريم وحدانية الله تعالى وهيمنته على الكون وتدبير أموره، وقدرته على الخلق والبعث والحساب والرزق وسائر الأمور ، وناقش صحة الرسالات السماوية وتكاملها ، وصحة رسالة محمد ص ، خاتم الأنبياء والمرسلين .. وما من أمر غيبى ، أو سنة من سنن الكون إلا وناقشها القرآن الكريم من خلال تقريب فهمها بضرب المثل بأمور مادية وملموسة ، تقرب إلى العقل إمكانية إدراكها: ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**﴾ [النور/ 35].

ولم يجعل الله تعالى هذه الفريضة سرا كهنوتيا ، أو حكرا على أقوام دون غيرهم ، مهما علت مكانتهم ، أو زاد إيمانهم ؛ لذا لا يعرف الإسلام طائفة تسمى «رجال الدين» ، بل يعرف الفقهاء والعلماء . كما لا يقر بوجود من يحتلون مكان الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، حتى ولو كان رسول الله ص نفسه ، إلا أن يحمل رسالة ربه فحسب:

﴿**قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ وما أنا إلا نذير مبين**﴾ [الأحقاف / 9].

﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا **تعقلون**﴾ [يونس / 16].

﴿ **... قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا**﴾ [الإسراء / 93].

إن النتيجة الطبيعية لعدم جواز احتكار العلم ، أو ادعاء ذلك ، أننا لا نجد فى الإسلام ما عرف عند النصارى «بصكوك الغفران» ، و«صكوك الحرمان» ، ولا ما يعرف عند اليهود من وقوف كهنتهم على باب الدخول إلى اليهودية ذاتها ، واحتكارهم لأسرار العلم ، فجعلوا ما آتاهم الله قراطيس يبدون بعضها ويخفون منها ما يشاء ون ، ليشتروا به ثمنا قليلا.

ذلك ، ولا يوجد فصل بين العلم وسائر قيم الإسلام ، ولا بين هذين وتطبيق العلم فى الحياة العامة ؛ لذا يفرق الإسلام بين العلم النافع والعلم غير النافع ، وكله من عند الله تعالى . ولا ينظر للعلم باعتباره أمرا يتعامل مع المادة والحقائق المجردة عن الأخلاق.

فالعلم النافع هو المؤدى إلى إصلاح حال الإنسان وتمكينه من إعمار الأرض ، دون تجاوز لحدود الله أو مخالفة ما جعله الله تعالى منهاجا، هو رحمة للعالمين ؛ فاستخدام علم الطب ـ مثلا ــ لتحسين الأحوال الصحية للإنسان ، والارتفاع بالكفاءة النوعية له ، ووقايته من الأمراض .. إلخ يجب أن يتم مع المحافظة على القيم والشريعة ومنهاج الحياة ، فلا يجوز ذلك عن طريق قتل المرضى الميئوس من شفائهم ، أو الإجهاض ، أو إحداث اختلاط في الأنساب، أو منع الإنجاب ، أو تحديده ، ولا يجوز أن يتم البحث العلمى بتجارب تجرى على الإنسان، مهما كانت الغاية من هذه التجارب.

ولا يجوز السعي إلى التقدم العلمى فى مجال الاقتصاد من خلال نشر المعاملات الربوية، أو الاحتكار ، أو المنافسة غير المشروعة ، التى تضر بالآخرين، كما أن الإغراق في استخدام بعض صور التقدم العلمي «كتكنولوجيا الوراثة»، أو ما يسمى «بالهندسة الوراثية» genetics، لتغيير خلق الله وطبائع الأشياء بما يعد اعتداء على سنة الله في خلقه من إنسان وحيوان ونبات، فهو علم غير نافع مهما أعجبتنا نتائجه ودهشنا بها: أو ابتكار أنماط استهلاكية ضارة بالصحة ؛ كصناعة السجائر وتجارة الخمور والمخدرات وما إليها . كما لا يجوز ذلك من خلال استخدام الإعلانات التى تدعو إلى الإباحية والفجور ، أو من خلال الدعوة إلى الإسراف والبذخ والابتذال ... إلخ.

وليس من العلم النافع استخدام السحر ، والطلسمات ، والتنجيم ، والشعوذة . وليس من العلم النافع أيضا صنوف الآداب والفنون التى تتطاول على العقيدة والقيم وتدعو إلى المجون.. وليس من العلم على الإطلاق ما لا يحقق المصلحة فى الدنيا ، فلا تعمر الأرض عن طريقه، ولا يبتغى به أداء واجب الخلافة فى الأرض .. فمثل هذا العلم الذى لا ينفع ما هو فى حقيقته ـ مهما أعجبنا مظهره ـ إلا إفساد فى الأرض .. فهو هباء:

﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد

الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة / 204-205].

﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم / 7].

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ [الكهف / 103:105].

**** ذلك ؛ وإذا كان لكل أمر غاية فإن غاية العلم الإيمان بواهب العلم** . ومنتهى الرسوخ فى العلم الاعتراف بعجز العقل وقصور العالم أمام علم الله عز وجل:

﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ [النجم / 42].

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ [الروم / 55:57].

من أجل هذا فإن الصلة وثيقة بين العلم من جانب ، وبين كل عناصر منظومة قيم الإسلام من جانب آخر ، وأخصها قيمة الإيمان.

* * *

الفصل الثاني

الإيمان ثانية قيم المنظومة الإسلامية

إنه لمن الطبيعة الفطرية للإنسان أن يشعر فى كل وقت ـ خاصة فى أوقات عجزه ، وما أكثرها ـ بقوة تعلو قوته ، وبمشيئة تسبق مشيئته ، وبنظام وترتيب وسنة تأتى من خارج ذاته، وأن عليه أن يخضع لها طوعا أو كرها ، ويسير فى منهاج حياته على مقتضاها . فالإيمان جوهر العقيدة ، ودليل الشريعة، وهو أعلى القيم وأغلاها ـ وإن تلا العلم فى ترتيب القيم العليا ـ وهو الذى يضبط العلم والعمل ويوجههما إلى الخير والفلاح ، ويوصلهما إلى الغايات من أقصر الطرق وآمنها.

واتباع الإنسان للعقل المجرد دون إيمان هو اتباع لهوى النفس ، التى جبلت على أن تأمر بالسوء ما لم يكبحها الإيمان . فالإنسان ـ أى إنسان ـ بلا إيمان يكون كسفينة بلا دفة، ولا شراع ، ولا محرك ، تتلاطمها الأمواج ، فى بحر لُجىّ ، فى ليلة ظلماء ، وتحت سماء ملبّدة بالغيوم ..

وقليل هم غير المؤمنين بشىء ، كالملحدين والدهريين . وهؤلاء ينتهى بهم الأمر إلى الفشل والسقوط ؛ وكثيرون منهم يهربون بتغييب العقل ، بمسكر أو مخدر ، أو ينتحرون.

ولا يستطيع أى إنسان أن يعيش فى توازن نفسى دون زاد روحى ، له نفس أهمية الهواء الذى يتنفسه ، والماء الذى يشربه ، والطعام الذى يتغذى عليه ؛ فالإيمان هو غذاء الروح ، ولا يمكن للإنسان إلا أن يستشعر الحاجة إليه مهما كابر.

يقول الله تعالى :

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [لقمان / 25].

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ [الزخرف / 87].

﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى

تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ [المؤمنون / 84:90].

وكذلك نجد فرعون الذى كان يدّعى الألوهية من دون الله : **﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾** [النازعات / 41]، **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ...﴾** [القصص/38] . ويدلل على ذلك بقوله : **﴿... أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾** ... مع ذلك نجده لا يثق بنفسه ، ولا يصدق ما يقول ؛ بدليل ما جاء فى كتاب الله على لسانه :

﴿وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ...﴾ [غافر / 36-37].

وكذلك نجد الهزيمة التى حاقت بمن حاجّ إبراهيم عليه السلام فى ربه ، مدعيا الألوهية مع علمه بأنه كاذب :

﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ [البقرة / 258].

و«الإيمان» ، بمعنى التصديق ، مشتق من مادة «أَمِنَ» ، التى منها يشتق «الأَمْن» ؛ لذا فإن الإيمان الصحيح هو الطريق إلى الأمن ، الذى هو من عند الله ، فمن أراد الأمن وابتغاه فعليه بالإيمان كما أراده الله تعالى للبشر ... يقول الحق سبحانه :

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾

[الأنعام / 82].

هذا ؛ ولا يصح أن يُغفل الباحث فى سلوك الأمم العقيدة الإيمانية السائدة ، بحجة الدراسة العلمية البحتة (أو المحايدة) ، فإنه إن فعل ضل الطريق وما بلغ غايته .. فالإنسان ، والمجتمع ، لا ينظر إليهما بمعزل عن العقيدة الإيمانية ، التى هى حصاد العلم ، وموجه العمل وكل التصرفات والسلوكيات.

ومطلق الإيمان بشىء ما يعد قيمة عليا عند غالب البشر ؛ فبه وبالعلم معا يفسر الإنسان ظواهر الكون وعلاقاته ، ويتصور عالم ما وراء المحسوسات وما بعد الموت . وعلى مقتضى الإيمان يتشكل الضمير الإنسانى وتتشكل نظرته السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها

من أمور الحياة . لذا فإن اختلاف محتوى ومفهوم الإيمان يؤدى إلى اختلاف الأمم ، وهذا مقصد إلهى .. ولو شاء الله لجعل الناس فى إيمانهم ومعتقداتهم أمة واحدة ، ولو جعلهم هكذا لما كان التنافس والتدافع ، ولفسدت الأرض ، ولما تميز الخبيث من الطيب:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين﴾.

[هود / 118-119].

وتقضى طبيعة كل الأمور أن يكون منها ما هو سوى صحيح ، وما هو غير صحيح . وكذلك الإيمان ، فما جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام ، الذى هو ملة إبراهيم حنيفا ، هو الدين الحق عند الله تعالى :

﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران / 29].

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾

[آل عمران / 85].

والإيمان ، كما أوحى به إلى محمد ﷺ من ربه، له مدخل محدد منضبط ، هو الإسلام فى صورته النهائية ، التى أتم الله تعالى بها النعمة وأكمل بها الدين. ولهذا الإيمان محتوى لا يختلط بغيره من صنوف التصديق بالمعتقدات ، وله صورة مثلى هى الإحسان.

ففى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت. قال : فأخبرنى عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد

الأَمَة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاءَ الشاءِ يتطاولون فى البنيان.

ثم انطلق ، فلبث مليا ثم قال: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» . (رواه مسلم)

ولا يكون المسلم مؤمنا حتى يَقَر الإيمان فى قلبه ويصدقه عمله؛ لذا قال الله تعالى:

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلِتْكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم﴾ .

[الحجرات / 14]

ومن يبلغ الدرجة العليا من الإيمان ، وهى الإحسان ، فإنه يبرأ من أية شبهة شرك ، حتى الخفى ، فيتعامل مع الله تعالى فى كل أموره مخلصا له:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من أول المسلمين﴾ [الأنعام / 162-163].

لذا فالمؤمن المحسن يتمتع بأعلى درجات الضمير ، فنفسه لوّامة ، وهو ينهاها دائما عن الهوى خشية مقام ربه .. فتكون له البشرى فى الحياة الدنيا ، ويُعظم الله تعالى له أجره فى الآخرة جزاء إخلاصه لله.

﴿ ... كذلك حقا علينا ننج المؤمنين﴾ [يونس / 103].

﴿ ... وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم / 47].

﴿ ... للذين أحسنوا واتقوا منهم أجر عظيم﴾ [آل عمران / 172].

مثل هذا المؤمن يُرجى الخير من عمله فى الدنيا ؛ إذ أن عمله سيكون مبرءا من الرياء، يعمل على إتقانه وأدائه فى أمانة وإخلاص ، فيعود عليه بالنفع ، ويرتقى المجتمع.

وهذا يتسق تماما مع الاعتبار الكبير الذى أعطاه الإسلام للنية ، التى محلها القلب . يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه عمر بن الخطاب : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ...» (متفق عليه).

وهذا أمر يتميز به المجتمع الإسلامى من غيره من المجتمعات التى تقام العلاقات فيها على أسس مادية بحتة ، خاصة فى مجال إقامة العدل ؛ فاليمين والشهادة فى الإسلام لهما مكانة هامة فى علاقات الفرد كلها ... ودائما يكون الله تعالى هو الوكيل ، وهو خير الشاهدين:

﴿**قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ...**﴾ [آل عمران / 29].

﴿**... ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ...**﴾ [المائدة / 89].

﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾ [النساء / 135].

هذا ؛ والإيمان بضع وستون ، أو بضع وسبعون شعبة ، يتشكل بها منهاج حياة المسلم فى علاقاته بربه، ونفسه ، ومجتمعه ، بل وفى علاقاته بالكون كله . هذه الشعب تدخل كلها فى منظومة قيم الإسلام ، لذا يأتى لفظ «الإيمان» فى بعض المواضع ، بمعنى منظومة قيم الإسلام كلها.

وأفضل شُعب الإيمان قول : «لا إله إلا الله» ، فهى كبيرة فى الميزان ، وبها يجدد المرء إيمانه، وبتكرارها أمر الله تعالى المؤمنين : ﴿ **... واذكر ربك إذا نسيت ...**﴾ ، وأدنى شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق ، وهو عمل يسهم فى تأمين أفراد المجتمع، فهو من الإيمان. وبين هذين الأمرين تقع سائر قيم الإسلام: العليا ، والحاجية (التكميلية) ، والتحسينية (الفضائل الخلقية).

والفضائل الخلقية فى الإسلام ليست أمرا ثانويا ، وإنما هى من صميم الإيمان ، فكانت الصفة التى وصف رب العزة بها خاتم أنبيائه ورسله ، والمهمة التى بُعث لأجلها:

﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم / 4].

قال رسول الله ص : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (رواه مالك).

وقال فيما رواه الترمذى : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم».

كما أن الفضائل الخلقية في الإسلام تختلف فى مضمونها ، غالبا ، عن ما يتبعه أهل الكتاب الآن، وعن ما تحتويه الأديان والنظم الوضعية الأخرى من فضائل خلقية بمعاييرهم ، حتى وإن اشتركت معها أحيانا فى المسميات.

فالرهبانية ـ مثلا ـ فضيلة ابتدعها النصارى فى القرن الرابع الميلادى ، وهى ليست عندنا بفضيلة:

﴿ **... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق**

رعايتها...﴾ [الحديد / 27].

وما يتبعه اليهود من فضائل خلقية يوم السبت وفى أيام أعيادهم ، لا تعتبر فضائل خلقية فى الإسلام. **﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** [النحل/ 124]، بل إن من الفضائل الخلقية عند أهل الكتاب ما يعد محرما عندنا «كالتبنى» ، أو «الاعتراف» الذى يمارسه النصارى لدى القساوسة.

وإذا كانت العفة ـ مثلا ـ فضيلة خلقية عند أهل الكتاب وعند المسلمين ، على حد سواء ، فإن مضمونها مختلف عند كل أمة من هذه الأمم عن غيرها ، بل وللعفة أكثر من مفهوم عند اليهود وعند النصارى ، وذلك لاختلاف الخطاب الشرعى الموجه «لرجال الدين» عن ذلك الموجه لغيرهم من الناس فى أمور الزواج والطلاق ، وعقاب الزنا ، وما يتعلق بهذه جميعا.

وتعد الفضائل الخلقية فى الإسلام مجموعة من الحلقات المترابطة ، التى تشكل منهاج الحياة فى المجتمع ، وبدونها يختل سير المجتمع ؛ فأى حياة هذه التى تخلو من الحياء ، أو التسامح ، أو الرحمة؟ وأى حياة هذه التى تمتلئ بالغدر ، أو الخديعة ، أو الأنانية ، أو يكثر فيها اللهو ، أو تسودها الغفلة ، والتحاسد ، والتباغض؟

ولا تقتصر الفضائل الخلقية فى الإسلام على التعامل بين المؤمنين فحسب، بل تمتد لتشمل التعامل مع كل البشر داخل المجتمع الإسلامى ، وفى علاقات هذا المجتمع مع الأمم الأخرى ، من واقع أن الله تعالى خلق البشر جميعا من ذكر وأنثى ، فهم إخوة فى الإنسانية ، وقد جاء أمر الله تعالى بحسن الخلق عاما شاملا لكل البشر ، وكل الأوقات ، وكل صنوف العلاقات:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [النحل / 90].

﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ [لقمان / 18].

ونظرا لوحدة منهاج الحياة فى الإسلام ، فإن الفضائل الخلقية لا تستبعد من مجالات القانون ، أوالسياسة ، أوالاقتصاد، أوالحرب ، أوغيرها ، ولا شك أن الالتزام بالفضائل الخلقية وعدم فصلها عن دائرتى القانون والسياسة ـ كما هو الأمر فى الحضارة الغربية اليهودية النصرانية ـ لجدير به أن يخفف من غلواء المادية التى يعانى منها البشر، فأفسدت حياتهم.

وللإيمان لباس يتحلى به المؤمن ، هو «التقوى» ، ولازمة تلزمه ، هى «الغيْرة»:

أما التقوى فهى : اليقين الداعى إلى الخوف من الله ، والطاعة التى لا يغادر فيها المؤمن أمرا من الله ورسوله إلا التزمه ، ولا نهيا إلا اجتنبه . والتقىّ هو الذى يزداد إيمانا كلما سمع آيات الله تتلى ، ويتوكل على الله فى كل أموره.

وعلى المؤمن أن يتخير من لباس التقوى أكمله وأجمله ما استطاع ، وله فى مقابل هذا أوفى الجزاء فى الدنيا والآخرة:

﴿... واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم﴾ [البقرة / 282]

﴿... ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾ [الطلاق / 4]

﴿... ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا﴾ [الطلاق / 5]

﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ [القلم / 34]

وأما الغيرة على الإيمان فمقتضاها ألا يفرط المؤمن فى أى ركن من أركان الإيمان وإلا هدمه:

﴿... ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾

[المائدة / 5]

ومن مقتضى الغيرة على الإيمان ألا يقبل المسلم حلا وسطا فى إيمانه ، أو تفاوضا أو تسامحا أو مجاملة . ولا غرو فالإيمان حق خالص لله ، لا يملك العبد الترخص فيه:

﴿قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين﴾ [سورة الكافرون].

﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾

[آل عمران / 20].

لذا ، فالحديث عن حوار الأديان ، وعن الجمع بينها ، وما إلى ذلك ، هو ضرب من ضياع الوقت الذى لا طائل من ورائه ، فقد حسم الله تعالى هذا الأمر بقوله:

﴿... ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات

إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة / 48].

فالاختلاف قائم حتما ، فهو سنة من سنن الله تعالى ، لا سبيل لتغييرها أو تبديلها . والتعايش ممكن بشروطه ، والقائل بغير هذا يريد أن يقفز فوق هذه السنة الإلهية ... ولن يقدر على هذا.

﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف / 103].

لذا فليس غريبا أن نجد أكثر من خمسة وستين بالمائة من البشر فى أيامنا هذه لا يؤمنون بدين سماوى، فهم بين وثنى ، ومشرك بالله ، ولا دينى ، ناهيك عمن كفروا من أهل الكتاب ، فهم يقاتلون المؤمنين فى دينهم ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويظاهرون على إخراجهم. من أجل هذا جعل الله تعالى الجهاد فى سبيله من الغيرة على الإيمان ، وأذن للذين يقاتَلون بأن يقاتلوا دفعا للظلم ، ومنعا من الفتنة فى الدين ، ودفاعا عن المقدسات.

وأيا ما كان الأمر فإن فى جوهر عقائد أهل الكتاب ما لا يجوز ، بل ويحرم التسليم لهم به ، أو المساومة عليه ، فهم لا يؤمنون بمحمد رسول الله ولا بما جاء به ...

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ [آل عمران / 100]

ذلك ، ولليهود والنصارى تصوير مادى لله تعالى نجده فى نسخ «الكتاب المقدس» التى يتداولونها الآن كمثل:

ـ «الرب رجل الحرب» (سفر الخروج : الإصحاح 4/15)

ـ وتصويرهم الله تعالى على صورة إنسان يصارعه يعقوب عليه السلام فيصرعه:

«وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ... فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْتَ .»..

(سفر التكوين : الإصحاح 31:22/32).

ـ ادعاؤهم أن الله تبارك وتعالى على صورة إنسان .. «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا .. فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكرا وأنثى خلقهم ..» (سفر التكوين : 27:26/1).

والإيمان الحق الذى أُرسل به محمد ﷺ يحرم كل هذه المعتقدات وأشباهها ، إذ يقول

الله تعالى:

﴿ ... **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى / 11].

﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**﴾ [النور / 35]

﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ [الأنعام / 103]

وتتنافى مع الإيمان الحق فكرة «التجسيد» ، التى يعتبرها النصارى فكرة جوهرية فى إيمانهم؛ فهم يتصورون أن للمسيح عيسى ابن مريم طبيعتين: طبيعة إلهية ، وطبيعة بشرية ! ومعظمهم يقولون إن المسيح هو الله ، وكلهم يقولون بفكرة «التثليث» ؛ أى أن الله ثالث ثلاثة (الآب ـ الابن ـ روح القدس) ، وأن هذه الثلاثة تتحد فى شيء واحد ! لذا كان حكم الله تعالى فى هذه الأمور حاسما ؛ إذ يقول سبحانه:

﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ [المائدة / 17]

﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون**﴾ [المائدة / 73:75]

ـ ﴿**إن مَثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾

[آل عمران / 59]

وقد اشترك اليهود والنصارى فى القول بوجود ولد لله سبحانه ، وإن اختلفوا فى تحديده:

﴿**وقالت اليهود عُزَير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾ [التوبة / 30]

إنهم بهذا قد قالوا قولا يشبه قول المشركين ، فكان رد القرآن الكريم على هذه الفرية كأقوى ما يكون الرد ، فحسم المسألة بشكل لا يدع أي مجال لمناقشة مثل هذا الضلال المبين:

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدّهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ [مريم / 95:88]

﴿قل هو الله أحد. الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد﴾

[سورة الإخلاص]

ويحتكر اليهود والنصارى الله تعالى لأنفسهم ، فيعتبرونه إلههم هم من دون المخلوقات ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله مخلّصهم لا محالة ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة . فهم بذلك لا يؤمنون «بالصراط» ، ولا «بالميزان» ، ولا «بالحساب» ، وذلك لخلو كتبهم ، بعد تحريفها ، من تصوير دقيق للبعث والنشور والحساب والجنة والنار ، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ [المائدة / 18]

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [البقرة / 80]

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة / 111]

والأمر في الإيمان الحق يختلف كلية ، فالله تعالى «هو رب كل شيء» ، وهو «رب العالمين» ، والإيمان ليس مقصورا على طائفة أو جنس أو عرق أو قوم ، فقد أُرسل رسول الله محمد ﷺ كافة للعالمين بشيرا ونذيرا ، وبلّغ عن ربه عز وجل:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل

صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [المائدة / 69]

ويؤمن أهل الكتاب أن آدم عصى ربه فاحتمل خطيئة أورثها ذريته جميعها ، فهى لصيقة بهم إلى أن يأتى «المسيح» «فيخلصهم» منها فى آخر الأيام[1]. وهم يرتبون على هذا الاعتقاد أمورا كثيرة فى كل المجالات الفكرية وفى العبادات والمعاملات . وقد بلغت سيطرة هذه الفكرة عليهم أن صوّروا فى كتبهم ، بعد تحريفها ، صوّروا أنبياء الله المعصومين يرتكبون المعصية والخطايا.

ولكم كرّم القرآن الكريم أنبياء الله تعالى ورسله ، وأمرنا بأن نؤمن بهم وبما أُنزل إليهم ، ولا نفرق بين أحد منهم ، كما أن الله تعالى نفى عن آدم استمرار حمل المعصية وتوريثها لذريته ، فقال جل شأنه:

﴿ ... وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى.﴾

[طه / 121 :124]

وعلى الرغم من الخلاف بين اليهود والنصارى ، والذى يقوم أساسا على تكذيب اليهود المسيح عليه السلام ، وقولهم على مريم الصديقة بهتانا عظيما ، إلا أن الفريقين يتفقان على فرية أشعلت نيران الكراهية بينهما لأكثر من ألف وتسعمائة عام ، هى فرية قتل المسيح وصلبه[2]، يقول الله تعالى:

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا﴾

[النساء / 157]

على أن الاختلاف الحضارى الجوهرى بين الفكر الإسلامى والفكر اليهودى النصرانى

---

(1) لا يعترف اليهود بالمسيح عيسى بن مريم ، ولكنهم ينتظرون مسيحا آخر لم يظهر بعد ، يعدونه ملك اليهود ومخلص بني إسرائيل في آخر الزمان.

(2) أصدر بابا روما عام 1964 م ـ لأسباب سياسية صكا يبرّئ اليهود من دم المسيح عليه السلام ، رغم مخالفة هذا لنصوص الأناجيل : (متى : 27/26) ـ (مرقس : 15/14) ـ (لوقا : 23/22) ، والتي جاء في نهايتها قول شيوخ اليهود : «ليكن دمه علينا وعلى أولادنا» (متى :26/27) ، ثم تثبت النصوص موته وقيامته!!

الأوروبى يرجع إلى أنـه: بينما يتسم فـكر اليهود والنصارى بـغلبة المادية على الـروحية ، فلا يقـر ذلك الفـكر المادي عـقيـدة الإيمان بـالغيـب أو التوكـل على الـله ، فـإن هذين الأمـرين عنصران جوهريان فى إيمان المسلمين . ويأتى الإيمان بالغيب ، والتسليم الكامل لله تعالى ، مرتبطا بالأخذ بالأسباب المادية ، فلا ينفصلان.

وينـطلـق الفكـر الـيـهودى الـنصرانـى الأوروبى مـن فرضيـة أن الإيمـان ليـس أمرا فطـريا عـند الإنسان[1]، بل إن الدين ـ بزعمهم ـ هو أمر أدركه الإنسان من خلال ملكاته العقلية ؛ لأن ما يميز الإنسان عـن باقى المخلوقات هـو وجود مكـنة التـفكير والـتعليـل بالأسـباب .. لذا فـالبعـض ، من أصحاب الحضـارة الغربية ، أدخل الـدين فى منظومـة معتقداته ، فـاختار التعبير عنها بمصـطلحات دينية ، فى حين استبعد البعض الآخر الدين من معتقدته[2]...

ولا غرابـة في هذا ، فـقصور الحـضارة الغربـية عن مـواء مة الديـن مع الحيـاة أدى إلى أن أصبح الإلحاد من إفـرازات الفكر النصـرانى الغربى . والمؤكـد ـ الذى لا لبس فيـه ـ هو أن العلمانية ، بمعنى فصل دوائر التعليم والعلوم بكل فروعها والقانون والسياسة ـ فصلها جميعا عن دائرة الدين ، قد جـعلها (أى العلمانية) هـى العمود الفقرى لكل الاتجاهـات الفكـرية فى الحضارة الأوروبية ، حتـى تلك التى تتبنى التنـصير ، والدعوة إلى التمسك بالـقيم الروحية ، كأحد مكونات السياسة الداخلية والخارجية.

ويدّعى الغـرب ، ومن اقتات من فتات وبـقايا موائدهم الـفكرية ، أن السبب فـى تخلف الأمة الإسلامية يرجع إلى أننا ـ كمسلمين ـ لا زلنا نؤمن بالغيب ، ونتوكل على الله ، ومن ثم فلا تتاح للعقل الحرية المطلقة كى يبدع ، ويقوم بربط النتائج بالأسباب.

والحقيقة عكس هذا تمـاما، فما تخلّف المسلمون إلا لأن الإيمان والتوكـل على الله تعالى قد ضعفا فى نفـوسهم ، وظنوا أن الأخذ بالأسباب المادية وحدها سـوف يؤدى بهم إلى بناء حضارة تلـحق بحضارة الغـرب ، الذى فُتنوا به ، ونسى هـؤلاء وأولئك أن إيمان المسـلمين كان جوهر حضـارتهم السامية ، وتفوقـهم على جميع الأمم فى كل المجـالات لأكثر من ألف

---

(1) وهذا عكس المنطلق الفكرى للإيمان عند المسلمين ، كما سبق أن أوضحنا .. أو ليس الله تعالى قد قال:
﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظـهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفـسهم ألست بربكم قالوا بلى شـهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ [الأعراف / 172]

(2) Dr. Edward Norman, Importance religion is that it is not natural, The Times, saturday June 17 , 1995 , Credo.

عام ومائة عام.

والمعادلة التي فشل الغرب في فهمها ، فسارع إلى التضحية بالدين ، هي أن الإيمان بالغيب أمر يحتّمه كون الإنسان مخلوقا ، وعقله محدود الإدراك والممكنات، وأن الأرض ليست هي كل الكون. ومع ذلك فقد ساق الله تعالى لنا الدليل العقلي ، وضرب المثل الحسي لكل أمور الغيب التي أمرنا بالإيمان بها، ثم أمرنا بالتفكر ، ونعى على من قصّروا في استخدام عقولهم في الفهم والإدراك ، وأوحى إلى رسله ، وأنزل كتبه توضح لنا ما هو الغيب الذي علينا أن نؤمن به ، ولم يحجب الله تعالى عن الإنسان سوى العلم بالروح:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾

[الإسراء / 85]

من جهة أخرى فقد أمر الله تعالى عباده من البشر أن يتحروا الأسباب لتحقيق النتائج .. وبعد المشيئة ، وعقد العزم ، نتوكل على الله ، الذي بيده الأسباب والنتائج ، لأنه القاهر فوق عباده، ولأنه على كل شيء قدير .. ولأنه خالق الأسباب ، ويمنع وقوع النتائج إن شاء. ولقد ضرب الله تعالى لنا المثل في هذا الشأن فيما أجرى من معجزات تتعلق بأمور الحياة ، على أيدي رسله وأوليائه ، فقال سبحانه:

﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا...﴾ [البقرة / 60]

﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلي واشربي وقري عينا ...﴾

[مريم / 25-26]

أما إذا كان الأمر من شؤون الله الخالصة ، فلا معنى لوجود الأسباب على الإطلاق، وذلك كقول الله تعالى:

﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ [الأنبياء / 68 :71]

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾.

[القصص/ 5]

مثل هذه الاختلافات الجوهرية ، التى لا تقبل التقريب بينها، تنعكس على الفكر الاستراتيجى فتشكله ، وتنعكس على نظرة كل فريق للآخر فتصوغ موقفه منه. ولقد حددت آى القرآن الكريم العلاقة بين المؤمنين من المسلمين وبين غيرهم فى قول الله تعالى:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾. [الممتحنة / 8-9]

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾.

[العنكبوت / 46]

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير﴾

[البقرة / 120]

﴿... ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة / 217]

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ [آل عمران / 118].

إن أهم نتائج الإيمان تحديد الولاء . ومسألة تحديد الولاء تعد بالغة الأهمية ، لما يترتب عليها من بذل وتضحية بالمال والنفس ، ومن مصالحة وتحالف أو مخاصمة (ولاء أو براء) . يقول الله تعالى:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة / 55:57].

ذلك ، والإيمان دائما موضع ابتلاء واختبار من الله تعالى ، والنجاح في هذا الابتلاء ، الذى يكون بالخير والشر فتنة للمؤمن ، يتوقف على قدرة المؤمن على الصبر وعلى صدق نيته في الإيمان:

﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت / 2-3].

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ [البقرة / 155]

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾

[آل عمران / 142]

والصبر عند المؤمن لا يكون سلبيا ، بل هو صبر إيجابي (صبرٌ جميل) ، يمتزج فيه التسليم الكامل بقدر الله ، خيره وشره ، مع استمرار المؤمن فى أداء مهمته فى الحياة ، مُستَخْلَفا فى الأرض مستعمرا فيها ، عابدا لله ، متوكلا عليه ... فالمؤمن الحق لا يعرف الجزع ولا القنوط من رحمة الله(1).

هذا ، وللإيمان قرينان لا يفارقانه ، وهما الدليل العملي على صدقه ، ولا قيمة للإيمان بدونهما ، بل إن الإيمان لا يقبل إذا خلا منهما ... ألا وهما : الجهاد فى سبيل الله ، والعمل الصالح. ولا غرو ، فالإيمان : شيء وقر فى القلب ، ومظهر خارجى يتمثل فى العمل .. ولا يقبل عمل دون إيمان ولا إيمان دون عمل:

---

(1) والمؤمن الحق يتلقى القرآن الكريم فيكون شفاء لنفسه ، إذ يدخل فيها الطمأنينة ، ويمدها بقوة تكون عونا للمؤمن على مواجهة مصاعب الحياة ، وتقوي إرادته ، وتجعل لديه تصميما على بلوغ الهدف. يقول الله تعالى:

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ [الإسراء / 82]

بل إن القرآن الكريم يمد المؤمن المريض بقوة تجعله أكثر احتمالا ومقاومة للمرض، وأسرع في الشفاء.

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف / 2-3]

﴿ ... ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [المائدة / 5]

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾. [الكهف / 103 :108]

* * *

الفصل الثالث

العمل ثالثة قيم المنظومة الإسلامية

يشكل العمل مع كل من العلم والإيمان مثلث القوى ، الذى تستقر عليه منظومة قيم الإسلام . والعمل يعد قاعدة ذلك المثلث ، حيث يلتقى عنده حصاد «العلم» و«الإيمان» ، فيتجسد هذا الحصاد فى صورة عملية مادية ملموسة ، بها تكون طاعة الله ، وبها تعمر الأرض، وتصلح الحياة ، وبها تقام الحضارة ، وينمو المجتمع ويرتقى ... ولا نهضة لأمة إلا بالعمل.

وبالعمل الصالح يتحقق استخلاف الله تعالى الإنسان فى الأرض ، وتكتمل عبادته؛ لذا نجد معظم آى القرآن الكريم التى ذكر فيها «الإيمان» قد اقترن «بالعمل الصالح» ، كما نجد أن الله تعالى قد أوضح فى كتابه العزيز عنصرى الاستخلاف ، وهما (عبادة الله ، وإعمار الأرض) فقال جل شأنه:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ . [الذاريات / 56:58]

﴿ ... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾ [هود / 61]

والعمل فى الإسلام ليس أمرا ماديا بحتا ، بل نجد البعد الإيمانى فيه أظهر ؛ فالعمل فريضة إسلامية ، وقيمة اقتصادية ، وتنمية اجتماعية ، وفضيلة خلقية ـ فى آن واحد ؛ لذا كان من الضرورى أن يبتغى به وجه الله تعالى ، ويمتثل فيه أمره:

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [التوبة / 105]

فالعمل يطلب ويؤدى لذاته ابتغاء وجه الله تعالى فى المقام الأول. وهذا أدعى إلى مراقبة الله وإتقان العمل إلى درجة الإحسان.

وإذا كان المؤمن التقىّ يمضى فى صلواته وتلاوة القرآن الكريم وقتا لا يتجاوز عشرة بالمائة من يومه وليلته ، ففيم يمضى باقى عمره ، الذى لن تزولا قدماه يوم القيامة حتى يسأل

عنه .. فيمَ أفناه؟

ولعل الارتباط الوثيق بين العمل والإيمان فى الإسلام هو الذى يميز العمل كقيمة إسلامية عليا ، عن العمل كقيمة عليا ، أيضا ، فى غير الإسلام من الشرائع والنظم. ويرتب هذا الارتباط الوثيق بالتالى عدة أمور:

1 ـ يرجو العامل أن يحصل على أجر دنيوى ، وأجر آخر أخروى يتجاوز ما يحصل عليه من أجر مادى على عمله:

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل / 97]

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا﴾

[الكهف / 30-31]

2 – العمل يكفر الذنوب ، ويعطى التوبة مصداقية:

﴿ ... ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويخلدْ فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا﴾ [الفرقان / 68:71]

3 – العمل الذى لا يصاحبه إيمان ، ولا يبتغى به وجه الله تعالى ردٌّ على صاحبه ، لا قيمة له ولا وزن ، فهو خبيث ولو أعجبنا مظهره ؛ إذ يجعله الله تعالى هباء منثورا ، ولا ينال صاحبه من ورائه إلا الخذلان والخسران المبين:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ [الكهف / 103:105]

4 – العمل الخالص لوجه الله تعالى لابد أن يكون مبرءا من الرياء ، والنفاق، والغش، والكسب الحرام ، والمنافسة المحرّمة ، ومحاولة التعدى على الغير ظنا أن هذا الغير سوف يقتسم معه رزقه ، أو يستحوذ عليه دونه . لذا جعل الله تعالى العمل فريضة ، وفصل بينه وبين الرزق فصلا تاما ، وجعل الرزق بيد الله تعالى وحده ، يرزق منه الكافر والمشرك

والمؤمن ، والعاقل وغير المميز ، والسفيه والمجنون :

﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [فاطر / 3]

﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾
[الروم / 37]

5 – اتخاذ الأسباب ، وإتقان العمل ، والإحسان ، مع التوكل على الله ، واليقين بأن نتيجة العمل بيد الله تعالى وحده ؛ لأن الله تعالى قد جعل بيده وحده عناصر حياة الإنسان وبقائه ، فإذا قبض منها شيئا استحالت المصانع والمبانى الضخمة والآلات التى تسير بأحدث الوسائل ، والحواسب الآلية وبنوك المعلومات ، ووسائل الإعلام والطائرات والأقمار الصناعية ، وكل ما سيصل إليه الإنسان من مخترعات حتى تقوم الساعة ـــ استحالت كل هذه إلى قطع من المعدن لا قيمة لها. فبدون الجهد البشري لا تجد المصانع والآلات، وبدون إرادة الله تعالى لا تؤدى الأسباب إلى نتائج.

كذا فقد اختص رب العزة نفسه بالتحكم فى النسل البشرى: خلقه ، وإحيائه، وإماتته ، وجعل بيده وحده إنبات الحرث ، وإنزال الماء الذى منه كل الحياة ، وإخراج الطاقة المحركة ... فإذا قبض أيا من هذه الأمور ، أو بعضها لركدت الحياة على الأرض ، ولانهارت أعظم الحضارات ، وما كان للأعمال كلها أية قيمة أو فائدة:

﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون . ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم﴾

[الواقعة / 57:74]

وقد نلحظ أن الغرب ، بعد أن بلغ قدرا هائلا من الحضارة المادية ، التفت إلى هذه الأمور

التى اعتبرها بالغة الأهمية والخطورة ، وأطلق عليها إجمالا لفظ «البيئة» ، وقدر أن حدوث خلل فى هذه العناصر سوف يؤدى حتما إلى زوال حضارته بمعدل سريع ، لتنتقل هذه الحضارة إلى أمة أخرى ، كما جرت على ذلك سنة الله تعالى .. ﴿ ... **وتلك الأيام نداولها بين الناس ...**﴾ [آل عمران / 140]

لذا ترى الغرب قد سارع إلى عقد مؤتمر قمة دولى لبحث شؤون «البيئة» عام 1993م فى «ريودى جنيرو»، سماه «مؤتمر قمة الأرض» ، وعقد مؤتمرات قمة أخرى لا تقل عنه فى درجة خطورتها ، مثل «مؤتمر السكان والتنمية» ، الذى عقد بالقاهرة عام 1994 م، وغيرها من المؤتمرات ، فضلا عن الحركة الدولية النشطة باستخدام الوسائل الدبلوماسية تارة، ووسائل الضغط الاقتصادى وسلاح الديون تارة أخرى ، بل واستخدام الوسائل العسكرية، والاستخباراتية ، والنشاطات الخفية ، والقذرة ، فى محاولات جادة ودءوبة للتحكم فى النسل، والمياه ، والنشاط الزراعى (كمًا ، وكيفًا ، ونوعًا) ، والثروات الطبيعية الأخرى ، كالغابات وغيرها ، فضلا عن مصادر الطاقة وأخصها البترول (استخراجه ، وتسويقه، وتصنيعه ، وأسعاره).

وسلوك الغرب الصليبى / الصهيونى هذا ليس استبدالا لقدرة الله تعالى على تلكم العناصر (النسل ـ الزرع ـ الماء ـ الطاقة) .. فإن الله جل شأنه هو القادر والقاهر فوق عباده، لكن سلوك الغرب هو بالضبط كسلوك قاطع الطريق الذى يعمد إلى سلب الآخرين ما آتاهم الله تعالى من فضله ، فإن هم دافعوا عن أنفسهم وأموالهم ـ كما أمرهم الله تعالى ـ نجوا ، وخلصت لهم ثرواتهم ، وإن هم فرّطوا ـ كما هو حالنا الآن ـ أثموا ، وضاعت ثرواتهم ، وضاعوا فى الدنيا ، وعلى الله حسابهم فى الآخرة بما قصّروا ، وبما كفروا بأنعم الله عليهم.

وإذا كان العمل بمفهومه الضيق[1] هو أهم الأسباب ، التى على المؤمن أن يأخذ بها لكسب المال ، فإن العمل يعد من هذه الزاوية قيمة اقتصادية ، بل إن الجهد البشري هو الذى يضفى على المال القيمة الاقتصادية ، ويجعل نماءه حلالا . فبالجهد البشرى تعمر الأرض، ويزداد الإنتاج . وبتزايد العاملين تتسع قاعدة توزيع المال ، ويزداد الاستهلاك ، ويزداد

(1) أقصد بالمفهوم الضيق هنا الجهد البشري الذي يراد به كسب العيش ، ككل الأعمال اليدوية ، والخدمية ، والذهنية ... إلخ . ولا يمنع ابتغاء الأجر من العمل أن يكون خالصا لوجه الله تعالى ، لأن الهم في طلب العيش هو اتباع لما أمرنا به الشرع الإسلامى.

الطلب على السلع والخدمات ، فيزداد الطلب على العمل ... وكلما زاد الطلب على السلع وعلى العمل فى آن واحد ، قلت فرص كنز المال وحجبه عن التعامل.

وبوفرة السلع والخدمات وتنوعها ، وزيادة عدد العاملين ، واتساع قاعدة الذين يحصلون على الأجور ، يتزايد العرض والطلب فى آن واحد ، فتنشط حركة التجارة ، التى تعد المحرك الأهم لقطاعات الإنتاج والخدمات ، ويتجنب المجتمع الركود والتضخّم فى آن واحد.

والعمل الصالح بوجه عام ــ ويقصد به: العمل طلبا للكسب ، وغيره ، كالعمل التطوعى، الذى لا يعد الحصول على الربح هدفه الرئيسى ــ يعد هذا العمل قيمة اجتماعية . فما من شىء يحدث التوازن النفسى والرضا لدى الفرد ، وما من شىء يشيع جو التكافل والتعاون فى المجتمع ، أفضل من العمل الصالح النافع ، لمن يقوم به ، ولمجتمعه ، وللبشرية كلها؛ لذا فقد اعتبر الإسلام البطالة وتكفف الناس عيبين خطيرين فى المجتمع.

وقد ضرب رسول الله ﷺ لنا المثل فى ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله ، فقال: «لك فى بيتك شىء؟» قال : بلى، حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقدح نشرب فيه الماء . قال: «ائتنى بهما» قال : فأتاه بهما. فأخذهما رسول الله ﷺ بيده. ثم قال: «من يشترى هذين؟» فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال : «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثا . قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الأنصارى ، وقال: «اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك . واشتر بالآخر قدوما فأتنى به» ، ففعل . فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عودا وقال: «اذهب واحتطب ولا أراك خمسة عشر يوما» ، فأخذ يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم . فقال: «اشتر ببعضها طعاما وببعضها ثوبا» ثم قال: «هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مُدْقع ، أو لذى غُرم مفظع ، أو دم موجع». (رواه ابن ماجه)

وعنه ﷺ أنه قال : «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مُزْعة لحم» (متفق عليه)

وفى هذين الحديثين توجيه إلى عدم جواز التعطل عن العمل ، وأن القضاء على البطالة (العطالة) هى مسئولية مشتركة بين ولى الأمر وطالب العمل نفسه؛ فعلى كل مسلم أن يؤهل نفسه للعمل ، وأن يسعى بحثا عنه ، وأن يقبل ما تيسر منه ، ويُقبل عليه، حتى ولو

كان أدنى من طموحاته .. فمن خلال العمل ـ لا التعطل ـ يحقق الإنسان ما يصبو إليه من رقى اجتماعى ومهنى واقتصادى ، فلا يحقرن المسلم عملا ما ، ولا يتعالَ مفضلا البطالة والانتظار على العمل ، مهما كان العمل بسيطا. ولا غرو، ففضلاً عن الرضا النفسي الذي يشعر به الفرد حينما يأكل من عمل يده، فإن العمل ينظم الوقت، ويمنع عن الإنسان الضجر، وييسر له المزيد من العلاقات الاجتماعية، ويزوده بالخبرات الإضافية، ويشعره بأهميته للمجتمع، وباحترام الناس له، ويقوي عزيمته وتصميمه وقدرته على الاختيار... وهي أمور يحض الإسلام عليها، ويُسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

من جهة ثانية ، فعلى أولى الأمر فى الأمة الإسلامية أن يهيئوا الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة ، وأن يعملوا على إزالة كل المعوقات التى قد تؤثر على دخول ميدان العمل ، والاستمرار فيه ، وتنامى الداخلين إليه ، باعتبار هذا أحد الأهداف الهامة التى توجه السلطة العامة فى الأمة نشاطها لتحقيقه ... بل إن على السلطة العامة أن تكون أكثر إيجابية فتعمل على إيجاد الوظائف وتشجيع الأعمال النافعة.

ومن تهيئة الظروف: الحض على الاستثمار ، ومنع الكنز ، وتشجيع الإنفاق فى سبيل الله، ومحاربة الإسراف ، وضرب الاحتكار ، والامتناع عن التسعير التحكمى ، والحيلولة دون دخول الوسطاء بين المنتج والمستهلك، كي لا يرتفع السعر ، إلا أن يكون للوسيط جهد يضيفه للسلعة أو المنتج : كأن يحفظها من التلف بتغليف ، أو تعليب ، ونحو ذلك ، أو تخزين ضرورى ، بهدف حفظ المنتج من التلف حتى يصل إلى المستهلك ، دون حجبه عنه، أو نقله من أماكن الإنتاج إلى السوق ، أو إلى المستهلك تيسيرا عليه وخفضا من نفقة حصوله على المنتج ... إلخ.

وقد حرم الإسلام كل صور الكسب التى تتم بالانتظار ، ودون مجهود بشرى ، كالربا ، والقمار ، وبيوع الغرر ، والاحتكار، والغش ، وكل كسب للمال بالباطل ، فهو بمثابة قتل للنفس ، التى كلفها الله تعالى بالعمل وإعمار الأرض ، فامتنعت عن ذلك ، وحصلت على المال دون جهد ، بل أكلت جهد الآخرين .. يقول الله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا﴾ [النساء / 29-30]

ومن تهيئة الظروف الاقتصادية ، وفتح أبواب عمل جديدة ، «حضُّ الإسلام على الاتجار فى أموال اليتامى»، في الوقت الذى جعل الزكاة فريضة ملازمة للصلاة ، وركنا ثالثا من أركان الإسلام ، وحض على صور أخرى للإنفاق فى سبيل الله ، لضخ المال فى المجتمع ، فتتسع قاعدة الملكية ، وتتاح الفرص أكثر وأكثر لدخول ميدان العمل.

لكن من صور الحصول على المال التى يمقتها الإسلام ويحرمها: ادعاء العجز ، أو تكفف الناس للحصول على المال بطريقة سهلة غشا ومخادعة .. و«الغش والخديعة فى النار».

ولئن كان الإسلام يحض على إغاثة الملهوف وإعطاء السائل المحروم ، ومعاونة اليتيم ، وإطعام المسكين، ويجعل فى أموال الأغنياء لهؤلاء حقا معلوما ، فإنه لا ينبغى لأحد أن يدعى، غشا وخداعا ، أنه ممن يستحقون الصدقة ، ليأخذ ما لا يستحق ، ويأكل فى بطنه مالا حراما ، ويستحل أموال الناس بالباطل ، ويضيق السبيل على المستحقين الحقيقيين للصدقة.

وكل من يساعد هؤلاء الغاشين المخادعين ، أو يشجعهم ، أو يعطيهم ، وهو عالم بحالهم، يعد مشاركا لهم فى هذا الجرم.

ونحمد الله تعالى أن جعل مساجدنا منظمة الآن تنظيما يسمح لها بتلقى الصدقات، وتسجيل المستحقين لها ممن جاء وصفهم فى كتاب الله تعالى :

﴿ ... لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ...﴾ [البقرة / 273]

ذلك، ولا يعفَى الأغنياء أيضا من واجب العمل والاحتراف ، وأن يأكل الغنى من عمل يده، فلا يجوز له التوقف عن العمل استغناء ، يقول رسول الله ﷺ :

«ما أكل أحدٌ طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» . (رواه البخارى)

ومن هو داود عليه السلام ؟ هو من قال فيه ربه :

- **﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾** [ص / 20]

- **﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوّبى معه والطير وألنّا له الحديد . أن أعمل**

سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير﴾ [سبأ / 10-11]

- **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾** [الأنبياء / 80]

فالعمل طريق لشكر الله تعالى ، لذا يقول جل شأنه:

﴿ ... اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾ [سبأ / 13]

* * * * *

لعل من مقتضيات اهتمام الإسلام بالفرد المسلم ، أن يهتم بإعداده للمهمة التى خلق الله تعالى بنى آدم من أجلها ، وهى إعمار الأرض .. أى للعمل ، الذى هو عبادة بعد العبادة . لذا فإن من أهم عناصر قيمة العمل فى الإسلام «إعداد قوة العمل» ، وإعداد قوة العمل فى الإسلام عبارة عن حلقة مكتملة تتسق وتتكامل مع باقى حلقات المنهاج الإسلامى.

ويمكن التعرف على ثلاث مراحل متداخله ، يؤدى بعضها إلى بعض ، يتم اتباعها لإعداد قوة العمل، وهى: التنشئة والتربية ، والتعليم والتأهيل ، وانتقاء العامل ووضعه فى المكان المناسب.

وتبدأ مرحلة التنشئة والتربية منذ الأشهر الأولى لميلاد الإنسان ، بل ويتم الإعداد لها منذ شهور الحمل ، بل منذ اختيار كلا الزوجين للآخر ، اختيارا يقوم ـ في الإسلام ـ بصفة أساسية على الدين وحسن الخلق ، والسلامة البدنية ، والصحة النفسية ، والتبكير فى الزواج قدر الاستطاعة : حفظا للفرج ، وإرضاء للرب ، وزيادة فى النسل .

وقد تكفل رب العزة بغرس أسس الجو الملائم للتنشئة والتربية ، وأمر باتباع نهج محدد يقوم على إدراك كلا الزوجين أنه راع ومسؤول عن رعيته :

- **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** [الروم / 21]

- **﴿ ... وعاشروهن بالمعروف ... ﴾** [النساء / 19]

- **﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾** [البقرة / 228]

ـ **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...﴾** [النساء / 34]

فإذا ما علم كل من الطرفين مسؤوليته : الرجل يتقرب إلى الله بحسن معاشرة زوجه ، والكرم فى الإنفاق عليها ، واحترامها ، وصيانة كرامتها ، والمرأة تتعبد وتتقى ربها بطاعة زوجها ـ فإن النتيجة الطبيعية أن يسود جو أسرى صحي ، يجد فيه الطفل القدوة الحسنة ، وتتجسد فيه قيم الإسلام ، وينشأ فيه الطفل وقد رضع الحنان وتربى عليه ، ونال قسطا كافيا من الرعاية النفسية والجسمية[1].

والأصل ألا يبدأ التعليم بالتلقين المنظّم للطفل ، إلا عند سن السابعة ، ويؤدب إذا قصّر فى أداء واجباته التعليمية من سن العاشرة ؛ وذلك لأن تعليم الصلاة ، وهى أجل وأعظم ما يتعلمه الإنسان ، تتم قبيل هذه السن ؛ إذ يقول رسول الله ﷺ:

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرّقوا بينهم فى المضاجع» (رواه أبو داود)

بيد أن التعليم من خلال المشاهدة والتقليد يبدأ عادة من سن مبكرة جدا ، لذا لا يجب ألا يقع بصر الطفل إلا على كل ما هو حميد ، وأن تقدّم له اللعب النافعة التى تنمى فيه حب العلم والعمل والمهارات الحرفية ... ويجب أن يُحجب عنه الفاسد من الأمور ما أمكن ، فإن لم يكن هناك بد من مشاهدتها ـ فى الشارع أو فى التلفاز وغيرها ـ فيجب أن يقوم الوالدان بنقد مـ وقع عليه بصر الطفل ، وتصحيحه ، مع بيان أن من طبيعة الحياة أن يكون فيها الصالح والطالح ، الخير والشر ، الطيب والخبيث .. وأن هذا كله من صنع الله تعالى ، الذى أوضح للإنسان الطريقين ، وأعطاه حق الاختيار ؛ كى يحاسبه على ما اكتسب:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر / 38]

---

(1) يلتزم الوالدان بتوفير الرضاعة الطبيعية للمولود حولين كاملين ، حتى فى حالة انفصالهما بالطلاق ، فإن لم تقم الأم بذلك وجب على الأب توفير من ترضع ابنه بأجر ، يقول الله تعالى : **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾** [البقرة / 233].

وتتضمن عملية التعليم إكساب المعلومات النظرية والعملية النافعة والمناسبة لإعمار الأرض ، وفهم الظواهر الكونية ، وعلاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبالمجتمع ، وبالكون كله، مع مراعاة حفز الصبى على استخدام عقله فى التفكير والنقد والاستنباط والمقارنة والابتكار.. إذن فالتعليم الصحيح تلقين وتفكير ، حفظ واستنباط فى آن واحد.

ويجب أن تكسو قيم الإسلام ما يتم عرضه على المتعلمين من معلومات، وأن يختلطا (القيم والمعلومات) اختلاطا لا يقبل التجزئة، ولا يدع مجالا للأفكار والمفاهيم الفاسدة التى يحرمها الإسلام ، أن تنفذ إلى وجدانات التلاميذ ، بل يجب المبادرة إلى نقدها وتفنيدها عند الاضطرار إلى تناولها بالدرس والمعرفة.

كما يجب تحويل قيم الإسلام إلى منهاج للسلوك العملى اليومى ، يحافظ عليه المتعلمون حتى بعد انتهائهم من مرحلة التعليم.

وتعد مرحلة التعليم منذ بدايتها هى المرحلة المناسبة لتنمية المهارات العملية ، والتأهيل لممارسة المهنة ، أو الحرفة ، أو العمل الذى يميل إليه الصبى. كما أنها تعد المرحلة الحاسمة فى بناء الأجسام بناء صحيحا ، ولتشكيل الشخصية السوية ، وغرس الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، وتعويد التلاميذ على المهارات الإدارية واتخاذ القرارات.

ولما كانت مجتمعات المسلمين تعيش الآن فى ظل نظم تعليمية «علمانية» ، لا تضع فى اعتبارها الحفاظ على الهوية الإسلامية ، أو إعلاء شأن قيم الإسلام ، وهي نظم صاغها لنا أعداء الأمة ، وصمموا مناهجها ، بل وأشرفوا إشرافا مباشرا على إعداد الكتب التى تدرس لأبنائنا ، فتشوه عقولهم ، وتزرع فيهم روح الخذلان ، وتنزع منهم روح الجهاد فى سبيل الله ، وتعمل على تحويلهم إلى صور مشوهة ممسوخة من البشر ـ فإن عبء مواجهة هذه الكارثة ، ومحاصرتها ، إلى أن يشاء الله تعالى فيرفع عنا هذه الغمة ، يقع على كاهل علماء هذه الأمة ، وقليل ما هم الآن ، وعلى المساجد ، التى ينبغى أن تظل أبوابها مفتوحة فلا تغلق عقب كل صلاة ، وعلى أولياء الأمور فى كل المستويات ، الذين ينبغى عليهم أن يجتهدوا فى تأهيل أنفسهم ـ قدر الاستطاعة ـ للقيام بهذه المهمة.

إن مثل هذه السلبيات والتشوهات الحالية ـ نظرا لخطورتها وصعوبة مواجهتها ـ قد أدت إلى خلق أجيال متعاقبة لا تصلح أن يطلق عليها أنها قوة عمل إسلامية، ولا يرجى من ورائها إعمار الأرض ، ولا نهضة الأمة.

فإذا ما أضفنا إلـى ذلك التوجهات السلبية بـالغة السوء للوسائل الإعلاميـة الفاسدة ، التى أصبحـت تقتحم عـلى المسلمـين بيوتهم، واعـتياد الناس عـلى المنكر ونـبذهم للمـعروف فى معظم مـعاملاتهم : فى الشـوارع ، والأسواق ، والإدارات الحكومية ، والمؤسـسات الخاصة والعامـة، وانتشار تـعاطى وإدمان المخدرات بين كثـير من شبـاب المدن ، فتفـقدهم الإرادة ، والعزيمة ، والنخـوة، والحمية ، والطموح ، والمبادأة ـ لأدركنا أن إعداد قوة الـعمل فى أمتنا الإسلاميـة يحتاج وقفـة حاسمة ،و تغـييرا شاملا ، عـسى الله أن يمـن علينا فـيغير ما بـنا من تدهور مستمر، وتدنٍ متزايد.

إن إعداد الوعاء البـشرى لقوة العمل يتطـلب منا أن نستبين الـشريحة العمرية التـى ينتقى منها العاملون ، وحدود انضمام النساء ، وغير المسلمين ، من الأجانب على وجه الخصوص، إلى المراكز القيـادية المختلفة ، خاصة ذات الحساسيـة ، أو التى يتعلق أداء العمل فـيها بالحفاظ على العقيدة.

وتعتبر سن الـتكليف الشرعى هي نفـسها سن الزواج ، وهي سن الجهاد فى سـبيل الله ، وسن انتهاء مرحلة الـيُتْم وبدء مرحلة التصرف فى المال، والسن التى تطـبق فيها الحدود على من يقترف ما يستوجبها .. وهي نفسها سن الدخول إلى ميدان العمل.

وتقع هذه السن ما بيـن الاحتلام والخامسة عشرة ، شريطة أن يخضع الـصبى للاختبار ، فنجده فتى راشدا ، غيـر مجنون ولا سفيه ، ولا عاجز عـجزا كليا .. فإن كـان غير ذلك فلا عبرة بالسن حتى نتأكد من بلوغ الرشد:

ـ ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين**﴾ [الأنبياء / 51]

ـ ﴿**قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم**﴾ [الأنبياء / 60]

ـ ﴿**ولا تؤتوا الـسـفهاء أموالكم التـى جعل الله لكم قـياما وارزقوهم فيهـا واكسوهم وقـولوا لهم قولا مـعروفا . وابتلوا الـيتامى حتى إذا بلـغوا النكاح فإن آنستم منـهم رشدا فادفعوا إلـيهم أموالهم ولا تـأكلوها إسرافا وبـدارا أن يكبروا ومن كان غـنيا فليسـتعفف ومن كان فقيـرا فليأكل بالمعروف فـإذا دفعتم إليهم أموالهـم فأشهدوا عليهم وكـفى بالله حسيبا**﴾ [النساء / 5-6]

ـ قال رسول الله ﷺ ، فى ما روته أم المؤمنين عائشة ، وغيرها من الصحابة رضوان الله

عليهم:

«رفع القلم عن ثلاثة: الصبى حتى يحتلم أو يستكمل خمس عشرة سنة، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق».

ـ وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال:

«عُرِضتُ على النبى ص يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزنى ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى».

وعلى هذا فإنه يتم إعداد العاملين فى مؤسسات التعليم ـ كما ذكرنا من قبل ـ إلى غير ما حدود ، طالما أن الفتى أو الشاب ناجح فى تعليمه ... فالعلم مُقدَّم على العمل إذا تعارضا ، أو لم يمكن الجمع بينهما . ويستحق المتعلم الناجح أن ينفق عليه ولىٌّ أمره ، أو يُنفَق عليه من بيت مال المسلمين ... أما من يتخلف عن التعليم ، أو يتوقف عنه لعجزه ، فيدفع به لتعلم الصنائع والحرف ، حسب ميوله واستعداده . ويمكن أن يتم ذلك ابتداء من سن العاشرة ، فإذا ما بلغ الحلم أو الخامسة عشرة كان مؤهلا لدخول ميدان العمل ، ولا ينبغى أن يتأخر عن هذه السن إلا لعجز جسمانى ، أو عقلى ، أو لانشغال فى التعليم.

ولما كان العمل عبادة بعد العبادة ، فالتكليف به لا يتوقف إلا بالموت ، أو فقدان العقل ، أو العجز البدنى مع عدم القدرة على التحول إلى عمل آخر ، يناسب ظروفه الصحية والبدنية ـ فلا توجد سن محددة تسمى بسن التقاعد ، أو المعاش ، إذ يختلف الناس فى هذا اختلافا بينا.

وهناك أمر شُغِلت المجتمعات الإسلامية به منذ قرابة قرن من الزمان ، وكثر فيه الكلام ، رغم أن حكم الشرع فيه واضح منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، هذا هو موضوع عمل المرأة خارج بيتها.

إن النساء شقائق الرجال ، وتُشكلن أكثر من نصف المجتمع ـ عادة ـ من الناحية العددية، وهن مكلفات بالعمل الصالح مع الإيمان:

ـ **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** [النحل / 97]

وإذا كان إعمار الأرض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة هو عين العمل الصالح، فإنه من

غير المنطقى أن يقول أحد بمنع المرأة من العمل ؛ فالأصل أنهاعاملة كالرجال ، إلا إذا كان من شأن العمل أن يمس كرامتها ، أو كان يتعارض مع طبيعة جسم المرأة(1)، أو أدى إلى تقصيرها فى واجباتها ، التى خلقها الله تعالى من أجلها، أو كان عملها ماسا بسنة الله الخالدة التى جاءت فى قوله جل شأنه:

- ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...﴾ [النساء / 34]

- ﴿ ... وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ [البقرة / 228]

والحقيقة ـ كما أراها ـ أنه لا يوجد تشابه ، ولا صراع بين المرأة والرجل ، لا فى البيت، ولا فى مجال العمل . وإذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة فى إطار الأسرة قد صاغها رب العزة وحيًا من عنده ، واستقرت أحكامها فى أمور الزواج ، والطلاق ، ورعاية الأبناء ، والنفقة، والمواريث ، وأصبحت الواجبات والحقوق ومنهاج الحياة فى الأسرة المسلمة بمثابة حجر الزاوية فى تنظيم المجتمع المسلم منذ اكتمل هذا الدين ، وتمت النعمة ، ورضى الله الإسلام للناس دينا ـ فإن ما يعد حقوقا للمرأة وواجبات عليها ،خاصة خارج البيت ، لا ينبغى بحال من الأحوال أن يتناقض مع ما جعله الله لنا شرعة ومنهاجا.

ومن ثم فإن رعاية المجتمع المسلم للبنت ليست أقل من رعايته للولد ، فهى تنال القسط المناسب لقدراتها من التعليم والتأهيل والتدريب ، بلا حدود ، وتنمى ملكاتها ومهاراتها . ويضاف إلى هذا ضرورة تأهيلها التأهيل الذى يجعلها قادرة على رعاية بيتها ، والتعامل مع زوجها وأبنائها ... فهى راعية فى بيت زوجها ، وهى مسؤولة عن رعيتها ... وهذا هو المجال الأولى بقيامها بالعمل فيه.

وإذا ما أتينا إلى الحكم الشرعى في عمل المرأة خارج بيتها ، لوجدناه فى الأصل مباحا ، وأحيانا يكون مندوبا إليه ، وأحيانا أخرى نجده فرضا على الكفاية ، وفى حالات بعينها نجده

---

(1) تطالعنا نتائج الأبحاث الطبية كل يوم بالجديد عن الاختلافات في التكوين الجسمي والنفسي بين الرجل والمرأة ، وفي أداء الكثير من أعضاء الجسم لوظائفها ، وفي طبيعة الأمراض التى يتعرض لها كل من الجنسين في مراحل العمر المختلفة ... ففضلا عن الحيض ، والحمل ، والإرضاع ، وما يصاحبها من آثار ، فهناك اختلاف ثبت وجوده في تكوين وأداء المخ عند كل منهما ، كما أن نسبة إصابة عظام المرأة بالوهن تصل إلى 80 ٪ عند النساء ، بينما تصل ٢٠ ٪ عند الرجال . ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ ..

محرّما:

ـ فيندب عمل المرأة التى لا عائل لها ، خاصة إذا كانت ممن لا يرجون النكاح ، أو الأرملة التى لا عائل لها، أو المطلقة التى لا ولد لها ولا عائل لها ، شريطة ألا تخالف دين الله، ولا تتعدى حدوده .

ـ ويكون عمل المرأة فرض كفاية فى مجالات بعينها ، مثل تطبيب وتمريض النساء ، وتعليم البنات ، والإشراف الاجتماعى عليهن فى المدارس والجامعات وأماكن تجمعهن على اختلافها ، ومراقبة وتفتيش النساء والقبض عليهن ، وحياكة ملابس النساء وبيعها .. وما إلى ذلك ؛ لأنه إذا أوكلت مثل هذه الوظائف للرجال لنتج عن ذلك حرج.

ـ ويحرم على المرأة ، ويأثم المجتمع أيضا ، إذا تولت رئاسة الدولة أو القضاء أو قيادة الجيش ، أو رئاسة الشرطة .. لكن مشاركتها فى أعمال مساعدة لهذه الوظائف لا تحرم.

ـ ويكره توليها مناصب «اتخاذ القرار» ، فى ما دون ذلك ، إلا لضرورة .. لكن مساهمتها فى «صنع القرار» غير مكروهة ، بل فى بعض الأحيان يكون مندوبا إليها .. وإذا كان القرار يتعلق بتنظيم مركز المرأة ، فلا ينبغى أن يصنع فى غياب نسوة على علم وكفاءة وأمانة ، تشاركن فى شورى صنع القرار[1].

ـ ويكون عمل النساء مباحا فى ما وراء ذلك ، كأن تدير المرأة أعمالها التجارية أو الزراعية أو الصناعية ، أو أن تشتغل بالكتابة ، أو الأدب ، أو بالعلم والفكر ، أو بالإفتاء ، إذا بلغت هذه الدرجة من العلم. ولا تمنع المرأة من ممارسة الأنشطة ذات الطبيعة الاجتماعية النسوية ، تطوعية كانت أو بأجر ...

ويشترط فى كل ما ذكر ألا يؤدى العمل إلى المساس بكرامة المرأة ، وألا يكون فيه ابتذال أو تبرج ، أو اختلاط غير مشروع بالرجال ، أو تشبه بهم ، وألا يؤدى عمل المرأة إلى تقصير فى مهمتها الاجتماعية الأساسية ، وهى رعاية بيتها ، وطاعة زوجها ، وتربية أولادها.

لقد أدت دعاوى «حقوق المرأة» ، والعبث بمركزها فى الأسرة وفى المجتمع ، اتباعا للهوى، فى أوروبا وأمريكا ، وفى البلدان الأخرى التى نهجت نهجها واتبعت سبيلها ـ أدت إلى تدهور دور الرجل فى المجتمع وفى الأسرة ، وإلى حجية أول واجب الرئاسة،

---

(1) يرجع إلى قيمة «الشورى» للتفريق بين «صنع القرار» و«اتخاذ القرار» .

ودرجة القوامة ، وهما سنة من سنن الله تعالى ، تنضبط بهما علاقة الرجل بالمرأة ، وأصبحت هناك أزمة حقيقية هى بمثابة إرهاصات انهيار حضارى فى أوروبا وأمريكا بسبب فقدان الرجل لأهميته ، ولهيبته ، ولعمله فى كثير من الأحيان ، بسبب الإفراط فى تشغيل النساء[1].

إن من الأفكار الفاسدة ، التى ستؤدى حتما إلى التدهور الاجتماعى ، دعوى «التمكين للمرأة» ، التى تبنتها مؤتمرات قمة الأمم المتحدة ، خاصة مؤتمر «السكان والتنمية» الذى عقد بالقاهرة فى أبريل 1994 م ، ومؤتمر «المرأة» الذى عقد فى بكين فى سبتمبر 1995 م ، فهى دعوى لاستبدال النساء بالرجال فى مراكز صنع واتخاذ القرار .. والسؤال الذى يطرح نفسه:

إذا تمكن دعاة النظام العالمى الجديد من تمكين المرأة ، ودفعها لتحتل مساحة أكبر فى المجال الذى عرفت البشرية ــ منذ أن برأها الله تعالى ــ أنه مجال مسئولية الرجل ، فمن ذا الذى يستطيع أن يدفع بالرجل لملء الفراغ الذى سوف تتركه المرأة فى مجالها؟ أى من ذا الذى يستطيع أن يجعل الرجل يحمل ويلد، ويرضع الصغار ، ويرعى البيت؟ إن عدم قيام الرجل والمرأة ، كليهما بهذه الأمور يعنى تهديد الجنس البشرى بالفناء وفساد الأرض!

إنها محاولات لتبديل سنة الله ... ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .. فهو سبحانه الذى خلق الذكر والأنثى ، وجعل لكل منهما وظيفة ، لا ينبغى ، ولا يستطيع الآخر القيام بها ، فإن حاول فسدت الحياة!

قال رسول الله ﷺ :

ــ «إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها . وإذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأمركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» (رواه الترمذى)

ــ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» (رواه البخارى)

---

(1) صرحت تريتو هوتو ، وزيرة الشؤون الاجتماعية الفنلندية ، التى ترأست مؤتمرا لاثنتين وأربعين دولة أوروبية فى هلسنكى اعتبارا من يوم 26 يونيو 1995 م لتدعيم مركز الرجل فى أوروبا ــ صرحت بأن الكثيرين من الرجال هناك يتجهون إلى تعاطى الخمور والمخدرات ، وتدفعهم ظروفهم إلى الطلاق وارتكاب الجرائم والإقدام على الانتحار ، بسبب هامشية دورهم ، مما أصابهم باكتئاب نفسى.

وتعد عملية انتقاء العاملين لإلحاقهم بالوظائف والأعمال المختلفة ذات أهمية بالغة ، فسوء الاختيار يقدح فى العدل ، ويولد السخط فى المجتمع ، ويجعل إتقان العمل ـ وهو قيمة فى ذاته ـ غير ممكن ؛ لذا أكد الإسلام على أهمية انتقاء العاملين وتصنيفهم، وتقديم الأفضل. ويحرم تقديم المرجوح، مع العلم بذلك . ولتيسير الأمر علينا ضرب الله تعالى لنا المثل بنبيين كريمين من أنبيائه ليستبين لنا معيار الاختيار ، فأما النبى الأول فقد تم اختياره ليكون وزيرا ، وأما الثانى فقد اختير ليكون أجيرا.

فبعد أن ظهرت كفاءة يوسف عليه السلام وعلمه وأمانته ، أراد ملك مصر أن يجعله من أهل شوراه ومن خاصته ، فاستدعاه وكلّمه ليستيقن من حسن اختياره ، ثم أعلن قرار الاختيار مشفوعا بالمعيار الذى بنى عليه ذلك الاختيار ، وهو «الأمانة» ، فأكمل له يوسف عليه السلام باقى عناصر المعيار ، فضلا عن الأمانة ، وهى «العلم» و«الكفاءة» . يقول الله جل شأنه:

﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانو يتقون﴾. [يوسف / 57:54]

وقد اختير موسى عليه السلام للعمل كأجير بنفس المعيار ، مع اختلاف فى الدرجة لاختلاف طبيعة العمل ودرجة خطورته . قال الله تعالى :

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممتَ عشرا فمن عندك...﴾ [القصص / 26-27]

وحتى لا تبدو لنا عناصر معيار الاختيار مطاطة فإن المقصود بكل منها ما يلى:

ـ فأما العلم ؛ فيقصد به معرفة المعلومات الخاصة بالمهنة ، أو الخدمة ، أو العمل ، أو التجارة التى سيقوم بها العامل ، بدرجة تسمح له بالإتقان ، وتمنع استحالته إلى إفساد وإضرار بدلا من الإصلاح .. وأن يكون عالما بأحكام الشرع المتعلقة بما سيقوم به ، حتى لا يقع فى الحرام من حيث لا يدرى.

وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يطوف بالسوق ، ويضرب بعض التجار بالدرة قائلا : «لا يبيع فى سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أو أبى».

ـ وأما الكفاءة المطلوبة فى العمل فتختلف بحسب كونه عقليا ، أو جسميا ، أو مختلطا، وبحسب الملكات والمهارات اللازمة لأدائه ، بالطريقة التى تجعله عملا صالحا نافعا.

ـ وأما الأمانة ؛ فهى صفة جامعة تتضمن الصدق فى القول ، ومطابقة القول للعمل، وحفظ الودائع ، والمسارعة إلى أدائها إلى أهلها ، والابتعاد عن الغش والخديعة ، أو قبول الرشوة ، أو الغلول ، أو قول الزور ... إلخ . ومن الأمانة أن ينسب الفضل لأصحابه ، وأن يوسد الأمر لأهله:

ـ «بينما كان النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع . حتى إذا قضى حديثه قال : أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله . قال: «إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال : إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (رواه البخارى)

ـ وقال رسول الله ﷺ :

«من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

أو كما قال : «من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله»

(رواه الحاكم).

ذلك ، وتعد الترقية إلى المناصب الأرفع في مجال العمل ، أو النقل إلى أماكن أخرى في نفس الوظيفة ، أو إلى عمل آخر بمثابة اختيار جديد لعمل جديد ، فتراعى فيه نفس الشروط ، ويطبق نفس المعيار.

إن الأصل في الإسلام هو تحرير إرادة الإنسان مع تهيئة مكنة الاختيار له:

ـ ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلايضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه / 123-124]

ـ ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد / 10]

ـ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...﴾ [الكهف / 29]

والحال في مجال العمل لا يتغير ، فالعمل في الإسلام رضائى تعاقدي ، تُحترم فيه إرادة الطرفين إلى أبعد الحدود . ويعد الوفاء بالعقد فريضة:

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ...﴾ [المائدة / 1]

ـ ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾ [الإسراء / 34]

لكن حرية الإرادة في العقود ليست مطلقة ، فالقضاء يتدخل في العقود ، فإذا كان فيها غبن لأحد الطرفين رفعه ، وأعاد التوازن بينهما . ويبطل العقد إذا كان محله محرما كعقود الربا ، أوالقمار ، أو تصنيع وبيع الخمور، أو عقود البغاء ... إلخ. أما الشروط فهي معتبرة ، فالمسلمون عند شروطهم ، إلا شرطا أحل حراما، أو حرم حلالا ، فإنه يبطل الشرط(1) ويصح العقد وينفذ ...

ولعل من صور العقود التي عرض لها القرآن الكريم ، موضحا هذه الأمور ما جاء في قول الله تعالى :

ـ **﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بين وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل . فلما قضى موسي الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا...﴾** [القصص / 29:27]

فالعقود تنتهى إلى مدتها ، وما ليس له مدة ينتهى بالتراضي ، أو قضاءً إذا أخل أحد الطرفين بالتزاماته. وكإجراء وقائى يستهدف منع النزاع والشحناء بين أطراف علاقة العمل ، ضمانا للسلام الاجتماعي فإن الأصل في كل العقود الكتابة والإشهاد ، وهما أمران تناولتهما تفصيلا أطول آيات القرآن الكريم [البقرة / 282] ، والتي تليها:

ـ **﴿ ... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ...﴾.**

---

(1) كأن يشترط على عامل تقديم الخمر أثناء أدائه لعمله أو وظيفته ، أو أن يشترط على عاملة عدم الزواج ، أو التبرج ، أو عدم الإنجاب... إلخ.

ـ ﴿ ... إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها...﴾.

ـ ... فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ...﴾.

ـ ﴿ .. ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ...﴾.

ـ ﴿ ... ولا يضار كاتب ولا شهيد ...﴾.

ـ ﴿ ... ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾

[البقرة / 283]

وعنصرا الإنتاج في الإسلام هما العمل ورأس المال ، والجهد البشرى في الإسلام هو صاحب القيمة الأكبر، دون إغفال لدور رأس المال في العملية الإنتاجية:

ـ ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾

[الكهف / 97:94]

وعندما يأمرنا الله تعالى بالجهاد في سبيله فإنه يقدم الأقل قيمة على الأكثر قيمة:

ـ ﴿ ... وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ...﴾ [الصف / 11]

أما إذا كنا بصدد عقد مع الله تعالى فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ، ويقدم الأكثر قيمة على الأقل قيمة :

ـ ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ...﴾ [التوبة / 111]

فقدم الله تعالى ، في الحالة الثانية ، الجهد البشرى الذي يبلغ منتهاه بأن يُقتل المؤمن في سبيل الله ـ على المال ، مهما كثر.

وكنتيجة منطقية لرضائية العقد ، وللقيمة العالية للجهد البشري فإن الأجر يحتل مكانة لها قدسيتها كمقابل للعمل، حتى إذا كان التعاقد بين الله تعالى والعباد[1] . ففي عقد العمل

(1) يقول الله تعالى : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل / 97].

يحدد نوع العمل وطبيعته ومدته ، إذا كان مما تعتبر فيه المدة ، ويُعْلَم العامل بأجره ، ويوفّى له فور أدائه ، في المكان والزمان المناسبين حتى لا يتكلف جهدا أو مالا زائدين للحصول على أجره ... قال رسول الله ﷺ :

«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه» (رواه ابن ماجه)

ـ روى النسائي أن رسول الله ص نهى عن استئجار الأجير حتى يتبين له أجره ، وقال: «من استأجر أجيرا فليعلمه أجره».

ولا يجوز بخس العامل أجره ، حتى لو رضي العامل بذلك ؛ لعموم قول الله تعالى:

﴿ ... ولا تبخسوا الناس أشياءهم ...﴾ [هود / 85]

والمعتبر في أدنى الأجور في المجتمع الإسلامي هو حد الكفاية (لا حد الكفاف) ، وحد الكفاية يختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف الاجتماعية ، لكن عناصره : الطعام، والشراب ، والملبس ، والمسكن ، والزواج ، والدابة والخادم لمن كان محتاجا إليهما. قال ﷺ:

«من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ،أو ليس له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة» (رواه أحمد)

ذلك ، ولا يكون الأجر ثابتا ، بل يزداد بزيادة أعباء الحياة[1] (كزواج العامل الأعزب ، أو إنجاب من ليس له ولد) ، كذا يزداد الأجر بزيادة أعباء الوظيفة أو المنصب ، فإذا كُلّف العامل بأكثر مما اتفق عليه ، أو رقي إلى منصب أعلى ، وجبت إعانته بمرءوسين له ، أو بأجر إضافي ، أو بكليهما ... قال رسول الله ﷺ :

« ... ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم» (رواه البخارى ومسلم)

فإذا كان الأجير مشتركا ، أي يؤدى خدمة أو عملا لأكثر من شخص ، أو لأكثر من جهة، أو كان العمل الذي يقوم به زهيد الأجر ، رغم بذله طاقته في العمل ، ولم يحصل على حد الكفاية في أى من هذه الحالات ، كان على بيت مال المسلمين أن يستكمل له حد الكفاية، باعتباره فقيرا ، فيكون ممن يستحقون الصدقة، وذلك إذا لم يكن له قريب غنيّ تجب عليه نفقته شرعا.

ذلك وتعد المماطلة في دفع الأجر من الكبائر ، قال رسول الله ﷺ :

«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطي بي ثم غدر ، ورجل باع حُرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره». (رواه البخارى)

---

(1) كان رسول الله ﷺ يعطى الآهل حظين ويعطي العزب حظا واحدا . (رواه البخارى)

ورغم هذه القدسية والضمانات التى أحيط بها أجر العامل وحقوقه ، فإن المبدأ العام فى الإسلام أن يقدم الواجب على الحق ، وأن يكون الغرم بالغنم، والسلطة بالمسئولية ؛ فكل عامل ـ مهما كان موقعه ـ مسئول ، فالكل راع ، وكل راع مسئول عن رعيته ، وعلى كل راع أن ينجز التزامه قبل أن يطالب بأداء حقه.

ولما كان الأصل فى الإسلام هو المسئولية الفردية ، والمسئولية الجماعية ، فى آن واحد ، وفى توازن دقيق ، فإن العمل إعمارا للأرض يقوم به المشروع الفردى ، أو بالتعاون بين الأشخاص (المشروع التعاونى) ، أو بالمشروع العام ، الذى تديره السلطة العامة مباشرة ، بواسطة عمالها ، أو بطريق غير مباشر ، من خلال تكليف القطاع الخاص بالعمل لحسابها، فى حين تراقب جهة الإدارة الأداء وكفاءته . ولا تتولى السلطة العامة الإدارة المباشرة إلا فى الأعمال التى يحجم عنها الأفراد والمشروعات الخاصة ، لضخامتها ، أو لأنها لا تدر ربحا.

مع ذلك فإن الدولة لا تقف من النشاط الاقتصادى ، أو النشاط الاجتماعى ، (وهما مجالا العمل الصالح) موقفا محايدا ، فدورها هو دور المراقب ، الحامى لحدود الله ، فتتدخل لمنع النشاط المحرم ، ولرفع الخلل ، الذى قد يطرأ على العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية ، نتيجة لممارسة الأعمال.

وعلى حين تتدخل سلطة الدولة ـــ وقائيا ـ للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما تتدخل ـ عقابيا ـــ فى حالات وقوع ما يحرمه الشرع ، فإنها تمتنع عن التدخل ، بل وتمنع كل تدخل مصطنع فى الأسعار، أو فى انسياب السلع من مصادر إنتاجها إلى المستهلك ، وتحول دون ظهور أدوار طفيلية ، لا تضيف جهدا بشريا منتجا يُيسر للمستهلك النهائى الحصول على السلعة.

وقد حرم الإسلام الغش ، وتطفيف الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، وبيوع الغرر ، والمنافسة غير المنضبطة بضوابط الشرع ، والاحتكار ، والتدخل فى الأسعار (بحجب المنتج أو البائع عن المستهلك ، وهو ما يعرف فى السنة النبوية الشريفة بتلقّى الركبان ، وبيع الحاضر للبادى) ، والنجش ، كما حرم التسعير التحكمي للسلع، أو الخدمات ، أو الأجور ، فإنما السِّعر إلى الله ، هو الباسط ، الرازق ، القابض ، المُسعِّر ... وقوى العرض والطلب فى السوق هى من سنن الله تعالى التى يحرم التدخل فيها.

وقد شدد الإسلام على تحريم كل نشاط ربوى ؛ لأنه يؤدى إلى حجب التزاوج بين

الجهد البشرى والمال، فلا يتم فيها توظيف المال لإعمار الأرض ، وإنما يتم فيها تحويل النقود من «معيار للقيمة» إلى «مخزن للقيمة» ، (كما هو شأنها فى الاقتصاد الرأسمالى).

كما أن الدورة الربوية المغلقة تحدث تضاعفا وهميا فى كمية النقود[1] فى ما يعرف «بخلق النقود»، الأمر الذى تنتج عنه ظاهرتا التضخم والكساد ، فضلا عن إسهام الربا فى زيادة البطالة وحدوث خلل اجتماعى واقتصادى:

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

[البقرة / 278:281]

وقد حسم التشريع السماوى أمر حُرمة الربا منذ البداية ، لكن اليهود حرفوا ما أُنزل الله تعالى فى التوراة ـ إفسادا فى الأرض ـ وأجازوا التعامل بالربا مع غير اليهود :

«للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك ...»

(تثنية: 20/23)

وعلة تحريم الربا ليس لأنه استغلال حاجة المحتاج ، كما يقول البعض ، لأن هذه ليست علة منضبطة ، إنما علة التحريم هى أن كل عملية ربوية يقابلها إيقاف لجهد بشرى كان من شأنه الإسهام فى إعمار الأرض ، لذا جاءت المقابلة القرآنية بين الربا والبيع:

ـ ﴿ ... ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ... ﴾ [البقرة / 275]

وقولهم هذا غير صحيح ، فالربا زيادة فى المال بالانتظار ، فهو أكل لأموال الناس بالباطل، أما البيع ـ بمعنى التجارة ـ فهو محرك كل الأعمال الاقتصادية من صناعة أو زراعة

---

(1) يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة ويحذر منها ، ويتوعد من يُسهمون فيها بأشد العذاب ، حتى ولو كانوا من المؤمنين: **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾** .. فأخذ الربا يُخرج المؤمن من زُمر المؤمنين ويدفع به إلى زُمر الكافرين فيستحق أن يحشر معهم في النار.

أو غيرهما ، ومن ثم فهو إسهام فى إعمار الأرض، من خلال التزاوج بين الجهد البشرى والمال. لذا كان رد القرآن الكريم:

﴿... وأحل الله البيع وحرم الربا ...﴾ [البقرة / 275]

فتحريم الربا يمنع الزيادة الوهمية التى تأتى بالانتظار ، ويدفع الناس إلى بذل الجهد وإعمار الأرض. وما الزيادة الوهمية فى المال إلا إنقاص حقيقى للمال يتحمله المقترض ، أو ينقله بدوره إلى شخص ثالث.

وآخذ الربا محارب لله ورسوله، مفسد فى الأرض ، فإذا نُهى عنه ثم عاد فحكمه حكم المرتد ، وإذا توافق أهل قرية على أخذ الربا وجب قتالهم ، لأنهم محاربون:

- **﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾** [البقرة / 279]

وقد بنى الاقتصاد الرأسمالى capitalism كله ، على أساس «سعر الفائدة» ، أى «الربا». فسعر الفائدة يعد بمثابة حجر الزاوية فى كل معاملات البنوك التجارية ، والبيع الآجل (**بالقسط**) ومقابل التأخير فى السداد ، والسندات ، وأذونات الخزانة ، وخصم الأوراق المالية ... إلخ ، وكلها ليست سوى عمليات ربوية محرمة تحريما قاطعا فى كل الشرائع السماوية ... وهى السبب الرئيس فى كل ما أصاب ويصيب الاقتصاد العالمى بالخلل ، ويضعه على حافة الانهيار(1) ، خاصة بعد تفاقم مشكلة الإقراض الربوى؛ التى تديرها الدول الصناعية الكبرى ، ومنظمات الأمم المتحدة المانحة للمعونة ، والتى انتقلت مؤخرا إلى مرحلة أخطر مما بلغته فى العقود الأربعة التى تلت الحرب العالمية الثانية.

ففي هذه المرحلة الجديدة يتم إقراض القطاع الخاص والأفراد من خلال ما يسمى «بالصندوق الاجتماعى»، الأمر الذى يسمح لسادة النظام العالمى الجديد (الصهيونية العالمية) بالتحكم فى النشاط البشرى فى بلادنا وتوجيهه ، والتحكم فى البيئة بعناصرها ، بما فى ذلك محاولة التحكم فى المواليد، بفرض سياسات سكانية تتضمن تحديد النسل والإجهاض،

---

(1) راجع : د. حسين مؤنس ، الربا وخراب الدنيا ، الزهراء للإعلام العربي ، ط 1 ، 1406هـ - 1986 م.

_ USURY The lender,s Long Lament, The Economist, 25 Dec. 1993 -- 7 Jan - 1994.

_ F. Ch. , Toutes les banques en danger, Le Monde Diplomatique, Mai 1995.

والعبث فى الخصوبة مقابل الإقراض ، أو إسقاط جزء من الديون الربوية ... وفى هذا ما فيه من إضعاف للثروة البشرية (قوة العمل)، فتقل بذلك القدرة على إعمار الأرض (أو ما يسمى بالتنمية الشاملة) ، وتزداد الأمة ضعفا وتخلفا على ضعفها وتخلفها.

من أجل هذا فإنه لا يمكن نسبه النظام الاقتصادى الإسلامى للرأسمالية ، بمظنة أن النظامين يرعيان المشروع الفردى ، ويشجعان الحافز الفردى فى مجال الأعمال ، فالنظام الرأسمالى هو نظام ربوى ، ويقر الاحتكار والمنافسة التى لا حدود لها Cut Throat Competition ، وهذه أمور محرمة فى الإسلام ، فلا وجه على الإطلاق للقول بوجود توافق أو تشابه بين النظام الاقتصادى الإسلام والنظام الاقتصادى الرأسمالى ، الذى يفرضه «النظام العالمى الجديد» تحت مسمى «الإصلاح الاقتصادى».

وكما يشدد الإسلام على تحريم الربا ؛ لأنه يحجب المال عن إعمار الأرض ، فإنه يحرم كنز المال لنفس العلة ، فيقول الله تعالى :

ـ ﴿ ... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [التوبة / 35]

ولنفس العلة أيضا يحرم الإسلام الإسراف والبذخ ، ولا يجعل من الرفاهية والترف هدفا للنشاط السياسى والاقتصادى ، مخالفا بذلك النظم الليبرالية الغربية . والإسلام فى هذا لا يحرم ماأخرج الله تعالى للناس من زينة ورزق طيب ، بل يعترف بالغرائز البشرية ولا يكبتها، بيد أنه يهذبها ويقيم لها التوازن الذى لا تصلح الحياة إلا به ، فيقول الله تعالى:

ـ ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ [الأعراف / 32]

ـ ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتّروا وكان بين ذلك قواما﴾ [الفرقان / 67]

ـ ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾

[الإسراء / 29]

كما أن الإسلام يحرم إضاعة المال ويمنع منه ، كما يمنع من إهدار الموارد ، أو تفويت

فرصة إسهامها فى إعمار الأرض ، فيقول الله تعالى:

ـ ﴿ ... **ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا**﴾ [الإسراء / 27]

ـ وعندما سئل رسول الله ﷺ : أفي الوضوء سَرَف؟ قال : نعم ، وإن كنت على نهر جار» (رواه أحمد)

ـ كما نهى رسول الله ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليها (رواه البخارى)

ـ وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن :

« إياك والتنعم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» (رواه أحمد)

ولئن كان أكل أموال الناس بالباطل محرما تحريما قاطعا ، فقد اختص الإسلام الميسر والأزلام(1) بالذكر والتحريم ، لكونهما أظهر أنواع أكل المال بالباطل دون إسهام فى إعمار الأرض ، فضلا عن أنها تولد العداوة والحقد ، وتحدث الاضطراب فى النفس ، وتضيع الوقت الذى كان يجب على الإنسان أن يجعله خالصا لله تعالى فى عبادة أو عمل صالح، فضلا عن أنها تعيد توزيع المال بين الناس على أساس ظالم وباطل . يقول الله تعالى:

﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**﴾ [المائدة / 90-91]

ومن الصور الحديثة للميسر والأزلام : المراهنات على الخيل ، وعلى المباريات الرياضية ، وأوراق اليانصيب ، حتى ولو ادعوا أن حصيلتها ستنفق فى جهات الخير ، لأن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والقمار مفسدة يجب دفعها ، ولو فاتت مصلحة . ومن صورها أيضا شهادات الاستثمار ذات الجوائز ، فهى أكل لأموال الناس بالباطل ، وهى حرام ... وكما كان المرابون الأوربيون من اليهود وراء نشر المعاملات الربوية ، بابتكارهم للبنوك

---

(1) الميسر هو كل أنواع المقامرة وصورها ، والأزلام هي استقسام المال بالأقداح ، أو بالقُرعة ، وهي مراهنة محرمة . يقول الله تعالى : ﴿... **وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق** ...﴾ [المائدة / 3].

التجارية ، وبتغييرهم لكلمة «ربا» إلى الكلمة «فائدة» غشا وخداعا ، فإنهم لا يزالون وراء كل جديد من صور أكل أموال الناس بالباطل ، بل ووراء تبريرها من خلال تفسير بعض نصوص نسخ التوراة الحالية [1].

** ذلك ؛ والرشوة كالربا ، ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل ، وإخلال بالتوازن الاقتصادى والاجتماعى لصالح شخص أو فئة ، وهى نقيصة أخلاقية حرمها الله تعالى فى كل شرائعه تحريما قاطعا ، وجعل أكلها سببا فى لعنة من استحلوها من يهود ، وجاء ذلك واضحا فى التوراة ، كما جاء فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى:

- ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثمَ وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ [المائدة / 62-63]

ومن الرشا (جمع رشوة) ما يُقدّم كهدية لصاحب منصب أو سلطان ، للتوصل إلى أمر لم يكن المرء ببالغه لولا هذه الرشوة ، ولم يكن صاحب السلطان بحاصل على هذه الهدية لولا منصبه ، وكلا الطرفين والساعى بينهما بالرشوة ملعونون . قال رسول الله ص : «لعن الله الراشى والمرتشي والرائش» (رواه أحمد)

والوساطة التى لا هدية فيها تأخذ نفس الحكم ؛ لأنها فى الحقيقة مقايضة بين رشوتين خفيتين، وهى تؤدى لنفس الآثار من إشاعة الظلم وإحداث الخلل الاقتصادى والاجتماعى.

ولعل أكثر صور الرشوة ظلما ، هى تلك التى تبذل ويعلم أطرافها أنها ستؤدى حتما إلى أكل أموال شخص أو فئة ، أو حرمانهم من حق ثابت لهم ، لذا جاء تحريمها مشددا عليه فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

- ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال

(1) تأخذ مراهنات أوراق اليانصيب طابعا قوميا في الكثير من البلدان الأوروبية وغيرها ، ومن الغريب أننا نجدهم في البلدان الأوروبية يبررونها بمبررات دينية بتفسير خاطئ لما جاء في :سفر اللاويين : 8/16 ، وسفر العدد : 55/26 لدفع الناس إلى الاحتيال عليها وضمائرهم مرتاحة... راجع:

Dr. Jonatan Romain, abiblical guide to being quite content with your lottery in life, The times, Saturday November 12, 1994 .

الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ [البقرة / 118]

ـ وقال رسول الله ﷺ : «الرشوة فى الحكم كفر»(1).

وفى غير ما ذكر من المحرمات فى مجال العمل، فإن الأصل فى الأشياء الإباحة ، وترك النشاط الاقتصادى تسيره قوى السوق ، المتمثلة فى إقبال الناس على السلع والخدمات (الطلب)، وقدرة التجار على الجلب (العرض). والأصل ألا توضع أى قيود كمية ، أو فروض مالية على التجارة الداخلية أو الخارجية.

وكما أن السلطة العامة لا تقف موقفا حياديا إزاء المحرمات ، فإنها تتدخل أيضا من خلال التخطيط بهدف تعبئة الإمكانات المادية والنشاط البشرى ، وتحويلها إلى قوة ، يقول الله تعالى:

ـ **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...﴾** [الأنفال / 60]

ـ **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** [الحشر / 18]

ـ **﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾** [يوسف / 49:47]

ويجب ألا يخلو مجال من المجالات من تخطيط بعيد المدى ، ومتوسط ، وقصير المدى ، لأن إعداد القوة الشاملة للأمة ـ وهو فريضة ـ لا يمكن أن يتم فى ظل عجز أو تقصير فى مجال من المجالات.

ولا يستهدف التخطيط فرض وصاية على النشاط البشرى ، أو المساس بقوى السوق ، وإنما يستهدف سد الثغرات ، وتأهيل وتعبئة الموارد المادية والبشرية ، وإحراز السبق فى مجال العلم والتقنية ، وترشيد كل الطاقات المتاحة بإمدادها بالمعلومات ، والتنسيق بينها ، وإزالة المعوقات من أمامها ، وحسن الاستفادة من وفورات العمل وعائده الإضافى ، لصالح الحفاظ على البيئة ، وتحقيق التكافل الاجتماعى ، الذى هو أرقى مراتب التعامل بين البشر ،

---

(1) هذا الأثر خرجه صاحب الدر المنثور 284/2 ،صاحب كنز العمال حديث رقم 15106 ، الترغيب والترهيب 181/3 ، وكذلك خرجه ابن جرير عن عبد الله بن عمر قال: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به قيل: وما السحت؟ قال: الرشوة في الحكم».

إذ يستبعد الصراع بين الأفراد ، والصراع بين الطبقات ، ويستبدل بهما التراحم ، ومد يد العون المادى والمعنوى.

ولقد جعل الله تعالى للمسلمين ضوابط ثلاثة ، ينتظم من خلالها المجتمع ، ويتحقق التكافل الاجتماعى ، هى: الصلاة ، والزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقال سبحانه:

ـ ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة / 71]

ـ ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج / 41]

فالصلاة هى الخاتم الذي تُمهر به هويةُ المسلم(1) ؛ فهى الركن الذى لا يعفى منه مسلم مكلف إلا الحائض والنفساء ، فيؤديها المجاهد فى سبيل الله ، والمسافر ، وذو العذر ، والمريض ، ومن غاب عقله ثم عاد إليه لا تسقط عنه . والصلوات هى منارات الإرشاد التى ينتظم عليها مسار يوم المسلم ، وهى أضبط الثوابت فى حياته ، وعلى مواقيتها تضبط كل الأعمال وينسق بينها . يقول الله تعالى :

– ﴿ ... إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ [النساء / 103]

وقد سأل ابن مسعود رضى الله عنه رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل؟ قال : الصلاة على وقتها» .. (متفق عليه)

فبالصلاة يبدأ العمل(2) ، وعندها ينتهى . والصلاة أول معروف يؤمر به ، وأفضل عمل يُرتجى أجره عند الله تعالى ؛ لذا قال جل شأنه :

ـ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ...﴾ [طه / 132]

ـ ﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ...﴾ [إبراهيم / 40]

---

(1) قال رسول الله ﷺ : «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» (رواه مسلم).

(2) أمرنا رسول الله ﷺ بأن نبدأ يومنا عقب صلاة الفجر مباشرة فقال: «إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم» (أخرجه الطبراني) . وعنه أنه قال : «باكروا في طلب الرزق والحوائج فإن الغدوّ بركة ونجاح» (أخرجه الطبراني والبزار).

وللصلوات فى أوقاتها آثار نفسية وعملية عظيمة ؛ فالصلاة تزود المسلم بزاد معنوى ، ورضا وتوازن نفسى ، يبدأ به يومه ، ويجدده خلال وقت العمل ، وينهى به يومه ، فتهوّن الصلاة عليه عناء العمل ، وتتيح له فرصة للراحة الذهنية والغضبية ، إن هو أخلص لله وخشع فى صلاته ، وتُذكّره بقدرة الله تعالى عليه وبمراقبته له ، فلا يظلم ولا يغش ، وتعيد إليه الانضباط فى الصف[1] والحركة ، والطاعة للإمام . وتتيح له فرصة لتكرار النظافة البدنية، وتغيير الثوب (إن أمكن) ، فيتجدد نشاطه البدنى ، ويصفو ذهنه ويَتّقِدْ ، ويقبل على العمل وهو أكثر كفاءة.

وقطع العمل بالصلاة يتيح فرصة لصانع القرار ، أو متخذه للمراجعة وضبط النفس ، وإعادة النظر قبل حسم المسألة المعروضة للبحث ... وتزيد من التسليم لله والتوكل عليه ، إذا كانت المسألة قد حُسمت بالفعل ، واتخذ القرار فيها قبل التوجه للصلاة .

هذه كلها أمور أكد عليها القرآن الكريم مجملة فى الإشارة التى لا تخفى على المؤمن الفطن :

- **﴿قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾** [المؤمنون / 1-2]
- **﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾**

[البقرة / 153]

- **﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾** [العنكبوت / 45]
- قال رسول الله ﷺ : «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شىء؟» قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : «فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» (متفق عليه)

** ذلك؛ ويلعب المسجد وصلاة الجماعة دورا بالغ الأهمية فى التكافل الاجتماعى ، وفى ربط العاملين بالبيئة والمجتمع ، وفى التثقيف الجماعى ، الذى يُقرب بين الناس على اختلاف مشاربهم ومداركهم ، ويتيح الفرصة أمام العاملين على اختلاف أعمالهم ، من سكان الحى الواحد أو البلد الواحد ، للتعرف على أحوال بعضهم البعض ، وعلى ما استجد

---

(1) قال رسول الله ﷺ: «لتسوّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم» (متفق عليه) .
أى أن عدم تسوية الصف تجلب سخط الله تعالى ، فيكون الجزاء أن تقع العداوة والبغضاء واختلاف القلوب.

من مسائل أو مشاكل ، ليؤدي كل فرد حق إخوانه عليه ، فيهنّئ صاحب النعمة ، ويواسَى صاحب المصيبة.

ولئن كان رسول الله ﷺ قد ندب إلى صلاة الجماعة ، وكره مجافاة المسجد فى كل أوقات الصلاة ، فإن تعظيم الأجر فى الصلاة بالمسجد قبل بداية يوم العمل (صلاة الفجر)، وعند نهايته (صلاة العشاء)[1] ، ليؤيد نظرتنا الاجتماعية لصلاة الجماعة ، والاجتماع فى المسجد، قبل بداية يوم العمل وبعد انتهائه، وتدبرُّ قراءة القرآن فى الصلوات الجهرية، وحضور دروس العلم ، والاستفتاء فيما يجدُّ من أمور الحياة .. وكلها أمور تغذى الروح، وتدعم المعنويات، وتحدث الإشراق النفسى لدى المسلم ، وتعينه على تحمل مصاعب الحياة العملية راضيا غير ساخط ولا ناقم.

** ذلك ، ولم يؤكد القرآن الكريم على صلاة مثلما أكد على صلاة الجمعة ، فأوجب ترك العمل فور سماع النداء لها، ومن ثم حرّم كل عمل يتم من لحظة سماع النداء ، حتى تقضى الصلاة . وأوجب الخشوع ، والصمت والإنصات التام للخطبة ، التى هى شرط لصلاة الجمعة.

وقد ندب الشرع العظيم إلى التزين عند الحضور إلى المساجد عموما ، كما ندب إلى حضور الجمعة مبكرا قبل صعود الإمام المنبر ، فثواب ذلك يزداد كلما كان التبكير أكثر . قال الله تعالى :

– ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .. ﴾ [الأعراف / 31]

وقال تعالى:

– ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [الجمعة / 9]

وقال رسول الله ﷺ :

– «من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى الجمعة ، فاستمع وأنصت ، غفر له ما بينه وبين

---

(1) قال رسول الله ﷺ: «بشروا المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» (رواه أبو داود والترمذي).
وعنه أنه قال :
«والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم» (متفق عليه).

الجمعة وزيادة ثلاثة زيام ، ومن مس الحصى فقد لغا» (رواه مسلم).

وعنه أنه قال:

ـ «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت»

(رواه البخارى ومسلم)

** ذلك ؛ ولـم يُخرج الإسلام يـوم الجمعـة من أيام الـعمـل ، بل إن نص الـقرآن الكـريم يندب إلى المسارعة إلى السعى والعمل فور الانتهاء من صلاة الجمعة ، فقال الله تعالى :

ـ **﴿فإذا قُضيت الصـلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا اللـه كثيرا لعلكم تفلحون﴾** [الجمعة / 10]

ففى يوم الجمعة لا يجب على المسلم أن يمتنع عن العمل ، كما يفعل اليهود يوم السبت.

ولئن كان الأصل فى خطبة الجمعة أنها للتـذكير بالآخرة ، والإيصاء بتقوى الله فى السر والعلـن ،فإن تناولـها ، فضلا عن ذلـك ، جانبا مـن المشكلات الـعامة للمـجتمع ، وطـرحها الحلول الشـرعية لها ، وحض النـاس على التعاون علـى حلها تيسـيرا عليهم ، ودفعـا للحرج عنهم ، وجلبـا للمصلحة العامة ـ هـذا كله يُعد من الأمور التى تدخل فـى مقاصد الشر ع ، كما يُعـد تطبيقـا لروح المنهاج الإسـلامى ، وإقامة للـتكافل الاجتـماعى ؛ فهو أمـر بمعروف ونهى عن منكر للكافة ، وهو تفطين بأمور الدين والدنيا ، وتوجيه إلى ما يصلح الحياة وتعمر الأرض به.

من أجل هذا كان اجتماع أهل الحى أو البلدة فى المسجد الجامع أوجب ، وأن يتولى أولو الأمر الإعداد المسبـق لخطبة الجمعة ، فلا يجوز أن تـكون مرتجلة ، ركيكة ، غير مـنطقية ولا عقلانية. ويـفضل أن يلقيها ولـي الأمر بنفسه تأسيًا بـرسول الله ﷺ وبالخلفاء الـراشدين من بعده، ولا يجوز أن تقتصر على تنـاول أمور الموت والآخرة ، فللموت والآخرة زاد لابد من أن نتزود به من الـدنيا ، وهو العمل الصالح الإيـجابى البناء ، الذى يؤدى الإنسان بـه ما عليه من واجب الخلافة في الأرض .. ومعـرفة أمور المسلمين واجبة ، والقيـام بمصالحهم واجب ، وهى أمور لا تتم على وجهها إن لم تعالجها خطبة الجمعة معالجة مناسبة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وكمـا أن الصلاة تـطهر النـفس وتزودهـا بالزاد الـروحى والمعـنوى ، وتزيد مـن طاقتـها وإقبالها على العمل الصالح ، فإن الزكاة ، وما يلحق بها من نفقات وصدقات تطوعية ونذور

وكفارات ، تطهر الأموال ، وتدفع إلى العمل من أجل إنمائها ، وتعيد توزيع الثروة فى المجتمع، فتوسع قاعدة الملكية الفردية ، دون إفقار الغنى[1]، وتزيد من القوة الشرائية ، وتدفع بالتالى إلى المزيد من العمل والإنتاج؛ من خلال تنشيطها للطلب على السلع والخدمات ، ومن خلال تأمينها للأموال ،و تسديدها للديون ، وفتحها للأسواق الخارجية ، وتوفيرها للأموال اللازمة للدعوة الإسلامية ، والجهاد فى سبيل الله .

ولا غرو ، فبالزكاة ، وما يلحق بها من صدقات ، تحقق الأمة سلاما اجتماعيا ، يعد ضروريا لإعمار الأرض ، والاستمرار فى الإنتاج ، وتأمينا من الخارج له مردود هائل على قوة المجتمع وازدهاره ، بما يصعب تقديره ماديا . وهذا أمر يمكن فهمه من الجزء الأخير من آية سورة الأنفال التى تدعو إلى إعداد القوة بكل صورها وصنوفها ، ثم تؤكد لنا أن الإنفاق على هذا الإعداد سوف يأتى بالعائد فى مجال الإنتاج والعمل:

ـ **﴿ ... وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾.** [الآية 60]

ومما يؤسف له حقا أن يظن كثير من المسلمين أن الزكاة مجرد إحسان تطوعى ليس له قدر معلوم ، بل إن منهم من لا يفرق بين زكاة المال وصدقة الفطر ، وما ذلك إلا لأن حكام المسلمين تركوا جمع الزكاة وإنفاقها فى مصارفها الشرعية ، واستبدلوا بها النظم الوضعية المستوردة لجمع الضرائب ، فأهدروا بذلك ركنا من أركان الإسلام ، شاء الله تعالى أن يقرنه بالصلاة فى معظم آى القرآن الكريم التي تحدثت عنه ، وحارب من أجله أبو بكر رضى الله عنه ، باعتبار أن من يفرق بين الصلاة والزكاة مرتد ؛ لإنكاره معلوما من الدين بالضرورة ، ولكونه هادما لركن من أركان الإسلام التي أمر الله تعالى بإقامتها ، قال جل شأنه :

ـ **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾** [التوبة / 103]

وشدد رسول الله ﷺ على فرضية جمعها ، وعقاب مانعها فى الدنيا ، ثم يُرد إلى عذاب ربه فى الآخرة ، فقال:

ـ «من أداها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات

(1) قال رسول الله ﷺ : «ما نقص مال من صدقة». وعنه أنه قال : «حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدوا للبلاء الدعاء» (رواه الطبراني).

ربنا» .

وعنه ﷺ أنه قال:

ـ «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله» (متفق عليه)

وهذا الحديث الشريف ليس إلا تبيانا لقول الله تعالى :

ـ ﴿ ... **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم**﴾

[التوبة / 5]

ومن ثم فلم يكن أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ مبتدعا ، حين اتخذ قراره بقتال من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فمنع ما كان يؤديه لرسول الله ﷺ ، بل كان متبعا شديد التقوى والورع.

وقد حدد الشرع الإسلامى أوعية الزكاة (أنواعها) ، وشروط أدائها ، ونسبة ما يؤدى منها، والأموال المعفاة من الزكاة (الأموال غيرالنامية حقيقة أو حكما) ، واعتبر النصاب هو الحد الفاصل بين الغنى والفقر. وتُعدّ النقود الورقية وأسهم الشركات والشيكات والكمبيالات وما شابهها ، بمثابة ديون قوية يجب أداء زكاتها. كما يعتبر كل مال نام ، أو معد للنماء ، أو خرج عن استخدامه الذى من أجله أعفى من الزكاة بمثابة عرض من عروض التجارة ... ومن هذه أموال لم يعالجها الفقه ، لكنها أصبحت معروفة فى أيامنا هذه باعتبارها عروض تجارة ، مثل مزارع الدواجن والأرانب والخيول والمناحل ، ومثل ما تنتجه الأرض ويباع كعروض تجارة ، أو يدخل فى الصناعة ليأخذ صفة عروض التجارة ، كقصب السكر والغاب وقش الأرز وحطب الذرة ... إلخ.

كما أن البترول والفحم وسائر المعادن التى تستخرج من باطن الأرض أو المناجم أو المحاجر ، فيها زكاة الركاز والمعادن ، حتى ولو تولت الدولة استخراجه، فيوضع خمسه فى مصارف الزكاة.

** ذلك ؛ ولم يترك الله تعالى أمر توزيع الزكاة والصدقات لنبى أو ولى أمر ، وإنما

فرضها الله تعالى فى كتابه العزيز فرضا ، وجعل منها نصيبا لبعض الأغنياء [1] ، تأمينا شرعيا يعوض ما يضيع من المال أو يحجب عن صاحبه ، فقال جل شأنه :

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة / 60]

** ذلك؛ وقد ميز الله تعالى الأمة الإسلامية بأن كلفها بصورة من صور التكافل الاجتماعى، لم تستطع الأمم السابقة عليها القيام به [2] . هذه الصورة هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو أرقى أنواع التعاون والتناصح الإيجابيين الوقائيين ، إذ يربط بين الإنسان والمجتمع ، بين النشاط البشرى ومنهاج الله الذى ارتضاه للأمة ، بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة ؛ فهو بمثابة مسئولية الفرد تجاه الأمة ، ومسؤولية الأمة عن كل فرد فيها ، مهما كان موقعه . وهو من فروض الكفاية إذ يقول الله تعالى:

- **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾** [آل عمران / 104]

- **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾** [آل عمران / 110]

ويقول رسول الله ﷺ :

- « ... ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل ، والنصيحة لولى الأمر، ولزوم

---

(1) الحد الفاصل بين الغنى والفقر هو التكليف بدفع الزكاة أو عدمه ، فالفقير هو غير المكلف بدفع الزكاة . ومن الأغنياء من يستحقون الزكاة : العاملون على جمعها وحفظها وتوزيعها ، والغارمون وهم من ابتلاهم الله تعالى بفقد أموالهم فى حريق أو هدم بيت أو دَين دون إسراف أو سفه، أو ضياع مال ، أو تحمل دية ... إلخ ، ويأخذ المجاهد فى سبيل الله، والداعية إلى سبيل الله منها ... وتجهز الجيوش ، وتقام منشآت الدفاع والدعوة منها.

(2) روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه هذا أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قرأ:

﴿لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون...﴾ إلى قول الله تعالى **﴿ .. ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾** ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم» .. والآيات الكريمة من سورة [المائدة / 78:81].

الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائه» (رواه أحمد والترمذى).

ويحذرنا من ترك هذه الفريضة ، التى يفسد المجتمع إذا تركت ، فيقول ﷺ:

ـ «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا». (رواه البخارى)

ـ « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (رواه الترمذى)

وقد عَرفت كل عصور الأمة الإسلامية «نظام الحسبة» ، نظاما مستقرا ، من شأنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ كإجراء وقائى ـ قبل وقوع المنكرات ، التى لا خلاف بين المسلمين أنها من المنكرات ، وذلك حماية للمصالح والأخلاق والآداب العامة ، ومنعا للغش والجور وارتكاب المعاصي التى تلوث الجو العام للمجتمع ، أو التى تفسد العمل والمعاملات بين الناس ... بل وكان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراعاة الرفق بالحيوان وعدم إيذائه ، أو تحميله أكثر مما يطيق.

وقد عَرف القضاء الإسلامى فى كل عصوره الدعاوى التى تقام حسبة لله تعالى ، وهو ما سنفصله عند تناول قيمة العدل ، بإذن الله.

ولعل من التنظيمات التى عُرفت حديثا ، ويمكنها القيام بالرعاية الاجتماعية لطوائف العاملين على اختلافها ــ النقابات ، والجمعيات المهنية ، والجمعيات الخيرية ، وإذا ما خلصت النوايا لله تعالى فإن مثل هذه الجمعيات غير الحكومية ، تستطيع القيام بمهام عظيمة، منها التدريب ومحو الأمية المهنية والتأهيل ، وإمداد سوق العمل بما يحتاجه ، ومعاونة المشروعات على الحصول على ما تحتاجه من آلات وعِدَد، والإسهام فى إنشاء «قاعدة تكنولوجية» مناسبة لمجتمعنا الإسلامى ولقيمه . كما يمكنها الارتقاء بالمهنة بوجه عام، ومحاسبة أعضائها مهنيا ، والدفاع عنهم ، وفض المنازعات المتعلقة بالمهنة ، دون حاجة لرفعها للقضاء ، ما أمكن ذلك ، فضلا عن خدمة البيئة ، وتوفير الرعاية الصحية والثقافية لأعضائها ...إلخ.

ولا تذكر النقابات عادة ـ في الفكر الغربي الليبرالي ـ إلا ويذكر معها ما يسمى «بحق الإضراب عن العمل» ، وهذا أمر لا يقره المنهاج الإسلامي ، إذ لا يجوز لمثل هذه الجمعيات، التي من شأنها جلب المصلحة لأعضائها ، ولأمتها بوجه عام ، أن تكون مؤسسات للاحتكار، أو لممارسة الإكراه المعنوي ، أو لتعطيل قيمة العمل ، مهما كانت الأسباب ... فمصالح الناس معلقة بالمهن التي ترعاها تلك الجمعيات ، ولا يجوز الإضرار بها بالتوقف عن العمل ، حتى ولو كان السبب هو جلب مصلحة لأهل مهنة من المهن ، فدفع الضرر مقدم على جلب النفع ، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة إذا كان بينهما تعارض.

وليس في هذا إضرار بطائفة من الناس جلبا لمصلحة الأمة ، فالعدل لا يتجزأ ، ومنهاج الله لا يكون بأخذ جزء منه وترك آخر . والحل الأصوب هو اللجوء إلى القضاء في الأحوال التي لا يمكن التصالح فيها من خلال التفاوض ، فإذا تعنّت أهل مهنة من المهن ، وأصروا على تعطيلها أُجبروا بالقوة على ممارسة أعمالهم حتى يحكم القضاء في الأمر...

** ذلك ، ومهما قيل عن سمو قيمة العمل ، فإن الإنسان يمضي قرابة ثلث وقته من اليوم والليلة في عمله ، وقد يزيد على هذا القدر أو ينقص ، لكنه مطالب بحكم الشرع أن يأخذ قسطا من الراحة ، بعد أداء واجبه نحو ربه من صلاة وعمل . يقول رسول الله ﷺ :

ـ « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا» (رواه البخاري)

ـ « من ابتغى وجه الله فإن نومه ونبهه أجر كله» (رواه أحمد وأبو داود)

فعلى المسلم أن يقسّم وقت فراغه بين نوم يريح بدنه ، وترويضٍ يقوّى جسمه وينشطه ، ووقت يخصصه لزوجه وأولاده ، ولأهله وذوى رحمه ، ولأصدقائه وجيرانه.

ولله على المسلم ، بعد الفريضة ، أن يذكر الله تعالى ، وأن يتفكر في خلقه ، وأن يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم ، أو يستمع إليه وينصت ، وأن يطّلع على ما يجرى حوله من الأمور العامة للأمة ، وأن يمارس هواية يحبها ... فهل يبقى بعد ذلك وقت للهو ؟ وهل يبقى في

وقت المسلم بعد هذا شىء يضيع هباء؟

إن الترويح عن القلوب أمر لم يحرمه الإسلام ، بل ندب إليه حال إدبار القلب ، حتى لا يصدأ القلب ، لكنه لا يجوز الترويح عن النفس بما حرمه الله تعالى من قول أو فعل، كما لايجوز للمسلم أن يكون غافلا لاهيا مضيعا لوقته الذى سيحاسب عليه يوم الدين.

وإن الإنسان لمستخلف فى الأرض من قبل خالقه ، وعليه ألا يتعدى حدود الخلافة ، وألا يخالف شروطها . ولقد كرّمه ربه، وعليه أن يعمل بمقتضى هذا التكريم.

* * *

الفصل الرابع

تكريم الله للإنسان رابعة قيم المنظومة الإسلامية

لقد كرم الله تعالى آدم وذريته وفضّلهم على كثير من خلقه تفضيلا ، وآيات تكريم الله تعالى للإنسان : أن خلقه ربه فى أحسن تقويم ، واستخلفه فى الأرض ، واستعمره فيها وأمر ملائكته أن يسجدوا له ، بمجرد نفخ الروح فى آدم أبى البشر ، سجود تكريم ، وحمل الله تعالى بنى آدم فى البر والبحر ، من دون الخلق ، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه جل شأنه ، وشرف الإنسان بحمل الأمانة ، وهى النبوة والرسالة ، وهى أمر عظيم ، أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وتكفل الله تعالى برزق بنى آدم ، وتعليمهم ، وإيتاء جنسهم الحكمة ... **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾** [النحل / 18]

فكل هذه الأمور ، وغيرها كثير ، هى هبات من رب العالمين . وهى غير معلقة على شرط ولا حتى شرط الإيمان بالله تعالى، يقول الله تعالى:

- **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** [الإسراء / 70]

لذا فلا يجوز للإنسان أن يتنازل عنها ، لاستحالة ذلك ، كما لا يجوز لكائن من كان أن يجرد الإنسان منها ، إلا أن يشاء الله:

﴿... ومن يهن الله فما له من مكرم﴾. [الحج / 18]

ولا غرو ؛ فتكريم الله تعالى لبنى آدم ليس من قبيل الحقوق التى ترتبت للإنسان مقابل التزام يلتزم به ، بل هو من قبيل السنن الإلهية ، وخلق الله ، ولا سبيل لتبديله .

هذا ؛ وللشارع العظيم فى تكريمه الإنسان **مقاصد خمسة** هى: حفظ العقل [1]،

---

(1) لم يأت لفظ «العقل» في القرآن الكريم ، لكن جاءت بصيغة الفعل «يعقلون» ، في حين وردت مرادفات له مثل : «قلب»، و«نهى»، و«لب» ، و«حِجر»، وبصيغة الجمع مثل ألباب وقلوب.

- **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** [الحج / 46].
- **﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى﴾** [طه / 128]
- **﴿وما يذّكر إلا أولو الألباب﴾** [آل عمران / 7]. - **﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾** [الفجر / 5].
- **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو الشهيد﴾** [ق/ 37].
- **﴿... لآيات لقوم يعقلون﴾** [البقرة/ 164]

وحفظ الدين ، وحـفظ النفس ، وحـفظ العرض، وحفظ المال ... بهذا الترتيب ، الذى أجده قائما على التفضيل والأولوية ، وأن المقصد المتأخـر يضحّى به حفظا للمقصد المتقدم عليه .. فلا يكـره أحد على ديـنه حفظـا للعقـل ، ويجاهد المؤمن بالنـفس حفظـا للدين ، ويُضـحى بالـنسل من أجـل النفـس ، إذا لم يمـكن حفظـهما مـعا ، والجهـاد بالمال مقـدم على الجـهاد بالنفس، وإن وجب الأمران ، فـرض كفاية على الأمة ، كما يبذل المال رخيـصا حفاظا على العرض...

حفظ العقل:

ولعل أول مـا يكرم الله تعالى به الإنـسان: الاهتمـام حفظ عقلـه ، وجعل ذلك مـقصدا شرعيا ؛ ذلـك لأن العقل هو مستـودع العلم والفقه ، ومتـلقّى التكليف ، ومـولّد الاختيار ، ومحرّك الإرادة .. فلا تـكليف إلا لعاقل ، وبـالعقل يميز الإنسـان الخير من الشر ، ويستبين النجدين (طريق الهدى وطـريق الضلال)، ويعرف صراط الله المستقيم .. والـعقل هو الذى يدخل صاحبه جنة النعيم ، أو يورده مورد الهلاك والجحيم:

ـ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... ﴾ [الكهف / 29]

ـ ﴿من اهـتدى فإنمـا يهتـدى لنفـسه ومن ضـل فإنما يـضل عـليهـا ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء / 15]

وحفظ الـعقل يعنى عـدم جواز تغييبـه أو تعريضه لإكـراه ، ونجد هذا واضحا فى مـنهاج القرآن الكريم الذى أمر باحترام العقل وحسن توظيفه لمصلحة صاحبه ، ولخير البشرية كلها:

ـ فقد خاطب القرآن الكريم العقل لإثبات وجود الله تعالى ، ولإثبات وحدانيته وقدرته، وعزته، و سائر صفات الله تعالى ، كذا لإثبات الخلق ، والبعث والنشور والحساب ، وغيرها من عنـاصر عقيـدة الإسلام . وخاطـب العقل لإثـبات أن القرآن الـكريم منـزّل من عند الـله تعالـى، وأن محمدا رسـول الله حقـا وصدقا ، بل وخـاطب العقـل موضحا الحـكمة والعـلة صراحة أو ضمنًا في ما جاء به من الأحكام الشرعية.

ـ كلـف الله تعـالى الإنسان بـأن يستخـدم عقله فـى فهم سنن الـكون ، وفهم مـا جاء به الرسل بوجه عام ، وما جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين:

ـ ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ [محمد / 10]

ـ ﴿أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ [المؤمنون / 68]

ـ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد / 24]

ـ ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾ [سبأ / 46]

ـ ولا يجوز ممارسة الإكراه العقلى ضد أحد ، ولو كان كافرا ، ولو كان الهدف من الإكراه حمل ذلك الشخص على الإيمان بالله تعالى:

ـ ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ...﴾ [البقرة / 256]

ـ ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس / 99]

وفى المقابل فإنه لا يجوز إلغاء العقل أو تعطيل الفكر ، بل إن الأقرب إلى مقصد الشريعة أنه لا ينبغى أن يرث كل ذى فكر عقيدته بالتقليد ، فلا يكمل الإيمان إلا بعد التدبر وإعمال الفكر .. يقول الله تعالى :

ـ ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ [البقرة / 170]

ولئن كانت هذه الآية الكريمة قد نزلت فى الكفار خاصة ، فإن عموم حكمها ينسحب على العالمين ؛ لأن الإيمان مسئولية كبيرة لا يستطيع القيام بها حقا إلا من حاز درجة اليقين، ولأن الارتداد عن الدين أو الكفر بالإيمان يترتب عليه جزاء دنيوي وجزاء أخروى ، وهذا يستلزم حرية كاملة للإرادة ، مقابل تحمل المسئولية كاملة (1).

وحتى يكون أشرف عضو فى جسم الإنسان محتفظا دائما بهذه المكانة ، فقد حرّم

---

(1) يقول الله تعالى :

ـ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ [النساء / 48]

ـ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [النحل / 106]

الإسلام الخمر وكل مسكر أو مخدرٍ أو مفترٍ ، تحريما قاطعا ؛ فبحفظ العقل يُحفظ الدين:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة / 90-91]

حفظ الدين :

فإذا انتقلنا إلى المقصد الشرعي الثانى الذى ينال به الإنسان التكريم ـ وهو حفظ الدين ـ لوجدنا أن الإسلام ، وإن أنكر على غير المسلمين تقصيرهم فى تبين الرشد من الغى ، فإنه منع من التدخل فى عقائدهم ومخاصمتهم دون مبرر ، فقال جل شأنه:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة / 8-9]

ولئن كان هذا حكما عاما يشمل أهل الكتاب والكفار ، فإن الله تعالى خصص هذا العموم مع بقائه ، بحكم إضافى لكل فئة ؛ فقال جل شأنه فى الكفار والمشركين:

ـ **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾** [الأنعام / 8]

وقال تعالى فى أهل الكتاب:

ـ **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**

[العنكبوت / 46]

ولقد كلف الحق سبحانه المسلمين بحفظ الدين بالقتال فى سبيله جل شأنه ، وحتى لا يفتن المسلمون فى دينهم ، بل وحتى يقيم كل أصحاب الملل شعائر دينهم فى أمن . وتعهّد القوىّ العزيز سبحانه بنصر حماة دينه فقال:

ـ **﴿أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت**

صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [الحج / 39-40]

ـ **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾** [البقرة / 193]

وليس فى حفظ الدين تسامح أو تساهل ؛ فحفظ العقيدة يعد أعلى «المصالح الضرورية» الجديرة بالحماية . فإذا تهددت قيمة الإيمان ، أو تهددت شعائر الله ومقدسات المسلمين ، أو إذا تعرض بعض المسلمين للفتنة فى دينهم، أو للإخراج من ديارهم ـ كان الجهاد فى سبيل الله أوجب ما يكون ، ولا يقبل الإسلام فى ذلك حلا وسطا ، فالمسلم فى هذه الحالة لا يبالى؛ لأنه فائز بإذن الله فى كل الأحوال .. فائز إما بنصر أو بشهادة.

ولا تعلو أى مصلحة أخرى على حفظ الدين . يقول الله تعالى:

ـ **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾**

[التوبة / 24]

والحديث عن التسامح والعفو يكون فى غير المساس بالدين ؛ كالنفس والمال ، شريطة أن يكون من يعفو ويصفح قادرا على المعتدى ، فيكون صفحه وعفوه من موقع القوة والقدرة ، لا من موقع التسليم والضعف ، فهذا الأخير لا يجوز فى أي مجال . يقول الحق جل شأنه:

﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى / 43:39]

ولا يملك ولى الأمر ، فى أى مستوى ، أن يتسامح ، أو يعفو ، أو يقبل الشفاعة ، إلا فى أمر يمس نفسه أو ماله هو ، وعلى هذا كانت السنة العملية لرسول الله ﷺ ؛ إذ عفا عمن أساء إليه ، ولم يقبل الشفاعة فى حد من حدود الله ؛ لأن الجريمة التى استوجبت الحد تعد عدوانا على المجتمع كله ، وولى الأمر أمين مكلف مسؤول ، لا يملك صلاحية التنازل نيابة

عن الآخرين منفردين ولا مجتمعين.

ومن ضوابط حفظ الدين أن قرر الشرع حدا رادعا ، استقر فى الفقه الإسلامى أنه حدّان: «حد الردة» ، و«حد الحرابة» ، وهما فى تقديرى أمر واحد تحكمه الآية الكريمة:

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتَّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾. [المائدة / 33]

لأن المرتد الذى ينكر فى ضميره أمرا معلوما من الدين بالضرورة ، إن لم يعلن عما بداخله ، فلا سلطان للمسلمين عليه فهو منافق، ولم نؤمر بقتال المنافقين ولا بمعاقبتهم في الدنيا؛ فمن أعلن أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم دمه وماله وعرضه إلا بحقها، ولو غلب على الظن أنه منافق ، يخادع الله ورسوله والذين آمنوا ؛ لأن اليقين أنه يشهد بوحدانية الله وبرسالة محمد ﷺ ... وليس لأحد سلطان على السرائر إلا الله تعالى وحده.

فإذا أعلن المرتد عما بداخله كان داعيا للضلال ، مفسدا فى الأرض محاربا لدين الله ، أما من لا يعلن فجزاؤه عند ربه:

ـ **﴿ ... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [البقرة / 217]

ـ **﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾** [المائدة / 54]

هذا ، ولم يأذن الله تعالى لنبيه بقتال المنافقين[1] ، رغم أنه كان يعرفهم ، ويعلم نفاقهم وكذبهم ، ورغم أنه أوحى إليه بسورة أصبحت تحمل اسمهم ، جاء فيها ... **﴿ ... والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** [المنافقون /1] ... **﴿ ... هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾** [المنافقون / 4] ، وقد جعل الله تعالى جزاء المنافقين فى الآخرة أسوأ من جزاء

---

(1) وقول الله تعالى: **﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾** [التحريم/ 9]، يعني جهاد المنافقين باللسان، وتطبيق حدود الله عليهم في (الحياة الدنيا)؛ لأن عقابهم في الآخرة....

ولن تغني عنهم مخالطة المؤمنين من الله شيئا، كما هو واضح من المثالين المذكورين في الآيتين الكريمتين التاليتين [المنافقون/ 1&4].

المشركين المجاهـرين ، وذلك لأنهم أفلتوا من عقاب الـدنيا ، فأخره الله تعالى لهـم لينالوه فى الآخرة:

﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾ [النساء / 145].

والمرتد غير المجاهر بارتداده ما هو إلا منافق.

ومن ثم لا يـكون **أبو بكر** رضى الله عنه صاحـب اجتهاد خاص عـندما حارب مـانعى الزكاة ، وإنما كان اجتهاده منـصبا على كيفية تطبيق النص القـرآنى ؛ لأن منع الزكاة لم يكن شحـا منهم، بـل كان ارتدادا يـصحبه إعـلان ومحاربة لـله فى ركـن من أركان دينـه ، وأمر معلوم من الدين بالضرورة ، يعد هدمه هدما للدين ذاته .. فما كان أبو بكر إلا متبّعا أمينا فى اتباعه.

وشق «التّقتـيل» من «حـد الحرابـة» ، يطبـق علـى من يُقْدَرُ علـيهـم قبل أن يـتوبـوا ، ممن يجاهرون بالطعن فى الدين ، وبمحاربة الله ورسوله ، أو يمارسون الإفساد علنا بقطع الطرق وترويع المؤمنين ، أو بإكراه المـسلمين ماديا أو أدبيا لمنعهم من الالتزام بعقـيدتهم وما أنزله الله لهم من شرعة ومنهاج.

ولا غرو ، فأى كرامة لإنسان مطعون فى عقيدته ، وأى أمن لأمة لا تستطيع الحفاظ على دينها وإيمـانها ، وأى حياة كريمة هذه الـتى يجد الناس فيهـا مقدساتهم تنتهـك حرمتها، أو يحال بينهم وبين الوصول إليها:

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾

[البقرة / 114]

هذا ، ولـم يسجل التاريخ حادثة واحدة اعتدى فيـها المسلمون ، فى البلاد التى فتحوها ، على معـابد غير المسلـمين ، أو منعوهـم من أداء شعائر دينـهم ، سواء دخلت هذه الـبلاد في دين الله أو لم تـدخل ، بل على العكس تماما ، فـقد كان المسلمون فى كل الـعصور يوفرون الأمن والحماية لمن يـعيشون بينهم من غير المسـلمين ، ويمكنونهم من أداء شعـائر دياناتهم ، ولا يتعرضون لهم بسوء .. ولعل هذا هو المقصود بالتسامح فى نظر الإسلام.

كما أن من ضوابـط حفظ الدين وواجباته ، أن يخلـص المسجد الحرام للمسلـمين وسائر

مقدساتهم، فلا يقربه مشرك بعد عام الفتح المبين . يقول الله تعالى :

ـ **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عَيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾** [التوبة / 28]

ومن ضوابط حفظ الدين وواجباته أيضا ، أن تحفَظ الأسرة المسلمة ، فتصان من تيارات الإغارة عليها من خارجها ، كما يُحال دون أن تُخترق لتهدم من داخلها ، ولذلك يحرم في الإسلام أن يكون أحد الزوجين مشركا والآخر مسلما . يقول الله تعالى:

ـ **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**

[البقرة / 221]

ومن كمال تحرير العقيدة من أية شبهة شرك أن جعل الله تعالى من الإيمان الاعتقاد الجازم بأن الآجال والأرزاق بيده وحده سبحانه ، فلا يرهق الإنسان نفسه بالسعى لدى أى مخلوق من دون الله كى يستزيده من الأجل أو الرزق:

ـ **﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾** [فاطر / 3]

ـ **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾** [النساء / 78]

كما أن من تمام تحرير العقيدة من الشرك ، أن العلاقة بين الإنسان وربه علاقة مباشرة ، فلا يوجد وسيط ـ كائنا من كان ـ يتوسط فى هذه العلاقة ، أو يجب استئذانه أو التوسل أو التقرب به إلى الله:

ـ **﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون﴾** [الأعراف / 188]

ـ **﴿قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين﴾** [الأحقاف / 9]

ـ ﴿ ... ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾

[يونس / 3]

فما بالنا نرى أقواما تنازلوا عن تكريم الله لهم ، وفرضوا على أنفسهم وصاية أضرحة بعض الصالحين ، أو من ظنوا أنهم صالحون ، يتوسلون بهم إلى الله، وقد تصل بهم الحال إلى أن يقدموا لهم النذور ، أو يتمسحوا بأضرحتهم ، أو يتعمدوا الصلاة عندها ، أو فى المساجد التى دفنوا بها .. والحقيقة أن هؤلاء الصالحين ، مهما علت درجتهم عند الله ، لا يملكون لأنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، من الله شيئا ، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ، «ولا يأمن أحدهم مكر الله، ولو كانت إحدى قدميه فى الجنة» ، وهذا هو قول أبى بكر رضى الله عنه، وهو من هو فى درجة إيمانه ، وجهاده فى سبيل الله ، ويقينه الذى يفوق كل تصور ، فضلا عن أنه مبشر بالجنة ... يقول الحق جل شأنه:

ـ ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ [البقرة / 186]

وإذا كان الله قريبا فَلِم يعمد البعض إلى أن يتباعدوا عنه ، ويستبدلوا بالعلاقة المباشرة به علاقة غير مباشرة.

ومن تمام تحرير العقيدة من أية شبهة شرك ، أيضا ، أن الله تعالى جعل الصدقات حقا مفروضا فى مال الأغنياء ، وتعاملا بين مؤدى الصدقة وربه ؛ فلا منّة على فقير ولا أذى لآخذ ، بل قول معروف ومغفرة ، وابتغاء الجزاء من رب العباد ، وإلا بطلت الصدقة . وأفضل الصدقات ما كان فى الخفاء ، سواء فى تعامل الغنى مع الفقير مباشرة ، أو من خلال جهة تجمع الصدقات وتعيد توزيعها فى مصارفها الشرعية ، وما ذلك إلا تكريما للفقير الذى قَدرَ الله تعالى عليه رزقَه ، ابتلاء له وللأغنياء فى آن واحد.

حفظ النفس:

وتأتى حرمة النفس البشرية تكريما لبنى آدم ، فلا يجوز قتلها إلا بالحق . وقتل المؤمن غير جائز مطلقا إلا فى ثلاث حالات ، جاءت فى قول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة»

(متفق عليه).

وفيما عدا هذه الحالات لا يجوز قتل المؤمن ، إلا أن يقع القتل خطأ ، وقد جعل الله تعالى على القاتل خطأ دية وكفّارة ، وعلى القاتل العمد جزاء دنيويا وآخر فى الآخرة عظيما ، فقال جل شأنه :

ـ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مُسَلّمةٌ إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما . ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾

[النساء / 92-93]

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ...﴾ [البقرة / 178]

إن أية محاولة لتبديل حكم الله تعالى ، ونبذ القصاص ، واستبدال عقوبة مقيدة للحرية أو غيرها به ، بحجة واهية ، مفادها الحرص على حياة القاتل ، لأنه حى واستمرار حياته أولى ـ تعد من قبيل الإفساد فى الأرض وإشعال نار الفتنة ، فهو يؤدى غالبا إلى سلسلة لا تنتهى من أعمال القتل والثأر ، ويتسبب فى بقاء العداوة قائمة فى المجتمع . لذا فقد قال الحق سبحانه:

﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة / 179]

وقتل القاتل قصاصا يعد جزاءً عادلا ، ووسيلة للردع والزجر ، وتهدئة لنفوس أولياء القتيل ، فتعود الحياة إلى مجراها الطبيعى.

ولا يفرق الإسلام فى حفظ النفس بين أن يكون المقتول رجلا أو امرأة ، شيخا أو بالغا أو طفلا ، مريضا ميؤوسا من شفائه أو معافى صحيح الجسم ، عاقلا أو مجنونا ، شريفا أو وضيعا ، مسلما أو ذميا ، وذلك لعموم قول الله تعالى :

ـ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ...﴾ [المائدة / 45]

وقد ثبت فى السنة النبوية الشريفة أن رسول الله ﷺ : «أقاد مسلما بكافر» ؛ أى قتل مسلما فى ذمى قصاصا.

ولو اتفق جماعة على قتل فرد واحد قُتلوا جميعا به ، وهذا ما قضى به عمر بن الخطاب

رضى الله عنه وقال: «لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به» (رواه البخارى).

هذا ، ولا يُطَلُّ دمٌ فى الإسلام (أى لا يضيع دم مقتول) ، فإن لم يعرف القاتل ، تكون «القسامة» ؛ بأن يجمع خمسون من أهل الحى أو القرية التى قتل فيها ، أو بالقرب منها ، فيقسمون بالله أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا ، فإن فعلوا ذلك لم تبرأ ذمتهم حتى يدفعوا دية القتيل . فمجرد إزهاق النفس البشرية يستوجب العقوبة لوقوع الإثم ، حتى ولو لم يعرف المعتدى ؛ ذلك لأن حرمة النفس البشرية وحمايتها والحفاظ عليها فريضة . وإذا قتل شخص فى زحام ، تحمّل الجمع ديته .. ويصل الواجب إلى إحياء النفس ، وليس مجرد حمايتها، فتقديم كل أنواع العون والإغاثة للنفس المشرفة على الهلاك فريضة . وإذا هلك فرد من جوع أو ما شابه ذلك فلم يعنه أحد وقع الإثم .. وإذا رفض شخص أن يغيث مشرفا على الهلاك ، وهو قادر على ذلك ، فقد أسهم فى إهلاكه ، وعليه وزر ذلك . ويمتد هذا الواجب إلى كل نفس بشرية حتى ولو كان صاحبها مشركا . يقول الله تعالى :

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة / 6]

ذلك ؛ ويحرم قتل الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا [1]، خشية الفقر ، أو لأى سبب آخر، ويحرم الإجهاض تبعا لذلك، كما يحرم العزل تحديدا للنسل . يقول الله تعالى:

- **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا﴾** [الإسراء / 31]

- **﴿وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت﴾** [التكوير / 8-9]

وقد نهى رسول الله ﷺ عن العزل دون ضرورة؛ لأنه محاولة للاعتداء على قدر الله،

(1) من الأهداف الرئيسية لجماعات حقوق الإنسان ومنظمات العفو السعي نحو إلغاء عقوبة الإعدام كليةً، حتى لو ثبتت جريمة القتل مع سبق الإصرار والترصد. وقد استجابت دول غير قليلة في العالم لهذه الدعوى التي لا تحقق مصلحة للمجتمع؛ لأن الله تعالى أعلم بما يصلح العباد، وقد أمرنا بالقصاص. وتحرم الشرائع السماوية هذه الأمور كلية ، إلا أن عادة قتل الأولاد ، وقتل البنات خاصة ، لا تزال موجودة فى بعض المجتمعات كالصين مثلا ... فنظرا للتقدم العلمى وإمكان التعرف على جنس الجنين فى بطن أمه يلجأ بعض الصينيين إلى الإجهاض للتخلص المبكر من البنات ، وقد تقتلن مباشرة بعد الولادة ، وتلقى هذه العادة قبولا اجتماعيا هناك ، وتشجيعا من الدولة فى إطار سياسة تحديد النسل !! وقد تودع البنات فى ملاجئ بمجرد ولادتهن ، تخلصا منهن ، ولا يلقين الرعاية اللازمة فتمتن . (فيلم تسجيلى بعنوان «عزف الموت» عرضته القناة الرابعة بالتليفزيون البريطانى).

ولن يجدي شيئًا إلا أن يرتكب فاعله إثمًا.

وتمتد حرمة النفس البشرية وتكريمها إلى ما بعد الموت ، إذ يجب دفنها ، فإن كانت نفسا مؤمنة وجب غسلها وتكفينها والصلاة عليها وتشييعها حتى توارى التراب ، على تفصيل فى السنة النبويةالشريفة استقر فى الفقه الإسلامى ... ويحرم نبش القبر ما دام يظن بقاء شىء من عظام الميت فيه.

وتكريم النفس البشرية بالقيام عند رؤية الجنازة واجب أمرنا رسول الله ﷺ به ، حتى ولو لم يكن الميت مسلما .. فقد مرت جنازة فقام النبى ﷺ ، فقام المسلمون ، فقال بعضهم: «يا رسول الله إنها جنازة يهودى . قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا» . (رواه البخارى)

ويحرم التمثيل بجثة الميت مطلقا ، ولو كان كافرا محاربا . كما تأبى كرامة الإنسان، التى هى منحة من رب العباد ، أن تعرض جثث الموتى فى المتاحف والمعارض ، ولو بعد تحنيطها ، أو أن تكون مادة لتجارب علمية ، أو أن تنقل من مكان دفنها دون حاجة إلى ذلك، أو على وجه يكون فيه تحقير للميت.

وتمتد حرمة النفس البشرية إلى أعضاء الجسم ، فيحرم المساس بها ، فإن حدث كان القصاص أو الدية ، لقول الله تعالى:

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة / 45]

وكما أن الإنسان لا يملك حقا على حياته أو على جسمه ، بل واجبه أن يحافظ عليهما كوديعة لله عنده ـ فلا يجوز له أن يبيع أو يتنازل عن شيء من جسمه ، حيا أو ميتا .. وما لا يجوز للشخص نفسه لا يجوز لغيره ، وإلا صار جسم الإنسان سلعة تباع وتشترى وتوهب وتورث ، وفى هذا إهانة للإنسان الذى كرمه ربه حيا وميتا ، دون نظر للونه أو جنسه أو عقيدته. وعلى الأطباء أن يجتهدوا في طلب العلم لإيجاد وسائل تعوض فقد بعض الناس لأعضاء من أجسادهم تعرضهم للهلاك، دون المساس بأجساد الآخرين حتى ولو كانوا موتى، وذلك سداً للذرائع ودفعًا لمفاسد قد تأتي من وراء ذلك الذي يحدث الآن.

حفظ العرض :

ولـعرض الإنسان حرمة ؛ فلا يمكـن تصور تكريم بنى آدم إلا بـصيانته . ومفهوم العِرض من الأمور التى ميـز الله تعالى بها الإنسان عن غـيره من فصائل الحيوان التى خلـق الله تعالى لها غريزة جنسية كمدخل للتناسل والتكاثر وبقاء النوع.

وللعرض معنـى واسع يقع بـين حفظ الـفرج كحـد أعلى ، وبين حـماية الإنسـان من أن يُوجه إليه كلام فيه تحقير أو ازدراء به ؛ كالقذف والسب والغيبة والنميمة ، كحد أدنى لمعنى العرض ، وبين هذه وتلك يقع الحفاظ على الأسرار والخصوصيات . فالعرض يبدأ من الجسد وينتهى عند الحسب والسمعة.

فأما عن حفظ الفرج فيقول الحق سبحانه:

ـ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [المؤمنون / 7:5]

ـ ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء / 32]

ولم يتـرك الله تعالى الإنـسان بغير توجـيه ، وإنما شرع له من الأمـور ما يحول بينـه وبين ارتكـاب معصيـة الزنا؛ فصـان المرأة وحفظـها ، بأن أمـرها أمرا مفـصلا بارتداء الـزى الذى يحجب مفاتـنها عن غير زوجها ، ويحجب زينـتها عن غير محارمها ، وهـو زى يميزها من غيرهـا ، ويبرز شخصيـتها الإسلامية. هـذا فضلا عن أن الأمر بـغض البصر للـرجل والمرأة ؛ يقول الحق سبحانه:

ـ ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بمـا يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحـفظن فروجهن ولا يبديـن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربـن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لـبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهـن أو أبنائهن أو أبناء بعولتـهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بـنى أخواتهن أو نسائهن أو مـا ملكت أيمانهن أو التابـعين غير أولى الإربة من الرجال أو الـطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلَم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور / 30-31]

ـ ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك

أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما﴾ [الأحزاب / 59]

ويقول رسول الله ﷺ :

ـ «الرافلة فى الزينة فى غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها» (رواه الترمذى)

ومن إغلاق أبواب الزنا أن أباح الله تعالى تعدد الزوجات ، مثنى وثلاث ورباع ، بشرط العدل بينهن(1) ، ولم يجعل التعدد بغير حدود ، كما كان الأمر فى شريعة موسى عليه السلام ، التى هى شريعة لليهود والنصارى ، لكنهم تنكروا لها رغم أنها مكتوبة فى نسخ التوراة الحالية .. (تكوين : 9/28).

ولنفس السبب شرع الله تعالى الطلاق مرتين ، وفى الثالثة يكون التفريق بين الزوجين بإحسان . وقد كان الطلاق والرجوع بلا حدود فى شريعة موسى ، وعند العرب ، فكان ذلك يؤذى المرأة، فحدد الشارع العظيم:

﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان...﴾ [البقرة / 229]

وحرم النصارى الطلاق فوقعوا فى حرج شديد.

وقد أمر المسلمون باعتزال النساء فى المحيض ، وحال نزول الدم عقب الولادة ، حتى يطهرن ، منعا من الأذى ، وتطهيرا وسموا بالعلاقة الزوجية ، ورفقا بالمرأة ، دون تحقير لها:

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن. فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة / 222]

ومن إغلاق أبواب الزنا أيضا أنه يحرم على المرأة أن تهجر فراش زوجها ، أو تمنع نفسها عنه ، إلا لعذر شرعى ، ولا يجوز لها أن تسافر للحج أو للعمرة ، أو أن تصوم صيام تطوع إلا بإذن زوجها . وعلى الزوج فى المقابل أن يحسن معاشرتها ، وأن يتودد إليها ويلاطفها . يقول الله جل شأنه:

﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا

---

(1) أورد الفقهاء والعلماء حججا كثيرة لتوضيح الحكمة من التعدد ، لكن أهمها فى تقديرى أن النساء غالبا ما يكن أكثر من الرجال عددا ، خاصة فى المجتمع المجاهد فى سبيل الله . فكيف يكون الحال والرجل لا يتزوج سوى امرأة واحدة ، وبعض الرجال لا يتزوجون لسبب أو لآخر؟ أليس الأكرم والأطهر للمرأة والرجل أن يشرع الله تعدد الزوجات؟

أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾ [البقرة / 222]

لذا فلا يتصور أن يكون فى الإسلام ، كما فى الغرب الآن ، جريمة تسمى جريمة اغتصاب الزوجة!!

ذلك ، وفى المقابل يحرم على الرجل أن يظاهر امرأته ؛ أى أن يحرِّمها عل نفسه دون طلاق بائن ، فإن فعل كانت عليه كفارة . وذلك حتى لا يؤذى زوجته ، أو يحط من كرامتها ، كامرأة تريد أن تشعر دائما بأن زوجها يرغب فيها ... كما يحرم هجر الرجل زوجته عمدا ودون عذر شرعى أكثر من أربعة أشهر ، ولا أن يذرها كالمعلقة ، لا هى بالمتزوجة ولا هى بالمطلقة فيؤذيها . يقول الحق سبحانه:

ـ ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتِهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾

[المجادلة / 4:2]

ـ ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ [البقرة / 226-227]

ـ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة...﴾ [النساء / 129]

وقد شرع الله تعالى العدّة للمطلقة وللمتوفى عنها زوجها ، صيانة للأنساب ، وتكريما للأب وللأم وللأولاد، وهذا يتسق أيضا مع تحريم بعض النساء اللاتى يتصلن بالرجال بأواصر رحم(1) أو نسب قوى ، أو رضاعة؛ لأن هذه الأوامر يرجى بها الدوام ، وينبغى لها التكريم ، والترفع عن الاطلاع على العورات:

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء

---

(1) تروى نسخ التوراة الحالية أن يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين [تكوين : 30:21/28] . وزواج المحارم مشروع عندهم [سفر الخروج : 20/6].

سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما﴾ [النساء / 22-23]

وقد حرم الإسلام الزنا تحريما مطلقا ، ولو مع مشركة أو مشرك(1) ، وحذر الإسلام من ارتكابه أو ارتكاب مقدماته ، التى تؤدى إليه غالبا ، فقال الله تعالى:

- **﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾** [الإسراء / 31]

وأحل الإسلام الزواج من اليهوديات والنصرانيات ، كالمسلمات سواء بسواء ، فقال تعالى:

- **﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان...﴾** [المائدة / 5]

لكن لا يجوز للمسلمة الزواج بغير المسلم مطلقا ، لأن القوامة والولاية ستكون بيده ، والطاعة ستكون واجبة له.

وللسمو بالعلاقة بين الرجل والمرأة كان الزنا اعتداء على الكرامة البشرية ، فشُرع له حدٌّ، وعقوبات تبعية:

- **﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾**

[النور / 2]

والحد هنا فيه إيذاء بدنى ، وتشهير بالزانى ، يتناسب مع قدر اعتدائه على الكرامة البشرية، ومع اليقين اللازم لثبوت الجُرم ، وضرورة شهادة أربعة شهداء ، ولتحذير المؤمنين من الزواج بأى من الزانى أو الزانية...

---

(1) إذا زنى يهودى بغير يهودية ، أو غير يهودى بيهودية فكأنما جامع أحدهم حيوانا ، ولا يكون أى منهم زانيا ، ولا يعد المولود من أم غير يهودية يهوديا إلا إذا تهود ، رغم أن الزنا محرم فى التوراة مطلقا (خروج : 14/20).

ـ ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ [النور/ 5]

ومن العقوبات التبعية أيضا تغريب الزانى عن المجتمع لمدة عام . أما إذا كان الزانى محصنا فإن عقوبته هى الرجم:

ـ عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجُهنىّ رضى الله تعالى عنهما أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لى بكتاب الله تعالى ، فقال الآخر ـ وهو أفقه منه ـ نعم فاقض بيننا بكتاب الله ، وأذن لى ، فقال: «قل». قال (الأعرابى) : إن ابنى كان عسيفا على هذا (أجيرا عنده) ، فزنى بامرأته ، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغْدُ يا أُنَيْسُ إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها» (متفق عليه ـ واللفظ لمسلم)

ـ «رجم رسول الله ﷺ رجلا من أسْلَم ، ورجلا من اليهود ، وامرأة» (رواه مسلم)

وقتل الزانى المحصن ثابت فى التوراة (لاويين : 12:10/20) ـ (تثنية : 23/22). ومع ذلك أنكره اليهود ، يقول الله تعالى فى هذا الأمر:

﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ [المائدة / 43]

ولئن كان اليهود قد تولوا وأنكروا حكم الله ، فقد فعل النصارى نفس الشيء ، فنسبوا للمسيح عليه السلام أنه لما جاءوا إليه بامرأة زنت ، وقالوا له : «وقد أوصانا موسى فى شريعته بإعدام أمثالها رجما بالحجارة ، فما قولك أنت؟» ... فاعتدل وقال لهم : «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر» (الإنجيل كما دونه يوحنا :8:3/8)[1] . لذا فقد بلغت درجة الاستهانة بمعصية الزنا عند الغرب أن أصبح من الأمور التى لا تتعارض حتى مع الطباع السوية والأخلاق ، بل اعتبروه من الخبرات البشرية... ومن الثقافة الجنسية التي يلزم

(1) نجد أن نُسَخ الإنجيل الحالية تحتوى على نصوص تنسخ ما جاء بشريعة موسى في مجالات الزواج والطلاق والقصاص وغيرها .. والأصل أن عيسى عليه السلام لم يأت بشريعة مستقلة وإنما جاء ليصحح لليهود ما التبس عليهم من شريعة موسى ، وليحل لهم بعض الذي حُرّم عليهم :

ـ ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ...﴾ [آل عمران / 50].

تنشئة الشباب عليها وتوعيتهم بها، وحاولوا تصديريها لنا من خلال مؤتمر السكان والمرأة.

والحقيقة التى قررها القرآن الكريم أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت ناسخا لشريعة موسى ، وإنما جاء كما قال الحق سبحانه:

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد ...﴾ [الصف / 6]

وقد جاء فى نسخ الإنجيل الحالية ما يناقض إلغاء حد الزنا وغيره مما جاء في شريعة موسى عليه السلام ، مثال ذلك:

«لا تظنوا أنى جئت لألغى الشريعة أو الأنبياء ، لن يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة ، حتى يتم كل شىء» . (الإنجيل كما دونه متى : 18:17/5) ، وكذلك (مرقس: 12:11/10) ، و(لوقا :36:27/6) .

إن الحكمة من وراء تنظيم العلاقة الجنسية بين البشر تنظيما إلهيا هو ضمان طهارتها ، وأدائها على الوجه الصحيح ، وحفظ ما ينتج عنها من نسل ، لذا حرم الله تعالى عددا من الأمور ؛ إما لضررها البالغ بالإنسان ، أو لأن من شأنها أن تقلل نسل الأمة:

ـ **حرّم السِّحاق** (بين النساء) ، **واللواط** (بين الرجال) ، وحرم ما يؤدى إليهما ، لأن ذلك يؤدى إلى تقليل النسل البشرى ، أو قطعه ، ويؤدى إلى أمراض تفتك بالجنس البشرى ؛ لذا قال تعالى:

ـ ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما﴾

[النساء / 15-16]

ـ وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال:

«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد» . (أى :لا يضطجعان متجردين تحت غطاء واحد). (رواه مسلم)

وعلى الرغم من تحريم اللواط فى شريعة موسى ، وأن جزاء من يأتيه القتل ... «وإذا

اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا . إنهما يقتلان . دمهما عليهما» (لاويين: 13/20).

إلا أن الحضارة الأوروبية تعتبر مثل هذا الشذوذ من قبيل الحريات الشخصية التى تتم حمايتها بالقانون ، بل باستخدام كل الوسائل التى تكفل قبول الثقافات الأخرى لما أصبحوا يعتبرونه صورة من صور الأسرة ، التى تباركها الكنيسة وتعترف بها ، وتنادى بالاعتراف بحقوق الشواذ على نطاق أوسع ، حتى يصبح من حقهم أن يكونوا قساوسة! (1)

ـ **حرّم العزل** بهدف تحديد النسل، إلا مخافة هلاك أو ضرر محقق يصيب أحد الزوجين.

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: أصبنا سبيا فكنا نعزل (حتى يسهل بيعهن، فسألنا رسول الله ﷺ فقال : أوَإنكم لتفعلون؟! (قالها ثلاثا) ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة».

ولا غرو ، فالأمة فى حاجة دائمة إلى نسل كثير قوى يعمر الأرض ، ويجاهد فى سبيل الله، ولئن جاز للزوجين ـ فى حالات المرض والضرورة التى تقدر بقدرها ـ أن يعزلا فيباعدا بين الحمل والحمل ، فإن تنظيم الإنجاب أو تحديده أو منعه ليس مباحا على إطلاقه ؛ لأنه يضر بمصلحة الأمة فى نسل قوى كثير، وهذا هو الأصل.

ـ **حرمة الامتناع عن الزواج** إلا لعذر شرعى؛ كعدم القدرة على معاشرة النساء، لعلة جسمانية أو نفسية ، يقدرها الطبيب المسلم التقى، فلا رهبانية فى الإسلام ، ففيما رواه البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه حديث طويل جاء فيه:

« ... وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فقال رسول الله ﷺ : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

(1) Bishop of Durham urges rethink on gays in the Church, The Times Monday November 7, 1994.

ـ ويرى البعض في الغرب أن مثل هذا السلوك الشاذ متأصل في الثقافة الغربية ، فيذكر فلسفة أفلاطون، وقصائد ميخائيل أنجلو، وشكسبير، بل يتجرأ الكاتب فيذكر داود عليه السلام، وينسب له هذا الفعل. وكثيراً ما تجد تحريفاً في التوراة ينسبُ الخطيئة لأنبياء الله وهم معصومون.

Men and boys, The Sunday Telegraph 30 January, 1994, P. 25 .

ـ **حرمة التبنى** ، يقول الله تعالى:

﴿... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما﴾ [الأحزاب / 4-5]

ومن حفظ العرض أن **تكون للبيت حرمة** من الداخل والخارج، فالبيت مستودع سر الإنسان، وملجؤه، وساتر عورته، فلا يجوز اقتحامه أو دخوله بدون إذن من أهله، بل من الضرورى أن يكون أهل البيت مستعدين لاستقبال القادم، مرحّبين مستأنسين بقدومه . فإن لم يكن فى البيت سوى النساء فلا يجوز دخول غير المحارم ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه عقبة بن عامر رضى الله عنه :

«إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحَمْو؟ قال : «الحمو الموت». (ويقصد بالحمو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه .. إلخ) ـ (متفق عليه)

وقد فصّلهما كتاب الله تعالى فى قوله:

ـ **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم. والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾** [النور / 58:60]

وفى هذا صيانة للطفل وللخادم ، وهما أكثر الناس تعاملا مع أهل البيت ، من أن تقع أبصارهما على ما يؤذى أو يثير الغريزة ، وهو تنظيم يرفع الحرج عن الكافة ويحفظ العرض ويصون الكرامة، فقال تعالى:

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم. ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾

[النور / 29:27]

وتعد سمعة الإنسان وصفاته وسماته وأسراره من الأمور التى إذا تم المساس بها ، كان هذا بمثابة انتهاك عرضه ؛ لذا حرّم الإسلام عددا من الأمور فى هذا المجال:

ـ حرم الإسلام رمى الناس بغير ما اكتسبوا ، وخص من يتهم أحدا بارتكاب جريمة الزنا، دون أن يأتى بالنصاب الشرعى للشهادة فى هذه الحالة، خصه بعقوبة أصلية وأخرى تبعية، هما حد القذف:

ـ ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾

[الأحزاب / 58]

ـ ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [النور / 19]

ـ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ [النور / 4-5]

وهناك حالة خاصة ، وهى أن يكون الزوج هو الذى شاهد زوجته وهى ترتكب الفاحشة ، وهذه الحالة كانت مناسبة لتنزيل الآيات 9:6 من سورة النور:

ـ فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سأل فلان فقال: يا رسول الله أرأيت لو وجد أحدنا امرأته على فاحشة كيف يصنع: إن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك؟ فلم يجبه. فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: إن الذى سألتك عنه قد ابتليت به ، فأنزل الله تعالى قوله:

ـ ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾.

فتلاها عليه ووعظه وذكّره وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ... ثم دعاها فوعظها كذلك ... ثم فرّق بينهما» (رواه مسلم)

فبعد أن يقسما يفرّق بينهما ، ويلحق الولد بأمه ... وحساب كل منهما على الله.

ـ **حرم الإسلام كذلك الجهر بالسوء من القول**، إلا من ظُلم، والسخرية والاحتقار والازدراء والهمز واللمز والسب.

ـ ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلِم وكان الله سميعا عليما﴾

[النساء / 148]

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ [الحجرات / 11]

ـ **كما حرم الإسلام التجسس** للاطلاع على الأسرار أو العورات ، وحرم الغيبة والنميمة:

﴿ ... ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ [الحجرات / 12]

لقد كرم الله تعالى الإنسان باستخلافه في الأرض ، وكان من مقتضيات الخلافة أن جعله ـ دون سائر المخلوقات ـ مستخلفا على ما في الأرض من صنوف المال ؛ لذا كان ضروريا أن يرتبط تكريم الإنسان بحفظ المال.

حفظ المال:

والمال في أصله ملك لله تعالى:

﴿ ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ﴾. [آل عمران / 189]

وفي إطار خلافة الإنسان في الأرض، وتسخير ما في الكون له، أضاف الله تعالى ملكية

المال إلى الإنسان[1] يتصرف فيه في حدود الوكالة؛ فالمسلم يتملك المال مجتنبا طرق الحرام، ويؤدى ما عليه في المال من تكاليف شرعية، وينفق بعد ذلك كما يشاء فى طعام أو شراب أو لباس أو مسكن ، دون سرف ولا مخيلة ، ولا يضع المال فى حرام:

ـ ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾

[الإسراء / 29]

ـ ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ [الأعراف / 32]

ويتقرب الإنسان المسلم إلى الله بالمزيد من الإنفاق فى سبيل الله، فيسهم فى حفظ كرامة الأمة، والإنفاق على الفقراء والمساكين ، السائلين منهم والمحرومين، فيسهم فى حفظ كرامة أفراد الأمة، وفى نزع الحقد والحسد من الصدور ، وفى إشاعة المحبة بين الناس من خلال الهبات والهدايا.

ولا يجوز لكائن من كان أن يقهر المسلم، أو غير المسلم، ممن يعيشون فى مجتمع المسلمين، فيأخذ ماله بدون عوض، أو رضى منه، فذلك يشبه قتل النفس بغير حق:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ [النساء / 39]

والمال هو العنصر الوحيد من عناصر تكريم الإنسان الذى جُعل له مكنة التصرف فيه بعد الموت؛ بأن يوصى ببعضه، أو يقف ما يشاء منه ، بما لا يتجاوز الثلث . وهو العنصر الوحيد أيضا الذى ينتقل إلى آخرين بعد الموت، من خلال الميراث المنضبط ، الذى فصّله الله تعالى فى كتابه العزيز، فجعل لكل وارث رجلا أو امرأة «نصيبا مفروضا» ، وبينته السنة النبوية القولية والعملية ، وسار المسلمون على ذلك إلى يومنا هذا. ومن تكريم الله تعالى للإنسان أن جعل إرادة الموصى بجزء من المال، سابقة ومقدمة على الميراث الذى شرعه الله تعالى:

---

(1) يقصد بذلك : زكاة المال، وصدقة الفطر، والأضحية، والعقيقة، والهدى إذا وجب ، ونفقة الزوجة والأبناء ، والأقارب إذا وجبت، وأداء الكفارات إذا وجبت، والوفاء بالنذر.. ثم بعد ذلك يقدم من الصدقات التطوعية، والإنفاق في سبيل الله ، ما يتقرب به إلى الله عز وجل.

يقول الله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾** [البقرة / 261]

﴿ ... من بعد وصية توصون بها أو دين ... ﴾ [النساء / 12]

وكل هذا مشروط بأنه «لا وصية لوارث»، ولا وصية فى مرض الموت، وإلا بطلت ، حفاظا على حقوق الورثة.

ولأن استخدام المال لا ينصرف إلى مالكه فحسب، وإنما تتعلق به مصالح أفراد آخرين، ومصلحة المجتمع ككل، فقد وازن الإسلام بين هذه المصالح، واعتبرها جميعا؛ فمنع السفهاء والمجانين واليتامى (قبل بلوغهم الرشد) ، من التصرف فى المال، وجعل لهم نفقاتهم بالمعروف من هذا المال، ويتولى أولياؤهم إدارة باقى المال، حتى لا يؤدى سوء تصرف أولئك فى المال إلى إحداث الاضطراب فى المعاملات وفى العلاقات الاجتماعية بصفة عامة:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا. وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا﴾ [النساء / 5-6]

ولما كانت المسئولية فى الإسلام فردية بالدرجة الأولى ؛ إذ الفرد مسئول عن نفسه ومجتمعه فى آن واحد، ولما كانت التكاليف الشرعية فردية بالدرجة الأولى، وما يوجه منها للجماعة فهو موجه لكل فرد فى هذه الجماعة أصلا ـ كان من الطبيعى أن تكون مكنة اكتساب المال وامتلاكه فردية كذلك «غرم بغنم» ، لذا فإن من يتدبر القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة لن تصادفه نصوص تدعو للاشتراكية كتلك التى نجدها فى الشرائع السماوية السابقة مثل: (سفر اللاويين: 23/25) ، (لاويين: 34:31/25) ، (خروج : 17/ 16)، (تثنية : 2:1/15) ، (أشعياء: 20/32)، فنسخ التوراة الحالية تدعو إلى مجتمع لا ملكية فيه للأفراد، بل تكون الملكية على الشيوع. وعند النصارى نجد فى سفر (أعمال الرسل:46:44/2): «وجميع الذين آمنوا كانوا معا وكان كل شىء مشتركا. والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج».

لذا كانت أوروبا أرضا خصبة للاشتراكية الخيالية (اليوتوبيا)، فنمت وترعرعت، وطُبقت فيها الاشتراكية الإلحادية المسماة بالعلمية (الماركسية) ، ولا تزال الأفكار، بل والأحزاب والتنظيمات الاشتراكية «الإصلاحية» فى أوروبا وإسرائيل قوية ، تستمد غذاءها الفكرى والروحى من نصوص «الكتاب المقدس» (العهد القديم ـ العهد الجديد)... فى حين لم تُرزأ أمتنا الإسلامية بهذه الأفكار ، التى قوامها هدم نظام الملكية كما فصّله رب العالمين، وهدم نظام المواريث، وتعطيل فريضة الزكاة، والاعتداء على غريزة حب التملك ، التى جعلها الله تعالى فى الإنسان حافزا له على العمل والاجتهاد لإعمار الأرض، وهذبها بأحكامه .. لم تُرزأ الأمة بهذه الأفكار الغربية عن نصوص الإسلام وروحه ، إلا بعد أن فتحت أبوابها للغزو الثقافى الغربى منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، واستسلمت أمامه.

ولقد حمت الشريعة المال بحدين من حدود الله تعالى، الأول هو حد السرقة، والثانى حد الحرابة الذى يطبق على قاطع الطريق الذى يخيف الناس ويسرق مالهم بالإكراه:

ـ **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾** [المائدة / 38]

ـ **﴿ ... أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ...﴾** [المائدة / 33]

مما سبق نجد أن «تكريم بنى آدم» قيمة عليا إسلامية، **وعناصرها الخمسة** فرائض من الله تعالى، فهى عمل إيجابى يشعر الإنسان، مسلما أو غير مسلم، فى ظلها بالأمان وبتقدير الذات، وسمو المكانة الاجتماعية، وبالاستقرار النفسى، وبأنه عضو له قيمته ودوره الذى لا غنى عنه ، وأنه محب للمجتمع، محبوبٌ فيه، فلا يحقد ولا يحسد ، وإنما يتعاون وينتج، ويتعاظم شعوره بالولاء للمجتمع، وبرغبته فى التضحية فى سبيله ، وإيثاره على نفسه.

فإذا ما سادت هذه الروح لدى غالبية أفراد المجتمع من المؤمنين، أو حتى لدى الكثيرين منهم ـ ارتفع مستوى «إرادة الأمة»، وهو عنصر مضاعِف لقوتها المادية الشاملة.

رد شبهة :

وحتى تكتمل جوانب الموضوع فقد يكون مناسبا الإشارة إلى أن بعض المسلمين قد التبس عليه الأمر، فظن أن هناك تطابقا، أو قرابة بين «تكريم بنى آدم» ، كقيمة إسلامية عليا، و«حقوق الإنسان» Droit de I,homme, - "Human rights" كقيمة عليا فى الليبرالية

الغربية.

وقد تحدث بعض هؤلاء فيما سمّوه «حقوق الإنسان الإسلامية» ، و«الحقوق الشرعية للإنسان»، و «حقوق الإنسان المسلم» ، بل وصدر ما سُمِّى «الإعلان الإسلامى العالمى لحقوق الإنسان» فى باريس عام 1981م.

فما قيمة حقوق الإنسان فى ميزان الإسلام؟

لن نصادر على المطلوب ونصدر الحكم قبل بحث مصدر فكرة «حقوق الإنسان» وطبيعتها ومضمونها ، وما تؤول إليه، وذلك من الكتابات الغربية (1).

فما مصدر فكرة حقوق الإنسان ومضمونها وطبيعتها؟

لا تجد فكرة حقوق الإنسان مصدرها فى أى كتاب أنزله الله تعالى، ولا يدعي أحد بهذا وإنما نجدها وقد اشتقت من فكرة «القانون الطبيعى» Natural Law ، التى استخرجها فلاسفة أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من الكتابات الفقهية الكنسية لـ «سان توما الإكوينى». و «القانون الطبيعى» ليس قانونا بالمعنى الدقيق، ولكنه مجرد «افتراض» أن هناك «قواعد عقلانية منطقية» سابقة على وجود الجماعة البشرية، وأن هذه القواعد تلقى قبولا عاما من الإنسان ، وأنها هى مرجع القوانين الوضعية ومعيارها ، وأنها تحتوى على «حقوق طبيعية» للإنسان تولد معه وتظل لصيقة به ، ومن ثم فهى تحد من سلطة الدولة فى علاقاتها بالأفراد، فى الوقت الذى لا تفرض فيه على الفرد أية واجبات مقابل تمتعه بهذه الحقوق وممارسته لها.

فحقوق الإنسان فكرة «علمانية» Laique - Secular ، «افتراضية تحكمية»، تعتبر بمثابة سياج حول الفرد يمنع من تدخل الدولة، فهى بمثابة «دفاع سلبى عن الأفراد ، لا تتطلب لممارستها قيامهم بعمل ما... مع أن العدل والمنطق يقتضيان التلازم بين الحق والواجب، وأن

(1) Norman P. Barry, An Introduction to Modern Political Theory, The Macmilan Press LTD, 1981, pp. 182 _ 199 . Rodee & Others, Introduction To Political Science, Mc Graw - Hill Kogakusha, LTd, 3rd Ed., 1976, pp. 45 _ 69 .
William c. Olson & Others , The Theory and Practice Of International Relations, Brintic-eHall, Inc., 6th Ed., 1983, pp. 365 - 388 .

يقدّم الواجب ليكون مبررا لصاحب الحق أن يطالب بحقه.

وقد صيغت فكرة حقوق الإنسان ، منذ البداية، صياغة أدبية عاطفية، فضفاضة غامضة، ولم تُحدد لها ضوابط ، ولا يعرف ـــ حتى الآن ـ من ذا الذى يلتزم بوضعها موضع التطبيق، وكيف؟ وما جزاء عدم تطبيقها؟ وإن كانت «منظمات حقوق الإنسان» ، غامضة الهوية، تمارس نشاطا عالميا واسع النطاق، إلا أنها لا تسعى حقيقة إلى إدخال حقوق الإنسان فى النظم القانونية للدول لتتمتع بحماية قضائية، بقدر ما تسعى إلى استعمالها سيفا مسلطا على بعض النظم الحاكمة لإرهابها، فى إطار سياسة خارجية لها صفة «الكوكبية» ، فحقوق الإنسان تعد وسيلة ردع وتدخل وإكراه من قبل الدول الأقوى، والمنظمات المانحة للمعونة والقروض، وأداة للضغط المعنوى لإجبار الأمم الأخرى على انتهاج سياسات داخلية وخارجية بعينها ، وإلا تعرضت لعقوبات واضطرابات.

ومن هنا نجد اختلافا جذريا بين «تكريم بنى آدم» كقيمة عليا، ومجموعة من الفرائض الإسلامية التى تحميها دعاوى قضائية، ويطبق على منتهكها حدود شرعية، وبين فكرة «حقوق الإنسان» التى خرجت من مصادر غير إسلامية ، وليس لها مضمون وطبيعة مقبولة شرعا أو عقلا... ولم تنبع من أو تدخل فى إطار أى نظام قانونى ، فهى لا تعد حقوقا على وجه الدقة ، ولا هى نتاج تكليف أحد من الناس بواجبات!

ونظرا للظروف التاريخية والجغرافية التى نشأت فيها فكرة حقوق الإنسان ، فإن جوهر الفكرة يقوم على افتراض «المساواة التامة» بين كل البشر ، ولما كان من المستحيل إنكار الفروق الواقعة بالفعل بين البشر لاختلافهم فى الأجسام والعقول والعلم والأرزاق، ولوجود الرجال والنساء، وما فضل الله تعالى به بعض الناس على بعض ـــ فإن أساس الفكرة قد تهاوى من قبل أن نبدأ البحث. ولكن يبقى، أن دعاة فكرة حقوق الإنسان قد حولوا جوهر الفكرة ، وهو أمر خيالى، إلى غاية ، شَغبا منهم ومكابرة. فهل يقبل الإسلام أن تكون أحد غاياته المساواة التامة بين البشر؟

وإن تعجب فعجب أن ترى فكرة المساواة ، التى اخترعها اليهود فى أوروبا، حتى يصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى كغيرهم من نصارى أوروبا، ونقلوها إلى تنظيمهم

السرى العالمى المسمى «الماسونية» ، وصاغوها فى شعار الثورة الفرنسية[1] ـ تراها وقد رضيها بعض علماء المسلمين ، ونسبوها للإسلام، دون تدبّر كاف، والإسلام منها بريء ، ولا يزيد دين الله شرفا أن تُدخل فيه فكرة تناقض سنة الله تعالى فى خلقه. ويظن هؤلاء، غفر الله لهم، أن الآية القرآنية الكريمة التالية تقرر المساواة:

ـ **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** [الحجرات / 13]

إن مجرد الخلق من أب واحد وأم واحدة لا يقتضى التساوى، بحسب المشاهَد من سنة الله تعالى، لا فى الجسم ، ولا فى العلم، ولا فى الفهم، ولا فى الإيمان.... ولا في غيرها ، حتى لو كان الأولاد قد ولدوا توائم لا يفصل بين ولادة أحدهم والآخر سوى دقائق معدودة. كما أن الآية شاهدة على الاختلاف «لتعارفوا» ، ولولا الاختلاف ما عُرِف زيد من عمرو. وهى شاهد على التفاضل «فالأتقى» عند الله أفضل وأكرم .. كقول رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع:

«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ...» ؛ وكقوله:

ـ «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ...».

فإذا رجعنا إلى كتاب الله تعالى، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإننا لن نجد كلمة «يستوى» أو ما يدل على المساواة ولا مرة واحدة، بل سنجد عكس ذلك تماما: «هل يستوى» ـ «لا يستوى» ـ «فضّل الله» ... وهاكم جانبا من آى الذكر الحكيم

---

(1) صدر أول إعلان لحقوق الإنسان بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1776 م، قبل صدور الدستور بعامين، ثم صدر الدستور الفرنسي عام 1789 متضمنا لحقوق الإنسان. وصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في إطار المنظمة العالمية للأمم المتحدة بعد ثلاث سنوات من قيامها، أى في 10 ديسمبر عام 1948 . وعقد أول مؤتمر قمة لحقوق الإنسان في يونيو 1993م . وعلى الرغم من أن اليهود كانوا وراء فكرة «حقوق الإنسان» والترويج لها ، فلا يوجد في إسرائيل دستور مكتوب ، ولا إعلان لحقوق الإنسان ، وذلك لأن العقيدة اليهودية تحرم المساواة بين الرجل والمرأة ، بل ولا تعتبر غير اليهودى من سلالة آدم، بل عتبر أن اليهود هم شعب الله المختار، وغيرهم أدنى منهم درجة.

Edouard Drumont, La France Juive, C. Marpon & E. Flammarion, T.1, 6 ieme Ed., 1883, pp. 141 - 525.

نستدل به على ما نقول:

- ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾
[الإسراء / 21]

- ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾
[الزخرف / 32]

- ﴿ **... نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام / 83]

- ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾
[الزمر / 9]

- ﴿**لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما**﴾ [النساء / 95-96]

بل إن الله تعالى قد فضل بعض رسله وأنبيائه على بعض ، فقال جل شأنه:

- ﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا** ﴾ [الإسراء/ 55]

- ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم اللهُ ورفع بعضهم درجات..**﴾ [البقرة / 253]

ولم يسوِّ الله تعالى بين الرجل والمرأة فى الخلق ، لاختلاف وظيفة كل منهما فى الحياة، واختلاف مسؤوليته وصلاحياته ، لذا يقول الله تعالى: ﴿**... وليس الذكر كالأنثى...**﴾ [آل عمران: 36]، وقال تعالى:

- ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...**﴾ [النساء / 34]

ولأن الأسرة مجتمع صغير منظم ، فهي تحتاج إلى رئاسة ، ولا يتساوى الرئيس مع المرؤسين:

- ﴿ **... ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾
[البقرة / 228]

وعلى الرغم من أن تبنى «النظام العالمى الجديد» لفكرة المساواة بين الرجل والمرأة، بل وأكثر ، إذ يتبنى ما يسمى بفكرة «التمكين للنساء» empowering For women ، واشتملت كل مؤتمرات القمة التابعة للأمم المتحدة خلال عقد التسعينيات على هذه الفكرة ـ على الرغم من هذا، فقد ازدادت مؤخرا البحوث العالمية التى تثبت خطأ هذه الفكرة[1].

وإذا كان الله تعالى «يأمر بالعدل» ، فإن مقتضى العدل ألا يتساوى من خُلقوا وعاشوا غير متساوين ، والقول «بالمساواة أمام القانون» هو نوع من المشاكسة والعناد، لأن تطبيق القانون يدخل تحت مفهوم العدل، والقضاء فى أي أمر من الأمور تراعى فيه ظروف الحادث وظروف مرتكبه، دون محاباة. وما يقال عن المساواة أمام القانون يقال أيضا عن «تكافؤ الفرض»، فهو ضرب من ضروب العدل، وليس مساواة بين الناس، لأن من تتاح لهم الفرص المتكافئة وليسوا متساوين منذ البداية، لن يحققوا من خلال الفرصة المتكافئة نفس النتيجة، ومن ثم لن يكونوا متساوين فى النهاية، ولو تساووا ـ فرضا ـ لاستحال الاختيار ولفسدت الأمور.

ذلك ، وتضطرب حجج القائلين بالمساواة ، فيقولون إن المقصود هو المساواة النسبية وليست المساواة المطلقة ، وهو قول واهٍ ، فإذا كان العدل الذى أمرنا الله تعالى به، وجعله قيمة عليا واسما من أسمائه، هو العدل المطلق، فإن المساواة النسبية المضطربة تُفسد العدل إذا اجتمعا!

هذا، ولا يكون التفاضل فى الإسلام بسبب عرق أو لون أو طبقة أو جنس، ولا بسبب غنى أو فقر، أو نسب، ولكن تفاضل الناس فيما بينهم له معايير دقيقة فى الإسلام: فلا يستوى المؤمنون والكافرون: **﴿لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾** [الحشر / 20]

ولا يستوى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف، فـ«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

والأكثر علما هو الأفضل ، والأفضلية للأتقى من بين المؤمنين، والمجاهد فى سبيل الله

(1) Gray Mahers, Newsweek, March 27, 1995 , pp. 42- 48.
Women and men Do Think Differently, Science Says, International Herald Tribune, Feb. 17, 1995, p. 1 & 10 .

أفضل من القاعد. ولو تساوى الناس لفسدت الأرض، ولما اتخذ بعضهم بعض سُخْريا، ولتنافس الناس جميعا على أعلى مناصب الرئاسة والسلطان، ولتركوا ما دون ذلك من الأعمال، فطرة جديدة.

والمدهش أنك تجد الغربيين ممن يرفعون شعار «المساواة» يقولون : «إن عدم المساواة الاقتصادية هدف فى حد ذاته وإلا اضطرب المجتمع!». فإذا قلنا بعدم المساواة الاقتصادية، وهى سنة لا تغيب حتى عن المجتمعات المغرقة فى الشيوعية، فكيف نقول بالمساواة البدنية والعقلية وغيرها، مما هو أبعد من الاقتصاد أن يتساوى فيه البشر؟

وببطلان فرية المساواة[1] يتداعى الأساس الباطل «لفكرة حقوق الإنسان» ، وتستبين استحالة الغاية التى تسعى إليها هذه الفكرة.

وبفرض أن البعض قد حاول الالتفاف حول هذه الحجج القوية المؤيدة بالنصوص المحكمة من كتاب الله تعالى، والتى لا تقبل التأويل ، وحاول أن يكون أكثر تمسكا «بالمذهب الليبرالى» «اليهودى / النصرانى الأوروبى» ـ ممن افتروه بأنفسهم، وانتقدوه بأنفسهم ، فإننا نحيله إلى النتائج التى آلت إليها فكرة حقوق الإنسان، وما ستصير إليه هذه الفكرة مستقبلا، لنتساءل : هل يقبل الإسلام، بل هى تقبل أية شريعة إلهية أخرى، مهما نالها من تحريف، النتائج التالية، التى أتت بها فكرة حقوق الإنسان[2] :

ـ أدى القول «بحقوق الإنسان» إلى أن صارت له مكنة استعمال هذا الحق أو التنازل عنه أو إسقاطه، ومن المنطقى أن من يمتلك حق الحياة يمتلك معه حق الممات، لأنهما وجهان لعملة واحدة. لذا قال الحق سبحانه:

---

(1) الغريب الذي يدعو إلى العجب حقا أني لم أجد من علماء المسلمين المعاصرين من رفض خرافة المساواة سوى:

ـ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي حينما قرأ منشور نابليون بونابرت الذي تحدث فيه عن المساواة (بوصفها أحد شعارات الثورة الفرنسية) فقال: « ... هذا كذب وجهل وحماقة ، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض، أي بعض الناس على بعض ، وشهد بذلك أهل السموات والأرض...».

ـ الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود حمل على فكرة «المساواة» بشدة في تحقيقه لكتاب «المنقذ من الضلال» لحجة الإسلام الغزالي، ط 6 ، محرم 1388 هـ ـ 1968 م ، صـ 357:353 .

(2) وللمزيد من الانتقادات القوية التي توجه لفكرة حقوق الإنسان ، حتى لدى معتنقي هذه الفكرة الغامضة غير المنضبطة، يرجع إلى:

-- Norman p. Barry , An Introduction to Modern Political Theory, The Macmillan Press LTD, 1981, PP. 192 -- 199.

﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ...﴾ [البقرة / 258]

فقد افترى ذلك الملك على الله الكذب أن ادعى امتلاك حق الحياة والموت ، ولم يفصل بينهما ، لذا لم تكن الحجة التالية عليه بفصل الموت عن الحياة ، وإنما بقول الله تعالى:

﴿ ... قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ [البقرة / 258]

كذلك قال الحق سبحانه:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام / 162-163]

وقد سار الأوروبيون خطوات مع منطقهم القائل بالحق فى الحياة ، فأصبح لديهم ما يسمى «بحق التخلص من الحياة» ، وظهر هذا فى كتاباتهم الفقهية، بل وكانت «هولندا» أول دولة يوافق برلمانها يوم 30 نوفمبر 1993 م على قانون يُبيح عملية «القتل رحمةً وشفقة»، فيمكن للأطباء القيام بها لتخليص الميؤوس من شفائهم من العذاب! وكم ندد بابا الفاتيكان بما سماه «ثقافة الموت». وقام برحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أكتوبر 1995م، لمكافحة هذه الاتجاهات الباطلة، فقوبل بمظاهرات، استنكاراً لما جاء من أجله.

وقد أصدرت المحكمة العليا فى هولندا حكما اعترفت فيه «بحق المرضى فى أن يختاروا الموت بكرامة» ، وذلك فى قضية مساعدة الطبيب النفسى «بودوين شابوت» Boudewijn Chabot الذى ساعد مريضته هيلى بوشر إندورر Hilly Bosscher Endurer، التى كانت تعانى من اكتئاب نفسى ـ على الانتحار بتزويدها بعقار منوم ممتزج بآخر سام، وتم ذلك يوم 28 سبتمبر عام1991 م فى مدينة روينن Ruinen . ويقول التقرير الذى نقل تفاصيل هذه القضية[1]: إن فى هولندا 2300 حالة «قتل رحمة»، و400 حالة مساعدة على الانتحار سنويا!!!

وقد رحبت شركات التأمين ودور النشر والدعاية والإعلان بهذا «الحق!» ونشرت إعلانات تقول : كما ذكرت وكالة رويتر في 29 يونيو 1994 م ـ «إنك تموت مرة واحدة»، نحن نساعدك على أن تنتقل إلى العالم الآخر في أبهى صورة». وقد انهالت عشرات الآلاف

---

(1) Time, July 4, 1994, P. 45.

من الطلبات على هذه الشركات، ومنها ما كان يطلب أن تشيع جنازته من ملهى ليلي!!

مثل هذا الاتجاه ليس مقصورا على هولندا ، لكنه اتجاه عام يقترب حثيثا من الدخول إلى النظم القانونية للدول «الليبرالية» ، وإن كان هناك بعض التردد، ولا أقول الرفض. ونضرب لذلك مثلا بقضية «أنّي فيرون» Annie Feron ، التي جرت وقائعها في مدينة دواي Douai بشمال فرنسا ؛ والتي قتلت فيها السيدة المذكورة ابنها الأكبر (23 عاما) واسمه مارك Marc ،مما سمّوه «قتل رحمة!» mercy Killing [1]. إن هذه الحالات تعد بمثابة إرهاصات لما صار يسمي بـ «ثقافة الموت» Culture of death !!

ـ وبالمثل إذا قلنا بحق الإنسان المطلق في جسده ونفسه ، ترتب على ذلك أن يكون من حقه بيع ما شاء من أعضاء جسمه، وأن يهب ما يشاء منها ، وأن يوصي بعد موته بما شاء ، ويكون من حق المجتمع أن يتصرف في جثث الموتى، وجثث المشرفين على الموت الذين لا أهل لهم، ببيعها، أو التصرف فيها بأى شكل .

ـ وإذا قلنا بحق الإنسان في عِرْضه، أو ما أصبحوا يسمونه «الحرية الجنسية»، بل إنهم حوّروا هذه التسمية ، خداعا وكذبا، فسموها «الصحة الجنسية» ـ إذا قلنا بحق الإنسان في هذا المجال، فإن من المنطق أن يختار كل إنسان ما شاء من صور الاتصال الجنسي، وتحت حماية المجتمع، فيصبح اللواط والسحاق والزنا بغير إكراه أو ضغط ـ أعمالا مشروعة . ويباح الإجهاض[2] ، وتُلقح المرأة بمني غير زوجها لتنجب لنفسها ، أو لغيرها طفلا غير شرعي، ينسب لغير أبيه وأمه.. وذلك لأن من يملك حقا ـ كما قلنا من قبل ـ يملك تحويله والتنازل عنه وإسقاطه.

كما أن هذا يبيح للزوجين حق الاتفاق على عدم الإنجاب واعتباره شرطا في عقد الزواج، ويبيح التبني ، سواء في داخل الأسرة المكونة من رجل وامرأة، أو ما صاروا يسمونه «الأسرة وحيدة الجنس». مثل هذا السلوك يؤدى بالضرورة إلى حدوث نقص حاد في معدلات المواليد ـ وهو المشاهد الآن في أوروبا ـ فمن أين يأتون بالأولاد للتبني؟ ... لقد

(1) The Sunday Times, October 30, 1994, P. 19.

(2) تتبنى إدارة الرئيس الأمريكي كلينتون فكرة مشروعية الإجهاض ، باعتباره حقا من حقوق المرأة، ليس فقط على المستوى الفيدرالي الأمريكي، إذ يحميه القانون، بل على المستوى العالمي، لذا كان الإجهاض من الأمور الرئيسة التي احتوتها وثيقة السكان، التي صدرت يوم 13 سبتمبر 1994م فيما سمى بإعلان القاهرة للسكان، والذي حضره آل جور نائب الرئيس الأمريكي، كما ركزت عليه وثيقة المرأة التي صدرت في بكين في سبتمبر 1995م.

اتجهوا إلي سرقة الأطفال اليتامى، مستغلين الفوضى التى أحدثوها في مجتمعات كالبوسنة والصومال ورواندا وغيرها...

غالب هذه الأمور صارت مشروعة في أوروبا وأمريكا، وصدرت القوانين لحمايتها، بل وأصبحت الكثير من الكنائس تقر معظمها ، لدرجة أن عقود اللواط والسحاق والتبنى تتم بإشراف الكنيسة ومباركتها ، وشغلت الحكومات والبرلمانات ومراكز البحث ووسائل الإعلام والنشر بها، وبآثارها، وبكيفية تذليل هذه الحياة الشاذة، التي لا يُقرها أى شرع سماوى أو طبع سليم! لكنها النتائج المنطقية التي تترتب على مقدمات خاطئة ، مفادها: أن للإنسان حقوقا لصيقة به مستمدة من القانون الطبيعي!

ومن سخرية القدر أن تشغل هذه الأمور جزءا مُهمًا من الفكر **الاستراتيجي العالمي**، وأن تبحث في مؤتمرات القمة المختلفة التي عُقدت خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين!!

وبتنامي نشاط «الجمعيات غير الحكومية» ونفوذها ، وجلها مرتبط بأفكار حقوق الإنسان، كما تحرّكها ، وتموّلها أصابع صهيونية خفية ـ ارتفعت الأصوات ، وزاد السعي لإلغاء عقوبة الإعدام، واستنكار تطبيق الحدود الشرعية الإسلامية، بوصفها جميعا تمس حق الإنسان في الحياة، وحقه في سلامة جسمه... متجاهلين شرائع الله، التي صدّق عليها القرآن الكريم في قول الله تعالى:

ـ **﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾** [المائدة / 45]

ـ **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾** [البقرة / 179]

والغريب أن فكر حقوق الإنسان وسعْى منظمات العفو لا يقف عند هذا الحد، بل يستهدف إلغاء عقاب المجرم كلية، بحجة أن إجرامه مسؤولية المجتمع كله، فظروف المجتمع هى التى جعلت منه مجرما، فلا يجب أن نحمله وزر ما ارتكب... أي ظلم هذا الذي يحمى المعتدي، وينصره على المعتدَى عليه؟ يقول الحق سبحانه:

ـ **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** [النجم / 38-39]

ـ **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان**

ذا قربي...﴾ [فاطر/ 18]

إن تحميل الإنسان مسئولية عمله هو من قبيل تكريمه، لأن المسئولية شطر التكليف، ومن تكريم الله للإنسان أن كلّفه ، وحمّله الأمانة، وجعله مسؤولا ، يحاسب في الدنيا على عمله، ثم ينقلب إلى ربه فيحاسبه الحساب الأكبر على ما قدم... ونزع المسئولية عن الإنسان يعنى النزول بقدره إلى مصاف البهائم! وإذا حملت عنه المسئولية في الدنيا فمن ذا الذي يحملها عنه يوم القيامة؟

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء / 123]

ذلك، وتتجه أفكار «حقوق الإنسان» بصفة أساسية إلى ما يسمونه «تحرير المرأة»، أو «حقوق المرأة». وقد طورت هذه الأفكار فصيغت في وثائق مؤتمرات القمة التي عقدت في إطار الأمم المتحدة مثل «المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان (فيينا ــ يونيو 1993)، و«مؤتمر السكان» (القاهرة ــ سبتمبر 1994م) ، ومؤتمر القمة الاجتماعية (كوبنهاجن ــ مارس 1995م)، ومؤتمر المرأة (بكين ــ سبتمبر 1995) ــ صيغ فيها ما صاروا يسمونه : «التمكين للمرأة»، أو «تقوية نفوذ المرأة» empowering For Women ، بمعنى دفع المرأة دفعا لتتولى المراكز القيادية ومراكز اتخاذ القرار ، لمجرد أنها امرأة! هذا فضلا عن الدعوة إلى إصدار تشريعات داخلية لتقوية مركز المرأة داخل الأسرة ، لتصبح ندا للرجل سواء بسواء ، بل أقوي منه، بشكل ينزع عن الرجل مركز القوامة في الأسرة ، هذا الذى قرره الحق تعالى له، وهو العليم بطبيعة خلقه وبما يصلح حياتهم.

ومن المفروض ــ حسبما قررت هذه المؤتمرات ــ أن تتولى الجمعيات غير الحكومية ــ وهى جمعيات غامضة الهوية ، تنتظمها علاقات كوكبية مشبوهة ــ تتولى التدخل في علاقات الأسرة بهدف تقوية دور المرأة فيها ، والتمكين لها، وإزالة ما يقف أمامها من عوائق في هذا المجال. إذن فقد استبيحت حرمة الأسرة وحرمة البيوت، وصار التجسس على خصوصيات الإنسان في نظرهم مشروعا!

وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما نادت به وثائق «حقوق الإنسان» من مساواة تامة بين المرأة والرجل في كل المجالات، بما في ذلك المساواة في الميراث ، هو نتيجة ليست غريبة عن أفكار حقوق الإنسان، وهو ما نادت به وثيقة القاهرة للسكان بكل صراحة.

وهذه أمور يستحيل قبولها في مجتمع مسلم يُقرأ فيه قول الله تعالى:

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ...﴾ [النساء / 11]

ويؤمن بأن الله تعالي اعتبر المواريث وتقديرها من حدوده:

﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾ [النساء / 13-14]

لقد أثبتت أحدث الأبحاث العلمية التجريبية(1) أن كلا من مخ الرجل ومخ المرأة مختلفان في التركيب وفي القدرات وفي أسلوب التفكير ، ومن ثم في الحكم على الأمور. ويرجع هذا إلى اختلاف الهرمونات التي تعطي الإنسان صفة التذكير أو التأنيث.

لم يأت العلم بجديد في هذا المجال، فكما جاء هذا الأمر في آيات محكمات لا تقبل التأويل في القرآن الكريم، كذلك نجد في نسخ التوراة والإنجيل الحالية نصوصا شبيهة لا لبس في دلالتها.

ومن ثم فدعاوى «التمكين للمرأة» لن تأتي ـ إذا كتب لها النجاح ـ إلا بإفساد جو الأسرة، الذي أراد الله تعالى له أن يكون مفعما بالمودة والرحمة ، لا بالصراع على السلطة، مما سيؤدي إلى إفساد المجتمعات البشرية.

ومع ذلك فإننا نجد الإسلام قد كرّم المرأة ، ووضعها في مكانة عالية ، لم تبلغها في أى مجتمع على مر التاريخ البشرى كله ، حتى الآن:

ـ فقد وجدنا أن المرأة في المجتمعات الجاهلية كانت تورث كالعقار، وكان الولد يرث امرأة أبيه، وكان وأد البنات نوعا من التخلص من العار ، فنهى الإسلام عن هذه الأمور جميعا:

ـ **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء**

---

(1) سجلت نتائج هذه التجارب بمعرفة عالمتين أمريكيتين هما: الدكتورة سالي شايفيتس Sally E. Shaywitz ، بكلية الطب بجامعة يل yale ، والدكتورة إليزابيث هامبسون Elizabeth Hampson

Gina Kolata, The International Herald Tribune, February 17, 1995, P. 1.

توصل إلى نفس النتائج أيضا الدكتور روجرز سبيرى Rogers Spiry الحاصل على جائزة نوبل في الطب عام 1981م.

سبيلا﴾ [النساء/ 22]

ـ ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ [النحل / 58-59]

ـ ﴿وإذا الموؤدة سئلت . بأي ذنب قتلت﴾ [التكوير / 8-9]

وقد أمر الله تعالى بحسن معاملة المرأة، وأوصى رسوله الكريم بهذا في كثير من الأحاديث، وحبب في إنجاب البنات فقال: «ما من مسلم تُدْرِك عنده ابنتان فيحسن صحبتهما إلا أدخلتاه الجنة» (رواه البخارى). وأوصى القرآن الكريم بالوالدين، وخص الأم بالوصية، وكذلك أوصى رسول الله ﷺ بحسن مصاحبة الأم ثلاث مرات، ومرة واحدة للأب، وقال: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

ـ وعلى الرغم من رفع الغرب لشعار العلمانية، ولأفكار المساواة بين المرأة والرجل، والتمكين للمرأة، فإن العقيدة «اليهودية النصرانية» Judeo - Christian تغلب عليهم فيجعلون المرأة في وضع أدنى:

ـ فلا يزالون يرددون في صلواتهم : «أحمدك ياربي أن خلقتني رجلا»، وتقول المرأة: «أحمدك ياربي أن خلقتنى هكذا». وفي نصوص «الكتاب المقدس» ما يقلل من شأن المرأة.

ـ ولا تزال في عقيدتهم أن المرأة «جنس شيطاني» ، وأنها هي التي أخرجت آدم من الجنة.

ـ لا تزال المرأة الأوروبية والأمريكية ومن سار في ركابهما تفقد اسم عائلتها، وتفقد ذمتها المالية لصالح زوجها... لأنه لا يزال من الأمور الراسخة في الثقافة الأوروبية، رغم دعاوى العلمانية فإن ما كتبه «جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseau فيلسوف الثورة الفرنسية أن كرامة المرأة هى أن تبقى مُجهّلة»(1).

"la dignite d,une Femme est de rester inconnue"

ـ وفي علم الاقتصاد عند الغرب نجد ما يسمى «اقتصاديات التميز»، فقد خصص «صملصون» الفصل التاسع والثلاثين لهذا النوع : : "Economecs of Discrimination : Race and Sex" وفيه يتحدث عن مساوئ تشغيل المرأة وآثار ذلك على الاقتصاد ، وعن

---

(1) Gisele Halimi, Un Referendum Pour les Femmes, Le Monde Diplomatique, October 1994, P.32.

التمييز الذي يمارس ضدهن في هذا المجال(1).

هذا في الوقت الذي نجد فيه أن الإسلام قد جعل للمرأة شخصية قانونية كاملة، كما للرجل، وجعل لها ذمة مالية منفصلة، فلا تتوقف تصرفاتها المالية على موافقة أحد، طالما أنها في حدود ما شرع الله للإنسان بوجه عام... ناهيك عن أنه لا يوجد في الإسلام ما يجعل للمرأة صلاة خاصة تخالف صلاة الرجال ، اللهم إلا التخفيف عنها في الظروف التي تقتضي هذا.

وليس في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة وصف للمرأة بأنها كائن شرير، أو شيطاني، أو أنها مسؤولة وحدها عن إخراج الإنسان من الجنة:

- **﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه...﴾** [البقرة / 36]

- **﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾** [طه / 123:117]

- **﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾** [الأحزاب / 35]

فإذا ما أضفنا إلى هذا كله أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان يدعو إلى «حق الزواج دون قيد بسبب الجنس أو الدين» ، وأن تكون هناك «حقوق متساوية بين الزوجين عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله» (المادة 26 من الإعلان) ، كما يدعو إلى «حرية تغيير الديانة والعقيدة» (المادة 28) ، أى الارتداد مع الإعلان ـ لوجدنا أن الإسلام لا يقر «فكرة حقوق

---

(1) Paul A. Samuelson, Economics, Mc Graw - Hill, Eleventh Ed., PP. 730 - 740.

الإنسان» من حيث مصدرها ومضمونها وطبيعتها، وما تؤول إليه.

فإذا أدركنا أن ما هو قادم من وراء هذه الفكرة يحمل في طياته الشر كله، إذ أنه يستهدف إحداث هزيمة ثقافية كاملة، تمكن الثقافة الغربية (الصهيونية/ الصليبية) من الهيمنة الكوكبية[1] ـ لكان لزاما علينا أن نتمسك ، بكل ما أوتينا من قوة، بقيمة «تكريم الإنسان»، التي بسطناها، وأوضحنا مضمونها الشرعي، فهي وحدها الوجاء والوقاية ضد ما هو قادم من شر، وهي التي تحقق سعادة البشر مسلمين وغير مسلمين، وهي وحدها التي تحقق الأخوّة بين البشر كما أرادها الله تعالى، وتحقق وحدة الأمة الإسلامية.



(1) جاء في التقرير الذي تقدم به «إرنست لوفيفر» Ernest W.Lefever في جلسة استماع أمام مجلس الشيوخ الأمريكي، الذي أقر هذا التقرير في شتاء عام 1978م. «يجب أن تصبح حقوق الإنسان مكونا رئيسيا في السياسة الخارجية... ويجب ممارسة الإكراه المعنوي العميق ضمن الجهود الرامية إلى تغير الممارسات الداخلية، والمؤسسات والسياسات في البلدان الأخرى، وحتى يتحقق هذا، فإن علينا أن نُنصب من أنفسنا قضاة على المجتمعات الأخرى التي لا تشاركنا نفس القيم وأن نحدث لديهم اضطرابًا في سياساتهم الداخلية والخارجية... وفي عام 1987 دعا الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» إلى «التدخل العسكري المحدود لحماية حقوق الإنسان»!! وفي عام 1988 م تم صياغة الاستراتيجية الأمريكية بعيدة المدى، وجوهرها خوض حرب ثقافية لا بديل عن النصر فيها، بهدف فرض قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان، وفي 21 نوفمبر 1991 م ألقى الرئيس الفرنسي «ميتران» الخطاب الوحيد في مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي بباريس ليعلن «إنه لن يتحقق السلام والأمن الدوليين حتى تسود العالم قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان»!!.

– ثم قال الرئيس الأمريكي «بل كلينتون» يوم توليه الرئاسة في 20 يناير 1993 :

«إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا لنستشعر أن علينا التزامًا مقدسًا لتحويل العالم لصورتنا»!!

الفصل الخامس

وحدة الأمة[1] خامسة قيم المنظومة الإسلامية

نقصد بالأمة هنا جماعة المسلمين، ومن عاشوا معهم من غيرهم، فى ذمتهم، (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، ومن عاشوا خارج الأرض التى تسرى عليها أحكام الإسلام من المخاطبين بأحكام الإسلام.

وللأمة الإسلامية أربعة أبعاد لا ينفصل أحدها عن الآخرين:

ـ **بُعد عقدى** ، وهو الأصل والميعار ، فكل المسلمين أمة واحدة.

ـ **بعد إقليمى،** فكل الأرض التى سرت عليها أحكام الإسلام يوما ما هى أرض الأمة الإسلامية ، وعلى المسلمين أن يعيدوا ما سُلب منهم، وإلا أثموا جميعا حتى تعود.

ـ **بعد شخصى،** فكل من دخل الإسلام، أيا كان مكانه على أرض الله ، صار من أبناء الأمة الإسلامية، دون نظر لجنس أو عرق أو لون، ودون نظر لعقيدته السابقة على دخوله الإسلام، أو موطنه السابق.

ـ **بعد تاريخى**، يفيد استمرارية وجود هذه الأمة، دون انقطاع، فى كل عصور التاريخ البشرى. يقول الحق جل شأنه:

---

(1) وردت كلمة أمة في القرآن بأكثر من معنى: فهي بمعنى «الحين» والمدة الزمنية : ﴿**ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه**﴾ [هود / 8] ـ ﴿**وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ...**﴾ [يوسف / 45]. ومنها الرجل الجامع للخير: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين**﴾ [النحل / 120] . ومنها مطلق الجماعة من الناس: ﴿**ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان...**﴾ [القصص / 23] . ومنها الجماعة من الناس يجمعهم أمر واحد، أو روابط مشتركة، كعرق أو دين أو مكان أو زمان أو هدف: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...**﴾ [آل عمران / 110] ـ ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...**﴾ [آل عمران / 104].

وقد استخدمت في السنة النبوية بمعنى الجماعة السياسية المتميزة من غيرها ، وذلك في الصحيفة التي نظم بها النبي ﷺ مجتمع المدينة:

بسم الله الرحمن الرحيم «هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة...».

﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...﴾ [الشورى / 13]

ويصف الله تعالى الأنبياء ومن اتبعهم، من لدن نوح عليه السلام حتى بُعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه الصلاة والسلام، بوصف الأمة الواحدة (سورة الأنبياء : 92:48) فيقول:

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء / 92]

وقد كان كل نبى يبعث لقومه خاصة، إلى أن نزلت خاتم الرسالات، وأوحى الله تعالى بها إلى عبده ونبيه ورسوله محمد ﷺ ، للناس كافة ، وأكمل برسالته الدين وأتم النعمة، فأصبحت الأمة الإسلامية منذ ذلك الوقت، وحتى تقوم الساعة محددة تحديدا جامعا مانعا، تفتح أبوابها لكل من آمن بالرسالة الخاتمة، دون شروط أو تمييز، ليتبوأ مكانه اللائق به، دون نظر لتوقيت انضمامه لأمة المسلمين، فالناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فَقِهوا.

فالأمة الإسلامية، منذ بعثة محمد ﷺ وحتى تقوم الساعة، تضم كل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويتجه فى صلاته إلى الكعبة المشرفة التى بمكة ، ويؤمن بالقرآن الكريم لا ينكر منه كلمة، ولا يزيد، ويأكل ذبيحة المسلمين، ولا ينكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة. ولا عبرة بالاختلاف فى الفروع والمذاهب، فما كان دين الله بتابع لمذهب ولا لرأى. فمن كان وصفه كذلك فهو من أمة الإسلام، التى هى أمة واحدة. قال رسول الله ﷺ:

«من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تخفروا الله فى ذمته» (رواه البخارى).

وككل قيم الإسلام العليا فإن وحدة الأمة فريضة ، تظهر من قول الله تعالى:

- **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ...﴾** [آل عمران / 103]
- **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾** [آل عمران / 105]
- **﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع**

الصابرين﴾ [الأنفال / 46]

ـ **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾** [المؤمنون / 52]

ـ يقول رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخارى ومسلم:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

فوحدة الأمة فريضة كباقى فرائض الإسلام، وهى أمر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، يخرج منكرها من الملة.

ويُعد محاربا لله من عمل على تفريق الأمة.

وقد حبا الله تعالى الأمة الإسلامية **بمقومات للوحدة** ، هى بمثابة ثوابت، تعهدها المولى جل شأنه بالحفظ والصيانة، فلا سبيل لزوالها حتى تزول الحياة من على الأرض. بيد أن وجود هذه المقومات يحتاج إلى مؤمنين ليأخذوا بها فتتحقق وحدتهم ، وجماع هذه المقومات:

1 – **حفظ الله تعالى حبله المتين** الذى يعتصم به المسلمون فى كل زمان وكل مكان، وهو «**القرآن الكريم**» ... فمهما وهن المسلمون، ومهما نال منهم أعداؤهم، فمن اليسير عليهم العودة للوحدة، إذ لن يضلوا أبدا ما بقى كتاب الله فيهم ، وهو باقٍ بإذن الله:

ـ **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [الحجر / 9]

ولقد استحفظ الله تعالى أهل الكتابين (التوراة والإنجيل) ما أنزل على أنبيائه ورسله، فنسوا حظا مما ذكّروا به، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فتجد نسخا متباينة من الكتابين بلغات متعددة، وتجد بينها اختلافا كثيرا. وكان نتيجة هذا أن فرق الله أولئك ، وجعل قلوبهم شتى، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

أما القرآن الكريم فقد نزل، ولما يزل بيننا، **﴿بلسان عربى مبين﴾**، لا تجد فيه اختلافا ، ويستحيل تحريفه، مهما عبث العابثون... وبذا حفظ الله تعالى لهذه الأمة هويتها وثقافتها.

2 – جعل الله تعالى «**التواصل التاريخى والجغرافى**» لهذه الأمة من ثوابت الزمان والمكان، الباقية على مر الأعصار، وحباها بعناصر بناء القوة، التى يستحيل سلبها (الثروة البشرية ـ الثروات المعدنية ـ مصادر الطاقة ـ المياه ـ المواقع الجيوستراتيجية الحاكمة ـ التكامل المناخى والبيئى) ... وهذا ما قال الحق سبحانه فيه:

- **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا..﴾** [البقرة / 143]

ومهما تمنى أعداء الأمة وسعوا إلى سلبها هذه المميزات ، أو ظنوا أنهم قادرون عليها لضعفها الموقوت، فإن الله تعالى تعهد بإفشالهم ، طالما حافظت هذه الأمة على إيمانها:

- **﴿ ... ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾** [النساء / 141]

3 ــ منح الله تعالى هذه الأمة «**وحدة المصلحة العليا**»، فجعلها «**إقامة الدين**»، و«**الدعوة**» المستمرة إلى الله،، و«**الجهاد**» الذى لا يفتر إلى أن تقوم الساعة، حتى تكون كلمة الله هى العليا، ومن ثم أصبح عدو الأمة واضحا محددا، وولاؤها ليس محل شك أو غموض .. وهذه كلها مقومات تضاف إلى مقومات وحدة الأمة ، يقول الله تعالى:

- **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** [المائدة / 57:55]

4 ـ أنزل الله تعالى فى قلوب المؤمنين «**حبا ومودة ورحمة**» لبعضهم البعض، دون سابق معرفة أو معايشة ، فهو شعور إيمانى تلقائى[1] ، له آلياته التى تقويه، وتجعله محركا معنويا قويا لوحدة الأمة:

- **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾** [التوبة / 71]

- **﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم﴾** [الحشر / 10]

---

(1) وقد جاء وصف هذا الشعور وآلياته في التوراة والإنجيل ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ [الفتح / 29].

ـ ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة / 22]

ـ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»

(أخرجه البخارى ومسلم).

بيد أن هناك علاقة تناسب طردى بين درجة تمكن الإيمان من شغاف القلوب وبين التواد والتراحم والتعاطف.

5 ـ خاطب الله تعالى الناس جميعا «**بخطاب واحد**» ، أوحى به إلى رسوله ﷺ، وكلف المؤمنين جميعا بما أنزل من أحكام ، لا فرق بين أولى الأمر من علماء وأمراء، وغيرهم من عامة الناس، فللجميع نفس الوجهة ونفس الهدف .. لذا فلن تجد أكثر الناس نفاقا ـ طالما أنه يعلن الإسلام ـ يجرؤ على المناداة بنبذ أحكام الإسلام والتحول عن منهاجه، وإن فعلوا كل ما هو دون ذلك، وإن كادوا للمسلمين، فهذا شأنهم فى كل العصور:

ـ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾. [البقرة / 16:14]

* لذا فلا يعرف مجتمع المسلمين صراعا بين السلطة والحرية ، كما هو الأمر فى المجتمعات الليبرالية، لأن الجميع ،حكاما ومحكومين، مكلفون بنفس الأحكام الشرعية. ولا يعرف مجتمع المسلمين أفكار «الاستبداد» و«الديكتاتورية»، ما التزم الحكام بشرع الله ... فشرع الله هو معيار العدل وضامنه.

فالصراع بين السلطة والرعية لا يجوز، وإنما السمع والطاعة، فيما أحب الإنسان أو كره، ما لم يؤمر بمعصية. ولا يبالى المسلمون بأشخاص الحكام، ما داموا يحكمون بما أنزل الله، فإن تنكبوا الطريق فلا سمع ولا طاعة، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. يقول الله تعالى:

ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ [النساء / 59]

ـ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا...﴾ [التغابن / 16]

* وإنما تكون «الطاعة فى المعروف» ، كما بويع رسول الله ﷺ.

فعن أبى الوليد عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال:

«بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم». (متفق عليه)

* وغياب ذلك الصراع ـ من ناحية المبدأ على الأقل ـ يجعل السلطة الحاكمة قادرة على أن تعبّر عن إرادة الأمة تعبيرا صادقا ، يلقى الدعم اللازم لإنفاذ هذه الإرادة.

وكما أن الصراع بين السلطة والرعية أمر غير جائز فى الإسلام، لأنه نزاع يؤدى إلى الضعف والفشل، فكذلك الصراع من أجل السلطة، والصراع بداخل السلطة ـــ أمور يحرمها الإسلام ؛ لأنها داخلة فى عموم النزاع المحرم . وكما أن النزاع محرّم فكل ما يؤدى إليه ـ حتما أو غالبا ـ محرم.

* ومن ثم فالتحزب والأحزاب السياسية التى لا تقوم إلا لممارسة التنافس ـ إن لم يكن الصراع ـ من أجل الوصول إلى السلطة ـ تؤدى بطبيعتها إلى الفرقة(1)، ناهيك عن مساوئها الأخرى المتمثلة فى مصادرة الاستقلالية الفكرية للمسلم، وهى فريضة، فلا يجوز للمسلم أن يكون إمعّة.. لذا فالإسلام يرفض فكرة «الالتزام الحزبى»، الذى يفرض على كل عضو أن يدافع عن برنامج الحزب وسياسته وقراراته تعصبا ، بالحق أحيانا وبالباطل غالبا، دون تحكيم عقله أو ضميره، وإلا فُصِلَ من الحزب. ذلك فضلا عن استخدام الأحزاب ـ دون استثناء ـ لكل وسائل الغش والخداع والتجسس والتشهير والإثارة للوصول إلى السلطة أو لاستمرار البقاء فيها(2). وكل هذه الأمور من المحرمات التى لا يجوز قبولها فى مجتمع المسلمين.

---

(1) قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا....﴾ [القصص/ 4]، والشيع معناها الأحزاب.

(2) يعرف الحزب على أنه مجموعة منظمة من الأفراد تسعى للاستيلاء على السلطة ـ بطريقة قانونية ـ للتمتع بمزاياها.

والحزب يعبر عادة عن مصالح شريحة من المجتمع .. راجع :

Rodee, Anderson, Christol & Greene, Introduction to Political Science, 3 rd ed. Mc Graw - Hill Kogakusha LTD., 1976, PP. 317 - 318 .

* وعلينا ألا نخلط بين «الحزب السياسى»، والمذهب الفقهى، حتى وإن قام الحزب السياسى على أساس دينى.

* ومحاولة قياس الأحزاب السياسية على المذاهب الفقهية هو قياس مع الفارق؛ **فالمذهب الفقهى** ما هو إلا نظر علمى واجتهاد فى مجال الأحكام الشرعية العملية، يقوم به شخص واحد، أو أكثر، ولا يدعو فى عمله هذا أحدا إلى اتباعه، بل إن اجتهاد المجتهد لا يلزم أحدا اتباعه، فمن حق أى مسلم أن ينتقل من مذهب إلى آخر دون إعلان؛ ودون تسجيل اسمه فى قائمة تنتظم متّبعى هذا المذهب أو ذاك. ولا يسعى المجتهد ومن اتبعوه طواعية للاستيلاء على السلطة، ويحرم على من كان من أهل النظر والاجتهاد أن يتربع غير اجتهاده، إلا أن يكون هناك توافق بينهما.

وعلى ذلك، فالأحزاب «العلمانية» لا مكان لها فى الأمة الإسلامية لأنها ظلم، إذ تفصل بين شرع الله وتسيير أمور الدولة. والأحزاب القائمة على أساس مذهبى دينى لا تجوز أيضا لأنها تحوّل الاختلاف فى الاجتهاد، وهو رحمة من الله، وتوسعة على الأمة، إلى نقمة وفرقة، وأداة للصراع على السلطة. يقول الله تعالى:

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ [الأنعام / 159]

كما أن المبدأ العام أنه: «لا حلف فى الإسلام» ؛ إذ يكفى المسلمين عقد واحد هو عقد الإسلام ـ يقف هو الآخر دليلا على عدم جواز قيام الأحزاب السياسية فى الأمة.

وكما أن تعدد الأحزاب لا يجوز، فإن فكرة الحزب الواحد لا تجوز أيضا، ولو اتخذت شعارات خادعة مثل: «تحالف قوى الشعب العاملة» ، أو «الجبهة الوطنية»، أو «الوحدة» ... إلخ؛ لأن الحزب الواحد يحمل فى طياته نفس عيوب تعدد الأحزاب ، فضلا عن احتكاره السلطة دون مبرر شرعى. والحزب الواحد يميّز قلة من الناس على غير أساس يقره الإسلام، فى حين يعزل الباقين بسياج أكثر قسوة وصرامة مما تفعله الأحزاب المتعددة، ويمنع أعضاءه وغيرهم من أداء واجب النصيحة لولى الأمر، لأن الالتزام الحزبى فيه يكون أكثر حدة مما نجده فى الأحزاب المتعددة، وينال من يُطرد من صفوف الحزب ما يناله من صنوف القهر والاضطهاد، وكأنما طُرد من الحياة بكل مناشطها.

لئن كانت «وحدة الأمة» تقتضى عدم جواز إقامة أي حواجز سياسية تفرق بين المؤمنين،

فإن واقع حالها قد تغير، إذ غيّر الناس ما بأنفسهم[1]، فجرت سنة الله على الأمة ، فمع بقاء مقومات الوحدة نشاهد الآن فى الأمة الفرقة والتنازع والضعف:

ـ ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم**﴾ [الأنفال / 53]

وقد يمكن رد **العوامل الداخلية** التى مهدت للنيل من «وحدة الأمة» ـ كقيمة إسلامية عليا ـ إلى أربعة أمور تراكمت على مر التاريخ الإسلامى، وكانت بمثابة العون الأكبر **للعوامل الخارجية** التى استهدفت تمزيق الأمة الإسلامية. هذه الأمور هى:

1 ـ التعصب المذهبى ، الذى بلغ حد التحزّب، ودفع إلى الاقتتال.

2 ـ هجر اللغة العربية، الذى بدأ فى إيران مبكرا (منذ مطلع القرن العاشر الميلادى)، ثم فى الدولة المغولية فى الهند، والتركية (منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادى)، فضربت الثقافة الإسلامية ضربة هددت كيانها بشدة.

3 ـ ظهور القوميات والوطنيات (منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى)، فتضاربت المصالح، وأقيمت الحواجز المصطنعة، فكانت الخصومات التى جعلت بأسنا بيننا شديدا.

4 ـ وأخيرا كان العامل الرابع، الذى هو فى حقيقته نتاج طبيعى لما سبقه من عوامل، وهو أن الأمة استقبلت، طوعا أوكرها، الغزو الثقافى الخارجي، الذى من شأنه إذا بلغ مداه ـ لا قدّر الله ـ أن يهدم قيمها، ويمحو هويتها، وتكون الأمة عرضة لسنة الاستبدال التى حذر الله تعالى منها بقوله:

ـ ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم**﴾ [المائدة / 54]

ـ ﴿ ... **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ [محمد / 38]

---

(1) قولنا هذا لا يعنى إغفال العوامل الخارجية، التي تعمل بشكل ظاهر أو خفي للنيل من الأمة، فسنّة التدافع باقية لا تبديل لها. وقد نعرض للعوامل الخارجية في مكان آخر من هذه الرسالة بإذن الله:

ـ ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق...**﴾ [البقرة / 109]

ـ ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ..**﴾ [النساء / 89].

حقا، لقد حمل التاريخ لهذه الأمة أمورا تُباهى بها الأمم ؛ فى صدق الإيمان، وفى مجالات العلم، والجهاد فى سبيل الله، وإعمار الأرض، والعدل المطلق. فالإنسانية مدينة للأمة الإسلامية بحضارة أكثر من ألف ومائة عام، وهى خير الحضارات، لأن هدفها كان الارتقاء بالإنسان، وإعمار الأرض. لكن التاريخ قد احتمل لنا ، أيضا، ما أثقل كاهل هذه الأمة، بميراث من المثالب الداخلية، أصبح هو الباقي لها الآن، بعد أن شاء الله تعالى أن يداول الأيام، وأن تنتقل العناصر المادية للحضارة إلى أمم أخرى، وأن تضعف العناصر الروحية والمعنوية والأخلاقية للحضارة فى أمتنا، بتقصير أجيال تعاقبت على مدى قرابة ثلاثمائة عام مضت.

ولسنا فى معرض محاكمة التاريخ، ولا الحسرة على ما مضى، أو الندم على ما كان، بل إن الأقرب إلى الحكمة أن نرفض واقعنا، وأن نستعد للتعامل مع ما سيأتى به المستقبل نتيجة التفاعل بين **العوامل الداخلية الواقعية والعوامل الخارجية التى تتعرض لها أمتنا** منذ ثلاثة قرون، حتى بلغت ذروتها خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين.

لا شك أن تاريخ الأمة الإسلامية هو جزء لا يتجزأ من ثقافتها، بما فيه من إيجابيات ومثالب ، لكنه يجب ألا يكون قيدا يقيّد حركتنا، ولا نقيصة تشعرنا بالإحباط والقصور، ويستفاد بمثالبه دون خجل، وبمحاسنه دون زهو أو خيلاء تدفعنا للعيش فى الذكريات الحلوة التى تخدّر المشاعر وتوهن الإرادة!

إن مقومات وحدة الأمة لهى من الثوابت ، التى لم تتغير منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما فرقة الأمة فهى حديثة عهد، وهى نتائج لمتغيرات . وليس للمتغيرات أن تمحو الثوابت، وإنما المنطقى هو أن نأتى بمتغيرات أخرى لا تناقض ثوابتنا، بل تستمد منها القوة والرسوخ، كى نتغلب على التمزق الظاهرى المصطنع.

قد يظن البعض أن المتغيرات العاتية التى أتى بها «النظام العالمى الجديد» من شأنها أن تحول تماما بين المسلمين وبين استعادة وحدتهم، لكن الحقيقة هى بخلاف ذلك، فاستشعار المسلمين للخطر، بل ووقوعه بينهم بالفعل، قد أدى إلى صحوة حقيقية، وكلما زاد طغيان أعداء الأمة وظلمهم وعدوانهم، فإن فرص تحول الصحوة إلى نهضة تتزايد بإذن الله ، شريطة أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ، وأن يقيموا العدل الكامل فيما بينهم، وأن يخلصوا لله رب العالمين.

- **﴿قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون﴾** [الأعراف / 29]

الفصل السادس

العدل[1] سادسة قيم المنظومة الإسلامية

العدل هو نظام الكون الذى لا صلاح لشىء بدونه، وهو اسم الله تعالى، وصفته التى شهد على أنه قائم بها، وشهد على ذلك ملائكته وأولو العلم ، فقال جل جلاله:

ـ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ [آل عمران / 18]

ولا يمكن لأى إنسان ، مهما كانت طبيعة تفكيره، أن ينكر علو قيمة العدل، لكن الاختلاف بين البشر هو فى «ماهية العدل ومعياره»؛ لذا فإن الله تعالى لم يدع العدل دون معيار يُرجع إليه، فأرسل رسله، وأوحى إليهم برسالاته وكتبه. التى تبين محتوى العدل (الآيات البينات) ، ومعياره (الميزان).

وقد جعل الله تعالى إقامة العدل فى الحياة الدنيا بأيدى الناس أمانة ، وأعانهم على ذلك ـ زيادة على بيان معيار العدل ـ أعانهم بالقوة ، التى تؤيد الحق وتهزم الظلم بإذن الله، إن هم انتصروا لشرع الله ومنهاجه، وهو العدل المطلق :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز﴾ [الحديد / 25]

ومن ثم فإن البحث عن معيار آخر للعدل ، غير شرع الله، وهو «الحق» ، يعتبر اتباعا للهوى، لن يؤدى بصاحبه إلا إلى الضلال فى الدنيا، ويوم القيامة يرد إلى عذاب شديد، قال تعالى:

ـ ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [ص / 26]

ونظرا لتعدد الرسل والرسالات ، فإن الله تعالى قد أوضح أن تنقية معيار العدل مما شابه من نسيان وتحريف، وإتمام هذا المعيار، الذى هو شرع الله من لدن آدم أبي البشر ، قد

(1) كلمتا «القسط» ، و«الحق» جاءتا في القرآن الكريم كمرادفتين لكلمة «العدل» ، و «الظلم» هو عكس العدل.

جعلهما (أى تنقية المعيار وإتمامه) الله تعالى على يد خاتم المرسلين، فكان العدل المطلق؛ الذى نطق به القرآن الكريم هو الحجة البالغة، قال تعالى:

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير. والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد. الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ [الشورى / 17:14]

وقد أكد القرآن الكريم فى غير ما آية على أن العدل المطلق قيمة إسلامية عليا، وفريضة، وأمر معلوم من الدين بالضرورة، قال تعالى:

- **﴿ قل أمر ربى بالقسط ... ﴾** [الأعراف / 29]

- **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون ﴾** [النحل / 90]

- **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾** [النساء / 58]

وقد نجد الاختلاف جدّ كبير بين معيار العدل فى الإسلام، ومعياره عند أهل الكتاب، كما جاء فى النسخ الحالية «للكتاب المقدس[1]» .

— « لا تَغصب قريبك ولا تسلب ... لا ترتكبوا جورا فى القضاء ... بالعدل تحكم لقريبك» [لاويين : 15:13/19]

** ذلك فى الوقت الذى ينص فيه القرآن الكريم بكل الوضوح، فى آيات محكمات ، على أن العدل مطلق شامل ، يشمل العدو والصديق، ولا يأخذ القرابة فى اعتباره، مهما بلغت درجتها، ولا يأخذ فى اعتباره المكانة الاجتماعية أو الاقتصادية، قال تعالى:

- **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم**

(1) يتضمن «الكتاب المقدس» ما تم تدوينه من «التوراة»، و«رؤى أنبياء بنى إسرائيل»، وهذا يسمى عند النصارى «العهد القديم» ، وعند اليهود يسمى «سفر الأسفار» ، ويضيف إليه النصارى «العهد الجديد» ، وهو الروايات الأربعة «للإنجيل»، و«سفر أعمال الرسل»، و«رسالات ورؤى الحواريين» ... كما هو الآن بين أيدي الناس. والقسم الأول «العهد القديم» هو شرع اليهود، والقسمان «الجديد والقديم» شرع للنصارى.

على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾
[المائدة / 8]

- **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾** [النساء / 135]

كما أن العدل يشمل الأقوال، والأفعال، والشهادة، والأحكام، والمعاملة مع الله، والمعاملات مع الناس . يقول الله تعالى :

﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام / 153:151]

وكان مما رواه النسائي وأحمد ومسلم أن امرأة مخزومية شريفة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، فلما كلّم أسامة رسول الله ﷺ فيها تلوّن وجه رسول الله ﷺ ، وقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟! قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد ، فإنما هلك الناس قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يده»[1] ثم أمر بيد تلك المرأة فقُطعت، فحسُنَتْ توبتها بعد ذلك.

والحفاظ على العدل، كقيمة عليا، هو مسؤولية الفرد، كل فرد ، ومسئولية ولي الأمر، في كل المستويات، وكل الأزمنة، وهو في نفس الوقت مسئولية جماعية، لذا يقول الله تعالى:

- **﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ... ﴾** [النجم / 38-39]

---

(1) وفي رواية أخرى لقطع محمد يدها.

ـ ﴿ ... ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ... ﴾

[الأنعام / 164]

ـ ﴿ ... وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة / 42]

ـ ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾

[الأنفال / 25]

ـ وعن أبى بكر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (رواه أبو داود والترمذى والنسائى).

ولما كان شرع الله هو معيار العدل، فإن العلم بالشريعة مقدمةٌ ضرورية لإقامة العدل، والعملِ بها.

والحكم بما أنزل الله هو العدل، وغير ذلك هو الظلم. وقد نعى الله تعالى على أمم قبل الإسلام هجروا شريعة الله فدخلوا فى الكفر. قال تعالى :

﴿ ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة / 44]

ويقول رسول الله ﷺ فى ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة:

«القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار. قاضٍ عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة. وقاض عرف الحق فجار متعمدا فهوفى النار. وقاض قضى بغير علم فهو فى النار. قالوا: فما ذنب الذى يجهل؟ قال: ذنبه ألا يكون قاضيا حتى يعلم ».

وعلى ذلك فإن اعتبار «القانون الطبيعى»، وما يبنى عليه من «قوانين وضعية»(1) تشرعها «البرلمانات»، لمطلق المصلحة الموهومة ، غير المنضبطة بالوحى الإلهى ـ اعتبار ذلك معيارَ العدل، لهو الظلم بعينه، لأنه حكم بغير ما أنزل الله :

﴿ ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة / 45]

لقد عمد أصحاب الحضارة الغربية «اليهودية/ النصرانية» ، ومن شايعوهم أو أخذوا عنهم إلى صياغة معيار للعدل بعيدا عن شرع الله، يتسق منطقيا ومبدأ «العلمانية» الذى له جذوره العميقة فى حضارتهم ، كما أنه يتسق وفلسفات أفلاطون وأرسطو طاليس التى اعتبرت أن: «العدل هو العمل بالقوانين الوضعية، حتى ولو كانت قد وُضعت لتحقيق مآرب الحكام...»،

---

(1) وهي النظم القانونية التي تأخذ بها كل الدول غير الإسلامية (الليبرالية منها والاشتراكية)، وتابعتها في ذلك ـ منذ أكثر من مائة عام ـ الغالبية العظمى من النظم الحاكمة في أمتنا ، رغم أن منها ما يعلن في دستوره الهوية الإسلامية للدولة، أو يضيف صفة «الإسلامية» لاسم الدولة ، ورغم أن معظمها شعوب يشكل المسلمون فيها نسبة تزيد على 95 ٪ .

فالعدل إذن عندهم هو تطبيق القانون، ولو كان ظالما، ولو كان مجافيا للخُلُق القويم والطبع السليم.

ولا شك أن ترك تحديد معيار العدل للقانون الوضعي، يجعله معيارا مطاطا، يتسع ويضيق تبعا لهوى المشرعين والحكام، بل إنه يؤدى إلى تعدد هذا المعيار، فيكون مزدوجا ، أو ثلاثيا، وذلك فى ظل المبدأ النفعي Utilitarianism ، الذى يؤمن به أصحاب الحضارة الغربية، ومن سار في ركابهم هذا المبدأ الذى يحول دون انضباط المصلحة، أو حتى اتصافها بقدر معقول من الاستقرار، يضاف إلى ذلك المبدءان اللذان صاغهما «نيقولا مكيافيللى»، والمبدأ الذى صاغه «داروين» ، ورسخوا جميعا فى ضمائر المفكرين الغربيين، بل وفى ضمائر أجيال عديدة متعاقبة من أصحاب الحضارة الغربية، ومن سايرهم . هذه المبادئ الثلاثة هى:

ـ الغاية تبرر الوسيلة ... (وقد تكون الغاية أكثر ظلما من الوسيلة).

ـ انفصال دائرة السياسة والقانون عن دائرة الدين والأخلاق !!

ـ البقاء للأصلح .. (فسحق القوى للضعيف عدل !)

هذه المبادئ الثلاثة ، فضلا عن «النفعية» ، تجعل القول بوجود معيار للعدل فى الحضارة الغربية (اليهودية / النصرانية)، قولا مضحكا، لا يصدقه إلا السفهاء من الناس، أو من أرادوا أن يضعوا أنفسهم فى هذا الموضع. ودليلنا هو الممارسات الغربية منذ هيمن على العالم «الفكر الإمبريالى» Imperialism ، منذ نهاية القرن الثامن عشر، كذا عندما صاغوا النظام العالمى الجديد .N. W. O فى أعقاب الحرب العالمية الثانية... ولا يزال هذا مسلكهم[1].

لقد وضع «أفلاطون» مبدأ يعتبره الغربيون ـ حتى الآن ـ معيارا للعدل، وهو «المساواة بين المتساوين، وعدم المساواة بين غير المتساوين». وإذا كان «مبدأ المساواة» يعد أهم القيم التى جاءت بها الحضارة الغربية ـ فهو أحد عمد الليبرالية Liberalism ، وهو ثلث شعار «الثورة الفرنسية» ـ فإن من المنطقى أن يتم التعامل بين البشر جميعا بطريقة متساوية، أو أن يتم تقسيم البشر على أساس عرقى، أو عقدى، ومن ثم يتم التمييز فى المعاملة على هذا الأساس حتى يقوم العدل ـ حسب منطقهم.

---

(1) يعترف نورمان باري بهذه الحقيقة فيقول :

yet despite more than 2000 years of subsequent political theorising the concept (of Justice) still has no settled meaning ... it is the Fact that there is So little agreement as to what the concept means ...

Norman P. Barry, An Introduction to Modern Political Theory, The Macmillan Press LTD, London, 1981, P.110.

ولما كانت المساواة وهما وخيالا؛ لأن الله تعالى خلق البشر متفاضلين ـ كما أوضحنا من قبل فى تناولنا لقيمه تكريم بنى آدم ـ لذا فقد اختار أصحاب الحضارة الغربية الحل الثانى، وهو تقسيم البشر على أساس عرقى، وعلى أساس عقدى؛ وكان هذا هو معيار العدل عندهم ... فينظر الجنس الأوروبى لنفسه على أنه الأفضل بين البشر، وبداخلهم يعتبر الجنس الجرمانى نفسه الأفضل.

وقد ظل الأوروبيون زمنا طويلا ينظرون إلى اليهود، والمسلمين، وغيرهم، على أنهم أجناسٌ أدنى، ثم دارت الدائرة، وأصبحوا ينظرون الآن إلى اليهود بوصفهم الجنس الأرقى ... إلخ .. هذه النظرة العنصرية نجد لها أصولا عقدية، نتجت عن تفسيرات بالهوى وتحريف لما أنزل الله، كما نجد أصولها فى العنصرية التى كان الرومان يعاملون بها الشعوب الأخرى(1):

ـ ففي سفر التكوين : الإصحاح التاسع : «27/20» نجد رواية تفترى على «نوح»(2) عليه السلام أنه سكر فبدت عورته، فرآها ابنه «حام»، ودعا أخويه «سام» و«يافث» لرؤيتها، فأبيا، وسترا أباهما... فدعا «نوح» عليه السلام على «كنعان» بن «حام» ليكون عبدا لإخوته.. فى حين بارك «ساما» فقط ...!!

أما فى القرآن الكريم فقد قال الله تعالى عن رسله وأنبيائه:

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: 90].

ورغم أن العرب، وجانبا كبيرا من المسلمين ، هم من سلالة سام بن نوح عليه السلام، فإن الإسلام لم يدعُ أبدا لأية تفرقة عنصرية، ولم يجعل النسب ، أو العرق معيارا للتفاضل بين البشر. يقول الله تعالى مخاطبا كل الناس :

ـ **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾** [الحجرات / 13]

ـ وقال رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع :

« ... أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم

---

(1) من المعروف أنه كان بالإمبراطورية الرومانية قانونان : أحدهما يطبق على «المواطنين» الرومان، والآخر يطبق على «الشعوب» التي يحتلون أراضيها .. فهل يمكن الحديث ، بعد هذا، عن معيار للعدل؟!

(2) يمتاز الأنبياء عن سائر البشر ببعدهم عن المعاصي، وعزوفهم عن الشهوات، واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة أو يهدر الكرامة.

عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى...».

ولأن مبدأ المساواة التامة خدعة ووهم ، فقد سببت محاولة الجمع بينه وبين قيمة العدل في الحضارة الغربية مشكلة أصابت منظومة القيم الليبرالية بالعور، وأدت إلى تفريغ كل من المساواة والعدل، جميعا، من كل مضمون [1]...

وبسبب عدم وجود معيار ثابت للعدل لدى الغرب، وتردد مفكريهم بين اقتباس المبادئ الدينية والتأثر بها، وبين هجرها كلية، فقد تعرضت هذه القيمة للانهيار الكامل فى المذهب «الليبرالى» المغرق فى «الفردية» individualism الأنانية، والذى يسمح للفرد بالتمتع بملكه كيفما شاء، حتى ولو أضر بالفقراء ، وأن يمارس نشاطه الاقتصادى دون مراعاة لمصلحة الآخرين، مما أدى إلى ظهور الأفكار الاشتراكية، التي تراوحت بين الاتجاهات الاجتماعية (التى تحافظ على الليبرالية فى جوهرها مع إضافة بعد اجتماعى)، وبين الماركسية التى استبدلت «بظلم الطبقة» ظلم الفرد.. وأغرقت فى المناداة بالمساواة التامة، التى لا تتحقق إلا بسحق طبقة العمال، لكل من الطبقة «الرأسمالية» الغنية (من خلال سلب أموالهم التى لا يستحقونها فى رأيهم)، والطبقة المتوسطة (bourgeoisie) .

ومن ثم فقد تراوح العدل فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى عند الغرب بين صراع الأفراد ـ فيكون البقاء للأقوى ـ وتحقيق حد الكفاف للأضعف، وبين صراع الطبقات، الذى لابد أن يؤدى إلى سحق الطبقة الغنية وسلبها أموالها كى تسود طبقة العمال.

---

(1) ويجمل «نورمان باري» هذه المشكلة التي تواجهها قيمة «العدل» في الغرب بقوله :

" However, the relation ship between justice and equality is a hotly dispute matter ... justice requires the justification on rational grounds of all existing inequalities .. the more conservative theorists of justice admit only a weak sense ... For certain purposes individuals ought to be treated as if they were equal ... It would clearly be unjust to treat people equally who differed in deserts and needs. (Norman P. Barry, PP. _ 115 _117).

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حقا أن فكرة المساواة قد تقلصت لتنحصر فيما يسمونه «مساواة المرأة بالرجل»، ثم تطور التعبير ليكون «إزالة كل صور التمييز ضد المرأة»، ثم ليصبح «التمكين للمرأة» .. هذا رغم أن النصوص الدينية الصريحة تخالف هذا ؛ ففي سفر التكوين : « .. وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها» (7/4) ، كذا «.. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (16/3).

وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى :

ـ ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ...﴾ [النساء / 34].

ـ ﴿ ... ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ [البقرة / 228].

وبسقوط المعسكر الماركسى، فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن العشرين، اختلطت هذه المعايير المتناقضة، وأصبح معيار العدل فى أوروبا وأمريكا، ومن يتبعهم، أكثر غموضا.. وبدا هذا واضحا كل الوضوح فى «مؤتمر القمة الخاص بالتنمية الاجتماعية» الذى عقد فى «كوبنهاجن» فى مارس عام 1995م تحت علم الأمم المتحدة.

لقد أصبحت «العدالة الاجتماعية» ، أو إزالة الظلم الاجتماعى الناتج عن ممارسة النشاط الاقتصادى، مشكلة من المشكلات الحالة والملحة فى عالمنا، وقد فشلت كل الاتجاهات الاجتماعية التى ظهرت فى الغرب، وكذا فشلت الماركسية فى إيجاد الحل المناسب لها.

وعلى الرغم من أن الله تعالى قد فرض الصلاة والزكاة فى كل الشرائع التى أُرسلت بها الرسل، إذ يقول الله تعالى فى كتابه العزيز على لسان عيسى عليه السلام، فى أوائل ما نطق به فى المهد:

ـ ﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا. وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ [مريم / 32:29]

على الرغم من هذا فلا تزال الحضارة الغربية (اليهودية / النصرانية) لا تعرف بالضبط معيارا ولا حدودا للإنفاق ، ولا أوجهه ، وهل من الأفضل أن يتم إعانة غير القادرين من خلال منحهم قدرا من النقود فى صورة ما يعرف «بالضريبة السلبية على الدخل[1] negative in come tax أو أن الأفضل اتباع «سياسة الرفاهية» welfare policy على المستوى الجمعى ، من خلال التوسع فى التعليم، والرعاية الصحية، والخدمات الاجتماعية، التى ينال منها الجميع أنصبتهم دون نظر لدخولهم.[2]

وعلى الجانب الآخر نجد أن «التكافل الاجتماعى» فى الإسلام[3] أشمل ، وأعم، وأعمق،

---

(1) وهي إعطاء من يقل دخله عن حد معين (هو حد الكفاف ، وليس حد الكفاية كما هو مقرر في الإسلام)، إعطاؤه من النقود ما يكمل له حد الكفاف هذا.

(2) Norman P. Barry, 1981, PP. 124 _ 137.

(3) تفصيل هذا المبدأ الإسلامى نجده في قيمة «العمل» ، التي سبق أن عرضنا لها.

وأكثر دقة وتحديدا من فكرة « العدالة الاجتماعية».

فللتكافل الاجتماعى جانب معنوي[1]، فضلا عن جانبه المادى.

والجانب المادى فيه متعدد المصادر (زكاة ـ صدقات تطوعية ـ صدقة الفطر ـ الكفارات ـ النذور ـ الهدايا ـ الهبات ـ الأضحية ـ الهَدى ـ العقيقة ـ نفقات الأقارب ـ الوصايا ـ الأوقاف)، ومنه ما يكون نقديا، ومنه ما يكون عينيا (طعام ـ كساء ـ زروع وثمار ـ نَعم).

وقد حدد الشرع الإسلامى أوجه الإنفاق تفصيلا، وقدّر الإنفاق ليشمل الفقراء، وبعض الأغنياء (فى حالات معينة)، وليشمل المسلمين، وغير المسلمين، وليشمل الأفراد والإعانة على أعباء الأسرة، ويعين الدول الأخرى (سهم المؤلفة قلوبهم)، كما يتضمن إقامة مؤسسات النفع العام (التعليم ـ الصحة ـ المساجد ـ الطرق ، وما إليها)، هذا فضلا عن الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله.

وقد استقر «التكافل الاجتماعى» عندنا فى الفكر والتطبيق إلى درجة أن المجتمع الإسلامى فى بعض العصور خلا من مستحقى الزكاة، بعد أن فاضت أموالها عن الحاجة، فأمر ولى الأمر بإنفاق أموال الزكاة الباقية فى سداد الديون عن المدينين، وتزويج الشباب الراغبين فى الزواج.

*** والعدل فى الإسلام ليس نظرية،وإنما هو قيمة عليا، وفريضة عملية، قابلة للتطبيق فى كل زمان وكل مكان . وقد كان الخلفاء الراشدون يحرصون على التوصية بإقامته، سواء فى توجيهاتهم للولاة بالأمصار، أو للقضاة. وقد أوصى كل منهم من تلاه فى الخلافة بالعدل، كما حرص كل منهم على إعلان التزامه به، وطبّقه عمليا، وقبِل مراجعة الناس له، إذا لم يلتزم العدل المطلق.

كانت خطبة أبى بكر الأولى بعد مبايعته بالخلافة أن قال :

«أيها الناس إنى ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن صدفت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.. لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم...»

---

(1) الجانب المعنوي يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بهدف إقرار السلام الاجتماعي.

وقد كان مبرر أبى بكر فى استخلاف عمر، رضى الله عنهما، أنه «برٌّ وعدل» ، ثم أوصى أبو بكر عمرَ بما يلى :

« إنى مستخلفك من بعدى، وموصيك بتقوى الله، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا، وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا. وإنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخِفّته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا.

إن الله عز وجل ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يلقى بيده إلى التهلكة.

فإذا حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت، ولستَ بمعجز الله.

يا ابن الخطاب ، إنى إنما استخلفتك نظرا لما خلّفت ورائى، وقد صحبت رسول الله، فرأيت من أثرته أنفسَنا على نفسه، وأهلنا على أهله، حتى أنا كنا لنظل نهدى إلى أهله من فضول ما يأتينا عنه. وقد صحبتنى فرأيتنى إنما اتبعت سبيل من كان قبلى. والله ما نمت فحكمت، ولا توهمت فسهوت، وإنى لعلى السبيل ما زِغْت، وإن أول ما أحذرك يا عمر نفسك، إن لكل نفس شهوة، فإذا أعطيتها تمادت فى غيّها.

واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم، وأحبَّ كل امرئ منهم لنفسه، وإن لهم لحيرة عند زلّة واحد منهم فإياك أن تكونه. واعلم أنهم لا يزالون منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك. هذه وصيتى والسلام» .

أما عمر بن الخطاب فقد جاء فى أواخر خطابه الأول للمسلمين عقب موت أبى بكر، وكان الناس قد بايعوه قُبيل موت الصدّيق :

« ... فاتقوا الله عباد الله وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى

بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

وقد احتوى هذا الخطاب المبادئ العامة لسياسته فى إقامة العدل[1] فكان مما جاء فيه:

ـ « أما وقد بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غِلْظتى.. ثم إنى وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدا يظلم أحدا، أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ،. وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف.

ولكم على أيها الناس خصال أذكرها فخذونى بها:

ـ لكم علىّ ألا أجتبى شيئا من خراجكم، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه.

ـ ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه.

ـ ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسد ثغوركم.

ـ ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم[2] وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال.

وعلى الرغم من أن عمر رضى الله عنه قد مات مطعونا، فإنه قد أوصى الخليفة بعده،

---

(1) وقد سار عثمان وعلى رضى الله عنهما على نفس المنهاج. فكتب عثمان إلى ولاة الأمصار فور توليه الأمر يقول:

«فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة .. (فإذا أصبحوا جباة) انقطع الحياء والأمانة والوفاء.

ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى المسلمين، وفى ما عليهم، فتعطوهم مالهم وتأخذوا ما عليهم، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم».

وقد كان على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ يأمر ولاته بحسن اختيار عمالهم (موظفيهم)، وألا يولوهم محاباة وأثرة، فذلك جور وخيانة، وأن يجزلوا لهم العطاء تقوية لهم وإصلاحا لنفوسهم ، وحتى لا يخلّوا بالأمانة . وكان يوصى الولاة بمراقبة العمال ، حتى يرفقوا بالرعية. وكان يحذر ولاته من اتخاذ بطانة سوء، لأن فيهم استئثارا وتطاولا وقلة إنصاف فى معاملة ، لذا كان يأمر الولاة بأن يحسموا مادة أولئك ، بقطع أسباب تلك الأحوال...

(2) يقصد بذلك السماح للمجاهدين بالعودة إلى ديارهم ـ على فترات ـ لرعاية أسرهم.

وهو على فراش الموت، ولم يكن شخص الخليفة الذى سيخلفه قد عُرف بعد، فقال [1]:

«أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم وكرامتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل: أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار، فإنهم ردء الإسلام وغيظ العدو وجباة المال: أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم. وأوصيه بالأعراب، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشى أموالهم فيرد على فقرائهم. وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم».

وقد تولى عمر القضاء فى بعض الأقضية، خاصة فى المظالم التى كانت تُرفع إليه من الأمصار[2] . ولعل من أشهرها المظلمة التى رفعها القبطى إليه؛ إذ ضربه محمد بن عمرو بن العاص (ابن والى مصر) بالسوط قائلا له: «خذها وأنا ابن الأكرمين». فأرسل عمر إلى عمرو وابنه، ومَثُل الثلاثة أمامه، ثم أعطى الدرّة للقبطى قائلا له: اضرب ابن الأكرمين.. فلما فرغ من ضربه قال له عمر:أجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه».

قال عمرو: «يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت»، وقال القبطى: يا أمير المؤمنين «قد ضربت من ضربنى»، فقال عمر: إنك والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه. ثم التفت إلى عمرو بن العاص قائلا: «أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

لكنه، باتساع نطاق العمران فى عصره ، فقد ولّى الأمراء والولاة والقضاة، فولى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولى شُريحا قضاء الكوفة، وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة، وكتب له كتابا يوصيه فيه ، فكان بمثابة ميثاق شرف لسلوك القاضى وعدله، يصلح لكل زمان ومكان. وقد جاء فيه:

«سلام عليك ، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلّم بحق لا نفاذ له. آسِ بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك، حتى لا

(1) رواه القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، صـ 14:13 .

(2) وقد كان عمر رضى الله عنه يراقب ولاته في إقامة العدل، فلام عمرو بن العاص أشد اللوم على تطبيقه حد شرب الخمر على ابنه عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب في بيت الوالى، وليس أمام جمع من المسلمين. وأمر أبا عبيدة بن الجراح بتطبيق الحد ذاته على عمرو بن معد يكرب، وأبي جندل، وضرار، وجماعة من كبار المسلمين، وكان أبو عبيدة متحرجا من إقامة الحد عليهم.

يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ومن ادعى حقا غائبا أو بيّنةً ، فاضرب له أمدا ينتهى إليه ، فإن بيّنه أعطيته حقه، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية، فإن ذلك هو أبلغ فى العذر وأجلى للعماء.

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهُديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل. والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربًا عليه شهادة زور، أو مجلودا فى حد، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان.

ثم الفهمَ الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة، ثم قس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال والأشباه، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق.

وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس، والتنكر عن الخصوم، فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصا، فما ظنك بثواب الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله».

*** وقد ظل القضاء الشرعى أكثر من ألف وثلاثمائة عام يحمل لواء العدل ، حتى كانت الهجمة «الإمبريالية» التى أدت إلى تقسيم أراضى الأمة الإسلامية بحواجز مصطنعة، وإلى قبول نظم قانونية وقضائية وضعية منقولة عن النظم الغربية... وقد ساعد على هذا التحول التخلف الفقهى الذى ساد الأمة لأكثر من مائتى عام، وكانت النتيجة التى نعيشها الآن هى استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير.

وليس القضاء فى الأمة الإسلامية سلطة منفصلة، كما هو الشأن فى النظم الليبرالية، فالفصل بين السلطات ليس هو الضامن للعدل فى الإسلام، ولكن ضمان العدل يكمن فى أمور ثلاثة: (حسن اختيار القضاة، وتقوى الله، والحكم بشريعة الله)[1] . وسلطة الدولة فى الإسلام لا تنفصل ولا تتجزأ، وإن تعددت الوظائف، ومنها وظيفة القضاء.

---

(1) من العدل في الإسلام ألا يُحكم بين أهل الكتاب في أمورهم الشخصية (الزواج ـ الميراث ـ النفقة ...إلخ) إلا على مقتضى شرائعهم، فإذا ارتضوا بحكم الإسلام جاز الحكم بينهم به. ولا يحكم بينهم قاض مسلم في هذه المسائل إلا إذا رضوا مقدما بحكمه.

وللقاضى شروط عامة ككل عامل فى الدولة: أن يكون ذا علم، وكفاءة، وأمانة، على شروطها الجامعة، كما أوضحناها عند الحديث عن قيمة «العمل»، بيد أن للقاضى شروطا إضافية قد نجدها فى ما أوصى به على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو من مارس القضاء فى اليمن على عهد رسول الله ﷺ . فعندما تولى الخلافة كتب إلى أحد ولاة الأمصار:

« ... ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا يضيق به الأمور، ولا تمجه الخصوم، ولا يتمادى فى الزلة، ولا يحضر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه، أوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأحرصهم على اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء . وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له فى البذل، ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره، من خاصتك؛ ليأمن بذلك اغتيال الرجل له عندك».

*** **ومجلس القضاء** شعيرة من شعائر الله، ففيه يقام العدل،وترد الحقوق إلى أصحابها، وفيه يُحكم بحدود الله، وتوصل أو تحسم علاقات الأسرة. وفيه تؤدى الشهادة، ويقسم اليمين، وهما أمران لا يكمل إيمان المرء إلا بحسن أدائهما(1)، خالصين لله تعالى، وبالنصاب الذى قدّره الشارع العظيم ؛ فالمعتاد أن الشهادة تكون من رجلين مسلمين قال تعالى:

---

(1) فأداء الشهادة فريضة يأثم تاركها ، ولا تُقبل ممن أخرها. يقول الله تعالى:

- ﴿ ... **ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا ...**﴾ [البقرة / 282]

- ﴿ ... **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم** ﴾ [البقرة / 283]

وشهادة الزور من الكبائر، ومن يفعلها يكون آثما، ومن يتجنبها فله أجره عند ربه:

- ﴿**والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما**﴾ [الفرقان / 72]

- ﴿ ... **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة / 140]

- قال رسول الله ﷺ : «أكبر الكبائر شهادة الزور» (رواه البخارى)

واليمين في ساحة القضاء إذا كان كذبا فهو «يمين غموس»، طالما أن صاحبه كان عالما بما يقسم عليه متعمد الكذب فيه. وتسمى «يمينا صابرة» وهي من الكبائر التي لا كفارة لها ... ويلزم التوبة منها،ورد الحقوق التي ضاعت بسببها . يقول الله تعالى:

- ﴿ **ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم**﴾ [النحل / 94]

- قال رسول الله ﷺ : «الكبائر : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» (رواه البخارى)

﴿ ..فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى..﴾ [البقرة / 282]

ولا تقبل الشهادة فى جرائم الزنا، لفداحتها ولفداحة ما يترتب عليها، إلا بشهادة أربعة رجال عدول:

- **﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾**. [النور / 13] .

وجرح العدالة يستوجب عدم قبول الشهادة قال تعالى:

﴿... ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ [النور 4-5].

ولا تعتبر علانية الجلسات من ضمانات العدل فى الإسلام، خلافا لما هو معمول به فى النظم الوضعية ، والسبب فى ذلك هو أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، وأن تكريم الإنسان يقتضى ألا يُرى بما ينال من عرضه أو سمعته، أو أن تفتضح أسراره أمام العامة أثناء التحقيق. كما أن ستر الجرائم، فلا تعلن إلا مع الجزاء الذى يوقع على الجانى، يكون أكثر تحقيقا للردع، وإقرارا للعدل، وصيانة للأعراض، ومنعا من تلوث البيئة الأخلاقية للمجتمع.

** **ومن العدل فى الإسلام** ألا ننتظر حتى يقع الاعتداء على الحق، ثم يقام العدل فى ساحة القضاء، فهناك من الأمور ما لا يمكن تداركه إذا وقع، لذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر محققا للعدل فى المجتمع بمنع وقوع الاعتداء على الحقوق.

وقد استقر نظام «الحسبة» كأحد أهم آليات التدافع الاجتماعى لمنع وقوع الجريمة، وكإجراء وقائى للحفاظ على العدل، يقوم به الأفراد متطوعين، إلى جانب جهاز يكلف من قبل الدولة للقيام بها.

** **والحسبة تعنى** الأجر والثواب، والقيام بها يكون ابتغاء السعادة الأخروية، من خلال العمل الإيجابى للحفاظ على شرع الله. والقائم بالحسبة، إن لم تكن هذه وظيفته، فهو بمثابة شاهد، ومدع، قائم بالدعوى، لإزالة منكر قبل تمام وقوعه، أو لمنع استمرار وقوعه.

أما الحسبة التى هى وظيفة فقد وصفها العلامة ابن خلدون فى قوله: (1)

« أما الحسبة فهى وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الذى هو

(1) عبد الرحمن بن خلدون المغربي، الجزء الأول من كتاب: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ ـ 1978م ، صـ صـ 225-226 .

فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين.

ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إليه علمه من ذلك، ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش، وغيرها، فى المكاييل والموازين. وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها ، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها؛ فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء ...» أ.هـ.

ورغم اختفاء وظيفة الحسبة من معظم بلاد الإسلام، إذ استبدل بها نظم أخرى متعددة ومتكاملة ، مثل الشرطة المتخصصة، والنيابات: العامة، والمتخصصة، والأجهزة الرقابية الأخرى ـ فإن الاختلاف كبير بين ما كان ، وما هو موجود الآن، لاختلاف معيار العدل، كما أوضحنا من قبل.

ولئن كان النظام العالمى الجديد قد استحدث ، ضمن أفكاره، ما أسماه «بمنع الجريمة»، أى التدخل قبل وقوعها، أو لمنع استمرار ما وقع منها، وأقر ذلك فى «المؤتمر العالمى»، الذى انعقد لهذا الغرض فى القاهرة فى شهر إبريل / مايو عام 1995م ـ فإنه لا تشابه مطلقا بين نظام الحسبة الإسلامى، وبين هذا النظام، لسبب بسيط واضح كل الوضوح،وهو اختلاف معيار العدل،ومن ثم الاختلاف الجذرى بين ما يعتبر جريمة وما لا يعتبر.

فمن الأمور التى تعتبر جرائم فى الإسلام، ولا تعتبر كذلك فى نظر النظام العالمى الجديد، اللواط ، والسحاق، والمعاشرة بين الرجل والمرأة خارج نطاق الأسرة،ولو برضا الطرفين، والإجهاض، والربا، والردة، وما يسمى «بقتل الرحمة»، ونقل أعضاء جسم الإنسان .. إلخ، وهى أمور أخرجتها معظم النظم القانونية فى الغرب من قائمة الجرائم.

** **وفى الوقت نفسه** نجد أن هناك ما يعتبر فى نظر النظام العالمى الجديد جريمة، وهو ليس بجريمة فى نظر الإسلام، بل هو أمر مشروع ؛ ومن هذا تعدد الزوجات (حتى أربعة) ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،وما يسمى باغتصاب الزوجة، وتأديب الزوج لزوجته.. إلخ .

هذا ، وإذا قام العدل، استقامت أمور الحياة، وإذا غاب كان شعور الناس بالظلم، فيكون ذلك «إيذانا بخراب العمران» ـ على حد التعبير الدقيق؛ الذى عنون به العلامة ابن خلدون أحد أبواب مقدمته. ولئن كان ابن خلدون قد ربط الظلم بأمور المال والاقتصاد فقط، فإنه أعطى وصفا دقيقا لما يجره الظلم على المجتمع من خراب فقال:

«اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها؛ لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا فى السعى فى الاكتساب . فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما فى جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك؛ لذهابه بالآمال جملة، بدخوله من جميع أبوابها.. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال، وانتشر الناس فى الآفاق .. فخف سكان القطر، وخلت دياره، وخرجت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان...».

وعلى ذلك فصلاح أمر الراعى وعدله، وحسن اختياره لبطانته ، يجعل إقامة العدل أمرا ممكنا . و«الإمام العادل» هو أول السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. وأرفع الناس درجة يوم القيامة إمام عادل، وأشدهم عذابا إمام جائر. قال ﷺ :

ـ « ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرّم الله عليه رائحة الجنة» (رواه مسلم).

وإذا كان اختيار ولى الأمر موكولا إلى الأمة، من خلال البيعة، فإن الأمة تكون مسئولة عن إقامة العدل فيها، أو أن يسود الظلم، إذ أن المسئولية لا تقف عند حد اختيار الحاكم، فعلى الأمة مراقبته فى إيجابية، وعليها أن تشعره بهذه الرقابة، فإن حاد عن الطريق، أو ولّى عليهم من يظلمهم، وجب على الأمة أن تعيد الأمر إلى نصابه وإلا أثمت، واستحقت عقاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة، فالناس إذا رأوا الظالم ورضوا بظلمه، ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده . لذا يقول الله تعالى:

ـ ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ [الزخرف / 54]

فقد أضاف الله تعالى صفة «الفاسقين» لمن ظُلموا ورضوا مع ذلك بالظلم.. وأطاعوا فيه ظالمهم.

ولعل من أوضح صور الظلم التى لا يجوز التسامح معها الشرك بالله، شركا أكبر، أو

شركا أصغر. والأخير هو الذى يأخذ صورة تفشى النفاق، وإكبار الحكام، بما يزيد عن مجرد احترامهم وطاعتهم، وهو ما يعرف فى علم السياسة «بعبادة الأشخاص»؛ من خلال المبالغة فى نسبة الفضل والخير إليهم، وكأنما بأيديهم أرزاق الناس ومصائرهم. وما أكثر انتشار هذه الظاهرة فى بلادنا الإسلامية بشكل أصبح يدعو إلى سخرية الأمم منا، ومن مسلكنا هذا.

** **ومن صور الشرك الأصغر تعظيم الأضرحة**، وبناء المساجد عليها، وتقديم النذور لها، والاحتفال بالموالد(1) ، والدعاء عندها، والظن بأن لأصحابها عند الله عهدا، به تنفع الأحياء أو تضرهم. فهذه الصور وتلك ، تقدح فى العقيدة وتجرح الإيمان، ولا يستحق أهلها الأمن الذى هو بيد الله تعالى وحده، وهو القائل:

ـ ﴿ **... إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [لقمان / 13]

ـ ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف / 106]

إن استمرار وجود هذه الخرافات لهو علامة من علامات تخلّف الكثيرين من المسلمين، وعلامة من علامات تقصير علماء الأمة. وما أتصور أن مؤمنا عاقلا يرضى بما يحدث، إلا أن يكون الهدف من المحافظة على هذا الوضع المشين، هو إلهاء الناس عن عظائم الأمور، وغمسهم فى التفاهات، وإبعاد عقولهم عن التفكير فى أحوال الأمة، التى لا ترضى مؤمنا غيورا على دينه.

أولم يقرأ الناس قول الله تعالى:

ـ ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ [الأحقاف / 9].

---

(1) من الأمور التي تدعو للسخرية والعجب، أن يُحتفل بمولد صاحب ضريح من الأضرحة أكثر من مرة في العام الواحد!! ومن الأمور التي تدعوا للسخرية أيضا أن يكون من الثابت تاريخا وواقعا أن صاحب ضريح ما ليس مدفونا فيه، وإنما دفن في قبر آخر يبعد عنه آلاف الأميال.. وفي أحيان كثيرة ثبت ، بعد التنقيب، أنه لا يوجد إنسان مدفونا في المكان الذي يعتبرونه قبر أحد الأولياء، أو أن يكون المدفون غير مسلم على الإطلاق!!! ذلك، ويصف «صموئيل أتينجر» ، المؤرخ اليهودي البارز وأستاذ التاريخ اليهودي الحديث بالجامعة العبرية بالقدس، يصف ظاهرة تقديس «الصديقين» ، أو «الأولياء» عند يهود الشرق، وأن هذه العادات قد نشأت في المغرب ، وانتقلت إلى مصر وغيرها في عهد «الدولة الفاطمية»، ويضيف أن ظاهرة تقديس «الأولياء»، والنذر لهم، والمبيت بجوار أضرحتهم و....إلخ قد أسهمت في توثيق العلاقات بين المسلمين واليهود، وأن المسلمين كانوا يقومون بزيارة قبور بعض الأولياء اليهود!

ـ صموئيل اتينجر ، اليهود في البلدان الإسلامية (1850 - 1950) ، ترجمة د. جمال أحمد رفاعي، مراجعة د. رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة، رقم 197، ذو الحجة 1415هـ ـ مايو / آيار 1995م ، صـ 317:314 .

ـ ﴿ ... من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ... ﴾ [البقرة / 255].

كيف وقد قال أبو بكر رضى الله عنه، الذى خرج مع رسول الله ﷺ ثانى اثنين، مهاجرين، وصدقّه بالغيب حتى سمى صديقا، وبشره رسول الله ﷺ عليه بالجنة ، ووصف إيمانه بأنه إذا وزن بإيمان الأمة لرجح إيمان أبى بكر، كيف وقد قال: «والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماى فى الجنة»(1).

ومن كانت حاله كذلك، ولا يستطيع أن يشفع لنفسه عند الله، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فكيف يملك الآخرين، الأقل شأنا، شفاعة عند الله، بتنصيب الناس لهم شفعاء عند الله، ويتقربون بهم، بعد موته، إلى الله زلفى... أيُضَاَ هِئُون عمل الذين كفروا من قبل؟!

ولئن جادلت البعض فى هذا الأمر لوّى رأسه، وأعرض ونآى بجانبه، وخوّفك من الخوض فى هذه الأمور. فكأنى بهم وقد قال الله تعالى فيهم:

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [المائدة / 82:81]

** **ومن صور الشرك** التى أطلت علينا بوجهها الكريه، محاولات إحياء تاريخ أمم غابرة، كانوا يعبدون الأوثان، فنمجّد آلهتهم، ونخرج أصنامهم، ونطلق أسماءهم على منشآت، ومؤسسات، واحتفالات، وجماعات، وذلك بدعوى السياحة مرة، وبدعوى استعادة القيم الأصلية مرة أخرى!! وما هذه كلها إلا محاولات للتعتيم على قيم الإسلام ومنهاجه:

ـ ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

[الصف / 8-9].

*** **ومن صور الظلم البيّن** أيضا أن يتم المساس بنشاط المساجد، أو هدمها، أو تقييد الدخول إليها، أو الحد من قيامها بوظيفتها فى مجال الدعوة إلى الله، أو التحريض على ذلك. **يقول الحق سبحانه :**

---

(1) الحديث ضعيف، وإن كان بعض أهل العلم يستخدمونه في فضائل الأعمال.

- ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾

[البقرة / 114]

إن من أوضح صور الظلم التى تفشت فى معظم بلدان الأمة أن يُحكم المسلمون بغير شرع الله ، وأن يعتذر الساسة، وبعض العلماء، بحجج واهية... بل إن الأكثر ظلما أن نجد الاتجاه ـــ فى ظل النظام العالمى الجديد ـــ هو المزيد من البعد عن قيم الإسلام ومنهاجه وشرعته (1). يقول الله تعالى:

- ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات الله ثم أعرض عنها إنَّا من المجرمين منتقمون﴾

[السجدة / 22]

إن رد الفعل الطبيعى أن يزداد الناس شوقا لأن يُحكموا بشرع الله، فيقابلُون بالمزيد من القهر والقمع النفسى والمعنوى والفكرى، بل والمادى، ولا تكون النتيجة إلا المزيد من الاستبداد بالرأى، وعدم قبول النصيحة، والجحود بالشورى.

* * *

(1) يقول العلامة ابن خلدون : «إن الملك لا يتم عزّه إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه...» (المقدمة : صـ 287).

ويقول في موضع آخر : «والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تهب بالتنافس والتحاسد الذى في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه ...» (المقدمة : صـ 158).

وهذا الأمر يعبر عنه بالمصطلحات الحديثة، أنه ما من شيء يحدث التماسك في المجتمع ، ويحقق توافق الأمة على الأهداف ، ويظهر إرادتها في قوة إلا تمسك الحكام والمحكومين جميعا بعقيدة واحدة.

الفصل السابع

الشورى سابعة قيم المنظومة الإسلامية

الشـورى قيمة إسـلامية عُليـا، وفريضة ، وأمـر معلوم مـن الدين بالـضرورة، فهى واجبة الأداء، وحكم تاركها عمدا هو حكم تـارك الصلاة، أو جاحد الزكاة؛ وما ذلك إلا لأن الله تبارك وتعالى قد أمرنا بها مـجتمعة مع هذين الركنين: الصلاة ، والزكاة. وقد أمر رسول الله ﷺ بهذه الفروض الثلاثة ، مبلغا عن ربه، منذ فجر الدعوة؛ إذ قال الله تعالى:

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾. [الشورى / 38]

وهذه الآية من الآيات المكية، وقد جاء الأمر فيها بالشورى مجملا، كما جاء الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مجملا. ثم جاءت سنة رسول الله ﷺلتبين الممارسة العملية للشورى، وكان رسول الله غـنيا عنها، لأنه موحى إليـه من ربه ـ وذلك فى غير ما نزل بـه نص قطعى الدلالة، امتثالا لأمر الله تعالى، وتعليما للمسلمين وإرشادا لهم. وقال فيما رواه الترمذى :

« إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحـاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لـكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكـم وأمركم إى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

والشورى هى الطريقة التى شرعها الله تعالى لصنع واتخاذ القرارات، فى كل المستويات. فأى قرار يتخـذ لتنعكس آثاره على غير متخذ القرار، على مـستوى الأمة، أو دون ذلك، أو على مستـوى الأسرة أو أعلى من ذلك، أو على مـستوى المشروع الخاص، فينـبغى أن يكون نتاج المشاورة، لعموم قول الله تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم ﴾**.

فالشورى إذن هى منهاج الإدارة فى صنع واتخاذ الـقرار، وهى عكس الاستبداد بالرأى، لما تسمح به من تنوع فى الآراء التى تعرض قبل «العزم» ؛ أى قبل حسم الأمر واتخاذ القرار.

وقد يتظاهر البعض من غير الملتزمين بشريـعة الإسلام، باعتماد الشورى كقيمة من القيم، لكـنها تختلف عن ما أمر به الإسـلام من حيث: أهلها، وموضوعها، ومـرجعيتها. لقد كانت

تلك الشورى مظهرية، يُبتغى بها تطبيب القلوب، وإذهاب أضغان النفوس فقط.

وكانت غالبا ما تتم مصحوبة بالتضليل أو الضلال، والعلو أو الاستعلاء.

وقد أنزل الله تعالى قرآنا فى حالتين من الحالات التى مورست فيها الشورى قبل بعثة محمد ﷺ.

ـ **الحالة الأولى** ـ كانت استشارة فرعون فى أمر موسى عليه السلام:

وقد مهد فرعون لهذه الشورى بجهد كبير للتضليل والتعمية، وأورد بعض المفتريات التى اعتبرها من المسلمات، فحسم بذلك أمر الشورى قبل أن تبدأ:

ـ **﴿ ... قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾**

[غافر / 39]

ـ **﴿ ونادى فرعون قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾** [الزخرف / 53:51]

ـ **﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين﴾**

[القصص / 38]

وبذا وجه فرعون حملته النفسية ضد شعبه (قومه) ، وضد النخبة منهم (الملأ). وكانت نتيجة هذا التمهيد بالباطل، ولأن قوم فرعون لا يعرفون للشورى معنى ولا ضرورة ، فقد تأهل الجميع لقبول قرار الطاغية، فشاركوه فى جرمه وكانوا قوما فاسقين:

ـ **﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾** [الزخرف / 54]

ونتيجة لوجود هذا الرأى العام الفاسد جاءت الشورى مجرد تسليم لرأى الطاغية المستبد ومحاولة لإرضائه فقالت «النخبة» المحيطة به (الملأ):

ـ **﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون. قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾**

[الشعراء / 36:34]

ولذا كان قراره بقتل موسى عليه السلام ومن معه مقبولا لديهم، وأعانوه عليه:

ـ ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ [غافر / 26]

ـ ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طه / 78-79]

ولم يحل بينهم وبين إتمام تنفيذ القرار الخاطئ إلا أن نَصَر الله تعالى نبيّه والذين آمنوا معه.

الحالة الثانية ـ هى استشارة ملكة سبأ لقومها فى خصوص أزمة ثارت بسبب كفرهم وسجودهم للشمس من دون الله، وبلوغ هذا الأمر سليمان عليه السلام فبعث خطابه يدعوهم إلى العدول عن هذا، ملوّحا باستخدام القوة المسلحة إذا لم يمتثلوا ، وظلوا يستكبرون قال تعالى:

﴿قالت يأيها الملؤ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا على وائتونى مسلمين. قالت يأيها الملؤ أفتونى في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾. [النمل / 29:33]

وبذا تنازلت «النخبة» (الملأ) عن أداء الشورى، ولم يضعوا أمام متخذ القرار خيارات وبدائل ، فسلموا مقدما بحق ملكتهم فى الاستبداد بالرأى مذعنين مسبقا لقرارها.

وليس هذا بالأمر المفيد لمتخذ القرار، إذ يحرمه من تمحيص الأمر والنظر إليه من عدة زوايا، بل على العكس من هذا يفرض عليه حصارا ، ويضيق أمامه الأفق الرحب، فلا يرى إلا رأى نفسه.

ومن ثم فقد اعتمدت ملكة سبأ على خبراتها الشخصية فقط، وعلى توجهها العقدى:

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ [النمل / 43]

كان قرارها قرار امرأة ، تميل إلى التحفظ والكيد ، أكثر من ميلها إلى العقل والإقدام والمخاطرة المحسوبة. وجاء قرارها مسبوقا لمبرر كما يلى:

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ [النمل / 34-35]

وتقص علينا الآيات الكريمات خطأ قرارها وسوء تقديرها، إذ كانت الشورى معيبة:

﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم

تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [النمل / 36-37]

ذلك ، وقد بين لنا القرآن الكريم ، وفصلت لنا السنة النبوية المشرفة ، القولية والعملية، الشورى الإسلامية ، كقيمة عليا ، وفريضة واجبة الاتباع ، وكأمر من أمور الدين المعلومة بالضرورة. يقول الله تعالى:

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران / 159]

وهذه آية كريمة نزلت بعد غزوة أحد لتقر الأسلوب الذى اتبعه رسول الله ﷺ فى مشاورة أصحابه قبيل لقاء الكفار فى غزوة أحد.

والأسلوب الإسلامى للشورى يتدرج إلى ثلاث مراحل: مرحلة صنع القرار، وهذه يقوم بها عدد من «الصفوة» ، عُرفوا فى الفقه الإسلامى باسم «أهل الحل والعقد»، وهؤلاء تحدثت عنهم الآية الكريمة بصيغة الجمع. ثم تأتى مرحلة اتخاذ القرار، أو عقد «العزم» ، وهذه يتولاها المسؤول، وهو فرد عبرت عنه الآية الكريمة بقول الله تعالى **﴿ .. فإذا عزمت..﴾** . وبعد ذلك تكون مرحلة تنفيذ القرار التى فيها يكون صناع القرار، ومتخذ القرار قد استنفذوا جهودهم ، وأخذوا بالأسباب ، وأدوا الفريضة كما ينبغى، فيتوكلون على الله ، لأن النتائج والأقدار بيده سبحانه لا شريك له؛ لذا تعبر الآية الكريمة عن هذا يقول الله تعالى : **﴿ ... فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾** [آل عمران / 159]

وفى المرحلة الأولى ؛ يأمر الله تعالى نبيه ، وكلّ من ولى أمرا من أمور المسلمين (كبر موقعه أو صغر) أن يتواضع عن موقع الرئاسة فيكون بين مستشاريه كواحد منهم .. والمهم هنا أن يشعروا هم بهذا حتى يستفرغ كل منهم ما عنده من رأى وفكر واجتهاد. وفى هذه المرحلة تطرح التصورات، وتمحص البدائل، وتساق الحجج، من نحوى النصوص، ومن ما يحقق المصلحة الشرعية، ومن ما يناسب الموقف من علم ومعلومات ومنطق. وفى هذا المجال تقرع الحجة بالحجة دون خشية صاحب الرأى ومقدم المشورة، الذى قد يدافع عن رأيه بما يعد تجاوزا فى الحديث ، لا يسمح به فى الظروف العادية، التى تستوجب الطاعة. وإزاء هذا الظرف الاستثنائى الذى أبيح فيه المحظور للضرورة ، وجب العفو والاستغفار. لذا يأتى سياق

الآية الكريمة متدرجا هكذا :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم**﴾ ؛ وهو أمر صريح بلين الجانب وإشاعة الطمأنينة فى قلوب المستشارين (صناع القرار) ، ونزع الرهبة والخوف من قلوبهم، والترخيص لهم بمناقشة ولى الأمر، والأصل هو الطاعة فى ما أحب الإنسان أو كره.

﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ ؛ فلو أن المستشارين شعروا بالرهبة فى مجلس القائد أو الرئيس، لالتزموا بالطاعة طلبا للسلامة، ولأراحوا أنفسهم بموافقته فى كل ما يقول؛ فلا يشحذون قرائحهم ، ولا يطرحون أفكارهم، ولا يجشمون أنفسهم عناء بذل الجهد دفاعا عن حجمهم.

فالجو الذى يجب أن يسود ، على حد تعبير ابن كثير فى «تفسير القرآن العظيم» هو جو تأليف القلوب وتطييبها ليكون أنشط لهم فى ما يفعلونه.

﴿ **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** ﴾ ؛ فإذا ما ساد جو الطمأنينة بين المستشارين كان حقا على كل منهم أن يبذل غاية جهده فى عرض تصوره، وفى عرض الحلول والبدائل، وإبداء المبررات ، والخيارات والأولويات.

وعطف «المشورة فى الأمر» على العفو والاستغفار لا يفيد الترتيب بالضرورة، فهما يأتيان متلازمين، ويستمر العفو والاستغفار إلى ما بعد انتهاء مجلس الشورى . وهو عفو واستغفار عن ما يكون أى من المستشارين قد وقع فيه من لغو فى القول، أو غلطة فى الحديث، دون قصد، لما يستشعره فى نفسه من أمانة، وإخلاص ، وغيره على المصلحة.

وفى المرحلة الثانية ؛ يكون لاتخاذ القرار، وهو عمل فردى، يقوم به صاحب القرار بعد تمام استفراغ غاية الجهد، أحد احتمالين:

ـ إما أن يكون رأى متخذ القرار موافقا لرأى أغلبية مجلس الشورى، فيكون هذا هو القرار الى يجب اتباعه.

ـ وإما أن تميل الأغلبية إلى رأى يخالف رأى متخذ القرار. وفى هذه الحالة يُعبد متخذ القرار عرض عناصر جديدة ترجح رأيه، دون ممارسة أى ضغط معنوى على الجانب الآخر، فإن نجح فالقرار يكون على مقتضى ما نجح فى التوصل إليه، وإلا فعليه أن يتخذ القرار على

مقتضى رأى الأغلبية. ولا يجوز الاحتجاج بأن الرئيس أو القائد متخذ القرار يملك رؤية أوسع، إذ كانت لديه الفرصة لوضع كل الحقائق والمعلومات أمام مجلس الشورى.

لعل هذا هو الذى يوافق السنة العملية لرسول الله ﷺ فى غزوة أحد :

لما علم رسول الله ﷺ بمسيرة قريش لقتاله ، حتى بلغوا مسافة خمسة أميال من المدينة، بعث من يتحسس الأخبار ، كى لا يتخذ القرار إلا على معلومات مؤكدة ، ثم استشار أهل الرأى فانقسموا إلى قسمين:

البعض أشار بالتحصن بالمدينة وقتال العدو فيها، كعادة أهلها من قبل، وقد كان رسول الله ﷺ يميل إلى هذا الرأى.

البعض الآخر أشار بالخروج لملاقاة العدو ردعا له، وإظهارا لشوكة المسلمين. وقد تغلب هذا الرأى فى النهاية ، فكان أن اتخذ رسول الله ﷺ قراره على مقتضى ما أشارت به الأغلبية، رغم مخالفتها لما كان يراه .

ولم يأت القرار إلا بعد المراجعات والمناظرات التى تسبق القرار. وكان «العزم» (أى القرار) أن يتهيأ الجميع للمعركة وملاقاة العدو عند جبل أحد، بنظام دقيق فصله رسول الله ﷺ يضمن حسن استخدام الجبل كموقع استراتيجى هام لا يجوز التخلى عنه حتى تُحسم المعركة ، وأوصى المجاهدين بالتزام ما أمرهم به وبالصبر، فإن فعلوا فالنصر لهم بإذن الله.

وقد سار الخلفاء الراشدون من بعد رسول الله ﷺ فى أمر الشورى على نفس النهج :

فلما استشار أبو بكر رضى الله عنه فى قتال من منعوا الزكاة، وعارضه من عارض وكان منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يترك الأمر، ولم يستبد برأيه فحاجهم أبو بكر حتى حجّهم، وكان قراره بقتال من فرّقوا بين الصلاة والزكاة باعتبارهم مرتدين عن الإسلام.

ويروى القاضى أبو يوسف فى كتابه «الخراج» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه شاور صحابة رسول الله ﷺ فى شأن أرض العراق والشام، التى أفاء الله بها على المسلمين، وكان يرى إبقاءها ما لا عاما للمسلمين تسد بها الثغور (أى ينفق منها على الجهاد فى سبيل الله)، ويرزق منها القضاه والعمال (أى يعطى منها أجور القضاه والولاة وكبار موظفى الدولة)

والجند، وينفق منها على الأرامل واليتامى والمحتاجين ، وينتفع بها أول المسلمين وآخرهم. وكان هناك من تكلم بغير رأى عمر رضى الله عنه، فجمع مجلسا للشورى من عشرة نفر من أهل المدينة، وظلوا فى حوار وجدل ثلاثة أيام حتى ساق عمر من الحجج ما أقنعهم بصواب رأيه، وكان على ذلك قراره..

ولا يظنن أحد أن عمر رضى الله عنه قد مارس ضغطا أدبيا على مجلس الشورى، بل على العكس ، فإنه قال لهم حين اجتمعوا: « إنى لم أزعجكم إلا لأشركوكم فى أمانتى، وفى ما حملت من أموركم، فإنى واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى، ولست أريد أن تتبعوا رأيى، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت أمرا أريده ما أريد به إلا الحق ... قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين ... إلخ.

على أنه إذا فرض وتساوى الرأيان، فعلى صاحب القرار أن يرجح كنه أحدهما. ولعل هذا ما يوافق قول رسول الله ﷺ لصاحبيه أبى بكر وعمر: «لو اجتمعتما فى شورة ما خالفتكما».

فإذا ما تعددت الآراء، ولم تظهر أغلبية، فإن الشورى لا تكون قد اكتملت بعد، وعلى صاحب القرار أن يبذل وصحبه من الجهد ما يظهر هذه الأغلبية؛ فيتخذ القرار والجميع فى حالة اطمئنان بأن كلا منهم قد أدى الفريضة، كما ينبغى. ويكون ذلك من خلال المزيد من بسط الموضوع، وعرض المزيد من التصورات والاحتمالات، واستجلاب المزيد من المعلومات ، والاستماع إلى آخرين من ذوى الخبرة والرأى للاسترشاد برأيهم، وبذل الجهد فى فهم كتاب الله وسنة رسوله.

أما المرحلة الثالثة ؛ فهى التى تلى اتخاذ القرار وفيها يكون التوكل على الله ، فليس لأى إنسان من الأمر شىء اللهم إلا اتخاذ الأسباب، وقد تم ذلك فى المرحلتين السابقتين ، فلا يجوز العودة لفتح باب الشورى أو مناقشة أى جانب من جوانب الموضوع بعد «العزم»، إذ على الجميع أن يتوجهوا مباشرة إلى وضع القرار موضع التنفيذ مستعينين بالله مطيعين لما يأمر به متخذ القرار. ولعل خير مثال نضربه فى هذا المجال هو ما حدث بعد اتخاذ رسول الله ﷺ القرار بالخروج لملاقاة الكفار عند جبل أحد، وانصرف بعدها للاستعداد للمعركة، فقد ظل البعض يتحاورون ويحللون، فقال أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وكانا ممن أشاروا

بالتحصن بالمدينة، للفريق الآخر الذين رأوا الخروج ، واتخذ القرار على مقتضى رأيهم: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه».

فلما خرج رسول الله ﷺ لابسا درعه، متقلدا سيفه أقبلوا عليه فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثم إليك».

كان هذا بمثابة دعوة إلى التردد، وإعادة بحث الأمر من جديد، ونقض القرار بعد حسم الأمر، وهو ما قد يشيع الوهن فى القوم، وقد تهيئوا لتنفيذ القرار، كما أنه قد يشيع الارتباك الذهنى فى مجموعة صنع القرار، فضلا عن أنه يضيع الوقت، ويخلع عن متخذ القرار صفة الحزم الواجب أن يتحلى بها، ويوكلى الناس إلى أنفسهم، وكأنما النتائج بأيديهم.

لذا أبى رسول الله ﷺ عرضهم هذا وقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.. انظروا ما آمركم به فاتبعوه.. والنصر لكم ما صبرتم».

وقد أصبح هذا الأسلوب أمر مستقر لدى المسلمين [1].. ففى ما رواه سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : «قلت يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم تمضى فيه منك سنة قال: اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأى واحد».

ولما كانت الشورى الإسلامية فريضة، فهى تختلف عن غيرها من الممارسات التى كانت قبل الإسلام، والتى نجدها فى كل نظم الإدارة المعروفة فى عالم اليوم، فى ثلاثة أمور أشرنا إليها من قبل، وهى (**أهل الشورى ـ وموضوعها ـ ومرجعيتها**) :

* **فأهل الشورى** (صناع القرار) يُختارون من المؤمنين ، أولى العلم، والكفاءة، والأمانة، وهى أمور يسهل قياسها الآن أكثر من ذى قبل. ويراعى عند الاختيار مستوى الإدارة، والموضوع المطروح للشورى، كما يراعى تنوع التخصصات والخبرات التى يتطلبها

(1) كان مما نصح به عمر بن الخطاب شريحا : «انظر ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا، وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله، وما لم تبين لك في السنة فاجتهد فيه رأيك، واستشر أهل العلم والصلاح» .

الموضوع، وتفاوت الأعمار، ما أمكن، وقد يتطلب الأمر اعتبار التفاوت الجغرافى عند انتقاء هذه المجموعة. فقد كان رسول الله ﷺ ، والخلفاء الراشدون من بعده يحرصون على استشارة المهاجرين والأنصار، فلا يكتفى بأحد الفريقين دون الآخر.

وليس لعدد أهل الشورى اعتبار، فالكثرة لا يعول عليها، فقلة عاقلة عالمة خير من كثرة جاهلة يسودها الرعونة والحماقة . والعدد المناسب، عملا ، لا يقل عن أربعة، وإلا غاب تعدد الآراء، وتمحيص جوانب الموضوع، ولا يزيد عن خمسة عشر ، فيحرم البعض من الإسهام برأيه والدفاع عنه.. ففى غزوة بدر كان أهل الشورى هم : أبا بكر، وعمر بن الخطاب، والمقداد بن الأسود، وسعد بن معاذ، عليهم رضوان الله جميعا، فأجمعوا على ملاقاة العدو وقتاله، وكان القرار على ما رأوا(1).

وتتكامل الشورى مع النصيحة، ولا يختلطان ، فالنصيحة تجوز من فرد واحد ذى خبرة، أو أكثر من فرد. وتعطى النصيحة، أو تطلب أثناء الشورى، أو فى أعقابها، عند تنفيذ القرار، مثل النصيحة التى أدلى بها الحُباب بن المنذر، عندما ذهب رسول الله ﷺ ينظم الجيش استعدادا للمعركة فقال: «يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟» فقال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور (أى تدفن وتطمس) ماوراءه من القُلُب (أى الآبار) ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.. فقبل رسول الله ﷺ نصيحته وعمل بها.

ومن المواقف التى أعطيت فيها النصيحة أيضا، حفر الخندق فى غزوة الأحزاب، بناء على نصيحة سلمان الفارسى ، ومبادرة رسول الله ﷺ بنجر الهدى والحلف فى أعقاب صلح

---

(1) كان لعمر بن عبد العزيز (الذى يعتبر خامس الخلفاء الراشدين، رغم الفاصل الزمنى بينه وبين رابعهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه) كان له مجلس شورى مكونا من عشرة ، كانوا خيرة العلماء الأمناء ذوى الكفاءة آنذاك وهم : عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان، والقاسم بن محمد، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر ، وخارجة بن زيد. فلما اجتمعوا قال لهم: «إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم».

الحديبية بناء على نصيحة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ..

وهناك أمر ثالث ، لا هو بالشورى، ولا هو بالنصيحة، وإنما يتكامل معهما، وهو استطلاع رأى العامة من الناس، مباشرة ، أو من خلال من يعبرون عنهم. ويفيد استطلاع الرأى هذا فى معرفة توجهات، وقدرة من سينعكس عليهم القرار، ويطالبون بتحمل نتائجه ويسهمون فى وضعه موضع التطبيق، وفى إمكانية استثارة ولائهم لدعم القرار ومساندته، والإجراءات الضرورية لذلك.

وقد كان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يمارسون هذه الأمور الثلاثة فى تكامل.

* أما عن **موضوع الشورى**؛ فهو ما لا نص فيه.. فإذا كانت الشورى ضرب من ضروب الاجتهاد، له خصوصيته، فهى عمل عقلى بشرى لا يجوز مع وجود النص الموحى به، طالما أنه نص قطعى الدلالة.. وهذا ما يخصص عموم قول الله تعالى : ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ . فلا مكان للشورى حال وجود نص، كما يقول علماء أصول الفقه:(لا اجتهاد مع نص).

وأوضح مثال على هذا هو عدم قبول رسول الله ﷺ الشورى فى صلح الحديبية، لأنه كان مأمورا بما فعل ، فما كان له ولا للمؤمنين إلا الإذعان، قال تعالى:

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور / 51]

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ [الأحزاب / 36]

** **وأخيرًا مرجعيتها**: فإن أى قرار يستند إلى مرجعية من منظومة للقيم، ومبادئ عامة. ولا شك أن مرجعية الشورى الإسلامية تختلف بالضرورة عن غيرها، فللإسلام منظومة قِيَمِه، ومبادئه العامة المستمدة من مصدَرَيْه : القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وهذه أمور تميز الشورى الإسلامية من غيرها من صور الشورى قديمها وحديثها.

وإذا كانت الشورى واجبة فى كل أمور المسلمين، فإنها تكون أوجب عند تنصيب الولاة والحكام، فمن بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا الذى بايعه. كما أنه

يحرم تولية أحد أمرا من أمور المسلمين محاباة، أو استعمال رجل وفى المسلمين من هو أرضى لله منه، فإن حدث فقد خان من فعل ذلك الأمانة، أما إن استشار فلن يجيب ولن يضل فى اختياره.

*** ولعل من أروع صور المشورة فى اختيار أمير المؤمنين؛ تلك التى اختير بها الخليفة الثالث عثمان بن عفان، إذ عين عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، مجلسا للشورى مكونا من ستة من صحابة رسول الله ﷺ هو علي بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم، فهم من خيرة الصحابة، وممن كانت لهم أياد بيضاء فى الجهاد لإعلاء كلمة الحق، ونصرة دين الله، لذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يتخذ قرار تشكيل هذا المجلس[1]: «إننى سأستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو راضٍ عنهم» .. ولا غرو فقد كانوا من أكثر المؤمنين علما وأمانة وكفاءة. بيد أن عمر رضى الله عنه كان شديد الورع والتقوى، فاستبعد ابنه عبد الله رضى الله عنه، وكان فيه للخلافة موضعا، ولم يكن ليعترض على استخلافه أحد لفضله وعظم قدره.

ونظرا لخطر الأمر الذى طُرح للشورى، فقد نظم عمر بن الخطاب، فضلا عن الشورى، نظاما للنصيحة يسير جنبا إلى جنب، فى تكامل، مع أعمال مجلس الشورى .. فعين لإبداء النصيحة شيوخا من الأنصار، والحسن بن على، وعبد الله بن عباس، فضلا عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهم أجمعين، فهؤلاء يقدمون النصيحة، ولا يكون لهم من الأمر شىء، إلا عبد الله بن عمر فقد جعل رأيه مرجّحا لأحد الجانبين ، إذا تساوى الجانبان، وهذا إجراء تنظيمى حكيم، لأن الحيدة ستكون متوافرة فى جانب عبد الله بن عمر عندما ينتقل من موقع النصيحة إلى موقع الشورى وليس له من أمر الخلافة شىء.

وقد استكملت القناة الثالثة التى تتكامل مع الشورى والنصيحة فى آخر الأيام الثلاثة التى حددها عمر بن الخطاب لاتخاذ قرار تعيين شخص أمير المؤمنين، إذ عرض عبد الرحمن بن عوف أن يتخلى عن نصيبه فى المجلس ، ليقوم باستطلاع الرأى لدى عامة الناس، فى حيدة، إذ أصبح من غير المرشحين للخلافة.

---

(1) أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعضاء مجلس الشورى بأن يتشاوروا ثلاثة أيام، لا يتفرقون حتى يستخلفوا أحدهم، وجعل صهيب رضي الله عنه إماما يصلى بهم ولا يشاركهم أمر الشورى، حتى لا يظهر أحد أعضاء المجلس وقد تبوأ مكان الإمامة فيهم فيظن أنه أولاهم بالأمر.

انطلق عبد الرحمن ابن عوف ، متخفيا، يستشير أهل الرأى من المهاجرين والأنصار، ويستطلع الرأى عند غيرهم من عامة الناس حتى إذا ما استيقن من رضا الغالبية العظمى عن عثمان بن عفان .. جمع الناس وبايع لعثمان فبايعوه.

ولم يكن هذا المنهاج الإسلامى مقتصرا على اختيار أمير المؤمنين، بل كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطبقه فى اختيار الولاة، وكان يكتفى بأن يذكر لمجلس الشورى، الذى يتولى صنع قرار اختيار الوالى من الولاة، الشرط الذى يشترطه فيه، وكان غالبا ما يشترط ما يلى: «إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم».

ومن ثم كان شرط الكفاءة عنده، قوة الشخصية مع التواضع، وكان على مجلس الشورى أن يتحروا باقى شروط الولاية، وجماعها العلم والأمانة.

وما من قيمة عليا فى الإسلام ألبسها أهلها بالباطل، فى ظاهر الأمر، أكثر من الشورى، التى تصور بعض مفكرى الأمة ـ بسطحية وحسن نية غالبا ـ أنها والديوقراطية الغربية شيئا واحدا، أو أن بينهما قرابة ما ، أو أننا كمسلمين أولى بالديموقراطية من الأمم التى اخترعتها، أو أن لنا، كمسلمين، ديموقراطيتنا الإسلامية .. إلى غير ذلك من الأوهام!!

ولو أن هؤلاء ـ غفر الله لهم ـ قد كلفوا أنفسهم عناء البحث العلمى المتأنى، وتدبّروا فى نفس الوقت قول الله تعالى:

﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام / 161]، وقوله تعالى:

﴿ ... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ... ﴾ [المائدة / 48]

لو أنهم فعلوا هذا لتبين لهم بجلاء ـ ما يعرفه الباحثون المسلمون المدققون، بل والباحثون الغربيون الثقات ـ أنه لا قرابة بين الشورى والديموقراطية، ولا تشابه بينهما ؛ فالديموقراطية هى الشق السياسى للمذهب الليبرالى[1] فى حين أن الشورى ، إسلامية كانت أو غير

(1) الرأسمالية هي الشق الاقتصادي للمذهب الليبرالي الذي ساد أوروبا وأميريكا الشمالية. والرأسمالية ، مثلها مثل الديموقراطية، لا تتفق ومنهاج الإسلام في المجال الاقتصادي من حيث : مغالاتها في تعظيم حق الملكية، وإغراقها في المادية ، واعتبار الربا، والمنافسة التي لا يحدها دين ، والاحتكار ، وبيوع الغرر، وعقود القمار.. وغيرها مما لا يقره الإسلام، اعتبارها من أصول وركائز النظام الرأسمالى. والغريب أن بعض كتاب ومفكرى الغرب يحاولون إيجاد مبرر لهذه الأمور من نصوص «الكتاب المقدس». وقد قال تعالى: **﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾** [النساء / 161].

إسلامية، هى منهاج صنع القرار فى كل المستويات السياسية، والأدنى من ذلك، كما وضح بجلاء من العرض السابق.

فإذا ما توجهنا ببحثنا إلى «الديموقراطية»نعرضها على الإسلام فإننا سوف نتبين أن الديموقراطية الغربية ما هى إلا نِتَاج الفكر «اليهودى / النصرانى» الأوروبى؛ الذى واكب ما يسمونه بعصر النهضة، فهى مزاج بين : الميراث الفلسفى الإغريقى والرومانى ؛ والعقيدة النصرانية المستمدة من نصوص الأناجيل ؛ ونصوص العهد القديم ؛ والإسهام الفكرى اليهودى فى مرحلة الشتات، التى تلت سقوط الأندلس (أى ابتداء من القرن السادس عشر)؛ وأفكار «الإصلاح الكنسى» الذى بدأ بظهور المذهب البروتستانتى» ؛ و«الفكر الإلحادى» الذى يُنحّى الدين جانبا عن الحياة العامة، والذى يعتبرونه فى حد ذاته نتاج الفكر النصرانى الأوروبى، على مدى ستة عشر قرنا سبقت، ما يسمونه بعصر النهضة فى أوروبا، والذى تمخض أيضا عن أفكار «القانون الطبيعى» الذى يقولون أنه سابق على وجود الجماعة البشرية!!

ذلك، وقد بُنِيَت الأفكار الديموقراطية الغربية للإجابة على ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول ـ لمن تكون السيادة أهى للسلطة الدينية أم للسلطة الزمنية؟

والسؤال الثانى ـ كيف يتم التخفيف من التعارض الحتمى بين ممارسة السلطة وحقوق وحريات الأفراد؟

والسؤال الثالث ـ كيف يتم حل التعارض والتضاد بين مصالح الأفراد؟

وهذه كلها أمور لم تُشكّل فى يوم من الأيام معضلات فى مجتمعات الأمة الإسلامية، ولا يمكن بالتالى أن يقبل منهاج الإسلام الحلول والقيم التى تولدت عن وضع إجابات على هذه الأسئلة . ويمكن إجمال أهم قيم الديموقراطية فى ما يلى:

- **الحقوق والحريات الفردية** ؛ وهى سابقة على وجود الجماعة البشرية فهى مقدسة لا يجوز المساس بها، ولا يجوز الحد منها، ولا يكلف الفرد بواجبات فى مقابلها، وليس للسلطة أن تتدخل إلا لحمايتها، وليس لها أن تنشئ حقوقا وحريات جديدة. وأساس ذلك

يرجع إلى وجود «عقد اجتماعى»[1] قامت السلطة بناء عليه .... وهو عقد مفترض لم يقع بالفعل، وإنما يُتصور وقوعه ، لذا فلا توجد حدود ثابتة بين الحريات من جانب وبين احتياجات المجتمع من جانب آخر. كما أن ضوابط ومعايير الأخلاق التى يميز بها الخطأ من الصحيح متغيرة ، لا رقابة عليها.. وليس للحرام والحلال مكان عند ممارسة الحقوق والحريات الفردية.

العلمانية[2]؛ بمعنى فصل السياسة والدولة عن الدين ، وعدم اعتبار الدين مصدر ومعيار الأخلاق، كما أن العلمانية تعنى فصل التعليم الدينى عن التعليم العام. وبموجب العلمانية يتم سن القوانين الوضعية من منطلق أن الديموقراطية ما هى إلا «حكم الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب» ، وأن هذه المصلحة يقررها الشعب بنفسه، لا سلطان لأحد عليه، وتحديد المصلحة يتم مطلقا، غير مقيد بضوابط التنزيل الإلهى ، فالأمر ملك لمجموع الشعب، الذى هو صاحب السيادة [3]، وهذه السيادة تمارسها السلطة الحاكمة نيابة عنه داخليا وخارجيا .

الدولة شر لابد منه؛[4] فعلى الرغم من أن فكرة الدولة هى جوهر وموضوع الفكر الديموقراطى الغربى ، وبدونها تنهار فكرة الديموقراطية فتصبح كرماد تذروه الرياح، إلا أنهم يعتبرون سلطة الدولة هى الجزاء الذى ضربه الله على البشر بسبب ما يتصورون أنه

---

(1) العقد الاجتماعي ؛ هو عقد وهمي تحدث عنه «جون لوك» ، و«جان جاك روسو» ، وافترضوا وجوده بين الأفراد والحاكم كي يبرروا به قيام المجتمع المدني، أو «الدولة المدنية»، التي لا تأخذ أمور الدين في اعتبارها، وإن كانت لا تنكره ، لكنها تحصره في الكنائس.

(2) تم صياغة مبدأ العلمانية نهائيا عام 1846م على يد جورج هوليوك وأعطاه معنى «الدنيوي» و «المادى» في مقابل «الديني والروحى»، أو الدولة في مقابل الكنيسة، ومن يعيشون خارج الأديرة هم العلمانيون!

(3) فكرة السيادة ؛ هي فكرة تتصل بظروف تاريخية خاصة بأوروبا، ظهرت في فكر «توما الاكويني» لتبرر للأمراء والملوك الإفلات من سلطتى الكنيسة والإمبراطور المتنازعتين، ثم أعاد «جان بودان» صياغتها عام 1577م لتبرير السلطان المطلق للملك، وأخيرا صاغها «جان جاك روسو» ، ليجعل السيادة للأمة بدلا من الملك. وفي الدستور الفرنسي عام 1946م «سيادة الأمة ملك للشعب الفرنسي».

(4) من الملاحظ أن المذهبين المتناقضين : الليبرالية ، والماركسية يتفقان في موضوع مآل الدولة وأنها إلى زوال في نهاية الأمر. ولا غرو فكلا المذهبين خرج من رحم واحدة هي رحم الحضارة الأوروبية اليهودية / النصرانية.
ومن نافلة القول أن نكرر القول بأن إقامة الدولة ، والسلطة العامة فيها، فريضة ، فبدون الدولة لا تقام الفرائض ، ولا تطبق الشريعة، ولا تحفظ القيم، ولا تكون دعوة إلى الله، ولا يكون جهاد في سبيله . وبدون الدولة والسلطة العامة تكون الفوضى، ولا يكون للناس حظ في الدنيا ولا في الآخرة.

«الخطيئة الموروثة عن آدم» ، وأن تعدد الدول يعنى تضارب المصالح، ومن ثم يؤدى حتما إلى الصراع والحروب.

ونظرا للحاجة العملية لسلطة الدولة فإن منطق الفكر الديموقراطية الغربى أن يقتصر دور الهيئات الحاكمة على مجرد حفظ الأمن من الخارج (حماية البلاد وشن الحرب)، ومن الداخل (تنظيم القضاء والشرطة)، وألا تتدخل الدولة فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى؛ فما قبل الأفراد الخضوع لسلطة الدولة ـ بحسب منطق العقد الاجتماعى ـ إلا للمحافظة على حقوقهم وحرياتهم الفردية.

البقاء للأصلح ؛ وهو مبدأ صاغة «داروين» ، صاحب النظرية الوهمية فى «النشوء والارتقاء»، وهى أن الإنسان ليس خلقا مستقلا، وإنما تطور عن مخلوقات سابقة عليه تطورا طبيعيا. ومن ثم فلا يحق للدولة أن تتدخل لتغيير القانون الطبيعى ، بأن تحد من حق الفرد بالتمتع بملكيته، بل إن للقادر اقتصاديا أن يستخدم قدرته الاقتصادية دونما حدود، فيهلك الضعيف، لأن المجتمع ليس فى حاجة إليه، ويبقى القوى لأنه الأصلح.

وقد ابتكر الغرب آليات استخدمها لوضع الديموقراطية موضع التطبيق. ومن هذه الآليات ما يتعارض ومنطق الديموقراطية ذاته، ومنها ما يتناقض تماما وما كتبه فلاسفة الديموقراطية، ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر رأى آباء الفكر السياسى الغربى فى الديموقراطية ، أفلاطون، وأرسطو، إذ اعتبرا الديموقراطية، بمعناها الذى اشتهرت به (حكم الشعب بواسطة الشعب)، هى أسوأ نظم الحكم لأنها لا تعدو أن تكون حكم الرعاع وضعاف العقول!

فإذا أعدنا للآليات التى استحدثها الغرب لممارسة الديموقراطية لأمكننا حصرها فى : نظم الانتخاب ، وتعدد الأحزاب، والفصل بين السلطات.

ونظام الانتخاب ليس أصلح الآليات للاختيار، بل إنه ليس «ديموقراطية» فى أغلب الأحوال. وما عرف الغرب نظم للانتخاب إلا فى مرحلة متأخرة من الممارسة الديموقراطية. وما من نظام انتخاب فى أية دولة، صغيرة أو كبيرة، إلا ويشوبه التدليس والغش، سواء فى الدعاية، أو فى ترتيب المرشحين بالقوائم، أو بالرشوة، أو الضغط الأدبى، أو المادى ، أو بتغيير قانون الانتخاب بما يخل بتكافؤ الفرص ، أو بالتزوير المباشر...

وإذا كانت الرأسمالية (بما فيها من حرية اقتصادية مطلقة، أو شبه مطلقة) والديموقراطية وجهان لعملة واحدة، لا يفترقان ، فإن التناقض واقع لا محالة، إذ سيفرض الأقوياء اقتصاديا، بكل صنوف القهر المادى والمعنوى إرادتهم على سير ونتيجة الانتخابات، فالحرية الاقتصادية ـ بمفهومها الغربى ـ تجعل من الحرية السياسية ، التى هى مفخرة الديموقراطية وقيمتها العليا، مجرد كلمة جوفاء تحتو على قدر هائل من الخداع والزيف والتضليل .. ومن ثم تتحول البرلمانات (المجالس النيابية) إلى مجالس دائمة للتدليس وبيع الوهم، فالبرلمانات ما قدمت إلا لتمثيل أغلبية الشعب، وهى فى حقيقتها غير ذلك، خاصة فى حالات كثرة وتكرار غياب الأعضاء، أو فرض نسبة معينة تشغلها طائفة بعينها، كالعمال، أو الفلاحين، أو النساء، أو رجال الدين، أو الارستقراطيين (الطبقة المتميزة اجتماعيا بسبب العرق أو المال)، أو فى حالة اشتراط بعض الشروط فى من يقترعون، أو إبعاد فئات بعينها من الترشيح أو ممارسة الانتخاب.

فالانتخاب لا يؤدى إلى فرض إرادة الأغلبية، وحتى إذا كان أعضاد البرلمان يمثلون الأغلبية، فإن غياب بعض أو كل شروط العلم، والكفاءة ، والأمانة، فى الأعضاء المنتخبين، وسنّهم للقوانين الوضعية على غير مقتضى الشرع، يجعل نتيجة الانتخاب ، مهما بذل الجهد لتبرئتها من عيوبها الملازمة لها حتما، معيبة بميزان الإسلام.

فإذا ما انتقلنا إلى الأحزاب، لوجدنا أنها منظمات تسعى إلى الوصول إلى الحكم، لتطبيق برامجها، والتمتع بمزايا السلطة، وفضلا عن اتباعها لكل الأساليب المشروعة، وغير المشروعة، التى أقلها التحايل بغير المشروع للوصول إلى المشروع ، فإنها فى الحقيقة تحدث الفرقة بداخل الأمة، ولا يمكن لأى فرد الانضمام إليها إلا بشروط معينة ... وهى تفرض على أعضائها ما يسمى «بالالتزام الحزبى، أى الدفاع بالحق أحيانا، وبالباطل غالبا، عن موقف الحزب وسياسته، وإلا تعرض العضو للفصل ... فالأحزاب هى الأخرى منظمات لتزييف الإرادة.

والأحزاب تؤكد فكرة «تسلط القلة» فى أسوأ صورها، فهى بطبيعتها منظمة تنظيما هرميا. والحزب الذى يصل إلى الحكم تسيطر القلة المتربعة على قمته على كل سلطات الدولة . وهذا أمر لا مفر منه. وقد تكون هذه القلة صالحة، إذا كان أعضاء الحزب كذلك،

وفاسدة إذا لـم يتوفر الصلاح فـى أعضاء الحزب ... ويمكـننا توقع أى النتـيجتين بالـنظر إلى الجهة التى تموّل الحزب، وإلى ما إذا كان الحزب يقوم على أساس من قيم الإسلام ومبادئه، أو أنه حزب علمانى .. وهذه هى حقيقة الأحزاب.

إن القـول بقـبوُل الإسلام لـفكرة الأحـزاب، لأنه يـقبل الاخـتلاف فى الـرأى النـاتج عن الاجتهاد ، كما أن القول بأن الأحزاب مذاهب فى الـفقه، وأن المذاهب الفقهية أحزاب، هو قول يـنقصه دقـة البحث الـعلمى فـى مجال الـنظم الـسياسية عـامة، وفى أصول وممـارسات الديموقراطيّة بوجه خاص.

فالإسلام يسـمح بتعدد الآراء، والمناظـرة والمعارضة، لكن باستـخدام آليات مختلـفة تماما عن فكرة الأحزاب.

فإذا ما وصلنا إلى الآلية الثالثة التى تمارس بها الديموقراطية وهى «الفصل بين السلطات»، والتى يقول عنها أنصار الديموقراطية الغربية إنها الضمانة الأولى لممارسة الديموقراطية ، إلى درجة أن الكثير من الدساتـير الديموقراطية تنص عليها صراحة لـوجدنا أن هذه الآلية، شأنها شأن أفكار البرلمانات والانتخاب والأحزاب، تعد استـثناء على الفكر الديموقـراطى الغربى، كما صاغـه فلاسفته، فجان «جـاك روسو» الذى يسمون كتـابه «العقد الاجتمـاعى» «إنجيل الثورة الـفرنسيـة» يرفض فكـرة الفصل بـين السلـطات هذه، لكـن «مونتسـكيية» هـو الذى صاغها فـى كتابه «روح القوانـين» بحجة منـع هيئة واحدة من الانـفراد بالسلطـة والاستبداد بها، وبذا يتم حماية حقوق وحريات الأفراد .

وككل الأفكار الـتى بنيت عليها الـديموقراطية الغربـية؛ فإن فكرة الفصل بيـن السلطات هى فكرة وهمية لم تحدث فى واقع التطبيق العـملى؛ بل سرعان ما تحولت فكرة الفصل بين السلطات إلى نظام للتدرج بين السلطات. وبحـدوث الثورة التقنية (التكنولوجية) فى مجال المعلومات، واتجـاه النظم الحاكمة المعاصرة فـى أعقاب الحرب العالمية الثانـية إلى إدارة الدولة مـن خلال مـا صار يـعرف «بإدارة الأزمـات» ، وتطـور هذه إلـى مـا صار يـسمـى «الإدارة بالأزمـات» ، ثم ظهـور فكرة «الـدبلومـاسية الـوقائيـة» منذ مـطلع الـعقد الأخير من الـقرن العشـرين، حدث تطور فى الـعلاقة بين سلـطات الدولة بحـيث أصبحت السـلطة التنفـيذية تهيـمن على إدارة أمـور الدولة... وتراجع دور الـبرلمانات بسـبب تزايد العـلاقة المباشـرة بين السلطة الـتنفيذية والـرأى العام. وهذه الـعلاقة تتطور تـدريجيا كلمـا تزايد التقدم فـى مجال

المعلومات ووسائل الاتصال والبث الإذاعي والتليفزيوني، بحيث أصبحنا إزاء علاقة توجيه للرأى العام أكثر منها علاقة قياس للرأى العام.

مما سبق نجد أن الديموقراطية الغربية قد بُنيت على أفكار وقيم تتجاهل الوحى الإلهى، فجاءت وفيها قدر كبير من التناقض وخداع العامة السذج من الناس، الذين اطمأنوا إليها وسلموا إليها قيادهم؛ لأنها تمكنت من تحقيق الإشباع المادى للمواطن، ذلك الإشباع الذى اعتمد ، فى حقيقة الأمر على ، سلب ثروات الشعوب الأخرى، ولا يزال، وذلك فى ظل المبدأ المشهور: «دعه يعمل دعه يمر» . كما أن هناك سببا آخر أسهم فى إعطاء بريق زائف للديموقراطية، وهو أن الله تعالى شاء أن ينتصر تحالف الدول الديموقراطية الغربية على الفاشية والنازية فى الحرب العالمية الثانية، ثم على الماركسية فى منتصف ثمانينيات القرن العشرين، بعد صراع دام قرابة سبعين عاما ...

وفى خيلاء وزهو وقف الرئيس الأميريكى ويليام كلينتون يوم تنصيبه فى العشرين من يناير عام 1993 قائلا: «إن أميريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشرى وإننا لنستشعر أن علينا التزاما مقدسًا لتحويل العالم إلى صورتنا!! وما القيم الأميريكية إلا قيم «الديموقراطية وحقوق الإنسان» التى صاغتها الحضارة اليهودية/ النصرانية فى الغرب.

وعلى قدر العلو فى مجال التقدم المادى فى الغرب، فقد فشلت حضارتهم فشلا ذريعا فى المجال الأخلاقى والمعنوى، الذى لا غنى عنه للإنسان، ولا لأية أمة كى يحدث التوازن. ولعل هذا هو ما عبّر عنه «الأمير تشارلز» ، ولى عهد بريطانيا فى محاضرته التى حملت عنوان «الإسلام والغرب»، والتى ألقاها يوم السابع والعشرين من أكتوبر عام 1993م بمركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، ودعا فيها إلى أهمية التكامل بين الحضارة الغربية المادية وبين قيم الإسلام من أجل خير البشرية[1].

والحق ــ كما أراه ـ أن الديموقراطية بقيمها وآلياتها مذهب وضعى، لا يتفق وقيم الإسلام ومنهاجه، كما أراده الله تعالى لهذه الأمة؛ بل أذهب إلى أكثر من هذا وأقول إن

(1) سرت شائعات قوية ، لكنها غير مؤكدة حتى كتابة هذه السطور، تفيد أن الأمير «تشارلز» قد اعتنق الإسلام سرا، بعد دراسة طويلة متأنية. ومما يدعم هذه الشائعات إعلان الكنيسة البريطانية، في أكثر من مناسبة عن عدم رضائها عن تصرفات ولي العهد، الذي سيرأس الكنيسة عند توليه الملك، ودأبت الصحافة هناك ، وهي التي يهيمن عليها اليهود، إلى التجسس على حياته الشخصية، وحياة زوجته الأميرة «ديانا»، ونشر تفاصيلها علنا، في شكل فضائح.. كما تسرى دعوة إعلامية قوية للتأثير على الرأى العام البريطاني من أجل إلغاء الملكية هناك .

الديموقراطية الغربية قد صارت بضاعة بالية، وأن بها من العيوب ما لا يمكن لمؤمن قبوله. وما نجاحها فى الاستيلاء على ألباب بعض المفكرين فى أمتنا إلا لأنهم: ﴿**يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ [الروم / 7]، ولأنهم لضعف علمهم وإيمانهم بما أنزل الله تعالى، يشعرون بالدونية والانهزام أمام انجازات الغرب المادية، وتقصر هممهم عن تدبّر كتاب الله تعالى، والاجتهاد فى الدين الذى أكمله الله تعالى على يد رسوله محمد ﷺ، وجعل فيه أتم وأصلح شرعة ومنهاج للبشرية كافة.

ولئن أخذت الأمة الإسلامية ما آتاها الله ، بقوة ، لاستحقت الوصف الذى وصفها الله تعالى بها ﴿**خير أمة أخرجت للناس**﴾ .

** **إن وظيفتنا فى إعمار الأرض** (التنمية الشاملة) لا تتم، ولن تتم بالتقاط سقط متاع الحضارة الغربية، التى أصبحت على حافة الانهيار، ولا بتسول أفكارهم التى عفا عليها الزمن، ولا بالسير فى ركاب الأمم الأخرى لعلنا ننتسب إليهم، أو نتشبه بهم، فنوصف مثلهم بالتقدم الحضارى... ولكن إعمار الأرض لن يكون إلا بجهد نبذله، وقوة نأخذ بها ما آتانا الله تعالى من الكتاب والحكمة، وتوكل على الله الذى يُداول الأيام بين الناس.

قال تعالى: ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ [الحديد / 16]



قال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾.

[البقرة / 120]

الباب الثالث

إرهاصات النظام العالمي الجديد

ويتكون هذا الباب من مدخل ومحاور أربعة:

المحور الأول :الميراث التاريخي.

المحور الثاني :انتقال مركز الحضارة من الشرق إلى الغرب.

المحور الثالث :المسألة الشرقية.

المحور الرابع :الصهيونية العالمية.

إرهاصات النظام العالمي الجديد

مدخـــل:

قد يبدو اصطلاح «النظام العالمى الجديد» اصطلاحا غامضا عند العامة من الناس، بل ولدى قطاع واسع من المثقفين فى الأمة الإسلامية. هذا الاصطلاح الذى أصبح يستخدم بشكل مكثف منذ وصلت قوات «القيادة المركزية الأميريكية» USCENTCOM إلى منطقة الخليج فى أثناء أزمة احتلال العراق للكويت فى أغسطس عام 1990م ، فأعلن عنه الرئيس الأميريكى، جورج بوش آنذاك، أي أنه ليس اصطلاحا جديدا، فى الحقيقة، وإنما نجده قد استخدم، بشكل أقل كثافة، على فترات متباعدة خلال القرن العشرين الميلادى، وذلك استعدادا لما يسمى فى الثقافة «اليهودية / النصرانية » بالألفية الثالثة[1] التى فيها يتوقعون ظهور المسيح، ملك إسرائيل (عند اليهود) ليقود «شعب الله المختار»، ويحكم الأرض، ويسود السلام الدائم. أو عودة المسيح المخلص (عند النصارى) ليقيم «مملكة الله» على الأرض، ويخلص البشرية من خطاياها، ثم تكون «نهاية الأيام».

ففكرة «النظام العالمى الجديد» هى فكرة عقدية فى المقام الأول، وهى تقتضى من معتنقيها تهيئة الأرض كلها لهذا الحديث الجلل. وهذا الإعداد يتم على مقتضى مجموعة من الأفكار والأهداف ذات الطبيعة المستقبلية؛ قريبة، ومتوسطة، وبعيدة المدى، تُسخّر لها كل القوى المادية والمعنوية المتاحة، فهى فى مجملها أفكار ذات طبيعة استراتيجية.

ولئن كان التحالف «الصهيونى / الصليبى» هو التحالف الفاعل فى هذه الحقبة الزمنية التى نعيشها الآن، فإنه ليس الطرف الوحيد فى علاقات الحوار والصراع المتشابكة، وبلا شك فإن الأمة الإسلامية ، رغم ما تعانيه ، الآن ، من وهن وتمزق ظاهرى مصطنع، تعد الطرف الآخر الأهم. ومن ثم فإن وضع أى تصور مستقبلى لما أصبح يسمى « النظام العالمى الجديد» يقتضى أن نلقى نظرة تحليلية على تاريخ العلاقة بين هذين الطرفين: الصهيونية / والصليبية من جانب، والأمة الإسلامية من جانب آخر، ثم نتبعها بتحليل للواقع الذى نعيشه. ولا غرو فإن الأفكار الاستراتيجية لا يمكن، بحال من الأحوال، فصلها عن منظومة القيم، والعقيدة، وأحداث التاريخ، وواقع الجغرافيا.

---

(1) يؤرخ اليهود للألفية الثالثة، التي تبدأ (حسب التقويم العبرى) في سبتمبر 1995م، وذلك بالرجوع إلى تدمير هيكل سليمان عام 70 ميلادية. أما النصارى فيؤرخون للألفية الثالثة برفع المسيح عليه السلام عام 33 ميلادية تقريبا .. فهناك اتفاق مع الفارق .

المحور الأول

الميراث التاريخي

إن من الحقائق التى لا مراء فيها أن بعثة محمد ﷺ قد كانت نقطة التحول الأكثر أهمية ، والأبعد أثرا فى التاريخ البشرى، الذى كان قد بلغ مرحلة سادت فيها المادة وطغت، وساد الظلم، وخلت القلوب من الإيمان. وكان الخاصة من العلماء فى شوق لظهور النبى الخاتم، دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وبُعث محمد رسول الله ﷺ برسالة عالمية منذ البداية (1).

﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ [الفرقان / 1].

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

[سبأ / 28]

وهاتين الآيتين نزلتا فى مكة، قبل الهجرة، ولم يكن قد آمن إلا قليل، ولم يكونوا قد أُمروا بقتال بعد. ولقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ ، فى أواخر التنزيل، بعد أن كادت الرسالة تكتمل، بتبليغها للعالمين كافة دون توان، قال تعالى:

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ [المائدة / 6] .

ومن الأمور التى لا ينكرها إلا مكابر مغرور أن ما جاء به محمد ﷺ ، وحيًا من عند ربه، هو منهاج حياة، وشرعة، ومنظومة قيم، وتنظيم كامل لكل المجالات الاقتصادية، والاجتماعية ، والسياسية، وعلاقات الأمم، فضلا عن العلاقة مع الله تبارك وتعالى، فى كل

---

(1) ولقد صرف الله تعالى نفرا من الجن فاستمعوا القرآن الكريم ، ثم عادوا لينذروا قومهم ويدعونهم للإيمان به:

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ [الأحقاف / 30-31].

متكامل لا تنفصل فيه أمور العبادات عن أمور المعاملات، ولا العقيدة عن واقع الحياة[1].

** ولم يبدأ محمد ﷺ أهل الكتاب بالعداء، بل على العكس ، حاول أن يقيم علاقة طبيعية للتعاون والتكامل مع اليهود فى المدينة، بعد أن أقام وحدة المهاجرين والأنصار بها، فكتب كتابا واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم. وكان مما جاء فى ذلك الكتاب:

« ... وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أى لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

وأن ليهود بني النجار ، ويهود بنى الحارث، ويهود بنى ساعدة، ويهود بنى جشم، ويهود بنى الأوس، ويهود بنى ثعلبة، ولجفنة ، ولبنى الشطَيْبة مثل ما ليهود بنى عوف. وأن موالى ثعلبة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم .. إلخ»

وقد كان علماء اليهود وأحبارهم يعرفون شخص رسول الله ﷺ ، وأنه النبى الخاتم، حق المعرفة : [2]

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن كثيرا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة / 146] .

وقد احتوى القرآن الكريم ، فى قرابة عُشْر آياته، قصصاوأحكاما تتعلق ببنى إسرائيل ، وموسى عليه السلام، واليهود والتوراة. وأنزل الله تعالى فى كتابه العزيز ما يُصدِّق التوراة فى ما لم ينله تحريف، وما يصحح ما ناله التحريف مما جاء فى التوراة، وساق الدليل والحجة القوية على ذلك.

---

(1) The New Encyclopedia Britanica, 1985, The Islamic World, P. 1020.

(2) تصفهم آية قرآنية أخرى بأنهم بفعلهم هذا قد خسروا أنفسهم :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ [الأنعام / 20]

ومع ذلك فقد عادى اليهود الإسلام والمسلمين ورسول الله ﷺ ، وظاهروا الكفار والمشركين عليهم، فكان أن نزل قرآن ينبئ بموقف اليهود فى مستقبل الأيام، قال تعالى:

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [المائدة / 13:8].

وليست الآية أمرا ولا دعوة لكراهية اليهود ومعاداتهم ، لمجرد أنهم يهود، وإنما هى تحذير من موقفهم العقدى الثابت تجاه الإسلام والمسلمين .. كما أن الآية الكريمة لا تفيد أن كل النصارى يوادون المسلمين لمجرد أنهم نصارى، لكنها تفيد أن من يفكر ويفتح قلبه منهم لما نزل من الحق فإنه يسارع إلى الإسلام ، كما فعل «النجاشى» ملك الحبشة، الذى آوى المهاجرين المسلمين الأوائل إليه .. ثم أسلم إذْ وصله كتاب رسول الله ﷺ فى السنة الثامنة للهجرة (629م) .. وكان رد المقوقس، عظيم القبط فى مصر، على كتاب رسول الله ﷺ، فى نفس العام، أقرب ما يكون لكتاب من شرح الله تعالى صدره للإسلام، وإن لم يُعْلن، والله عليم بذات الصدور. وكذلك كان موقف الكثيرين ممن أتيح لهم معرفة الإسلام على حقيقته.

وتنبئ الآية الكريمة أن أقرب النصارى إلى الإسلام أكثرهم تقوى وعلما،وأرجحهم عقلا وحكمة(1).

وقد احتوى القرآن الكريم أيضا آيات محكمات، توضح طبيعة المسيح، وحقيقة خلقه، بشرا، وبعثه رسولا، ورفعه إلى الله حيا، دون أن يُقتل أو يُصلب، وأن أمه تُعد مثلا للذين آمنوا، فهى صدّيقة، أحصنت فرجها، وصدّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين. ونفى القرآن الكريم أفكار «التجسيد» ، و«التثليث» ، و«اتخاذ الله ولدا» نفيا قاطعا.

وعندما جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ يجادلونه دعاهم للمباهلة كى يجعل الله تعالى لعنته على الكاذبين، فانسحبوا فارين، يقول الله تعالى:

---

(1) يقول الدكتور مراد هوفمان إن الإسلام ينتشر في أوروبا أكثر ما ينتشر بين العلماء الأكاديميين. تصريح لصحيفة الأهرام القاهرية ، 25 مارس 1995م ، صـ 25 (صفحات عن ألمانيا الاتحادية).

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين. قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [المائدة / 64:59]

ومما يذكر أن معظم نصارى نجران واليمن قد دخلوا الإسلام، تباعا، فى حياة رسول الله ﷺ .

من هنا نجد أن رسول الله ﷺ لم يبدأ أهل الكتاب بالعداء، ولكنه دعاهم إلى قدر من الاتفاق يتمثل فى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، وألا يظاهروا عليه المشركين، فلما أبو قاتل رسول الله ﷺ الخائنين من اليهود، بأمر من الله تعالى[1]، الذى أيده بنصره عليهم، وأورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضا لم يكن المسلمون قد بلغوها بعد، وهى «الأرض المقدسة» ، بيت المقدس[2] وما حوله من بلاد الشام، قال تعالى:

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزًا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ [الأحزاب / 27:25]

ولم تمر سوى إحدى عشرة سنة إلا وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتسلم مفاتيح «القدس»، دون قتال ، وكانت القدس آخر مدينة فى بلاد الشام يدخلها المسلمون، بعد انتصارات متوالية قرابة أربع سنوات.

---

(1) كان اليهود قد حرّضوا المشركين على التحالف لقتال المسلمين، وحالفوهم في «غزوة الخندق» ، التي حاصروا فيها المدينة استعدادا لقتال المسلمين واستئصال شأفة الإسلام.

(2) المسجد الأقصى ببيت المقدس يمثل جانبا هاما من عقيدة المسلمين. فإليه كانت قبلتهم الأولى، قبل تحويلها إلى الكعبة، البيت الحرام بمكة . وإليه أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه صلى بالأنبياء إماما، ومنه عرج به إلى السموات العلا. [سورة الإسراء / 1] ـ [سورة النجم / 18:1] . وهو ثالث ثلاثة مساجد لا يشد الرحال إلا إليها.

وفى نفس الوقت الذى كان رسول الله ﷺ يعمل على تأمين دولة الإسلام من غدر اليهود، بإجلاء المعتدين منهم من شبه الجزيرة العربية، عنوة ، ورحيل الآخرين مختارين دون إكراه، فى نفس هذا الوقت بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك وأمراء القوتين العظميين، آنذاك ، الفرس ، والروم برسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام.

فأما كسرى عاهل الفرس فقد استشاط غضبا، وشق كتاب رسول الله ﷺ فدعا عليه قائلا: «مزق الله ملكه»، فاستجاب له ربه[1] ، وأما هرقل إمبراطور الروم فلم يعبأ بالكتاب علوا وغرورا ، أو هكذا بدا[2] ، ولم يَدُر بخلده أنه لن تمضى ثلاثون سنة حتى يفتح المسلمون معظم البلاد التي كانت تحت سلطانه، فيدخل أهلها فى دين الله أفواجا.

بدأت المواجهة بين المسلمين والدولة الرومانية فى عهد رسول الله ﷺ فى «غزوة مؤتة» عام ثمانية من الهجرة (629 م) ، والتى لاقى فيها ثلاثة آلاف مسلم ما بين مائة إلى مائتى ألف من الروم بقيادة هرقل (أو أخيه ثيودور) ، وكان سببها اعتراض الروم لخمسة عشر داعية مسلم كانوا قد وصلوا حدود الشام للدعوة إلى الإسلام ، فقتلوهم فى مكان يسمى «ذات الطلح»، ولم ينج من القتل إلا رئيسهم «كعب بن عمير».

وقد أمر رسول الله ﷺ على سرية مؤتة «زيد بن حارثة» ووصاهم بما يلى:

«اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيرا،ولا بصيرا فانيا، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناءً».

وقد واجه المسلمون الروم رغم تفوقهم الساحق، واستشهد من استشهد من كبار الصحابة، وما رد الروم عن القضاء على المسلمين إلا قدر الله تعالى ، الذى جاء فى صورة

---

(1) هزم المسلمون جيوش الفرس تباعا منذ عام 12 هـ إلى أن حُسم الصراع المسلح بين الجانبين نهائيا في معركة نهاوند عام 20هـ (641 م)، وانتهي حكم الأسرة الساسانية عام 34 هـ (654 م) ، وفتح الله تعالى بلاد الفرس كلها أمام المسلمين تباعا قبل نهاية القرن الأول الهجرى ، وأصبحت بلاد الفرس تشكل جزءا هاما من الأمة الإسلامية حتى الآن .. إذ وصل المسلمون إلى جبال القوقاز ، ودخلوا إقليم كسينجيانغ في الصين.

(2) تروى بعض الروايات أن هرقل كاد يدخل الإسلام، بعد حوار دار بينه وبين أبي سفيان بن حرب ـ وكان مشركا آنذاك، لكنه شهد شهادة حق ـ إلا أن الملأ حول هرقل أخذتهم العزة بالإثم ، فعدل هرقل عن قراره ، وأبدى عدم اهتمامه بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

حسن تدبير خالد بن الوليد ـ الذى تولى القيادة، بعد قتل من عينهم رسول الله ﷺ فتمكن من خداع الروم، وقتل منهم الكثير، ثم تخلص من المعركة، وعاد إلى المدينة، دون أن تُحسم المعركة لمصلحة أى من الطرفين.

ثم كانت غزوة تبوك التى خرج فيها رسول الله ﷺ ، فانسحب الروم الذين كانوا قد أعدوا لقتاله من قبل، انسحبوا إلى داخل حدودهم، فاكتفى رسول الله ﷺ بتأمين الحدود مؤقتا من خلال معاهدة مع «يوحنا بن رؤبة» صاحب آيلة، الذى قبل الصلح مع المسلمين ودفع الجزية، كما صالح أهل الجرباء وأذرح، على حين أمنت سرية بقيادة خالد بن الوليد دومة (المعروفة الجندل، فى الشام) وأسر ملكها «أكيْدر بن عبد الملك الكندى».. وأعاد خالد رضى الله عنه فتحها فى عهد أبى بكر الصديق فى 24 رجب عام 12 هـ (4 أكتوبر عام 633م).

ولم يلق رسول الله ﷺ ربه إلا بعد أن أمر بإنفاذ جيش يقوده أسامة بن زيد إلى الشام، ولما لقى رسول الله ﷺ الرفيق الأعلى أنفذ أبو بكر الجيش الذى غزا وعاد منتصرا.

على أن المعركتين الحاسمتين بين المسلمين والروم كانت فى «أجنادين» (13هـ)، و«اليرموك (15هـ) ، 636م ، فكان ذلك بمثابة فاتحة عهد جديد من الحوار والصراع بين الحضارتين الإسلامية و«الرومانية / النصرانية»؛ إذْ حقق المسلمون فى المعركتين نصرا مؤزّرا، وأصبح الطريق بعد ذلك ممهدا لتحرير كل البلدان، التى كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية بشطريها، شرق ، وجنوب البحر المتوسط، وفُتحت جزيرة قبرص[1]، وإن ظلت السيادة بها تتردد بين المسلمين والرومان حتى استقرت نهائيًا للمسلمين فى عهد هارون الرشيد (فى الخلافة العباسية) واتصلت هذه المنطقة حضاريا بالشعوب التى دخلت الإسلام فى آسيا الوسطى، حتى إقليم كسينجيانج فى الصين، وإقليم السند، على حدود شبه القارة الهندية، شرقا، وحتى شمال جبال القوقاز، شمالا .

ومع ذلك فيظل فتح المسلمين للأندلس، الذى استمر من يونيو 711م (رمضان 92هـ)

---

(1) فتح المسلمون جزيرتى ردوس وكريت، لكن بقاءهم فيها لم يستمر إلا اثنتا عشرة سنة (672م ـ 674م)، ثم عادت كريت إلى السيادة الإسلامية في عهد دولة الخلافة العباسية. وبذا (تركز الاتصال بين الحضارة الإسلامية والشعوب الأوروبية في الأندلس).

حتى سبتمبر 732م (رمضان 114هـ) هو بداية إقامة جانب مشرق من الحضارة الإسلامية على أراضى أوروبية[1]، كان له عظيم الأثر فى الحضارة الأوروبية التى قامت بعد ذلك بألف سنة!

ولم تنقطع علاقات الحوار والصراع بين المسلمين والرومان البيزنطيين من جانب، وبينهم وبين الفرنجة من جانب آخر، عبر البحر المتوسط، حتى كانت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، نقطة تحول هامة فى العلاقات بين الحضارة الإسلامية والشعوب الأوروبية.

*** ومما يجب التوقف عنده بالدرس والفحص أن طبيعة غزوات المسلمين وأهدافها الاستراتيجية تختلف كلية عن غزوات الأمم السابقة على ظهور الإسلام ، وتلك التى مارسها أصحاب الحضارة الأوروبية، ورثة الرومان، والتى ما تزال مستمرة حتى الآن، ويمكن أن يطلق عليها إجمالا «الحروب الصليبية / الصهيونية»؛ فغزوات المسلمين لم تكن إلا جهادا فى سبيل الله، وغايتها أن تكون كلمة الله هى العليا، فلم تكن غزوات المسلمين تستهدف سلب الثروات، أو استذلال الشعوب واستعبادها، بل كانت تُخلّف حضارة إنسانية أينما حلت، حضارة تهتم بِرُقى الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة، فى مزاج من المادية والأخلاق ، والعقلانية والإيمان، والتدبير والتوكل على الله، والتطوير والأصالة، دونما انفصال بين هذه العناصر.

ولا يمكن القول ، بحال من الأحوال أن الحضارة الإسلامية قد قامت من فراغ ، أو على غير أساس، وإنما الصحيح أنها أفادت من العناصر المادية للحضارات السابقة عليها، ومزجتها بقيم الإسلام، كما عرضنا لها تفصيلا، وبنت عليها حضارة، لا يمكن أن توصف إلا بأنها حضارة إسلامية.

بيد أن سعة الإسلام وتسامحه، خاصة فى مجال ابتغاء العلم والحكمة، قد رفعا الحرج عن حكام المسلمين، منذ القرن الأول الهجرى، وتحديدا بعد انتهاء الخلافة الراشدة، فأصبح لغير

---

(1) فتح المسلمون شبه جزيرة إيبيريا، وجنوب فرنسا، حتى أوقفت الجيوش الإسلامية في معركة «بلاط الشهداء» ، التي تسمى عند الغرب بمعركة بواتييه (12-13 أكتوبر 732م). ثم انسحبت جيوش المسلمين من جنوب فرنسا عام 138هـ (756م) بقرار من عبد الرحمن الداخل الذي رأى تأمين دولته بالبقاء في حدود شبه جزيرة إيبيريا .

المسلمين مناصب مرموقة فى بلاط الخلفاء والأمراء، فعملوا فى مجال الطب، والترجمة، والشؤون المالية، فنفذ اليهود، والزنادقة، والملحدون، والمجوس، والنصارى، وغيرهم، من هذا الباب الواسع، ومنهم من أعلن إسلامه، وأضمر كيده وعداءه للإسلام، فوضعوا فى الدين ما ليس منه، وزيفو فى الحديث والتفسير ما أصبح يعرف «بالإسرائيليات» ... وهى أمور أصبحت واضحة كل الوضوح، محددة كل التحديد، يعرفها الراسخون فى العلم دون عناء.

ولقد بدأ تفاقم هذا الغزو الثقافى المبكر منذ القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى)، خاصة بعد ما أطلق عليه «إغلاق باب الاجتهاد» فى مذاهب السنة، وبدء التقليد، والتضييق على الفكر والتجديد...

وعلى الرغم من اعتراف اليهود أنفسهم بحقيقة أن عصرهم الذهبى بعد الشتات، الذى أعقب التدمير الثانى للهيكل عام 70م ـ كما يقولون[1] ـ كان فقط عندما عاشوا فى كنف الأمة الإسلامية، سواء فى الأندلس، أو فى غيرها من أراضى الأمة الممتدة من غربى الصين حتى المحيط الأطلسى، ومن جبال القوقاز حتى المحيط الهندى. فقد ازدهرت اللغة العبرية والثقافة اليهودية فى الأندلس، وتمتع اليهود بحياة اجتماعية وسياسية وفكرية لم يعش مثلها إخوانهم الذين كانوا يعيشون مضطهدين فى كنف الدولة الرومانية. رغم ذلك فقد تكونت حركة «صهيونية» مبكرة فى الأندلس تحت قيادة «عنان بن داود» ، فى منتصف القرن التاسع الميلادى، تدعو إلى العودة إلى فلسطين ، لإقامة «الدولة اليهودية» فى «الأرض المقدسة».

** وبنفس هذه الكيفية تطلع الأوروبيون منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى إلى أمرين: الأول؛ طرد المسلمين من الأندلس (بعد انقسام الدولة إلى ممالك متناحرة، منذ عام 1031هـ) فى ما سمى «بحرب الاسترداد» La Reconguista ، والأمر الثانى؛ شن «حروب صليبية مقدسة» Crusades ، ينتزعون فيها «الأرض المقدسة» من أيدى المسلمين لإقامة «ملكوت السموات» (إنجيل متى: 2/3) استعدادا «للخلاص» فى «نهاية الأيام» ، وهى أمور جوهرية فى عقيدة النصارى لذا نجد أن زعامة الحروب الصليبية ـ رغم تعدد وتشابك أسبابها ودوافعها ـ كانت فى أيدى الباباوات، الذين كانوا يمنحون ملوك أوروبا البركة،

---

(1) راجع كتيّب «فضل الإسلام علي الحضارة الإنسانية»، للعلامة الهندى شِبْلى النعماني ، ترجمة د. عبد العزيز عزت عبد الجليل، الكتاب السابع، السنة الثانية عشرة، سلسلة البحوث الإسلامية، 1401هـ ـ 1981م صـ 128:13 .

ويمدونهم بالعون الروحى، والتأثير المعنوى فى المقاتلين .. بل وكانوا يسهمون فى إعداد تلك الحملات.

كان البابا «جريجورى السابع» هو صاحب فكرة توحيد أوروبا تحت لوائه؛ لشن «الحرب المقدسة» ضد الإسلام، لكنه مات عام 1085م قبل تنفيذ أفكاره، فخلفه البابا «أوربان الثانى» Urban، الذى عقد «مجمعا دينيا» فى حقل فسيح فى «أوفرينى» ، «بكلير مون»، جنوب فرنسا، وقد ختم الاجتماع بخطبته الشهيرة يوم 27 نوفمبر 1095م ، ودعا فيها إلى شن «حرب صليبية» ضد الإسلام . ورغم أن البعض يتصور أن الحملات الصليبية قد انتهت بموت «لويس التاسع»، ملك فرنسا، وبأن عدد الحملات الصليبية يُقدّر بخمس عشرة حملة[1]، ويضعون دليلا على انتهائها بدء صعود دولة الخلافة العثمانية، وقيامها بهجمة مضادة ، بلغت مداها عندما حاصرت «فيينا» ، كذا سقوط الأندلس[2]، ومن ثم تحقيق

---

(1) كان أشهرها الحملة التي وصلت إلى الشام عام 1099م، وأنشأت مملكة صليبية في فلسطين عاصمتها القدس، لكن الله تعالى أيدّ عبده «صلاح الدين الأيوبي» الذي قاد المسلمين إلى نصر حاسم في «حطين» في ربيع الآخر عام 583هـ (يوليو 1187م)، واستعاد القدس يوم 27 رجب (2 أكتوبر) من نفس العام، ثم الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا (الملقب بلويس التقي)، واستولى على دمياط في يونيو 1249م ، ثم هُزم وأسر في المنصورة، ثم رحل ومن بقي من جنوده في مايو 1250م، بعد إن افتدى نفسه.

وبعد كسر الغزوة المغولية، التي كانت قد اجتاحت الأمة الإسلامية من جناحها الشرقي، وذلك في معركة عين جالوت عام 658هـ (1260م) ، واعتناق مغول القبيلة الذهبية (القفجاق، القزوينيين) الإسلام، تمت هزيمة الصليبيين تباعا، وطُردوا نهائيا من الأناضول والشام، باستعادة آخر معاقلهم في عكا في 18 مايو عام 1291م (690هـ).

بيد أن الحروب الصليبية لم تتوقف ، مؤقتا إلا بعد أن استعيدت قبرص عام 1426م (829هـ) وفتحت القسطنطينية عام 1453م.

(2) سقطت مملكة غرناطة في 2 يناير 1492م بعد حروب طويلة ممتدة . ولم يتسامح الأوروبيون مع المسلمين، فأنشئت لهم محاكم التفتيش بطلب من الراهب «توركماندا» ، فأحرقت مئات الآلاف من المسلمين أحياء، وأجبر عشرات الآلاف على الدخول في النصرانية، وشنقت عشرات الآلاف بعد التشهير بهم. وقد حكمت هذه المحكمة منذ إنشائها عام 1481م حتى عام 1808م على 340 ألف شخص بالحرق وهم أحياء. ومع ذلك ظل المسلمون يحاولون التمسك بدينهم، وثاروا مرارا إلى أن تم تخيير من بقي منهم على قيد الحياة بين مغادرة البلاد أو الدخول في النصرانية. وتم القضاء على المسلمين في شبه جزيرة إيبيريا في المدة من 1603م حتى 1609م. ومع ذلك بقيت حضارة الإسلام بعدهم أكثر من قرنين ، وأفادت النهضة الأوروبية مما تركه المسلمون من علوم وفنون، لا تزال آثارها باقية هناك حتى الآن.

وقد لاقي اليهود، الذين عاشوا أزهي عصورهم في كنف المسلمين، نفس المصير، فهاجروا إلى شمال أفريقيا، وباقي البلدان الغربية، ومنهم من استمر ليسهم في صنع الحضارة الأوروبية، وكان أشهرهم «أوريل داكوستا» ، ومارتاليداد دا أملا، بينيديكيت دي سبينوزا Spinoza .

الأوروبيين هدفهم بطرد المسلمين من أوروبا الغربية إلا أني أرى غير ذلك؛ فقد ظلت فكرة الحروب الصليبية مصاحبة للفكر الأوروبى أثناء ما سمى «بالاستكشافات الجغرافية» ـ وما هو إلا تطويق الأمة الإسلامية من جناحها الغربى للوصول إلى أضعف نقاطها فى الجنوب والجنوب الشرقى ـ ، ثم فى الحروب الإمبريالية ، فى القرنين الثامن عشر التاسع عشر..

وقد جاءت أفكار الحروب الصليبية على لسان «بسمارك» وهو يحث فرنسا على احتلال تونس، ثم على لسان «بيدو» ، و«الـلينبى» فى مطلع القرن العشرين، ثم على لسان معظم زعماء أوروبا، وسكرتير عام حلف شمال الأطلنطى، من بدء سقوط الماركسية عام 1986م، وحتى العام الذى أعدت فيه هذه الرسالة (1995م).

ولقد كان الأوروبيون ، ولا يزالون ، ينظرون إلى الإسلام على أنه «حركة واسعة لممارسة العنف» ، وأن العقيدة الإسلامية، وما جاء به الإسلام من منظومة القيم، ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية، يُعَد تحديا للحضارة الغربية، يؤدى بالضرورة إلى الصدام والمواجهة.

ولا يقدح فى الطبيعة العقدية لكل الحروب الصليبية ، الممتدة طوال الألف السنة الماضية، أن تمتزج بتحقيق أهداف اقتصادية وسياسية وتوسعية، فهذه الأمور مجتمعة تعكس مفهوم الفكر الاستراتيجى الصليبى الغربى.

ولقد كان فتح السلطان العثمانى محمد خان «الثانى» (الملقب بمحمد الفاتح) «القسطنطينية» ، التى كانت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) فى 29 مايو 1453م، وتسميتها «إسلام بول» (حرفت لتصبح اسطنبول)، أى مدينة الإسلام، واتخاذها عاصمة لدولة الخلافة العثمانية اعتبارا من العام 1516م ، بمثابة نقطة تحول كبرى فى تاريخ الصراع، الذى لم يهدأ ، بين الحضارتين الإسلامية، والصليبية الأوروبية.

لقد كان هذا الحدث بمثابة الحلقة الأهم فى سلسلة الفتوحات الإسلامية فى أوروبا، والتى بدأت من عام 1326م بفتح «بورصة» ، جنوب شرق مضيق الدردنيل، ثم غاليبولى عام 1354م ، ثم أدرنة عام 1361م ، ثم بلغاريا والبلقان، التى تم فتحها بعد فتح القسطنطينية بثلاثة أعوام.

المحور الثاني

انتقال مركز الحضارة من الشرق إلى الغرب

فى الوقت الذى كانت الدولة العثمانية تميل إلى الضعف، كانت أوروبا تبنى حضارتها فى تصاعد، ولم يكد القرن الثامن عشر ينتصف حتى انتقل مركز القوة والحضارة من الشرق إلى الغرب. ولئن كانت الحضارة الأوروبية الحديثة توصف فى أدبياتهم أنها «يهودية / نصرانية»، وذلك لإسهام العلماء والفلاسفة اليهود فى صياغة أفكارها الرئيسية فإنى أرفض هذه التسمية، وأفضل عليها وصف الحضارة الأوروبية بأنها حضارة «صهيونية / صليبية» .

ذلك أن هذه الحضارة قامت على أسس مادية تستبعد الدين من الحياة العامة، وتتستر خلفه عند الضرورة، وترفعه شعارا زائفا لتبرير مواقف لا علاقة لها بسمو ما أُنزل على موسى وعيسى عليهما السلام. حتى إذا ما صاغ لهم «كارل ماركس» ، اليهودى ، نظريته الاشتراكية، المعروفة باسمه، استبعد الدين كلية وتنكر له واعتبره «أفيون الشعوب» ورفع راية الإلحاد والكفر الصريح. ومن الخطأ أن نظن أن أفكار كارل ماركس لم تلق القبول إلا فى روسيا، فقد أعلنها ماركس فى باريس، وتشكلت أحزاب فى كل أوروبا تأخذ بنظريته الباطلة بِقدْر ما أو بآخر.. ولا يزال الكثيرون فى أوروبا، والصين، وغيرها ، بل وفى بلادنا الإسلامية يعتنقون تلكم الأفكار المادية المنكرة لوجود رب العالمين.

*** إن اليهودى، والنصرانى، لو أن كلاً منهما فكر قليلاً لما وسعه إلا أن يصبح حنيفا مسلما...أو لم يأخذ الله تعالى ميثاق النبين جميعا على هذا؟ فقال جل شأنه:

﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران / 81].

وكان التطبيق العملى لهذا الميثاق أن صلى رسول الله ﷺ ، إماما ، بالأنبياء جميعا فى مكان المسجد الأقصى ليلة أسرى به، وعُرج به إلى السموات العلا.

وقلما تجد فيلسوفًا أو عالما أو مفكرًا غربيا ممن صاغوا «النهضة الأوروبية» إلا وكتب فى

«الصهيونية[1]، بشكل لا يقل حماسا عن كتابات اليهود.

فنجد ذلك عند «مارتن لوثر (مؤسس المذهب البروتستانتي؛ في كتابه «عيسى وُلِدَ يهوديا» »، كما نقرأ عن الصهيونية في كتابات «جون لوك» ، و«إسحق نيوتن» ، و«جوهان هردر»، و«جوزين بريستلي»، و«جان جاك روسو» صاحب كتاب «العقد الاجتماعي» الذي يعتبرونه «إنجيل الثورة الفرنسية»، و«بليز باسكال» ، و«ريتشارد بيير»، و«فولتير» ، والشاعر «اللورد بايرون» ، و«السير والترسكوت» ، و«إرنست رينان» ، و«هيجل» .. وكثيرون غيرهم ، حتى غدت الصهيونية أحد مكونات الفكر السياسي في أوروبا وأمريكا، [2] بعد أن كان اليهود مضطهدين في روسيا وأوروبا الشرقية والوسطى خاصة، وفي كل أوروبا بشكل عام.

فعلى حين كان اليهود يلقون اضطهادا في ظل هيمنة الكنيستين الأرثوذكسية (في روسيا وأوروبا الشرقية)، والكاثوليكية (في باقي أوروبا) ، إلى درجة إطراق السلطات الكنيسة عددا من دعاة الصهيونية اليهود في إيطاليا في آخر ثلاثينيات القرن السادس عشر منهم: دافيد روبيني David Reubeni ، وسولومون مولكو Solomon Molkho ، فإن كتابات المفكرين والفلاسفة منذ ما يسمى في أوروبا «بعصر التنوير»، الذي يُؤرَّخ به «للحضارة الأوروبية الحديثة»، قد أدت في النهاية إلى قبول أوروبا للفكرة الصهيونية بقيام الثورة الفرنسية، ومن ثم رسوخ أركان الحضارة الأوروبية، بينما استمر اضطهاد اليهود في روسيا حتى قامت الثورة البلشفية عام 1917م.

إن من يحاول حصر الشخصيات اليهودية التي أسهمت في صياغة الحضارة الأوروبية

---

(1) يقصد بالصهيونية الدعوة إلي هجرة يهود العالم من البلاد التي عاشوا فيها إلى فلسطين، للاستيطان حول جبل صهيون، أي في الأرض المقدسة لاستعادة بناء الهيكل، وإقامة إسرائيل الكبرى «من نهر مصر إلى نهر الفرات» ، وعاصمتها القدس، ومن ثم استقبال «المسيح» ، «ملك إسرائيل» ليحكم العالم من القدس... ويكون السلام الدائم .. على الأرض!

(2) رجينا الشريف (ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز)، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة ـ 96 ، ربيع الأول 1406هـ ـ ديسمبر (كانون الأول) 1985م، 303 صفحة.

ليجدهم أعلاما مثل: داكوستا ، وسبينوزا ، وجروسيوس [1] (أبو القانون الدولى)، وفرويد، ومندلسون ، وكولومبوس ، وهيرش، وكارل ماركس، وهيرمان كوهين ، وأنيشتين، وأونبهامر .. إلخ ، وصولا إلى «هنرى كيسنجر». هذا فضلا عن هيمنة اليهود على الفكر بسوق المال، فهم أصحاب فكرة البنوك التجارية ومؤسسوها الأول، وهم أول من استخدم «سعر الفائدة» فى المعاملات الاقتصادية.. ثم إنهم فى النهاية هم الذين صاغوا فلسفة واستراتيجية النظام العالمى الجديد.

لقد تحركت الصهيونية المبكرة، من القرن السابع عشر، حركة سرية على محورين:

المحور الأول: لهدم القوة الإسلامية.

المحور الثاني: لركوب موجة النهضة الأوروبية. وكانت أدوات الصهيونية هى: تشويه الثقافة، ومحاولة فصل الناس عن الدين، من ناحية، والهيمنة على أمور المال من ناحية ثانية، واختراق المؤسسات السياسية من ناحية ثالثة.

فعلى المحور الأول ؛ ظهرت طائفة «الدونمة» فى تركيا ـ ولا تزال باقية فيها حتى الآن ـ ظهرت منذ عام 1666م على يد يهودى يدعى «شابتاى تصڤاى» Sabatai Zevi، وكان تركيا من أصل أسبانى، ادعى عام 1648م أنه المسيح الذى ينتظره اليهود، ووعد بإعادة تأسيس ملك إسرائيل، فاجتمع عليه طائفة كبيرة من اليهود، الذين كانوا يعيشون فى كنف دولة الخلافة العثمانية، ولما ذاع صيته وعلا شأنه قُبض عليه فى «اسلامبول» عام 1666م وحكم عليه بالإعدام ، لكنه سارع فأعلن إسلامه، وتابعته طائفته ، فعفا عنهم السلطان محمد الرابع.

ظلت طائفة الدونمة على يهوديتها، تعمل فى الخفاء على هدم دولة الخلافة، من خلال إغراق الدولة فى الديون، وتمكين أعدائها الصليبيين منها، كما تمكنوا من اختراق مؤسسات

(1) الأب الحقيقي للقانون الدولى هو الفقيه الكبير محمد بن الحسن الشيبانى (تلميذ الإمام أبي حنيفة)، وقد عاش الإمام محمد ما بين (132 :189هـ) (749:804م)، وألف كتابه المشهور «السيد الكبير»، وعنه أخذ جروسيوس الذي كان منفيا في الاستانة بتركيا. وتوجد بألمانيا جمعية تسمى «جمعية الشيباني للحقوق الدولية» ، وهدفها التعريف بالفقيه الكبير ونشر مؤلفاته، كما احتفلت جامعة باريس عام 1970م (1389هـ) بذكرى مرور 1200 عام على وفاة الشيباني.

الدولة، إذ كانوا يحملون أسماء إسلامية ، وأسهموا فى إنشاء حزب «تركيا الفتاة» ، حتى صعّدوا أحدهم إلى القمة، وهو «مصطفى كمال» المشهور «بأتاتورك» ، فحول تركيا إلى دولة علمانية مفرطة فى علمانيتها وعزل الخليفة، وقام بتفكيك دولة الخلافة العثمانية، وكان أول رئيس لجمهورية تركيا، فى محاولة لجعلها مسخا أوروبيا، بعد أن كانت رأس الأمة الإسلامية.

وعلى المحور الثانى ؛ أُنشئت خلايا «الماسون الحر»، المعروفة «بالماسونية»، والتى انتشرت من فرنسا إلى كل أوروبا، وكل بلاد العالم، وكان أعضاؤها العقل المدبر، والفكر المهيمن، والأداة المنفذة للثورة الفرنسية (1789-1799م)[1]، وكان منهم اليهود، وغير اليهود وممن ارتبطوا بالمحافل الماسونية، التى يدير حركتها اليهود من وراء الستار، وكان «نابليون بونابرت» ـ الإيطالى الأصل الذى أصبح إمبراطورا لفرنسا ـ كان ماسونيا، وكان من أوائل من نادوا بالصهيونية من الساسة الأوروبيين علانية. وكان دزرائيلى (لورد بيكنسفيلد) أول رئيس وزراء يهودى لدولة أوروبية (1874 - 1878م[2]).

وكما كان اليهود وراء نشأة «المذهب الليبرالى» فى أوروبا، فقد كان «كارل ماركس» هو الذى صاغ «الاشتراكية العلمية» ، وكان اليهود وراء الاضطرابات التى سادت روسيا القيصرية ، وهزيمتها أمام اليابان، فى مطلع القرن العشرين... وتدنى الأحوال، حتى قامت الثورة البلشفية عام 1917م ، وهيمنوا عليها ، فكانوا على قمة الأيديولوجيتين المتناقضتين، وعلى رأس المعسكرين الكبيرين المتصارعين فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

*** لقد كان من نتائج الحملات الصليبية أن استشعر الغرب جهله بطبيعة الإسلام والمسلمين، فبدأ ت حركة «الاستشراق». وكان من المستشرقين يهودا مثل؛ «إجناز جولد

---

(1) Edouard Drumont, La France Juive, Essai D'histoire Contemporain, Tom Premier, 6 iem ed., C. Marpon & E. Flammarion, Paris, 1883, P.P 291 _ 573.

(2) في عهد دزرائيلى اشترت بريطانيا أسهم قناة السويس من الخديوي إسماعيل بأبخس الأثمان، تحت وطأة الديون التي كانت مستحقة في معظمها لدار المال التابعة للبارون «دي روتشيلد» اليهودي أيضا ... وكان ذلك بتعاون تام بينهما.

تسيهر» Goldziher ، ونصارى مثل ؛ بوليوس فيلهاوزن Welthausen ، ومونتفيورى Montefiore، ووليام رينولدز Rainolds .

ومن هؤلاء من لم يستطع إخفاء عدائه للإسلام، فجاء بحثه بعيدا عن الموضوعية، ومنهم من كان أقل عداءً، فمزج بين الموضوعية وعدم قبوله للإسلام.

وبينما كتب فلاسفة ومفكرو «النهضة الأوروبية» عن الصهيونية للدعوة إليها، فإن منهم من كتب فى الإسلام ليطعن فيه مثل «فولتير» ، الذى كتب مسرحية «محمد النبى» ، وإرنست رينان Renan ، الذى نشر محاضرته الشهيرة ، التي تتحدث عن التعارض بين الإسلام والعلم !! ومن ثم اعتبروا أن الإسلام يُعدّ عقبة فى طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى!! ومن أمثال هذا الاتجاه ما جاء فى كتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» ، أن الإسلام يُعدّ عقيدة توحيد نبيلة، لكنه فاشل تماما «كنظام اجتماعى» !! ومن أمثال هؤلاء أيضا «هيجل» ، و«كومت» ، و«هربرت سبنسر»، و«ماكسيم روديسون».

** ذلك، وقد أصبحت كتابات هؤلاء المستشرقين هى المراجع الرئيسية التى يرجع إليها الباحثون والمحاضرون فى الغرب، خاصة بعد إنشاء مراكز البحوث، وأقسام الدراسات الإسلامية التابعة للجامعات فى أوروبا وأميريكا، خلال القرن العشرين. ومن ثم فقد تشكل الموقف الثقافى الأوروبى من الإسلام على مقتضى ما جاء بهذه الكتابات غير المنصفة غالبا.

إن العدل ليقتضى تقرير حقيقة أن موقف أصحاب الحضارة الغربية «الصهيونية / الصليبية» من الإسلام كان مترددا بين ما قاله «مارتن لوثر» فى القرن السادس عشر، وهو يتحدث عن الإسلام فى كتاباته؛ إذْ اعتبر الإسلام الخطر الذى يهدد أوروبا،وأن الإسلام معاد للمسيح!! وأن تحويل المسلمين إلى النصرانية غير ممكن، لذا فمقاومة الإسلام لا تكون إلا بالسيف! وبين كتابات أخرى ذات درجات متفاوتة، تبدأ بالموضعية (1) ، وتنتهى بدخول

(1) من أمثال هذه الكتابات الموضوعية التي نطق أصحابها بالحق راضين أو كارهين، دون أن يؤمنوا بالإسلام، ما نجده في تعريف «العالم الإسلامى» بدائرة المعارف البريطانية، وما نجده في تكييف الإسلام كعقيدة ونظام حياة متكامل عند بعض المستشرقين أمثال الدكتور «فتزجيرالد»، والأستاذ «نالينو» ، والدكتور شاخت، والأستاذ ستروثمان، والكونت «هنرى دي كاستري». ومنهم من اعترف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ووقف عند هذا الحد مثل الأستاذ زاينر =

أصحابهـا فى الإسلام ، بعد دراسة واعـية متأنية، مـثل ؛ اللورد هيدلـى ، والعالم الفيـلسوف الكبير «رينيه جينو»، الذى سُمّى «الشيخ عبد الواحد يحيى»، والدكتور جريتييه، الذى كان عضوا بالجمعيـة الوطنية الفرنسية (البرلمان) ، والـكاتب والفنان الفرنسى الكبيـر «إيتين دينيه» المسمى «نـاصر الدين»، والفيلـسوف الفرنسى «كريسـتان شرفيس»، أحد تلامـيذ «أوغست كـومت». والعالـم الفـذ محمـد أسد (الذى كـان يهـوديا يدعـى ليوبـولد فـايس) ، والعـالم الفـيلسـوف موريس بـوكاى، الذى كـان يهوديـا هو الآخـر، والفيـلسوف الـفرنسـى رجاء جارودى، والسفير الألمانى الدكتور مراد ويلفريد هوفمان.. وغيرهم ممن يصعب إحصاؤهم.

بيد أن وقوع الحـضارة الغربية ، مـنذ سنوات نهضـتها الأولى، تحت الهـيمنة الصهـيونية، التـى تصاعـدت معها، راكـبة موجـة مدها، خـاصة منذ نـهاية الـقرن 18م ، جعـل الصـوت الأعلى، والنفير المدوى، يعلن العداء للإسلام ولأمـته، وتبنى موقف الصدام المستمر الذى لم ينتـه إلى أن أُسقطـت الدولة العثـمانية، وتفـككت الأمة الإسـلامية إلى كيـانات سياسـية فى عشرينيات القرن العشرين الميلادى.

* * *

=R.C.Zaehner أستاذ الديانات الشرقية بجامعة أكسفورد. و«لويس ماسينيون» .. ومنهم من تجاوز حد الاعتراف بكثير ـ والله عـليم بذات الصدور ـ مثـل الشاعر والفيلـسوف الروسى الأشهر «ليوتـولستوي»، والأمير تشـارلـز، ولي عهد بريطانيا، ومن الأمور التي استوقفتني أن وجدت الاعتراف بالإسلام وبنبيه ـ عرضا ـ في مـوقف لم يكن يحتمل هذا الاعتراف .. مثـل ما جاء في كتاب «الأحـكام الشرعية فـي الأحوال الشـخصيـة للإسرائيليـين، لمؤلفه مسعـود حاي بن شمعون، مطبعة كوهين وروزنتال بمصر 1912م ، فقد جاء في المقدمة وهو يؤرخ لليهودية:

« ... ابتـدأ دور الأحبـار الأجلاء (الـعظـماء) .. وفي هـذا العـهد، أعـنى سـنة 4353 عبريّة ظـهر محمد النبي وتكون الإسلام، وبدأ عهـد الخلفاء والفتوحات الإسلامية حتـى عمر بن الخطاب، وفتحه أورشليم ، وقـهر الرومانيين. وكانت بغـداد تحت سيادة الخـلفاء والمعـاهد الإسـرائيـلية ورئيسـها الأعـظم مشـمولة بنـظرهم وعنـايتهم لا يـضطهدونـهم ولا يضايقونهم بل كانوا مطلقى الحرية آمنين مطمئنين» .

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿**الذين أوتوا الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ..**﴾ [البقرة/ 146].

المحور الثالث

المسألة الشرقية

يدل اصطلاح «المسألة الشرقية» The Eastern Question على باكورة الفكر الاستراتيجى الغربى الذى ظل مركزه أوروبا حتى نهاية الحرب العالمية ، وقد ساد هذا الاصطلاح قرابة قرنين وربع القرن من الزمان، منذ توقيع اتفاقية كارلوفيتس Carlowitz عام 1699م(1) . وكان حل هذه المسألة، أى الهدف الاستراتيجى للتحالف الأوروبى المتناقض غالبا، والمتوافق أحيانا(2) هو تفكيك دولة الخلافة العثمانية ، واقتسامها، وسد فراغ القوة التى سيتخلف عن هذه العملية.

كانت المسألة الشرقية معقدة ذات أبعاد متداخلة، منها ما هو عسكرى / جيواستراتيجى، ومنها ما هو تجارى ، ومنها ما هو تاريخي / دينى يتعلق بنتائج الحرب الصليبية التى لم تنسها أوروبا ، ولا غرو فقد ظلت الدولة العثمانية حتى ثمانينيات القرن السابع عشر تمتد من غرب بحر قزوين حتى شرق البحر الإدرياتيكى، بما فى ذلك كل حوض البحر الأسود، وكل شبه جزيرة البلقان، وشرق وجنوب البحر المتوسط، ومن ثم فقد كانت تتحكم فى أهم المضايق البحرية(3) وأقصر طرق التجارة بين الشرق والغرب، وتضم معظم أراضي الدولة البيزنطية، بما فى ذلك عاصمتها (القسطنطينية).

(1) بعدها تحولت الدولة العثمانية من الغزو إلى الدفاع، وحاولت انتهاج سياسة مسالمة مع الغرب، الذي بدأ هجومه على ديار الإسلام من كل اتجاه، أثناء القتال بين الدولتين العثمانية والصفوية. قام الرهبان الروس بإثارة الفتن في البلقان ضد الحكم الإسلامي هناك، ودارت حرب طاحنة مستمرة مع روسيا والنمسا، فاستولى الروس على شبه جزيرة القرم عام 1771م . ومنذ عام 1774م بدأ انهيار الدولة العثمانية من الداخل والخارج.

(2) كانت القوى الثلاث الرئيسية هي بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وهي في حالة صراع مع كل من الدولتين العثمانية والصفوية، تدخل مع بعضها البعض، ومع إحدى هتين الدولتين الإسلاميتين في تحالف أحيانا، وفي تنافس يصل حد القتال المسلح أحيانا أخرى. لكن القوى الأوروبية جميعا كانت متوافقة على أن حل المسألة الشرقية لن يكون إلا بتقسيم الأمة الإسلامية إلى كيانات سياسية صغيرة، واقتسام الهيمنة على تلكم الكيانات، أو ضمها نهائيا إلى هذه القوة أو تلك ... راجع :

G.D. Clayton M.A., Byitoin and The Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli. University of London Press Ltd, 1971 , PP. 9 _ 21 .

(3) احتلت بريطانيا جبل طارق، الذي يتحكم في المدخل الغربي للبحر المتوسط منذ عام 1713م.

لقد كانت روسيا تتطلع إلى الوصول إلى المياه الدافئة، واستعادة سيطرتها على مضيقى البسفور والدردنيل، واستعادة القسطنطينية. وكانت النمسا تتطلع إلى بسط سيطرتها على شبه جزيرة البلقان، وتطلعت إيطاليا إلى استعادة ما كانت تحتله الإمبراطورية الرومانية فى الماضى .. وتطلعت كل من بريطانيا وفرنسا للهيمنة على مصر عقدة المواصلات البرية والبحرية !!

لقد أضر طول المدة التى مرت حتى تمام سقوط دولة الخلافة العثمانية بالمسلمين ، لأنه أتاح الفرصة لقيام القوى الكبرى فى الغرب (بهويتها صهيونية الصليبية) باختراق اجتماعى واقتصادى، وثقافى، وقانونى منظم ، أدى إلى وصول اليهود والنصارى إلى مراكز صنع القرار، والقوات المسلحة فى الدولة الإسلامية، تحت أسماء إسلامية[1] .

وقد بلغت درجة الاختراق مداها فى عهد السلطان سليم الثالث (1787 - 1807م)، عندما فُرض عليه ما سمى «برنامج الإصلاح» [2] ، وهو برنامج لتغيير النظام الاجتماعى والاقتصادى الإسلامى، وإحلال نظم كلها منقولة عن الغرب كلها، بمساعدة وتدخل مستشارين غربيين.

وعندما قُتل السلطان سليم الثالث ، وخلفه السلطان مراد الثانى (1808 - 1839م) عمل على إزالة كل العقبات التى كانت تعترض ذلك البرنامج المشؤوم ، فقتل خمسة آلاف شخص مما كانوا يتحفظون على «البرنامج» عام 1826م .. واستمر التدهور إلى أن صار السلاطين العثمانيين أنفسهم ألعوبة فى أيدى الغرب، ولم يأت عام 1854م حتى كان قائد البحرية العثمانية أدميرالا إنجليزيا متقاعدا! وانتشرت الإرساليات النصرانية والمدارس التابعة لها، حتى بلغت عام 1914م قرابة 4000 مدرسة (ربع إجمالى عدد المدارس، وكان عدد التلاميذ المنضمين إليها يربوا على 366000 تلميذا ، هذا فضلا عن جامعة سان جوزيف (انشئت عام 1874م)، وعدد آخر من المعاهد والكليات، ومنها كلية البروتستانت السيريان (انشئت عام 1866م)، والتى سميت فى مابعد «الجامعة الأميريكية فى بيروت» [3]. وأغرقت

(1) The New Encyclopaedia Britanica, Islamic World, P. 129 .

(2) Clayton , PP . 24 _ 25 .

(3) The New Encyclopaedia Britanica, Turkey and Ancient Anatolia, P. 930.

تركيا ، رأس الدولة العثمانية، بالديون ، وصارت سوقا للمنتجات الأوروبية، ومسرحا للاستثمارات الأجنبية.

ولقد أدرك الغرب الأهمية الجيوستراتيجية للمنطقة الممتدة من تركيا وحتى مصر فكان التركيز الأكبر على اختراقها، وإخضاعها للهيمنة الأوروبية.. واعتبرت كل من تركيا ومصر مفتاحى الشرق، وأن النّيْل من الأمة الإسلامية ـ بوصفها العدو ـ يكون من خلالهما، لذا كان التنافس البريطانى الفرنسى منصبا على غزو مصر واحتلالها، لتبدأ حركة الغزو الصليبى الجديد منها. وقد شهدت أرض مصر ومياهها صراعا بين الإنجليز والفرنسيين، صراعا مسلحا تارة، وصراعا سياسيا أو اقتصاديا تارة أخرى، كما شهدت تعاونا بين الدولتين لاقتسام الهيمنة عليها، إلى أن تم الاتفاق بين هاتين القوتين الإمبرياليتين على اقتسام ما سمى فى ما بعد بمنطقة «الشرق الأوسط».

لقد كان احتلال نابليون بونابرت لمصر عام 1798م بمثابة بداية غزو شامل من اتجاه مصر، يستهدف إحداث تغييرات ذات طبيعة اجتماعية وثقافية، فضلا عن أهدافه الجيوستراتيجية والتجارية. لقد كان غزوا حضاريا «صليبيا / صهيونيا»، لا تزال آثاره باقية إلى الآن.. ومن ثم لا أظننى بعدت عن الحقيقة إن قلت أنه كان بمثابة غرس لبذرة «النظام العالمى الجديد» .. ولا غرو فإن الغرب يؤرخ بهذا التاريخ ليفصل به بين عصرين: عصر «الهوية الإسلامية»، وعصر ما يسمونه «الحداثة والعلمانية» فى الأمة الإسلامية بشكل عام وفى مصر بشكل خاص.

لقد سبق الحملة الفرنسية لمصر، وصاحبها ، وتلاها ، نشاط استخباراتى / استعلامى (1)

---

(1) يروى ألبرت حوراني Albert Hourani في كتابه : «Europe And The Middle East» ، صـ 86:81 قصة شخص يدعى «قسطنطين ـ فرانسوا شاسيبيف» Constantin - Francois Chassebeuf، ولد في كرين Craan بشمال شرق فرنسا عام 1757م عن أب محام من أصل متواضع، وأم من الطبقة المتوسطة، تعلم تعليما عاليا في مجال الطب، في نفس الوقت الذي كان يدرس فيه العربية، وكان له نشاط ثقافي واجتماعي واسع، ودرس في التاريخ وأصول وطبيعة الأديان. وفي عام 1782م خرج في مهمة سياسية سرية، بتكليف من وزير الخارجية الفرنسي آنذاك Vergennes، لمدة عامين، فوصل الإسكندرية في يناير 1783م ، ومنها اتجه إلي القاهرة ، ثم غادرها إلى حلب وساحل سوريا. أمضي الشهور الثمانية الأولى من عام 1784م في دير مارحنّا (سان جون) في جبال لبنان، يدرس العربية، ويتجول في داخل سوريا ولبنان، ثم اتجه بنهاية العام إلى القدس وفلسطين ، ثم عاد إلى فرنسا مارا =

استهدف الدراسة العميقة للمجتمع المصرى الإسلامى وعوامل قوته، ومكامن ضعفه، مركزا على المجال الثقافى، وعلى مدى تأثير مصر ـ بسبب وزنها التاريخى والاستراتيجى والثقافى ـ على باقى الشعوب الإسلامية، خاصة فى المنطقة التى أصبحت فيما بعد تسمى الشرق الأوسط.

ولقد كان وصول الحملة الفرنسية إلى مصر مصحوبا بالعلماء والباحثين ، فكانت لهذه الغزوة العسكرية/ العلمية آثارها بعيدة المدى، إذْ فتحت الباب واسعا أمام الغزو الثقافى والحضارى الأوروبى لمصر، وبلدان الشرق الأوسط كلها، وكان لهذه الحملة النصيب الأوفى فى حل «المسألة الشرقية»، وذلك على الرغم من قصر مدة الحملة الفرنسية ، ومقاومة علماء الأزهر، وثورة الشعب أكثر من مرة، وقتل «كليبر» القائد الذى خلف نابليون بونابرت بعد تمام احتلال مصر، ودخول القائد الذى تلاه «مينو» الإسلام وزواجه من مصرية مسلمة!

وقد كان لفك رموز «حجر رشيد» ، الذى كُتب بثلاث لغات، ولما احتواه كتاب «وصف مصر» Description de I'Egypte آثار بعيد المدى على الحياة الثقافية فى مصر، وعلى تعريف الأوروبيين بأسرارها التاريخية والاجتماعية.

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن فرنسا كانت، ولا تزال، أكثر الأمم الغربية اتصالا بالأمة الإسلامية وتأثيرا فيها ويرجع ذلك إلا أنها تعتبر نفسها حامية المذهب الكاثوليكى(1)،

= بالإسكندرية، وغير اسمه إلى «فولنى» Volney، وبه كتب مؤلفا بعنوان «رحلة إلى سوريا وفي مصر» Voyage en Syrie et en Egypte تُرجم فورا إلى الإنجليزية ، وكان له أثرا بعيد المدى ممتد، ومنحه شهرة جعلت منه عضوا في الجمعية الوطنية الفرنسية عام 1789م. وفي عام 1795م قام برحلته الثانية إى أميريكا حيث أمضي ثلاث سنوات، وقابل جيفرسون، وواشنطون. وبعودته إلى باريس عام 1799م لعب دورا هاما في تعيين نابليون بونابرت قنصلا أولا لفرنسا .. وكان قد قابله لأول مرة وهو ضابط صغير في كوريسكا. وقد بنى نابليون بونابرت سياسته وخططه على كتابه سالف الذكر، وهو يعد لحملته على مصر.. وكانت العلاقة بين الشخصين حميمة في البداية لكنه صُدم في نابليون مرتين: الأولى عندما استشار بونابرت الكنيسة ، والثانية عندما أعلن نفسه إمبراطورا على فرنسا!

(1) المذهب الكاثوليكي الروماني ، أكثر المذاهب النصرانية أتباعا، وهو موحد تحت السلطة الدينية لبابا «الفاتيكان» . وله نظرة جيوبوليتيكية كونية مشتقة من اسمه، المشتق بدوره من الكلمة اليونانية katholikos وتعنى «الكونى» . والمذهب الكاثوليكى هو أكثر المذاهب نشاطا وإيجابية في مجال التنصير، إعدادا لقيام «مملكة الله على الأرض» عند عودة «المسيح المخلص».

ورائدة الحروب الصليبية. وقد دفعها هذا إلى احتلال البلدان الإسلامية شمال غرب أفريقيا (ما اصطلح على تسميته الآن المغرب العربى)، وعدد كبير من البلدان الإسلامية غرب ووسط أفريقيا، وغرب المحيط الهندى، والشرق الأقصى[1]، فضلا عن احتلال سوريا ولبنان، واستقبالها فيما بعد ثانى أكبر جالية إسلامية بعد الولايات المتحدة الأميريكية.

ولم يكن انسحاب الجيش الفرنسى من مصر نهاية المطاف، فقد كان هناك ارتباط وثيق بين فرنسا وحاكم مصر القوى محمد على، الذى لعب دورا بالغ الأهمية فى التاريخ الحديث للأمة الإسلامية، خاصة فى منطقة القلب منها والمسماه حاليا «الشرق الأوسط».

تولى محمد على باشا (الضابط الألبانى) حكم مصر فى 13 مايو 1805م، بدعم من علمائها ، الذين جمعوا له التأييد الشعبى، رغم معارضة أهل الرأى والمشورة المحيطين بالسلطان العثمانى، ورغم مساندة الإنجليز للمماليك الذين كانوا ينافسونه على حكم مصر.. وقد بلغ نفوذ الإنجليز لدى السلطان العثمانى ، أن جرد الأخير عمارة بحرية يصحبها شخصيات إنجليزية، وصلت إلى الإسكندرية فى ربيع الثانى 1221هـ (يونيو 1806م) لعزل محمد على بالقوة، لكن علماء مصر أرسلوا إلى «قبطان باشا» مندوب السلطان يطلبون منه بقاء الوالى الذى ارتضوه لأنه: « .. كافل الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله، وقاطع المعتدين، وأن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة فى أيامه...» . ولم يرض الإنجليز بهذا، فأرسلوا حملة إلى مصر بقيادة الجنرال «فريزر» كى تقضى على محمد على، حليف فرنسا، وتمكن لحفائهم المماليك، وتكون بهذه الحملة قد وجهت أيضا ضربة إذلال للدولة العثمانية، التى كانت على وفاق مع فرنسا هى الأخرى فى ذلك الوقت. وبينما كان الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال «دوكورث» يغزو بوغاز الدردنيل، كانت السفن الإنجليزية تستولى على الإسكندرية فى مارس 1807م، ثم تحركت القوة البرية إلى رشيد ، لكنها هُزمت هناك يوم 21 محرم 1222هـ (31 مارس 1807م) شر هزيمة.

---

(1) رغم انتهاء العصر الإمبريالى الأوروبى بنهاية خمسينيات القرن العشرين الميلادى، فإن فرنسا تحتفظ بتواجد عسكرى في البلاد التي كانت تحتلها من قبل، خاصة في أفريقيا، وتقيم علاقة سياسية / ثقافية/ اقتصادية قوية بهذه الدول من خلال منظمة الدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون).

كان محمد على باشا طموحا أبعد الحدود، فبمجرد رسوخ قدمه تنكر للعلماء ونفاهم، وأعد مذبحة لزعماء وفرسان المماليك بالقلعة، واستولى على كل الأراضى الزراعية فى البلاد. لكنه اعتمد على فرنسا، وعلى الخبراء الفرنسيين[1] فى كل المجالات اعتمادا زائدا عن الحد، على أمل تحديث البلاد، ونقل التكنولوجيا والعلوم الأوروبية إليها، وبناء جيش وأسطول قويين.

وقد كان لهذه النظرة وجاهتها من الناحية المادية البحثة، وآتت ثمارا طيبة، فى المدى القصير والمتوسط ، لكنها كانت سياسة قصيرة النظر، غير حكيمة، من الناحية الثقافية والمعنوية، وأتت بآثار سيئة على المدى البعيد فى عهد حفيده الخديوي إسماعيل[2] ، بل وفى منتصف وأواخر عهد محمد على نفسه، إذْ أعطت للفرنسيين فرصة نادرة للاختراق الثقافى والاجتماعى.

فما كادت الصفوة فى مصر تنفتح على الغرب انفتاحا فجائيا حتى أصيبت بصدمة حضارية أفقدتهم توازنهم، وطفقوا ينقلون عن الغرب الطالح وبعض الصالح دون وعى، واكتفوا بالقشور دون الجوهر، وبالتقليد دون الابتكار والتجديد.

---

(1) بعث محمد علي البعثات إلى فرنسا، وكان يرأسها المسيو جومار، وتولى الجيش الكولونيل سيف Seves، الذي أسلم بعد ذلك، وحصل على الباشوية، وسُمي سليمان باشا الفرنساوي، وكان معه بعثة من الضباط الفرنسيين والإيطاليين، تولوا قيادة مدارس الجيش وعملوا بالأسطول.

وتولى الفرنسيون أيضا الصناعات الحربية، والمدارس والصناعات المدنية والزراعة.. وكان أشهرهم كلوت بك، الفرنسي الي تولى مدرسة الطب ... وهكذا الأمر هو الذي جعل محمد على ـ بحق ـ مدينا لفرنسا والفرنسيين ، وهذا أمر بالغ الخطورة غير مأمون العواقب .. وهذا ما أثبتته الأيام.

(2) زاد اعتماد الخديوي إسماعيل على الأجانب في كل المجالات، وفتح لهم الباب واسعا كي يستخدموا مصر بجيشها وإمكاناتها في سبيل تحقيق أهدافهم في احتلال منابع النيل، التي تمت بالإمكانات المصرية تحت قيادة صمويل بيكر (باشا) (1871 - 1873م)، ثم القس الكولونيل غوردن (باشا) (1874 -1876م)، ومع كل منهم بعثة من الضباط الأوروبيين، لقيادة الجيش المصري، ولحكم البلدان التي تم فتحها حتى البحيرات الكبرى، والصومال، والإقليم الاستوائى (في زائير حاليا) . وقد منح الخديوي إسماعيل الضباط الأجانب ألقاب «باشا» ، و«بك». وبعد تمام تحقيق ما أراد الإنجليز،دبّروا للجيش المصرى هزيمة نكراء في الحبشة. وقد بلغ التدخل الأجنبي في مصر في عهد إسماعيل مدي بالغ الخطورة، في مجالات التعليم، والقانون، والقضاء، والاقتصاد ، فأحدث آثاراً بالغة السوء، وساعد على وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني عام 1882م، ويسر لذلك الاحتلال السيطرة على مقدرات البلاد، وتشكيلها من الداخل بشكل لا تزال آثاره باقية إلى الآن في مصر، وفي البلدان الإسلامية التي تأثرت بها بالتالى.

انكفأت الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر على نفسها، وضرب الفساد الإدارى أطنابه فى أنحائها، ولم تعد دولة مجاهدة، فافتقدت الجهاد والاجتهاد معا، واكتفت بالحروب الداخلية ومواجهة الثورات التى حركتها البلدان الأوروبية فى الأقاليم الأوروبية التابعة للدولة العثمانية آنذاك.. وكان محمد على بمثابة الذراع القوية التى وجهتها الدولة العثمانية لضرب الحركة الوهابية فى نجد والحجاز، ثم أذعن لمشورة الخبراء الفرنسيين وقام «بفتح» السودان «لحرمان بريطانيا من الوصول إليه»..

وكان من نتائج هذا الانشغال أن حرضت روسيا اليونان على الثورة التى قادها القس جارمانوس أسقف باتراس عام 1821م ، وأعلنت اليونان الحرب الصليبية فى البر والبحر، وتطورت الأحداث، واستعان السلطان العثمانى بمحمد على الذى قضى على الثورة، واستعاد الجيش التركى فتح أثينا، رغم دعم الدفاع عنها بقوات فرنسية، واتجه الأسطولان المصرى والتركى إلى نافارين، التى كان الأسطول المصرى قد استولى عليها عام 1825م .

ورغم الخلاف الدائم، الذى كان يبلغ حد الصراع المسلح بين القوى الأوروبية الكبرى، وخاصة بين دول غرب أوروبا (بريطانيا وفرنسا)، وروسيا إلا أنهم تحالفوا وهبّوا النجدة اليونان، وكانت واحدة من أهم أحداث حل المسألة الشرقية يوم 20 أكتوبر 1827م إذ تم تدمير الأسطولين المصرى والتركى تماما فى نفارين Navarino [1].

ما كان ينبغى أن تحدث بمثل هذه الكيفية ، وقد قال الله تعالى :

﴿ ... ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة...﴾ [النساء / 102]

كانت مثل هذه النتيجة متوقعة، إذ تولى المسلمون أعداءهم، وجعلوهم معهم فى موقع الشورى وصنع القرار، فظلم المسلمون أنفسهم وما ظلمهم الله.

---

(1) كان الأسطولان المصرى والتركي يقفان في غير تأهب للقتال، رغم أنهما كانا في حالة حرب، وبلغهم إنذار الحلفاء بالحرب.. وبذا خالفوا قول الله تعالى: ﴿ ... وخذوا حذركم ..﴾ [النساء / 102] ، وفي 20 أكتوبر 1827 دخلت أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا إلى الميناء في غير تشكيل قتال، ثم تقدم قارب صغير، تحت علم الهدنة، وتبادل إطلاق النار مع سفينة مصرية، في الوقت الذي أطلقت فيه سفن الحلفاء النار من مسافات قريبة على الأسطولين فدمرتهما تماما.

ولم تكن هذه هي خاتمة النكسات التي توالت، فقد أغرى أعداء الأمة محمد على كي يتجه شمالا لغزو الشام والأناضول، وهداه طموحه، وغروره بقوته أنه ربما أطاح بالدولة العثمانية، وتولى هو الخلافة، ففعل ما زينه له أعداء الأمة، الذين انتهزوا فرصة لا تعوض لاتخاذ الخطوة التالية في سبيل حل المسألة الشرقية، من خلال تفكيك الأمة. وبمجرد أن انتهت واقعة «نصيبين» بين محمد على وجيش السلطان، في 24 يونيو 1839م، وكلاهما خاسر، رغم النصر الظاهرى لجيش محمد على، تحرك الحلفاء الأوروبيون لفرض معاهدة لندن في 15 يوليو 1840م[1] فكانت بداية عهد جديد في تفكيك الأمة، وتم إغراق كل من تركيا ومصر بالديون، وزاد التدخل الأجنبي فبلغ أبعد الحدود خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، وبدأ إعداد البنية الأساسية (السكك الحديدية ـ وقناة السويس ـ والطرق ـ والترع ـ والبريد والبرق ...إلخ) لاستقبال العصر الإمبريالي[2].

لقد كانت العقود الثمانية الأولى من القرن التاسع عشر مواتية للقوى الأوروبية الكبرى كي تُطْبق على قلب وأطراف الأمة الإسلامية، والامتثال لما يشيدون به عليهم أحيانا، ويملونه غالبا. وخلال هذه الفترة عُزلت تركيا عن الأمة، وفُصلت مصر عنها من جهة الواقع، وجثم عليها الاحتلال البريطاني وهي في أسوأ حالات الفوضى، وذهبت القوى الأوروبية الكبرى تنتقص من أطراف الأمة الإسلامية، وتضم إليها أراضيها، أو تحتلها، أو تقسمها.

وببداية القرن العشرين كان موقف الأمة الإسلامية كما يلي:

ـ تمكنت روسيا من بسط نفوذها على معظم بلدان أوروبا الشرقية، وعلى شبه جزيرة القرم والساحل الشمالي والشرقي للبحر الأسود، وعلى كل القوقاز، وقازاكستان، وقرغيزستان، وشمال أوزبكستان، ولم يبق من وسط آسيا سوى تركمنستان. احتلتها عام

(1) فرضت القوى الأوروبية الكبرى (بريطانيا ـ روسيا ـ النمسا ـ بروسيا)، عدا فرنسا التي كانت على قطيعة تامة مع بريطانيا، فرضت قيود عسكرية وإقليمية على كل من مصر وتركيا، كما فرضت استقلالا مصريا واقعيا عن دولة الخلافة، أصبح قانونيا فيما بعد عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914م.

(2) استغلت بريطانيا وفرنسا، مجتمعتين مصر، تحت حكم الخديوي إسماعيل ، في إعداد البنية الأساسية المناسبة، كي تصبح مصر معبرا لهما إلى أفريقيا والمحيط الهندي، وكانت أداتا السيطرة هما: الديون ، والمستشارين الأجانب الذين تولوا أعلى المناصب. وبهما استخدم الجيش المصرى في حركة استكشاف، لمنابع النيل لم يفز منها حقيقة إلا بريطانيا ..

1914، وطاجيكستان، احتلت شرقها عام 1914م، والباقى عام 1920م، كما استكملت احتلال باقى أوزبكستان عام 1920، لتدخل هذه البلاد الإسلامية، التى قامت فيها حضارة الإسلام منذ عهده الأول تحت حكم أكبر دولة إلحادية فى التاريخ، الاتحاد السوفيت[1] . كما قامت روسيا بإثارة شعوب شبه جزيرة البلقان، وساندتها بعون وتأييد من القوى الأوروبية الكبرى إلى أن انفصلت شعوبها الأرثوذكسية، والإسلامية عن دولة الخلافة فى أوائل القرن العشرين.

كانت لروسيا «الأرثوذوكسية» استقلالية سياسية عن باقى أوروبا «الكاثوليكية»[2]، بلغت درجة الشقاق الكامل، لذا فقد ذهبت بما احتلته من أراض إسلامية، على حين حدث النزاع والتنافس بين القوى الليبرالية الكبرى: بريطانيا، حامية الكنيسة «البروتستانتية»، وفرنسا حاملة لواء «الكاثوليكية» .. كذا بلجيكا، وهولندا ، وأسبانيا، والبرتغال، وإيطاليا، وألمانيا كقوى إمبريالية ثانوية. وكانت هناك مناطق نفوذ معترف بها، وأخرى يجرى التنافس عليها، وثالثة تطمح إليها الدول الإمبريالية الأقل قدرة على الوصول إلى مناطق نفوذ فيما وراء البحار.

---

(1) كانت روسيا ، كغيرها من القوى الأوروبية دولة إمبريالية تسعى للتوسع، لكنها لم تكن تلجأ للتوسع في ما وراء البحار مثل بريطانيا وفرنسا، وذلك لأنها كانت قوة برية، فسعت للزحف جنوبا عبر الحدود، فأدخلت تحت سيطرتها شعوبا إسلامية بخلاف ما ذكرناه في المتن، وهي الشعوب الواقعة شمال القوقاز وحتى موسكو، وأهمها: شيشان ، وأنغوش، وبلقار ـ قبر دينو، وداغستان، وتترستان، وبشكور ترستان، والادغار، وأوسيتيا ، وغيرها من الأقاليم ذات الأغلبية الإسلامية التي تزيد عن 90 ٪ .

(2) أقام شرلمان إمبراطوريته الجرمانية الرومانية المقدسة عام 800م، وتوجه البابا ليون الثالث حاكما زمنيا، على حين تولى هو الزعامة الدينية.. إلى أن تفككت هذه الإمبراطورية في عهد فريدريك الثالث عام 1593م، وواكب ذلك انتشار المذهب البروتستانتي منذ عام 1537م، فقامت الحروب الممتدة بين البرتستانت والكاثوليك، وكان من أشهرها الحرب الثلاثينية التي انتهت عام 1648م، فعقد صلح «وستفاليا» بينها، وبدأ عصر قيام «الدولة» ذات السيادة ، بشكلها المعروف حتى الآن، وترسخت قواعد القانون الدولي، الذي قام على أساسه «المجتمع الدولي» ، أو «الأسرة الدولية» .. وهما اصطلاحان صليبيان طائفيان.. فلا يقصد بالمجتمع الدولي، أو الأسرة الدولية سوى الدول الأوروبية الصليبية، ثم فتحت أبواب هذا المجتمع لكل من الولايات المتحدة الأميريكية، وليبيريا ، وهايتي بعد استقلالها، باعتبارها دولا يدين سكانها بالنصرانية .. على حين لم يسمح لتركيا بالانضمام إلى «المجتمع الدولى» إلا منذ عام 1856م بمقتضى صلح باريس، بعد أن تغلغلت الدولة الإمبريالية في المجتمعات الإسلامية إلى درجة أن صار لقناصلها سلطات القضاء والتشريع، وهيمنت شركاتها على أمور الاقتصاد... وما كان قبول الدول الإسلامية بعد ذلك في «المجتمع الدولي» إلا أملا في كثلتها، أى تحويلها إلى الكاثوليكية،.

ثبّت الإنجليز هيمنتهم على الهند، التى كانوا قد احتلوها منذ أواخر أربعينيات القرن الثامن عشر، مستغلين خلافات سلاطين المسلمين هناك، ودخلوا دهلى فى تسعينيات نفس القرن، ثم تمكنوا من السيطرة الكاملة عليها وإسقاط سلطنة المغول المسلمين عام 1858م ، بعد أن دمروا كل مظاهر الحضارة والاقتصاد ونهبوا ثرواتها.. وأصبحت الهند تابعة للتاج البريطانى.. ثم قامت بعد ذلك بتسعين عاما بتقسيمها إلى: باكستان الإسلامية، والهند العلمانية (رغم وجود أكبر مجتمع إسلامى فى العالم بداخل الهند، حتى بعد تقسيمها)[1]. والهند فى الحقيقة دولة هندوكية متعصبة رغم إعلانها العلمانية.. وهذا ما أثبتته الأيام والأحداث.

خرجت الدولة الصفوية من حربها الطويلة مع الدولة العثمانية منهكة القوى، فتمكنت روسيا من انتزاع أقاليمها الإسلامية فى القوقاز.. على حين تدخلت بريطانيا من خلال المعونات الاقتصادية والقروض، وانتهى النزاع بين بريطانيا وروسيا على أرض الدولة الصفوية بوفاق بينهما عام 1907م ، وقسموا البلاد بينهما إلى منطقتى نفوذ، وجعلوا وسط إيران منطقة عازلة ، بينهما، ودخلت أفغانستان تحت النفوذ الإنجليزى.

أصبحت البلدان الإسلامية فى جنوب شرق آسيا (أندونيسيا ـ ماليزيا ـ بروناى ـ الفلبين .. وغيرها) تحت الاحتلال الأجنبى، الذى ينهب ثرواتها، ويعمل على تغيير هويتها.. فكانت أندونيسيا (جزر الهند الشرقية) تحت السيطرة الهولندية، عدا جزيرة تيمور كانت مستعمرة برتغالية، ودخلت شبه جزيرة الهند الصينية تحت السيطرة الفرنسية، عدا الملايو تحت السيطرة الإنجليزية. وكانت الفلبين تحتلها البرتغال حتى عام 1898م ، فاحتلتها الولايات المتحدة الأميريكية.

اشتد التنافس بين الدول الإمبريالية فى أفريقيا، فتم تقسيمها إلى مناطق نفوذ فى مؤتمر «برلين» (نوفمبر 1884م ـ فبراير 1885م)، الذى دعا إليه المستشار الألمانى (الأمير بسمارك)،

---

(1) روعي في ذلك التقسيم أن يتم شطر الدولة الإسلامية إلى قسمين: باكستان الغربية، وباكستان الشرقية، وبينهما الهند .. وبتآمر أميريكي / سوفيتي يؤيده الغرب الصليبي / الصهيوني، وباستخدام الهند كأداة تم فصل باكستان في أواخر عام 1971م إلى شطرين: باكستان، وبنغلاديش ... وقد أسفر تقسيم الهند تحكيما عام 1947م إلى توزيع إقليم كشمير، الذي يشكل المسلمون فيه أكثر من تسعين بالمائة ، توزيعه بين الهند وباكستان.

وأيده ليوبولد الثانى ملك بلجيكا (قبيل توليه العرش). وعلى الرغم من أن المسلمين يشكلون قرابة نصف سكان القارة، ومعظم النصف الثانى من الوثنيين. وعلى الرغم من أن كثيرا من الشعوب الأفريقية مسلمة بنسبة تزيد على تسعين بالمائة، وأحيانا تصل إلى ثمانية وتسعين بالمائة فإن الإمبريالية الصليبية الأوروبية قسمت القارة تقسيما تحكميا وهميا هو: أفريقيا الإسلامية (شمال الصحراء الكبرى) وتضم؛ مصر، وشمال السودان، وبلدان المغرب العربى ـ وأفريقيا «النصرانية» وتضم ؛ ما يسمونه أيضا «أفريقيا السوداء»، وكانت فرنسا هى أكثر الدول الأوروبية اعتناقا لهذه الفكرة، وتشجيعا لها. ومع ذلك ففرنسا تؤمن بفكرة أن «المغرب العربى» ـ خاصة الجزائر، التى احتلتها عام 1830م ـ ليس سوى امتدادا جغرافيا لها؛ فهو معبرها الطبيعى لأفريقيا «الكاثوليكية» على حد ما تصوره لهم أحلامهم.

وقد دعمت بريطانيا مركز فرنسا ووجهة نظرها هذه من خلال توقيع اتفاق الانفراج (التفاهم الودى) بينهما عام 1904م ، والذى بمقتضاه تم تقسيم جنوب البحر المتوسط إلى منطقتى نفوذ : تختص بريطانيا بمصر والسودان، فضلا عن دعم مركزها فى الهند، وعدن، التى احتلتها عام 1839م، وتطلق يد فرنسا فى الجزائر، التى احتلتها 1830م وتونس، التى احتلتها 1881م. ثم احتلت فرنسا مراكش (المغرب) عام 1914م.. واعترفت الدول الغربية باحتلال إيطاليا لليبيا عام 1915 ، وكان الجيش الإيطالى قد غزاها فى أكتوبر عام 1911، وانسحبت منها القوات العثمانية عام 1912م.

*** خلاصة القول أن بدء انهيار دولة الخلافة العثمانية (التى كانت بحق النواة الصلبة للأمة الإسلامية على مدى قرابة ثلاثة قرون) قد خلّف فراغ قوة فى قلب الأمة الإسلامية (الذى أصبح منذ الحرب العالمية الأولى يسمى بمنطقة الشرق الأوسط)، فاندفعت أوروبا «الصهيونية / الصليبية» لملء هذا الفراغ ، عسكريا ، وثقافيا، وإداريا، وأيديولوجيا.

ولم تكن الحرب «الصهيونية / الصليبية» هذه المرة ساذجة كالحروب الصليبية، فى الفترة التى سبقت قيام الدولة العثمانية، بل كانت حربا شاملة، لها أهدافها الاستراتيجية بعيدة المدى، ولها نظرتها الحضارية، التى لم تكن أبدا رسالة تحملها إلى الأمم الأخرى، كما كانت الغزوات الإسلامية، فى السنوات الألف والمائة التى أعقبت بعثة رسول الله ﷺ ، وإنما كانت غاية الغرب دائما إحراز التفوق المادى، والإبقاء على استعلائهم، من خلال نهب الثروات،

وامتصاص دماء الآخرين،ورفع شعار التبشير بالنصرانية، نفاقا وخداعا... فلم تكن الحضارة الأوروبية سوى حضارة مادية ملحدة تُوظّف الدين(1) ، وهم ليسوا على شيء.. يقول الله تعالى:

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين﴾ [المائدة / 68]

﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ [المائدة / 59]

لقد أدرك الأوروبيون، أنه رغم تفوقهم العسكرى و«التقنى»، فإنهم بحاجة إلى استمرار تدفق المواد الخام، ومصادر الطاقة ـ خاصة بعد زيادة معدلات استخراج البترول من منطقة الشرق الأوسط، وتحويل الآلات البخارية والسفن من العمل بالفحم إلى العمل بمنتجات البترول ـ وأن حاجتهم هذه لا يمكن تأمينها بالقوة العسكرية إلى ما لا نهاية، كما أدركوا أن التفوق «التقنى» المادى لا يدوم عادة، فسرعان ما ستنتقل «التكنولوجيا» من الشمال إلى الجنوب، وأدركوا أيضا أنهم فشلوا فى انتزاع عقيدة الإسلام من القلوب والعقول، فتمخض مكرهم عن خطة استراتيجية محكمة طويلة المدى، أكثر رسوخا واستدامة مفادها الهيمنة على عقول المتعلمين والمثقفين، وتشكيل هذه العقول فى الداخل والخارج، مستغلين الصدمة الحضارية التى أصيبت بها أمتنا منذ نهاية القرن الثامن عشر، فأكثروا من استقبال البعثات من

---

(1) حضر كاتب هذه السطور احتفالا بنادى الضباط بمدينة «كنشاسا» عاصمة زائير يوم 30 يونيو 1985م، بمناسبة مرور ربع قرن على استقلال زائير، وكان ضيف الشرف في ذلك الحفل جنرالا كان آخر قادة الاحتلال البلجيكي في «الكنغو البلجيكى» قبل استقلاله، ثم تغيير اسمه إلى «زائير». كان الجنرال المذكور في الرابعة والثمانين من عمره، قوي البنية، حاضر الذهن والبديهة.. وعندما وقف ليلقى كلمته، وجدناها كلها مليئة بالمن على تلكم البلاد أن خلصتهم بلجيكا من الإسلام والمسلمين «تجّار العبيد»! ونشرت بينهم الكاثوليكية!

ومن الملاحظ أن الإحصاءات الغربية الحديثة (في الثمانينيات) تقدر نسبة المسلمين في زائير باثنين بالمائة فقط، على حين أن الحقيقة هي أن المسلمين يشكلون أغلبية في إقليمين هما: «الإقليم الاستوائى» في الشمال، وإقليم «كيفو» في الشرق، وأن نسبة المسلمين في كل زائير هي حوالي خمسة وعشرين بالمائة. وبالعاصمة اثنا عشر مسجدا تجدها مكتظة بالمصلين أيام الجمع.

أبناء أمتنا، وتدخلوا فشكلوا التعليم الذى سموه «التعليم العام» ، سواء من خلال تصميم مناهجه، ووضع برامجه ومادته العلمية، وإعلاء شأن، اللغات غير العربية، واستبدال حروف غير عربية بها أحيانا[1] .. فإذا ما تم الاستغناء عن جانب كبير من الأساتذة والمعلمين الأجانب، وجدنا تلاميذهم ، من المسلمين ، وغير المسلمين من سكان البلاد، يسيرون على نفس النهج، يعملون لصالح أعداء الإسلام بالوكالة.

الأخطر من هذا أن الهجمة الصهيونية/ الصليبية ، التى كانت قد أحدثت اختراقا اجتماعيا خطيرا فى مجتمعات الأمة الإسلامية، قد نجحت منذ منتصف القرن التاسع عشر فى تربية «كوادر» تحمل أسماء إسلامية غالبا،وغير إسلامية أحيانا، من مواطنى بلادنا، تعهدتهم بالرعاية والتشكيل، على مقتضى القيم الغربية، وتمكنت، من خلال النشاط السرى والعلنى، من تصعيدهم إلى أماكن الصدراة ومراكز القيادة فى كل المجالات، ومنهم من حمل أسماء «المصلحين»، وما هم إلا مفسدون. تمكن هؤلاء من تولى مقاليد الحكم، والتوجيه، ورسم السياسات، وتشكيل الرأى العام ، على مقتضى ما يستهدفه أعداء الأمة. ومن هؤلاء من كان يدرك قدر الجرم الذى يرتكبه، وهو مُصرٌ على ذلك، ومنهم من غرتهم الحضارة الغربية، فأفسدوا فى البلاد، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!

*** وعلى أيدى هؤلاء ، الذين تعاقبوا أجيالا، وزادت شوكتهم وسطوتهم، وتقدمت وسائل السيطرة عليهم وتحريكهم، وتقدمت وسائلهم التقنية والنفسية فى الإفساد، تم نشر «العلمانية»، و«الماركسية»، فى آن واحد، وتمت محاولات إحياء الحضارات الوثنية ، تحت مسمى «الوطنية»، ومحاولات طمس الهوية الإسلامية ، تحت مسمى «القومية»، ومحاولات العبث بالثقافة الإسلامية ولغتها العربية، تحت مسمى «التحديث والتنوير»، والعبث بالنظام الاجتماعى والنظام القانونى، تحت دعاوى باطلة مثل : «تحرير المرأة»، وإقامة «مؤسسات المجتمع المدنى»، و«حرية الفكر» ، و«حقوق الإنسان».

---

(1) حدث هذا في تركيا والشعوب الناطقة بالتركية منذ عشرينيات القرن العشرين، في حين تم اعتبار اللغات الروسية، والإنجليزية، والفرنسية، وغيرها هي اللغات الرسمية في كثير من شعوب الأمة الإسلامية، وتمت محاولات لإحياء لهجات ولغات الشعوب قبل الإسلام كالفارسية، والأردية، والكردية، والتركية، والبربرية...إلخ فنجحت المحاولة في كثير من شعوب الأمة ، في حين قاومتها شعوب أخرى كمصر بسبب وجود الأزهر.

وقد تمكنت هذه «النخب» الثقافية والسياسية من التربع على قمم مجتمعاتنا الإسلامية، وغيرت جلدها، كلما اقتضى الأمر، وتداولت مراكز القيادة فيما بينها تحت إشراف وسيطرة كاملة من أعداء الإسلام... فضعفت مقاومة الأمة أمام الغزوة الصهيونية الصليبية التى لا تزال مستمرة حتى الآن، والتى تزداد ضراوة يوما بعد يوم، مع تقدم تكنولوجيا المعلومات والإعلام، ووسائل التأثير الثقافى ومخاطبة الجماهير، فضلا عن العلو المتصاعد للصهيونية العالمية، بوسائلها الخفية، التى اعتمدت فى البداية على الخلايا الماسونية، ثم على النوادى العلنية، ذات النشاطات السرية كالروتارى، والليونز، والانتراكت، والسوبر أوبتيمست و... غيرها ، والتى تنتقى أعضاءها بدقة شديدة، وتحكم توجيههم وسيطرتها عليهم، وتعمل على تصعيدهم إلى أعلى المناصب.



المحور الرابع

الصهيونية العالمية تركب موجة المد الإمبريالى

الصهيونية نسبة إلى تلال صهيون؛ التى بُنيت عليها مدينة القدس و«الصهيونية» لفظ حديث، لكنها فكرة قديمة/ جديدة، وتعنى «عودة اليهود إلى صهيون» أى إلى «الأرض المقدسة» ـ «أرض الميعاد». وكل هذه ألفاظ ومعان نجدها متناثرة متكررة فى أسفار التوراة، وتمثل لدى اليهود ـ كل اليهود ـ قيمة عليا. ومنها ما ترويه نسخ التوراة، فى سفر الخروج، الإصحاح الثالث، أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام عند «جبل الله حوريب»، حيث كانت النار التى شاهدها موسى عليه السلام وتوجه إليها، وهنا تروى نسخ التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «فقال الرب إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . إنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة واسعة. إلى أرض تفيض لبنا وعسلا، إلى مكان الكنعانيين والحثّيين والأموريين والفَرِزّيين والحوّيين واليبوسيين» (7-8).

وفى سفر التثنية: «الرب إلهنا كلمنا فى حوريب قائلا: كفاكم قعودا فى هذا الجبل. تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانى ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. انظر قد جعلت أمامكم الأرض. ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم. وكلمتكم فى ذلك الوقت قائلا لا أقدر وحدى أن أحملكم[1]...» (الإصحاح الأول: 9:6) .

---

(1) حاشا لله سبحانه .. ما هذا بكلام الله، ولا يجوز أن ينسب إلى رب العزة «إنه على كل شيء قدير»... وكما قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾** [المائدة / 21] فاحتجوا بأن قومها جبارين، وقالوا : **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾** [المائدة / 24] ثم دخلوها، بإذن الله، بعد ذلك، وعلوا وأفسدوا فدمر الله عليهم ، ثم علوا وأفسدوا ، فدمر الله عليهم، ثم كذبوا رسول الله، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . فنزع الله تعالى منهم الأرض ، كما نزعها ممن كانوا قبلهم، وأورثها المؤمنين ممن آمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم جزاء كفر بني إسرائيل وتكذيبهم رسوله، ولأنهم ظاهروا المشركين عليه، فحق فيهم قول الحق سبحانه: =

ذلك؛ وأرض الميعاد هى مساحة من الأرض محددة، بحسب النصوص، والفكر والتراث والثقافة اليهودية : «من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تكوين :18:15)، ومن «حوض نهر الأردن حتى البحر الأحمر جنوبا، وحتى البحر المتوسط فى الغرب، ففى سفر خروج: «واجعل تخومك من بحرسُوف (الأحمر) إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر» .(31/23).

وقد صاغوا للصهيونية نشيداً ينص على أن الأمل فى العودة إلى «صهيون» ، الأرض التى أعطوها أجدادهم لن يضيع أبدا، فهو أمل امتد ألفى عام...

ذلك .. ولمدينة القدس «أورشليم» المكانة الأعلى عند اليهود. ففى سفر مزامير ، نجد المزمور المائة والسابع والثلاثين يبكى اليهودى فى السبى البابلى بعد تدمير الهيكل الأول فيقول: «على أنهار بابك هناك جلسنا. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحا قائلين رنموا لنا ترنيمة صهيون.

كيف نرنّم ترنيمة الرب فى أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى. اذكر يا رب لبنى أدوم يوم أورشليم القائلين هُدّوا هُدّوا حتى أساسها . يا بنت بابل المخْربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا . طوبى لمن يمسك أطفالك ويقرب لهم الصخرة».

ومما يجدر ذكره أنه لا يوجد خلاف جوهرى، حول «الصهيونية» ، بين شديدى التدين من اليهود ، وبين «العلمانيين» منهم؛ إذْ ينحصر الخلاف بينهم حول توقيت وأسلوب إقامة دولتهم، بحدودها التوراتية، فى أرض الميعاد!

= **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾**[الأحزاب / 26-27]. ولا غرو، فإن الله تعالى مالك الملك، له ملكوت السموات والأرض ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .. **﴿ ولله ميراث السموات والأرض﴾** .. **﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ﴾**. [آل عمران / 189]

ذلك ، ولـم يستـطع اليـهود طوال خـضوع بلاد الشـام للإمبـراطورية الـرومانيـة، وكان الرومان يسومونهم سوء العذاب .. وهذا قسم الـله تعالى ، وحكمه العدل فيهم[1] ... إلا أن يحلـموا بالعـودة إلى أرض الميعاد، فـلما جاء الإسـلام ، واتسعت رقعـة البلاد الإسلامـية من الصين إلـى الأندلس عاش اليهـود في كنف الإسلام أزهى عـصورهم، ولم تراودهم الـفكرة الصـهيونية الـلهم إلا في كتـابات «عنان بـن داود» في منتصـف القرن التاسـع الميلادى. وقد تولى اليهود مناصب مرموقة ، وكانت لهم حرية الحركة، ودخول الأرض المقدسة بلا قيود، وازدهرت اللغـة العبرية والثـقافة اليهودية فـي الأندلس، التي بسـقوطها في أيدى الـفرنجة لم يغادرها كل اليهود إلى شمال أفريقيا مع المسلمين، بل تفرقوا في أوروبا[2] ، ومنهم من هاجر إلى تركيا، رأس دولة الخلافة الإسلامية الفتية آنذاك.

ولقـد تحرك الـيهود ، مـنذ منتصـف القـرن السـابع عشـر، علـى الأقل ، علـى محـورين رئيـسين: أوروبـا ، ودولة الخلافـة العثمانـية. وعلـى حين أسـهم اليـهود فـي صنع الحـضارة الأوروبية، التي صبغوا فكـرها بالصبغة الصهيونية، فإنهم تولوا، بـوضوح، مناصب عالية في ظل الخلافـة العثمـانية[3]، كـما تـغلـغلوا سـرا، لـهدم دولـة الإسـلام، منـذ ظهـر «شـابتـاى تصـفاى»،وأسس طـائفة الـدونمة (1666م)، الذيـن أعلـنوا إسـلامهـم ، وأخفـوا يهـوديتـهم وأهدافهم إلى أن تم لهم ما أرادوا! ويؤكد لنا المؤرخ اليـهودى المعاصر البروفيسور «صموئيل أتيـنجر أن حركـة مماثلة لحـركة الدونمـة قد تمت في إيران في عهـد الدولة القـاجارية «فغير الكـثيرون من الـيهود أسمـاءهم للاختـفاء بداخـل المجتمع، واعـتنق كثـيرون منهـم الإسلام، وتحول الآلاف من هؤلاء إلى «البهائيـة» منذ منتصف القرن الـتاسع عشر».. فكـان لهم أكبر الأثر في الهيمنة على المجتمع الإيرانى والعبث بثقافته إبان حكم أسرة بهلوى.

---

(1) يقول الله تعالى : ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليـهم إلى يوم القيامة من يسـومهم سوء العـذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف / 167 -168].

(2) صموئيل أتينجر ، اليهود في البلدان الإسلامية ، صـ 129 .

(3) فمثـلا كان منصـب وزير الخزانـة (صـراف باشا) فـي العراق (1750 : 1831) محجوزا لأحـد أثرياء اليهود بـصفة دائمـة.

ومن أخطر من أسهموا فى هدم دولة الخلافة العثمانية شخصيتان، من يهود طافة الدونمة، فضلا عن غيرهم ممن ظلوا حتى الآن مجهولى الهوية[1]، وآخرين أقل شأنا:

فأما الشخصية الأولى؛ فهو «مدحت باشا»، الذى كان رئيس للوزراء (1869: 1872م)، إذ كان أكثر الولاة الأتراك حرصا على «توفير الأمن اللازم لليهود»، على حد تعبير المؤرخ اليهودى المعاصر البروفيسور صموئيل أتينجر[2]، وهو الذى صاغ أول دستور تركى صدر عام 1876م، ومنح اليهود تمثيلا كاملا فى البرلمان التركى، واهتم كثيرا بيهود العراق، إذ كان يعتبر العراق «عاصمة يهود الشرق».. فسعى إلى منح اليهود هناك المساواة فى الحقوق[3]، وإلى تطوير أوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية.

وقد كان مدحت باشا ابنا لحاخام مجرى[4] ، وكان على اتصال وثيق بزعماء اليهود فى الشرق مثل «كاموندو»، و«ساسون» . وهو الذى أرسى الأفكار الثورية على نظام الخلافة العثمانية، وأنشأ حزب «تركيا الفتاة» ، الى كان يهيمن عليه اليهود علانية وسرا .. وكان من أشهرهم ، وأكثرهم نشاطا المحامى اليهودى «عمانويل كاراسوا»، والمؤرخ اليهودى البروفيسور «أفراهام جالانتى»، وكانا عضوين فى التنظيم السرى للثورة، وعضوين فى البرلمان العثمانى، و«موشيه كوهين» ـ تخينالف، الذى كان من زعماء الحركة القومية

---

(1) من الشخصيات التى يحيط بها الغموض، رغم اتساع نشاطه في بلاد الإسلام؛ من أفغانستان، إلى الهند، إلى مصر، فإيران ، فأوروبا ، فالاستانة، «جمال الدين الأفغاني» (1838 -1897م)، الذي بلغ من تأثيره في الحياة الثقافية أن أطلقوا عليه «باعث نهضة الشرق». مع ذلك؛ فنشأته يحيط بها غموض شديد، فهي تبدأ في كابل عاصمة أفغانستان في سن الثامنة وتنتهي دراسته عند سن الثامنة عشرة، ثم يبدأ حياته العملية.. وهو لم يتعلم بالأزهر، ولم يقم بالتدريس فيه، ومع ذلك نجد من تلاميذه الإمام محمد عبده، وغيره من كبار المشاهير والساسة ! وقد كان جمال الدين رئيسا «للمحفل الماسوني العربي» (ذي الصلة الوثيقة بالصهيونية العالمية)! وأخيرا مات جمال الدين بطريقة غامضة في قصر السلطان عبد الحميد، ولم يرثِه تلميذه الإمام محمد عبده أو غيره بكلمة رثاء واحدة! ولم يبحث عن سبب وفاته إلا المستشرق الكونت «لاون استروروج».. ثم بحث عن قبره الأميريكي الثري المستر «كراين» ، فأقام له مقبرة فاخرة... عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، ج 2 ، دار المعارف ، ط 4 ، صـ 140 :164 .

(2) صموئيل أتينجر ، اليهود في البلدان الإسلامية ، صـ 49 .

(3) المرجع السابق ، صـ 88 .

(4) Edouard Drumont, La France Juive, P. 112 .

التركية، كما كان عضوا فى المؤتمر الصهيونى التاسع، الذى عقد فى برلين عام 1909م. وكان منهم «يوسف موديانو» الذى كان أبرز من لعبوا دورا فى انضمام اليهود إلى جيش الثورة...

وأما الشخصية الثانية، فهو «مصطفى كمال»، المعروف «بأتاتورك»، أو «أبو الترك»، وهو الذى رفع لواء «القومية التركية»، وقاد الانقلاب العسكرى ضد الخليفة العثمانى، ثم تولى بعد ذلك رئاسة أول «جمهورية تركية» على المبادئ «العلمانية المتطرفة»، التى لا تكتفى بالتمييز بين الدين والسياسة، وإنما تحارب الإسلام، وكل رمز يشير إليه ... بما فى ذلك محاولة محو الثقافة الإسلامية، من خلال استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية عند كتابة اللغة التركية .

لقد كانت مهمة أتاتورك هى تقويض الإسلام، فلا يصبح مصدرا للقوة السياسية أو الاجتماعية فى الجمهورية التركية. وقد بدأ ينفذ مهمته فى نشاط على ثلاثة محاور: فعمل على هدم المؤسسات والتنظيمات التى تجعل للإسلام سلطانا على الحياة العامة، فأغلق المدارس الإسلامية، ومنع الجهر بالأذان، واستبدل بالرموز الرسمية الإسلامية رموزا نصرانية أو أوروبية، مثل جعل العطلة الأسبوعية الأحد بدلا من الجمعة، واعتماد التقويم الغريغورى بدلا من الهجرى، وأخيرا استبدل بالنظام القانونى الإسلامى نظاما سويسريًا. وكانت العراقيل توضع أمام الموظفين الرسميين كى لا يؤدون الصلاة.. واعتبر الإسلام مجرد إيمان شخصى.

وعلى الجانب الآخر، أدرك اليهود، منذ بدت بوادر ضعف الدولة العثمانية، أنه ليس أمامهم سوى الاعتماد على القوة الجديدة الصاعدة، قوة أوروبا، فركبوا موجة المد الإمبريالى منذ اللحظة الأولى، وأفادوا من حماية القوة الأوروبية لنشاطاتهم التجارية والمالية فى بلدان الشرق.

والحقيقة أن السعى من أجل السيطرة على المال وعلى التجارة، بالطرق المشروعة، وبالطرق غير المشروعة، التى حرمها الله تعالى، يُعدّ جزءا من عقيدة اليهود، التى نجدها

منثورة فى نسخ التوراة الحالية، وفى التلمود.. فنجد مثلا فى سفر خروج:

ـ « ... فيكـون حينما تمضون أنكم لا تمـضون فارغين . بل تطلب كل امـرأة من جارتها ومن نزيـلة بيتها أمـتعة فضة وأمتـعة ذهب وثيابا، وتـضعونها عـلى بنيكم وبـناتكم فتسـلبون المصريين» (خروج : 22:21/3).

وعلى حين يأتى تحـريم الربا صراحة (خروج : 25:22)، نجدهم يستحلون أكل الربا من أموال غير اليهود:

« لا تُقرض أخاك بربا ربا فـضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يـقرض بربا . للأجـنبى تقرض ربـا ولكن لأخيـك لا تقرض بربـا لكى يبـاركك الرب إلهـك فى كل ما تمتد إليه يـدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها» (تثنية : 20:19/23).

وتشريع «سـنة الإبراء» لا تسرى إلا علـى اليهود[1] . فالإقراض لـغير اليهود كـهدف من أجل توريطهم والتسلط عليهم، عقيدة عند اليهود:

« .. فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض وتتسلط على أمم كثيرة وهم عليك لا يتسلطون»

(تثنية : 6/15)

وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول :

﴿ **وأخذهم الربا وقد نـهوا عنه وأكلهم أموال الناس بـالباطل وأعتدنا للكافـرين منهم عذابا أليما** ﴾ [النساء / 161]

بيـد أنه قد رسخ فـى الثقافـة الأوروبية أن أكل الـربا يعد استثناء، استثنى بـه الله «شعـبة المختـار»!! فقبلـوا منهم هـذه التصـرفات ـ علـى مضض ـــ وبمرورالوقت ألـفوها وأصبـحوا يحمونها بكـل الوسائل بما فى ذلك القوة العسكـرية ، التى استخدمت فى مناسبـات مختلفة للتمكين لليهود فى البلاد الإسلامية . فمثلا:

أرسلت بريطانيا فرقاطة بحرية عام 1823م إلى تونس لإطلاق سراح أحد يهود تونس من

---

(1) سنة الإبراء تأتى كل سبع سنوات وحكمها عندهم كما يلي: «وفي آخر سبع سنين تعمل إبراء». وهذا هو حكم الإبراء. يبرئ كل صاحب دين يـده مما أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قـد نودي بإبراء للرب. الأجـنبي تطالب وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه» (تثنية : 3:1/15).

مواليد جبل طارق.

ـ أرسل الإمبراطور نابليون الثالث قائد أسطوله على رأس فرقاطة إلى تونس عام 1865م لإجبار حاكمها على تطبيق مبادئ «الدستور العثمانى» فى بلاده، على أثر إعدام أحد اليهود ويسمى باطوسبز لسبه الإسلام.

ـ أرسلت بريطانيا فرقاطة بحرية عام 1871م لترابط قرابة سواحل أزمير لحماية اليهود أثناء عيد الفصح.

لقد استغل اليهود الأوروبيون ، ويهود الشرق، الذين عاشوا أكثر من ألف عام آمنين فى كنف الإسلام، استغلوا موجة الاحتلال الصليبى لبلاد المسلمين، فعملوا تحت حماية الجيوش الأوروبية المحتلة، كما تمتعوا بالحماية الدبلوماسية والقنصلية للبلدان الأوروبية الكبرى، واستخدموا النفوذ الأوروبى للحصول على مناصب حكومية فى بلاد الإسلام، ولإقراضها، ولفتح البنوك التجارية (الربوية) بها، وقد حصل كثير من يهود الشرق على الجنسيات الأوروبية لحمايتهم ... خاصة بعد حادث اليهودى «نفتالى بوجناح» ، الذى كان يطلق عليه «حاكم الجزائر» ... وبسبب تجاوزه كل الحدود أُعدم عام 1805م، فأصدرت فرنسا قانون «كرمية»[1] لمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر .

وأصبح اليهود يتحكمون فى السياسة والاقتصاد بالعراق فى ظل الاحتلال البريطانى ، فتولى اليهودى ساسون يحزقيال منصب وزير المالية فى حكومة الانتداب البريطانى، وشغل اليهود نصف الوظائف الحكومية هناك، وسيطروا على تسعين بالمائة من حركة الواردات وأعمال المقاولات، فضلا عن سيطرتهم على مجالات الطب والصيدلة والصحافة والمحاماة. وقد بلغ رأسمال البنك الذى أسسه «خدورى زليخا» بالعراق عام 1899م مائتين وخمسين مليون دولار، ووصلت أنشطته إلى لبنان ومصر وسوريا والولايات المتحدة الأميريكية وأوروبا وأميريكا الجنوبية والشرق الأقصى [2].

وبانتهاء العصر الإمبريالى، وتبنى حكومات البلدان الإسلامية نهجا اشتراكيا (ماركسيا

---

(1) كانت عائلة روتشيلد، وموشية مونتفيورى (كان وزيرا بريطانيا)، وإدولف كرميه (كان وزيرا فرنسيا) وهيرش ليرن (رئيس لجنة الموظفين الحكوميين بأمستردام)، فضلا عن دزرائيلى (رئيس وزراء بريطانيا) من أهم الشخصيات اليهودية الأوروبية التي خدمت الصهيونية.

(2) صموئيل أتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية ، صـ 46:31 .

معدلا)، سارع اليهود بتحويل أموالهم إلى أوروبا وأمريكا، وهاجر بعضهم إلى فلسطين[1] والبعض الآخر إلى حيث أودعوا أموالهم.

ولم تكن علاقة اليهود بالمحتل الأوروبى علاقة من جانب واحد، بل كانت علاقة تبادل منفعة، يشعر خلالها كل من الطرفين بحاجته للآخر. فنجد قصر شاه إيران يحتوى عددا من الأطباء اليهود ، الذين عملوا كجواسيس للبريطانيين خلال القرن التاسع عشر، رغم حظر السلطات فى إيران تولى اليهود أى مناصب حكومية. من جهة أخرى نجد «باروخ بن شموئيل» يعمل كطبيب خاص للإمام المهدى عبد الله فى اليمن، ثم يصبح عام 1834م مستشاره الخاص، وكاتم سره للشؤون السياسية والعسكرية، فيسر للبريطانيين مهمة الاستيلاء على أهم موانئ الإمبراطورية البريطانية، ميناء عدن عام 1839م، فوسع اليهود نشاطهم التجارى هناك ووضعت عنهم الجزية، مقابل تزويدهم الجيش البريطانى بالمعلومات[2]، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية، وبدء أفول شمس الإمبراطورية البريطانية، هاجر معظم يهود عدن ، ما بين عامى 1948 و1949م، إلى فلسطين ، والبعض هاجر إلى بريطانيا.

وبنفس الكيفية أسهم اليهود فى سقوط كل من الجزائر ، وتونس والمغرب فى أيدى الاحتلال الفرنسى، وكان حكام المسلمين يركنون إليهم ويعتمدون عليهم، دون حذر. ففى تونس مثلا كان يعقوب كوستلنوافو، والطبيب أفراهام لومبروزو، ويعقوب جوطيرس من أبرز الشخصيات اليهودية من رعايا إيطاليا، الذين كانوا يعملون بالطب والتجارة، فأسهموا فى تيسير احتلال فرنسا لتونس.. فقد كان كوستلنوافو، ولومبروزو الطبيبين الخصوصيين للحاكم أحمد صدوق (1837 -1855) ثم لمحمد صدوق (1855 -1859)، ومن ثم من كبار مستشاريهم وخاصتهم. وتولى لومبروزو قيادة سلاح الخدمات الطبية التونسى، وأتاح الفرصة لعدد كبير من اليهود كى يتولوا العديد من المناصب الهامة فى المجال الاقتصادى، فكان أن أصبحت سبعون بالمائة من ديون تونس لرجال أعمال يهود، كان بعضهم من رعايا

---

(1) تعتبر هجرة اليهود إلى فلسطين هي «الهدف الأسمى للصهيونية» ، كما أوضحنا من قبل، وهم يبذلون من أجلها كل مرتخص وغال. وترسم كل الاستراتيجيات الغربية، وفي أمريكا خاصة، منذ مطلع القرن العشرين لتخدم هذه الغاية...

(2) المرجع السابق ، صـ 32 .

فرنسا وبريطانيا مثل داوود سنتيانا، وموشى ليفى، ومن ثم تولى نسيم شمامة وزارة الاقتصاد فى تونس (1860 -1864م)، وخلفه ابن أخيه (1864 -1873م)،وطرد الاثنان من الوزارة على التوالى بتهمة الاختلاس!

** **ولقد كانت مصر نموذجا فريدا** ركبت فيه الصهيونية العالمية موجة المد الإمبريالى منذ وطأت قدما نابليون بونابرت أرض مصر عام 1798م، وفى عهد محمد على، كما ذكرنا من قبل . لكن الكارثة الكبرى وقعت منذ بدأت مصر تقترض من بيوت المال والبنوك اليهودية فى أوروبا، ثم من المرابين اليهود فى الخارج وفى داخل مصر.. وقد بدأت هذه الورطة منذ عهد محمد سعيد باشا والى مصر، الذى كانت البلاد فى عهده فى حالة رخاء، ولم تكن أبدا فى حاجة للقروض.

كان الأوروبيون يهيمنون تماما على قرارات محمد سعيد باشا، لضعف إرادته، ولاتخاذه بطانة منهم، يثق فيهم ثقة كاملة، ويتخذ قراراته حسبما يرون له.. فكان قرار حفر قناة السويس لصالح التجارة الأوروبية، ولسهولة نقل حملاتهم الحربية إلى المحيط الهندى [1].

وكما كان قرار حفر قناة السويس بلا رؤية أو تفكير، فقد انساق محمد سعيد لبطانة السوء من حوله فعقد أول القروض عام 1862م من بنك فرولنغ وغوشن، وعقد قرضا داخليا مع المرابين اليهود فى الداخل لسداد الدين المذكور.

تلا ذلك عهد الخديوي إسماعيل الذى اتخذ هو الآخر بطانة سوء من غير المسلمين، فتفاقمت معضلة الديون التى عقدت مع بيوت المال اليهودية فى أوروبا مثل روتشيلد، وفرولنغ وغوشن، وأوبنهايم، والأنجلو ... كذا من المرابين اليهود فى الداخل... وكان معظمهم تحت الحماية الأوروبية وعلى ارتباط وثيق بها[2]، لذا فبتدخل الحكومات الأوروبية

(1) كتب القنصل البريطاني المستر بروس Bruce لحكومته عام 1854م ، عقب حصول «فردناند دي ليسبس» على امتياز حفر قناة السويس من الحكومة المصرية: «إن فتح القناة سيؤدى إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر، وستنشأ طبعا مراكز للدول الأوروبية في هذه البلاد.. ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب فيكون التدخل المسلح، الذي يفضى للاحتلال الدائم. ويتوقع أن تحدث هذه النتائج في مصر ذاتها».

(2) كان بمصر عائلات يهودية كبيرة مثل: مكاوي، وموصيرى، وعادة، ودي منشه، ورولو، فضلا عن الوسطاء اليهود الذين يحملون جنسيات أوروبية.

فى الشؤون المالية المصرية أُلحق عدد كبير من اليهود فى الأجهزة الإدارية للدولة.

كانت النتيجة المباشرة لهذه الورطة أن عجزت الحكومة المصرية عام 1875م عن سداد فوائد الديون ، فتنافس يهود بريطانيا وفرنسا على شراء أسهم مصر فى شركة قناة السويس، وعلى حين عالج يهود فرنسا الأمر بوصفه ماليا بحتا، عالجه الإنجليز باستخدام الضغط السياسى والمالى فى آن واحد، وكان ذلك بتنسيق كامل بين اللورد بيكنسفيلد (بنيامين دزرائيلى)[1]، رئيس وزراء بريطانيا، ورجل المال الكبير البارون روتشيلد، وكلاهما يهودى. ولم يدفع الثمن البخس، الذى اشتُريت به الأسهم إلا بعد تسليمها إلى باخرة بريطانية كانت راسية فى الإسكندرية لهذه المهمة.

كان تسليم الأسهم فى 26 نوفمبر 1875م بداية لتدخل أجنبى سافر، بوصول بعثة كيف Cave الإنجليزية لفحص مالية مصر فى ديسمبر 1875م، وبدأت الوصاية المالية الإنجليزية/ الفرنسية على مصر بامتهان، بعد أن سخر لهم كل إمكانات مصر لحفر قناة السويس، وفتح منابع النيل ، وإنشاء بنية أساسية تخدم المصالح الإمبريالية فحسب. ثم بدأ تغيير فى النظم القانونية والقضائية وفى النظام السياسى، وأصبح فى حكومة مصر وزيران أوروبيان! بعد هذا كله ضغطت بريطانيا وفرنسا على السلطان العثمانى فأصدر فرمانا يوم 6 يونيو 1879م بخلع الخديوي إسماعيل وتوليه ابنه محمد توفيق، الذى كان عضوا فى المحفل الماسونى العربى، وتداعت الأحداث فلم تمض سوى ثلاثة أعوام إلا وكانت مصر قد وقعت تحت الاحتلال البريطانى ، فى الوقت الذى كانت أولى الهجرات اليهودية تضع أقدامها على أرض فلسطين، تقودها جماعة «محبى صهيون»، والتى مكن لها، منذ عام 1840م، اعتراف السلطات العثمانية، بصلاحيات تشبه الحكم الذاتى لرئيس الطائفة اليهودية فى فلسطين، رغم أن اليهود لم يكن عددهم يتجاوز عشرة آلاف يهودى، فى ذلك الوقت... ولم يكن

---

(1) بنيامين دزرائيلى (لورد بيكنسفيلد) تولى رئاسة وزراء بريطانيا في المدة من 1874م حتى 1878م، وله مؤلفان عن الصهيونية صدرا عام 1833م، 1847 وكان الشخصية المهيمنة على مؤتمر برلين (يونيو / يوليو 1878م)، الذي كان يبحث أزمة الصراع في البلقان . وقد قدم للمؤتمر مذكرة غير موقعة تتضمن برنامجا عمليا لتوطين اليهود في الأرض المقدسة، كحل لمشكلة اليهود في أوروبا، ثم منح الزعيم الصهيوني «لورنس أوليفنت» تفويضا كي يبحث مع الحكومة العثمانية فكرة إقامة مستوطنات يهودية على ضفتى نهر الأردن . وقد نشر أوليفنت مقالا في سبتمبر 1883م تحت عنوان «اليهود والمسألة الشرقية» أوصي فيه بطرد العرب «البدو» من فلسطين والأردن وإحلال اليهود محلهم . ووصف العرب بأنهم «محاربون مخربون دمروا البلاد ونهبوا سكانها». لكنه أوصى ببقاء الفلاحين العرب. في ذلك الوقت كانت الهجرة الجماعية اليهودية الأولى إلى فلسطين قد بدأت.

عدد اليهود فـى فلسطين يزيد عـن خمسة آلاف عام 1770م، ازداد عددهم تدريجـيا بسبب حدوث هجرات فردية وبأعداد قليلة من اليمن والعراق وإيران ووسط آسيا.

ولـم يكن تدخل الـيهود فى مصر متعاونيـن مع الأوروبيين، وتحت حمايتهـم، فى المجالين المالى والتـجارى فحسـب، بل وصل ذلك إلـى المجال القضـائى. فقـد أنشئ منـذ عام 1861م مجلس خاص يـسمى «قومسيون مصر»، أو «مجـلس القومسيون»، وكان يتـألف من رئيس مصـرى، وعضـوين مـصريـين، وعـضو أوروبى، وثـالث يـونانـى، ورابع أرمـنى، وخـامس إسرائيلى، وكانت أحكامه تستأنف أمام «مجلس الأحكام»[1].

وكما عـمل اليهـود وسطاء تجاريين لأوروبا، وعمـلاء لجمع المعلومات وتزويـد جيوش الاحتلال بـها، فقد عـملوا كوسـطاء أيضا فى المجـال الثقافـى، لنقل الـغزو الثقـافى الأوروبى للبلدان الإسلامـية التى كانوا يعيشون فيها، ورغـم قلة أعداد اليهود نسبيا، فقـد كان تأثيرهم كبيرا.

ذلك، ولم تـكن هذه فقط هـى الوسائل التـى تمكنت بهـا الصهيونـية العالمـية من ركوب موجة المد الإمبريالى، بـل تمكن اليهود من اختراق النشاط «التبـشيرى النصرانى»[2] تسخيره لصالح قضـيتهم من جهـة، ولهدم النصرانـية من الداخل، من جـهة أخرى. واخترق الـيهود أيضا واحدة من أهـم مؤسسات الغزو الثقافـى الصليبى وهى مؤسـسة الإليانس Alliance[3] التى تعـمل فى مجال نشر الـلغة والثقافة الفـرنسية. هذا فضلا عن أنـهم حملوا للمجـتمعات

---

(1) عبد الرحمن الرافعي ، عصر إسماعيل ، ج 1 ، ط 4 ، دار المعارف، القاهرة، صـ 52-53 .

(2) فمثلا نشأت في بريطانيا عام 1809م «جمعية لـندن لنشر المسيحيـة بين اليهود»، أسـسها الـيهودي الألماني فراي G.S. Frey ، وكان هدفها تحسين أوضاع اليهود في أوروبا وأفريقيا وآسيا، ومساعدتهم على الحصول على المساواة مع باقي المواطنين . وكان معظـم مبشرى الجماعة من أصـول يهودية ، وكـانوا يعمـلون في مجـال جمع المعلومات، وتوثـيق العلاقات بين يـهود الشرق ويهود الغرب، وتقديم خـدمات طبية واجتماعيـة لليهود في بلدان الشرق، فـضلا عن إقامة مدارس في بعض البـلدان الإسلامية، خاصة إيران . وكان من أشـهر من عملوا في هـذا المجال يوسف وولف، ويعقوب شموئيل، وأهارون شتيرن..

(3) تأسست أولـى مدارس الأليانس في اليونان عام 1865م، وفي باريـس عام 1860، وشكلت الأليانس في القـسطنطينية عام 1863م لجنة إقـليمية ضمت أعـيان الطائفة الـيهودية، تحت زعامة أفراهـام كاموندو. وكان الهدف الظـاهري لهذه المدارس ـ وما زال ـ نشر الفكر الأوروبي، لكننا نلحظ أن معظم قادة الحركة الصهيونية فـي اليونان وتركيا كانوا من خريجي هذه المدارس. راجع : صموئيل أتينجر، صـ 241 :243 .

الإسلامية الفكر الليبرالى العلمانى الغربى، والفكر الاشتراكى الماركسى على حد السواء، وأسهموا فى نشره بطريقة عملية عندما شاركوا فى الحركات القومية والوطنية، وفى الأحزاب السياسية ، خاصة الأحزاب الشيوعية فى كل البلاد الإسلامية[1].

وخير دليل على هذا شخصية مثل «يعقوب صنوع» (1839 -1917م) الذى عرف باسم «أبو نضارة»، فقد كان شخصية بارزة فى الحركة الوطنية المصرية، وكانت له مقالاته السياسية وأعماله المسرحية.

وفى العراق انضم بعض اليهود إلى حزب «الإخاء والمساواة» الذى أنشئ عام 1908م كامتداد لثورة «تركيا الفتاة» ، التى كان اليهود يسهمون فيها بشكل رئيسى.

وقد كان موقف اليهود من حركة القومية العربية فيه تناقض ينبع من تشجيعهم لهذه الحركة، وإيجاد مصالح معها، فى الوقت الذى كانت الصهيونية العالمية تعتبر هذه الحركة ـ ظاهريا ـ العدو الأول لها. ويمكن حل هذا التناقض بالنظر إلى أن الحركة الصهيونية كانت تفضل تجمعا عربيا علمانيا مفككا، لا يضع العقيدة الإسلامية فى حسبانه[2]، على كيان إسلامى مجاهد فى سبيل الله وحماية الأرض المقدسة.

لذا نجد اليهود وقد شارك مندوبوهم فى المؤتمر العربى الذى عقد فى دمشق فى عام 1920م. ونجد معظم دعاة القومية العربية من غير المسلمين، الذين رفعوا لواءها من لبنان. وحتى التيار القومى العربى الذى خرج من الجزيرة العربية، فقد كان متحالفا منذ اللحظة الأولى مع الاحتلال البريطانى، بل ومع الصهيونية تحالفا مباشرا، منذ قاد الشريف حسين بن على التمرد ضد دولة الخلافة العثمانية، وقاتل جيوشها، إلى جانب الإنجليز، منذ بداية الحرب العالمية الأولى، عام 1914م، وحتى ألغى الملك حسين بن طلال قانونا أردنيا كان يحرم على اليهود شراء الأراضى فى بلاده، وذلك فى شهر يوليو 1995م ، فأصبحت المسألة مسألة وقت وتضيع شرق الأردن، كما ضاعت فلسطين بإسهام من حبرة الملك عبد الله ﷺ .. والله

---

(1) كان أخطر نشاطاتهم في البلدان الإسلامية في وسط آسيا والقوقاز، وفي العراق، ومصر، وإيران، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى.

(2) يعتبر منظرو الفكر القومي العربي، أن الإسلام مجرد رافد من روافد الثقافة العربية، لذا لا نجد للجامعة العربية، ولا للأحزاب القومية العربية أى موقف يحسب لهم في قضايا البوسنة، أو كشمير، أو أفغانستان، أو شاشان!!

غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف / 21]

ونتيجة لرغبة الأمير فيصل بن الشريف حسين، وشقيق الملك عبد الله ملك، شرق الأردن السابق، رغبته التقرب إلى البريطانيين، والحصول على حق السيطرة على كل البلدان العربية، فإنه لم يكن فقط على استعداد لتأييد فكرة إقامة كيان يهودى فى فلسطين والتعايش معه، بل إنه وقع مع «حاييم فابتصمان»، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، آنذاك ، فى الثالث من يناير عام 1919م الميثاق المشهور الذى نص على(1):

« وبعد أن يتم الانتهاء من محادثات مؤتمر السلام سيتم رسم الحدود بين العرب وإسرائيل، وبعد أن يتم تحديد الدستور الخاص بفلسطين، وإقرار كل المراسيم الإدارية الخاصة بها سيتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة التى من شأنها ضمان تنفيذ التصريح (وعد بلفور) الذى أدلت به بريطانيا فى الثانى من شهر نوفمبر من عام 1917م ، وسيتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لتبنى وتشجيع حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ...» !!

*** **ولا يمكن** أن نترك هذه الجزئية دون أن نسجل على الأمة الإسلامية غفلتها الكاملة، إذ كانت الحركة الصهيونية تتصاعد تحت أبصارهم وأسماعهم، ليس فقط فى أوروبا بقيادة تيودور هرتزل، ثم حاييم فايتصمان، بل وكانت تعبئة اليهود من أجل اغتصاب الأرض المقدسة تجرى بين ظهرانيهم فى كل المنطقة المسماة الآن بالشرق الأوسط (2).

---

(1) صموئيل أتينجر ، اليهود في البلدان الإسلامية ، صـ 61 .

(2) على حين يحسب للكاتب اللبناني النصراني نجيب عزوري الذي أصدر كتابا عام 1905 بالفرنسية بعنوان «صحوة الأمة العربية» حذر فيه من أن صراعا مريرا على وشك أن يبدأ بين العرب واليهود، لن يتوقف حتى ينتصر أحدهما على الآخر، وأن النتيجة النهائية لهذا الصراع ستحسم مصير العالم بأسره ! فإننا نجد المنظمات الداعية للصهيونية مثل «جماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي أسست عام 1860م في باريس، «والاتحاد الإنجليزى اليهودي» ، و«رابطة الإخوان»، ومنظمتى «مكابي» ، و«بني بريت» ، و«الاتحاد الصهيوني اليهود إيران» ، ورابطة «باركوخفا» الصهيونية ، التي أنشأها ماركو باروخ في القاهرة عام 1897م... نجدها تدعو للصهيونيه، وتعبي اليهود من خلال صحفها ونشراتها، وتشجعهم على الهجرة إلى فلسطين، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى.

قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون. والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾.

[الأنفال / 36]

البـــاب الرابـــع

النظـــام العالـــمي الجديـــد

ويتكون هذا الباب من فصول ثلاثة:

الفصل الأول :بدايات الفكر الجيوبوليتيكي.

الفصل الثاني :معالم النظام العالمي الجديد.

(فلسفته وإطاره القانوني)

الفصل الثالث :واقع النظام العالمي الجديد.

(قوتان عُظميان، وحرب باردة)

الفصـل الأول

بدايـات الفكـر الجيوبوليتيكى

أقصد بالـفكر الجيوبولـتيكي إعادة ترتيـب الأوضاع الجغرافية بـاستخدام القوة المسلحة، لتتـلاءم مع الأهداف السياسية لدولة ما، لتـصل فى النهاية إلى «الهيمنـة الكوكبية». ولقد بدا هذا الفـكر واضحا منـذ أصبح من الراجـح أن دولة الخلافة العـثمانية سـتسقط إذْ بلـغت من الضعف والهزال ما جعلهم يطلقون عليها «رجل أوروبا المريض».

وقد يمكن التمييز فى هذا المجال بين المحتوى الفكرى للإمبريالية الأوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر، ونظرية الـقوة البرية الروسية، ونظرية البحرية الأمريكـية، والتى بدت ملامحها تظهر أيضا منذ نهاية القرن التاسع عشر.

أما الفكر الأوروبى ؛ فقد تم بناؤه على أساس الاستيلاء بالقوة المسلحة على مراكز المواد الخام الـلازمة للـصناعـة فى ما وراء الـبحار، وتـأميـن طرق المواصـلات المؤدية إلـيها، وفـتح الأسواق أمام المـنتجات، والمجتـمعات أمام «التـنصير» يحـقق فى النهـاية الأهداف السيـاسية. وكان المبرر الأخلاقى الذى يبررون به نظريتهـم هذه هو التفوق العنصرى والحضارى، ومن ثم أصبـح عليهـم واجب فرض الوصـاية (بدرجات متـفاوتة) علـى الأمم الأخرى (المتخـلفة) بهدف تحضيرها[1] .. ومن هذا المنـطلق فليس غريـبا أن يترجموا لنـا كلمة « Imperialism» ترجمة خـاطئة تبرر استذلالهـم للشعوب الأخرى ونهـب ثرواتها، كانت هذه التـرجمة هى كلمـة «استعـمار» . وهـى كلمـة من المفروض ألا تـستخـدم إلا للدلالـة على إعـمار الأرض وترقـيتها والنهوض بها، ولم يـكن هذا هو ما فعلته الإمبـريالية الأوروبية. ولا غرو، فقد كان «دزرائيلى» رئـيس وزراء بريطانيـا «اليهودى» أهم من صـاغو النظرية الإمـبريالية فى خـطابه الشهير[2] «بقصر البللور» Crystal Palace فى أوائل عام 1872م بطريقة أقرب إلى الاحتيال والنصب منها إلى الشراء.

---

(1) Leon D. Epstein, British Politics in The Suez Crisis, University of Illinois Press, Urbana, 1964 , PP.8_26.

(2) William L. Langer , The Diplomacy of Imperialism, New York, Knopf,1935, Vol.1, Chao.3.

ولقد برزت بريطانيا وفرنسا على الساحة كأكبر قوتين إمبرياليتين، حتى بداية الحرب العالمية الأولى، وقد استشعرت ألمانيا قوتها، بل وادعت تفوقها العرقى والحضارى، ومن ثم رأت أن من حقها اقتسام الفريسة مع الآخرين، وأنه لا يجوز أن يحول موقعها الجغرافى فى وسط أوروبا، وعدم وجود منافذ بحرية لها على البحر المتوسط، ومن ثم إلى البلدان الواقعة فى ما وراء البحار فى آسيا وأفريقيا، لا يجوز أن يحول هذا دون الحصول على المواد الخام والأسواق أسوة بباقى الدول الأوروبية.

ونظرا لحدوث تقارب ألمانى / فرنسى موقوت ، ورغبة فى تجنب الاقتتال بين الدول الأوروبية ، تم عقد مؤتمر برلين (1884 -1885م) ، وتم خلاله تقسيم أفريقيا بين الدول الإمبريالية، «تقسيما واقعيا»، لم تراع فيه الأبعاد التاريخية، أو الجغرافية، أو الاجتماعية، وإنما تم التقسيم على أساس «مناطق نفوذ»، هى المناطق التى تحتلها كل دولة «احتلالا فعليا»... ولم يكن هذا محققا لكل الطموحات الألمانية.

وقد كانت حدة الخلاف بين الدول الإمبريالية فى آسيا أقل خاصة بعد التفاهم البريطانى/ الفرنسى، والبريطانى / الروسى خلال العقد الأول من القرن العشرين.

أما فى وسط أوروبا (الجناح الشمالى الغربى لدولة الخلافة العثمانية) فقد أدى التوتر، الذى ساد البلقان اعتبارا من عام 1908م فى ما سمى «أزمة البوسنة [1]» (1908 ـ 1909م)، ثم أزمة «مقدونيا» (1911م)، ثم حروب البلقان (1912 -1913م)، ومنها الحرب المسماه «بحرب الخنازير» بين صربيا وإمبراطورية النمسا والمجر، فى تنافسهما على ضم اتحاد البوسنة والهرسك.

أدى ذلك فى النهاية إلى اندلاع أول حرب عامة فى التاريخ، الحرب العالمية الأولى (1914 -1918م)، بدأها أحد الصرب التابعين لجهاز الاستخبارات الصربى، إذ تسلل إلى سراييفو (عاصمة البوسنة)، وقتل ولى عهد النمسا وزوجته رميا بالرصاص يوم 28 يونيو عام 1914م، فشنت النمسا والمجر حربا ضد صربيا، انحازت روسيا فيها إلى جانب صربيا،

---

(1) كانت إمبراطورية النمسا والمجر تتطلع منذ سبعينيات القرن التاسع عشر إلى ضم «البوسنة والهرسك» في حين كانت صربيا تتطلع إلى ابتلاعها في إطار إحياء القومية السلافية وإقامة صربيا الكبرى. وكانت روسيا تشجع الأطماع الصربية، لسبب عقدي، فشعب صربيا معظمهم من الأرثوذوكس، ولسبب جيوبولتيكي مفاده أن روسيا كانت تتطلع إلي الوصول إلى المياه الدافئة في البحرين الأسود والمتوسط عبر دول البلقان ، خاصة السلافية منها.

فأعلنت ألمانيا الحرب ضد روسيا فى الأول من أغسطس 1914م، فأعلنت فرنسا تعبئتها العامة، وسرعان ما دخلت ألمانيا أراضى بلجيكا ولكسمبرج، وأعلنت الحرب ضد فرنسا يوم 3 أغسطس .. وتداعت الأحداث .. ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا كى تستطيع حماية مضيقى البسفور والدردنيل من روسيا، التى كانت تتطلع منذ سنوات لاحتلالها وضمها، ومن ثم الوصول إلى المياه الدفئة، والاتصال بشبه جزيرة البلقان بطريق البحر.

ونظرا لأن بريطانيا منفصلة بريا عن أوروبا فإن مثل هذا الصراع لم يكن ليعنيها، لكن عزمها على إسقاط الدولة العثمانية، والاستيلاء على منطقة آبار البترول[1] فى الخليج الفارسى، وتأمين قناة السويس لصالح تجارتها مع الشرق أدت كلها إلى دخولها الحرب ضد تركيا، ومن ثم ضد حليفتها ألمانيا، وإلى جانب منافستيها فرنسا وروسيا... وقد شجع بريطانيا على هذا تحالفها مع حركات القومية العربية، ومساعدة الشريف حسين بن على لها بالثورة على دولة الخلافة العثمانية، وتأليب القبائل العربية لتقاتل إلى جانب الجيش البريطانى، الذى كان قد وصل إلى البصرة (شمال الخليج الفارس) عبر الهند وإيران.. وإلى سيناء عبر مصر فى نوفمبر 1914م.

*** **وقد دخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى لهدف آخر وهو إقامة وطن قومى يهودى شرق قناة السويس ، فيكون بمثابة حماية لها من ذلك الاتجاه[2]** . وكان دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء لنفس السبب.. أى من أجل إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين! ذلك ؛ ولم تدخل تركيا الحرب رسميا إلا بعد أن أعلنتها عليها بريطانيا وفرنسا وروسيا [3] في نوفمبر 1914م.

وقد تبنت روسيا ، كدولة إمبريالية ، نظرية «القوة البرية»، والتى تعتبر منطقة وسط آسيا والقوقاز هما قلب الأرض، وأن من يسيطر على هذه المنطقة يمكنه أن يهدد أوروبا، وأن يصل بسهولة إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط، وفى المحيط الهندى، من أجل هذا ركزت

---

(1) أصبح البترول مادة خام استراتيجية منذ عام 1912م، إذ حل محل الفحم كمصدر للطاقة في المصانع وتسيير السفن.

(2) G.D. Clayton, Britain and The Eastern Question, PP.219- 221 .

(3) من طائفة الدونمة، وفي صفوفه يهود من غير هذه الطائفة.. وقد ظلت البعثة البريطانية تعمل في البحرية التركية حتى سبتمبر عام 1914م ، فحل محلهم ألمان تولوا قيادة الأسطول التركي!!

روسيا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر على الزحف البرى جنوبا[1]، وغربا، وتطلعت باستمرار إلى أفغانستان وإيران، ومضيقى البسفور والدردنيل، وشبه جزيرة البلقان.

وتتمشى نظرية القوة البرية مع الميراث التاريخى / العقدى للدولة البيزنطية، التى كانت تعتنق المذهب الأرثوذوكسى، التى اتخذت من موسكو مقرًا للكنيسة بعد فقد القسطنطينية.

ذلك ، ولم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى كانت روسيا، التى قامت فيها الثورة الماركسية عام 1917م، قد دخلت فى حرب أهلية، قام الغرب بدعم الجانب المضاد للحكومة فيها، وانتهت بإعلان قيام الاتحاد السوفيتى، الذى أصبحت حدوده الجنوبية إيران وتركيا، وأفغانستان ، والهند، فضلا عن الصين ومنغوليا.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تستعدد للخروج من عزلتها. كان ذلك من خلال اعتناقها لنظرية «القوة البحرية»، التى صاغها الأميرال «ألفريد ماهان» A.T. Mahan عام 1897م : «إن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية تقع خارج القارة الأمريكية. وهذه المصالح لا يمكن تأمينها إلا من خلال التفوق البحرى فى المحيط العالمى، أي المحيط الهندى الذى يعد مفتاح البحار السبعة.. وعلى مياه هذا المحيط سيتحدد مصير العالم.. إذ أن من يسيطر على المحيط الهندى يسيطر على مركز القوة العالمى الجديد، ويتحكم ، بالتالى، فى أمور السياسة الدولية».

وعلى هذا الأساس تم صياغة الاستراتيجية الأمريكية منذ عام 1898م ومبدؤها القائل بأن: «التدخل الأمريكى ضرورى لاستقرار دعم الديموقراطية.. وذلك من خلال السير حثيثا مع حمل عصا غليظة»...

ومن ثم فقد استقرت نظريتا «القوة البرية» و«القوة البحرية» .. منذ ظهر الاتحاد السوفيتى كقوة ماركسية مضادة للعامل الليبرالى الغربى، وبدا واضحا أن النظريتين متضادتان، ومن

---

(1) حصلت روسيا على وعد من بريطانيا في نوفمبر عام 1914م بمنحها القسطنطينية مقابل حصول بريطانيا على المنطقة المحايدة بوسط إيران حيث كانت تقع معظم أبار البترول آنذاك. جاء هذا الوعد من جورج الخامس ملك بريطانيا للسفير الروسي بنكندورف Ben Ckendorff وفي مفاوضات مارس / إبريل 1915م بين الجانبين قبلت بريطانيا أن تحصل روسيا على كل ساحل القسطنطينية حتى غاليبولي، وأراض من إينوس حتى ميديا، والساحل الشرقي المواجه للقسطنطينية.. وقبلت فرنسا هذه الصفقة البريطانية/ الروسية، وانضمت إيطاليا إلى ذلك الاتفاق مقابل وعد لها بالهيمنة على بحر الإدرياتيك، وجزر الردوذيكانيز، على أن تقف إلى جانب الحلفاء.

ثم فقد أصبحت بينهما منطقة صدام سموها «منطقة الارتطام» Crash Area ، وهى المنطقة الواقعة بين حوضى البحر الأسود والمتوسط شمالا، والمحيط الهندى جنوبا.. وهى «قلب الأمة الإسلامية»، والتى اصطلح على تسميتها «منطقة الشرق الأوسط» ، وذلك بعد أن اختفت «المسألة الشرقية» بسقوط دولة الخلافة العثمانية، بموجب اتفاقية لوزان عام 1923م، وتم الاعتراف بالحكومة العلمانية فى تركيا برئاسة «مصطفى كمال»، الذى كان يَلْقَى التأييد الكامل من الغرب، ومن «لينين» ، زعيم الدولة الماركسية الأولى، ومن اليهود.

وحتى يتم إدارة الصراع على «أرض الإسلام»، بين القوتين المرشحتين لتكونا قوتين عظميين، فقد كان لزاما أن تُخلى حلْبة الصراع ممن سواهما، أى من القوى الدولية الفاعلة فى المرحلة السابقة على الحرب العالمية الأولى.. وقد لعبا اليهود، من خلال حركتهم الصهيونية العالمية الدور الى يلعبه الممثل الوحيد، من مكانه خلف الستار، فى مسرح للعرائس..

لئن كانت الصهيونية كنظرية «جيوبوليتيكية»، لحمتها وسداها العقيدة اليهودية، تعد نظرية قديمة فإن التاريخ الحديث لها يرجع إلى أربعينيات القرن التاسع عشر حينما بد أت الإجراءات العملية تتخذ من جانب بريطانيا (أقوى قوة بحرية فى ذلك الوقت) بدفع من اليهود البريطانيين)، الذين عملوا على إقناع الحكومات البريطانية المتعاقبة بأنه ما من شىء أكثر حماية للتجارية البريطانية من وجود دولة يهودية فى فلسطين(1).

وقد تحمست بريطانيا لهذه الفكرة منذ كان اللورد بالمرستون وزيرا لخارجيتها، كما كان الكولونيل تشارلز هنرى تشرشل (جد ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية) من أشد المتحمسين لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .. ثم كتب القسيس البروتستانتى وليام هشلر William Hechler كتابه عن «إعادة اليهود إلى فلسطين» عام 1894م، قبل أن يصدر «تيودور هرتزل» كتابه بعنوان «الدولة اليهودية» بعامين .. وكان الكتابان يستندان إلى نبوءات «العهد القديم». وقد تولى «هشلر» وهو سفير بريطانيا فى

---

(1) كانت الاستراتيجية البريطانية متخوفة من هذا الكيان، وكان العلاج الذي رأته مناسبا هو أن تشجع على ظهور ما سمى «القومية العربية»، ليصبح عامل توازن في المنطقة يمنع جموح الصهيونية. واستمرارا في نفس الاستراتيجية حرصت بريطانيا على إقامة «الجامعة العربية» كتجمع عربي هش في مقابل الدولة اليهودية وشيكة الظهور. فبدأ الأعداد لقيام هذه الجامعة منذ عام 1943م، وقامت بالفعل عام 1945م.

«فينيا» التقديم لكتاب صديقه هرتزل عام 1896م.

وقد سجل هرتزل في يومياته أن هشلر كرّس حياته الدبلوماسية للقضية الصهيونية، ففُتحت لهرتزل أبواب السفارات في أوروبا، وتمكن هرتزل من خلال صديقه أن يقابل دوق بادن، عم القيصر الألماني ولهلم الثاني، الذي مكنه من مقابلة القيصر نفسه مرتين، في اسطنبول والقدس، في شهري أكتوبر ونوفمبر 1898م بهدف محاولة الحصول على الحماية الألمانية للحركة الصهيونية، التي كانت قد أعلنت عن تنظيمها العالمي «المنظمة الصهيونية العالمية» في نهاية اجتماعات المؤتمر الصهيوني الأول[1]، تحت رئاسة ثيودور هرتزل في مدينة بازل بسويسرا في أغسطس 1897م ، بيد أن المحاولة لم يكتب لها النجاح، واقتصر اعتماد الصهيونية ، في هذه المرحلة، على استغلال القوة البريطانية.

ذلك ؛ ويمكن أن نميز بين ثلاث دوائر للحركة الصهيونية، تتداخل مع بقاء تمايزها، والحركة فيها في آن واحد، وهي : إقامة «الدولة العبرية» في الأرض المقدسة «أرض الميعاد ، حسب تعبيرهم» .. وإعادة ترتيب «منطقة الشرق الأوسط» ، وتطويعها ، لتصبح بمثابة المجال الحيوي، والقوة المضافة للدولة العبرية، والحركة الكوكبية باستخدام القوى العالمية الكبرى المستقبلية: الاتحاد السوفيتي (الذي كان يحتوي على أكبر تجمع يهودي في العالم)، والولايات المتحدة الأميركية (المهجر الثاني بالإضافة لفلسطين ، والعاصمة المؤقتة للهصيونية العالمية):

بدأت الهجرات اليهودية من روسيا وشرق أوروبا إلى كل من فلسطين وأمريكا في آن واحد، فوصل إلى فلسطين في المدة من 1881م حتى 1914م حوالي 85 ألف يهودي ، في حين بلغ عدد اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا[2] مليونان وستمائة ألف يهودي، وقد عمل

---

(1) بنهاية ذلك المؤتمر أعلن هرتزل أنه : بعد خمس سنوات، وربما بعد خمسين سنة تقوم الدولة اليهودية. ثم أعلن أن الهدف الأسمي للحركة الصهيونية هو: «إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين تحت حماية القانون الدولي». ولتحقيق هذه الغاية يلزم: إنشاء وتنمية المستوطنات في فلسطين بواسطة المزارعين والفنيين والحرفيين ـ إنشاء الوكالة اليهودية (تختص بتنظيم الهجرة) ـ تقوية الشعور القومي اليهودي ـ اتخاذ خطوات تحضيرية للحصول على الموافقات الحكومية الضرورية.

(2) أُنشئ «اتحاد المعابد العبرية الأمريكية The Union of American Hebrew Congregations عام 1873م، وبلغ عدد المعابد اليهودية في أميريكا عام 1880م حوالى 200 معبدا، زادوا إلى 533 معبدا عام 1980م . وقد أنشئت كلية الاتحاد العبرى عام 1875م ، والمؤتمر المركزى على خاميم الأميريكيين عام 1889م.، وقد قبل المجتمع الأمريكي =

هؤلاء فى التجارة والمال والإعلام والسينما، ونظموا أنفسهم فى مراكز يهودية، واستقرت المنظمة الصهيونية العالمية فى نيويورك، التى أصبحت، بحق ، عاصمة الصهيونية العالمية (1)

ومن خلال توسيع نطاق الهيمنة الصهيونية على المجتمع الأمريكى أصبح لليهود التأثير الأكبر على مؤسسات الدولة فى الولايات المتحدة الأميريكية، منذ العقد الأول من القرن العشرين. وقد كان الرئيس الأمريكى «وودرويلسون» Woodrow Wilson من أكثر المتحمسين للفكرة الصهيونية عن قناعة ذاتية، نابعة من اعتناقه للبروتستانتية، كما دعم موقفه هذا اتخاذه بطانة من اليهود البارزين مثل: القاضى لويس برانديز، وفيليكس فرانكفيرنز، وجوزيفوس دانيالز، والحاخام ستيفن وايز.

وقد تمكن هؤلاء ، فضلا عن غيرهم، من يهود بريطانيا وفرنسا وجنوب أفريقيا من لعب دور الوسيط بين أمريكا والحلفاء، الذين كانت الحرب قد أنهكتهم بنهاية عام 1915م. وكانت الصفقة تتكون من دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء ، ثم منحهم قروضا لشراء الإمدادات الحيوية بلغ سبعة مليارات من الدولارات الأمريكية، فى مقابل إصدار بريطانيا لتصريح (وعد) بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين(2).

سبق هذا الوعد إعداد كان ضروريا كى تبرز فلسطين ككيان جغرافى مستقل، ذلك هو تقسيم الشام والعراق إلى كيانات سياسية صغيرة. وقد استغل وزير الخارجية البريطانية «مارك

= الصهيونية منذ اللحظة الأولى، وبحماس، سواء على المستوى الإعلامي ، أو السياسي، أو الديني ، وأصبح المجتمع الأمريكي هو الممول الرئيسي للحركة الصهيونية العالمية. وفي المقابل اصطبغت اليهودية في أمريكا بصبغة خاصة تميل إلى الأرثوذكسية، وأصبحت لها قيمها الأمريكية، بل وتسمى «باليهودية الأمريكية» « American Judaism » .

The New Encyclopaedia Britanica, Judaism, PP. 424 _ 426.

(1) " New York en Particulier, qui est vraiment la capitale d'Israel" Jerome Et Jean Taraud, Petite Histoire Des Juifs, Liorairie Plon, Paris, 1927, P.256.

(2) The New Enyclopaedia Britaneco, International Relations, P. 744.

سايكس»[1] تطلع فرنسا إلى سوريا ولبنان (لاستعادة ماضيها إبان الحروب الصليبية)، وعقد اتفاقا سريا مع نظيره الفرنسي «جورج بيكو» George Picot، عرف باسمهما، تم بناء عليه وضع مخطط لتقسيم المنطقة الواقعة من العراق فى الشمال الشرقى حتى الحدود المصرية فى الجنوب الغربى. كان ذلك فى يناير عام 1916م. وقد تم ضم روسيا إلى الاتفاق فى شهر مايو، فى مدينة بتروجراد، ويقضى الاتفاق السرى بأن تضم روسيا إليها أرمينيا، وكردستان، اللتان كانت جيوشها قد استولت عليهما بالفعل. وكان نصيب سوريا فى المؤامرة سوريا ولبنان والموصل وجنوب تركيا حتى كردستان. ويدخل وسط وجنوب العراق فى نصيب بريطانيا (وبذا يتم تقسيم العراق إلى ثلاثة أقسام، وفصل كردستان عن كل من العراق وسوريا وتركيا وإيران لتكون تابعة لروسيا). وتمتد السيطرة البريطانية من شمال غرب الخليج الفارسى (الكويت) حتى الحدود المصرية، بما فى ذلك كل فلسطين وشرق الأردن . ونص الاتفاق التآمرى على ضمان أن تبقى مكة والمدينة ذواتى طابع إسلامى جزئيا، لأن الاعتبارات الاستراتيجية ليست ملحة هناك [2].

ولتأكيد استقلالية فلسطين جغرافية ، فقد تم النص على أن تصبح منطقة دولية باستثناء حيفا وعكا تكونان تحت السيطرة البريطانية.

وقد تم تأكيد هذا الاتفاق فى إبريل 1917م فى «سان جان دى مورين» بحضور رئيس الوزراء «لويد جورج» الذى كان صديقا شخصيا «لحاييم فيتصمان»، وكان يدين له بالخدمات التى قدمها اليهود للمجهود الحربى البريطانى إبان الحرب العالمية الأولى.

وفى 6 إبريل 1917م دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء ، وفى 2 نوفمبر 1917م صدر تصريح (وعد) بلفور موجها من آرثر جيمس بلفور وزير خارجية

---

(1) نشأ مارك سايكس كاثوليكيا، لكنه التقى مع الدكتور موسى غاستر، الذي علمه الصهيونية، وكان غاستر الحاخام الأكبر لطائفة اليهود السفارديم في لندن، كما أنه تلقى مذكرة من هربرت صموئيل تحتوى على الفكر الصهيوني في التعاون مع بريطانيا في فلسطين إذا منحت الجاليات اليهودية حق شراء الأراضى في فلسطين لإقامة المستوطنات عليها، وإنشاء مؤسسات تعليمية ودينية هناك. وقد تحمس سايكس لهذه الفكرة، وتمكن من إقناع بيكو باتفاق التقسيم المذكور.

(2) G.D. Clayton, The Eastern Question, P. 227.

بريطانيا إلى اللورد روتشيلد زعيم الطائفة اليهودية فى بريطانيا، وينص الوعد على أن: «حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين على ألا يكون فى ذلك مساسا بالحقوق الدينية أو السياسية لغير اليهود فى فلسطين أو بالحقوق السياسية فى أى بلد آخر .. وسوف تبذل حكومة جلالة الملك كل مساعيها لتحقيق هذا الهدف».

وقد كان بلفور يرى أن الوطن القومى لليهود يجب أن يمتد ليشمل السيطرة على المياه، مُعبِّرا بقوله: «ينبغى أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين اليهود، وأن تكون لها السيطرة على القوة المائية بأن تتسع حدودها شمالا لتتضمن منابع المياه المتدفقة من «جبل الشيخ» (بالجولان)، ولتشمل الأراضى الواقعة شرقى نهر الأردن»[1].

وعلى الرغم من معارضة «روبرت لانسنغ» وزير الخارجية الأمريكى لوعد بلفور لأسباب سياسية، وأخرى عقدية (فقد كان ممن يؤمنون باليهود هم قتلة المسيح عليه السلام)، تلك المعارضة التى عبر عنها كتابه فى 13 ديسمبر 1917م، فقد بعث الرئيس الأمريكى وودرو ويلسن فى الحادى والثلاثين من أغسطس 1918م بخطاب إلى زعيم الصهيونية فى أمريكا، وصديقة الحاخام ستيفن وايز يخبره فيه تأييد بلاده لما جاء فى وعد بلفور.

ذلك، وليست العلاقات الصهيونية مع السلطة فى روسيا، بعد قيام الثورة البلشفية، عام 1917م بأقل أهمية وخطورة .. ولا غرو فيهود الإمبراطورية الروسية، كانوا أكبر تجمع يهودى فى العالم فى ذلك الوقت، وكانوا مستودع الهجرة إلى كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

وكان اليهود فى تلكم البلاد من ذوى الثقافة الرفيعة، كما أنهم كانوا من أكثر

(1) E.L. Woodward & J.Butler (editors), Documents On British Foreign Policy, (1919 _ 39) London, 1952 , Vo4 , P. 347.

** الواقع أن الفكر الجيوستراتيجي لبلفور كان بمثابة امتداد لما قبله، فقد وجه البارون روتشيلد (الجد) إلى اللورد بالمرستون رئيس الوزراء البريطاني خطابا في شهر مارس عام 1811م جاء فيه: «إن هزيمة محمد على وحصر نفوذه في مصر ليست كافية، لأننا لو نظرنا إلى خريطة هذه البقعة من أرض فسوف نجد أن فلسطين هي الجسر الذي يوصل بين مصر وبين المسلمين في آسيا، وقد كانت فلسطين دائما على البوابة الشرقية لمصر. والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر لتكون بمثابة الحاجز الذي يحول دون التواصل.. ويمكن للهجرة اليهودية إلى فلسطين القيام بهذا الدور، ليس فقط خدمة لليهود بإعادتهم إلى أرض الميعاد، مصداقا لما جاء بالعهد القديم، لكن أيضا خدمة للإمبراطورية البريطانية ومخططاتها».

المتحمسين للماركسية. أو لم يكن «تروتسكى» الساعد الأيمن للينين يهوديا؟ وولد لينين من أم يهودية (أى أنه يهودى بمعيارهم). لذا كان اليهود ، بحق، هم محركى الثورة البلشفية. ويعد هذا رد فعل طبيعى، نظرا لما لاقاه اليهود من اضطهاد فى روسيا حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولا عجب إذن أن نجد «بروتوكولات حكماء صهيون» تخرج أول ما تخرج من روسيا عام 1902م[1].

وقد عومل اليهود فى ظل الماركسية معاملة خاصة، فكانوا الوحيدين الذين يسمح لهم بكتابة ديانتهم فى بطاقة الهوية. ففى ظل الاتحاد السوفيتى محيت كل الانتماءات القومية والدينية عدا اليهود الذين عوملوا معاملة خاصة، فقد كانت تتاح لهم فرص أكبر للتعليم، وللحراك الاجتماعى ، وللتنمية الاقتصادية[2].

ولماذا نعجب وقد بلغ من تغلغل اليهود فى السلطة المركزية السوفيتية أن كان المكتب السياسى فى عهد ستالين، بعد الحرب العالمية الثانية، يتكون من سبعةعشر عضوا، منهم أربعة عشر يهوديا، وثلاثة زوجاتهم يهوديات (ستالين _ فورشيلوف _ مولوتوف)!

بانتهاء الحرب العالمية الأولى بدا واضحا أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أقوى قوة مادية على وجه الأرض. ومع ذلك فقد كان من نتائج تلكم الحرب؛ أن دعمت كل من بريطانيا وفرنسا إمبراطوريتهما، بهدف زيادة معدل جلب الموارد الاقتصادية من البلدان فى ما وراء البحار، لتحسين أوضاعهما الاقتصادية التى ساءت بسبب نفقات الحرب. وكان ذلك على حساب الأمة الإسلامية التى مزقت ، ظاهريا، إلى وحدات سياسية صغيرة، ظلت تحت الحماية أو الاحتلال الأوروبى. وباختفاء دولة الخلافة العثمانية، وفرض قيود على ألمانيا

---

(1) ترجمها البروفيسور الروسي فيلوس عام 1902م، وترجمت عنه إلى لغات أخرى فيما بعد. وكلمة بروتوكولات هنا تعني الاتفاق الذي تم بين حاخاميم (حكماء) صهيون. وقد تم صياغة هذه البروتوكولات أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا في أغسطس 1897م، ووقع عليها أكابر قادة الماسونية من اليهود (من الدرجة الثالثة والثلاثين). والبروتوكولات ، في مجملها، نصوص للهيمنة على العالم من خلال تسفيه الدين وإشاعة الانحلال الخلقي، وتشجيع الجنس والعلاقات المحرمة، والمخدرات، وفرض الليبرالية وقيمها على العالم، ومن ثم يمكن لليهود _ الأقوياء ماليا واقتصاديا _ أن يهيمنوا على الاقتصاد العالمي. وتهتم البروتوكولات بالسيطرة على وسائل الإعلام والنشر والثقافة. كما تعتمد البروتوكولات على بلوغ أهدافها ، وإعادة ترتيب الأوضاع في العالم .

(2) Gabriel A. Almond _ G. Bingham Powell JR. (editors) , Comparative Politics Todoy, Little Brown And Company, Baston _ Toronto, 1984, P.314.

بموجب معاهدة فرساى Versailles أصبح هناك خمس قوى كبرى هى: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، واليابان،وظهر عصر ما يسمى بعصر «العلاقات الدولية»، الذى كان من المفروض أن يسود فيه السلام وحكم القانون الدولى، فى ظل هيمنة هذه القوى الخمس.

قامت منظمة «عصبة الأمم» بموجب المادة الأولى من معاهدة فرساى (7 مايو 1919م)، بيد أن الولايات المتحدة الأميريكية لم تصدق على المعاهدة، ومن ثم لم تصبح عضوا بالمنظمة، على الرغم من أن الرئيس الأمريكى وودرويلسون كان قد أصدر، خلال الحرب العالمية الأولى، فى 8 يناير 1918 م ما سمى بالمبادئ الأربعة عشر، والتى جاء فيها «حق الشعوب فى تقرير المصير»، وحق الأقليات فى الحكم الذاتى (يقصد بها اليهود والأرمن)، ودعا إلى إنشاء تجمع عام بين الأمم يهدف إلى حفظ السلام الدولى.. فكان رفض الولايات المتحدة الأمريكية الانضمام إلى العصبة بمثابة الضربة الأولى التى أدت إلى فشل هذه المنظمة[1] فى تحقيق ما أطلق عليه « السلام العالمى» ، ومن ثم فشلت المنظمة فى إقامة «نظام عالمى جديد».

كان من أبرز إنجازات عصبة الأمم أن أصدرت «صك انتداب» لبريطانيا على فلسطين، متضمنا «تصريح بلفور» بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، تحت إشراف بريطانيا.[2] كما تضمنت اتفاقية «سان ريمو» التى فرضت الانتداب عام 1920م وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق تحت الانتداب الإنجليزي، عينت بريطانيا فيصل بن الشريف حسين ملكا على العراق، وشقيقه عبد الله أميرا على شرق الأردن.

وقد سار الرؤساء الأمريكيون الذين خلفوا ويلسون (وارن هاردنج ـ كالفن كولدج ـ هربرت هوفر ـ وروزفلت) على نفس النهج المتحمس لإقامة الدولة اليهودية فى الأرض

(1) لم تقبل ألمانيا في العصبة إلا عام 1926م، ثم انسحبت منها عام 1935م، ولم ينضم الاتحاد السوفيتي إليها إلا عام 1934. وانسحبت اليابان منها عام 1935م، وإيطاليا عام 1937م.

(2) جاء في مذكرة بلفور (ضمن وثائق السياسة الخارجية البريطانية 1919 -1939م) في ما يختص بسوريا وفلسطين وما بين النهرين: «ليس في نيتنا حتى مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين، مع أن اللجنة الأميريكية تحاول استقصاءها. إن القوي الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية (يستبعد اليابان). وسواء أكانت الصهيونية على حق أم على باطل، جيدة أم سيئة فإنها متأصلة الجذور في التقاليد القديمة، وهي ذات أهمية تفوق بكثير رغبات وميول السبعمائة ألف عربي الذين يسكنون هذه الأرض القديمة».

المقدسة. وفى عهودهم المتعاقبة تزايد النفوذ الصهيونى فى أمريكا ، وتزايدت الهجرة اليهودية إلى كل من فلسطين والولايات المتحدة الأمريكية ، ليصبح أكبر تجمع يهودى فى العالم ، بعد الحرب العالمية الثانية، هو ذلك الموجود فى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولتتأهب الصهيونية لإقامة «الدولة العبرية» على أرض فلسطين.

كانت السنوات العشرون التى تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى غير مستقرة فى كل المجالات،وكان من أخطر ما حل بالعالم خلالها ما سمى بالكساد الكبير (1929 ـ 1939م) الناتج عن فشل النظام الاقتصادى العالمى القائم على الربا والهيمنة الإمبريالية. وقد بدأت هذه الفترة بانهيار سوق الأسهم فى نيويورك! فى خريف عام 1929م فتأثرت الأحوال المالية والتجارية والصناعية فى العالم، وبلغت البطالة أقصى نسبة متزايدة فى التاريخ، وتوقفت ألمانيا عن دفع تعويضات الحرب، ومن ثم توقف الحلفاء عن دفع ديونهم المستحقة للولايات المتحدة الأمريكية.

كانت هذه البيئة الاقتصادية، التى لا يمكن أن تكون الصهيونية العالمية إلا ضالعة فيها، بمثابة بيئة مناسبة لانتشار الشيوعية فى العالم، متخذة التجمعات العمالية،وبعض المثقفين من خلالها.. وفى مقابلها نمت الاشتراكية القومية فى ألمانيا وإيطاليا وغيرها. وقد صاحب ذلك سباقا فى التسلح وإعداد القوات المسلحة، بهدف امتصاص قدر من العمالة.

ومنذ عام 1933م بدأت الدول الأوروبية والاتحاد السوفيتى واليابان تعد نفسها بشكل ما أو بآخر لحرب قادمة .. وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ [المائدة / 14]

ظلت الأمة الإسلامية طوال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين فى حالة غيبوبة ، وقد فرضت عليها وصاية المحتل الأجنبى، فأصبحت يفعل بها ولا تفعل شيئا إلا أن تستقبل الغزو الثقافى «الليبرالى» ، و«الماركسى» فى آن واحد.

وما أن بدأت الحرب العالمية الثانية فى الأول من سبتمبر عام 1939م، عندما هاجمت ألمانيا شمال بولندا، إلا وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بإدارة نشاط دولى يستهدف «إقامة نظام عالمى جديد» يسوده سلام دائم .. أو بالأحرى يفرض عليه سلامٌ دائمٌ .. هو السلام الصهيونى!

الفصـل الثانــي

معالم النظام العالمي الجديد
(فلسفته وإطاره القانوني)

تقوم الفكرة العامة للنظام العالمى الجديد على أساس فرض السلام الدائم والمحافظة عليه، من خلال نظام للأمن الجماعى تحل فيه الخلافات بالطرق السلمية ، ويسود التعاون والاعتماد المتبادل من أجل التنمية، ويتم إزالة كل الأسباب المؤدية إلى قيام الحروب.

وقد انعكست هذه الفكرة العامة على صياغة أهداف المنظمة العالمية للأمم المتحدة كما وردت فى ديباجة الميثاق[1]، وجاء فى مادته الأولى:

« اتخاذ التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهددالسلم وإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتذرع بالوسائل السلمية، وفقا لمبادئ العدل والقانون الدولى لحل المنازعات الدولية التى قد تؤدى إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها».

وقد يجد الباحث المدقق أن هذه الفكرة تقوم على فلسفة «الخلاص» التى يعتنقها كل من اليهود والنصارى ، وينتظرونها كلما اقتربت بداية ألف سنة جديدة ، فاليهود ينتظرون ظهور المسيح «ملك إسرائيل»، والنصارى ينتظرون نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. ورغم اختلاف الشخصيتين المنتظرتين فإن الفكرة الفلسفية واحدة، بل والموعد المرتقب متقارب حيث رفع المسيح عليه السلام قبل تدمير الهيكل الثانى بسبع وثلاثين سنة تقريبا. وهذان هما الحدثان العظيمان اللذان تُنسَب إليهما الإلفيات.

فالفكرة العامة للنظام العالمى الجديد وفلسفته تنبعان فى الحقيقة من العقيدة اليهودية /

(1) أعلن عن فكرة إقامة الأمم المتحدة منذ بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدأت الأعمال التحضيرية للميثاق منذ صدر تصريح الأطلنطي في 14 أغسطس عام 1941م على إثر اجتماع الرئيس الأمريكي روزفلت برئيس الوزراء البريطاني تشرشل على ظهر الباخرة «برنس أوف ويلز» ، ثم توالت التصريحات من واشنطن في أول يناير 1942، ووقعه ست وعشرون دولة، وسمي تصريح «الأمم المتحدة» ، ثم تصريح موسكو في 30 أكتوبر 1943، ثم طهران في أول ديسمبر 1943م. ووضعت الأسس التي يبنى عليها الميثاق في «دمبرتون أوكس» في السابع من أكتوبر 1944م، ثم في يالتا في الحادي عشر من فبراير 1945، وأخيرا دعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى مؤتمر سان فرانسسكو حيث تم توقيع الميثاق في26 يونيو 1945م وأصبح نافذا في 24 أكتوبر.

النصرانية ، ولئن كان الأوروبيون لا يحرصون على التصريح بهذه الفكرة فقد بادر بها رئيس وزراء إسرائيل «يتصحق شامير» عندما وقف على منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة خطيبا في السابع من يونيو 1988م مفتتحا خطابه بأنه يمثل شعبا عريقا في التاريخ، هو الشعب الذي أمد العالم المتحضر كله بالقواعد المعنوية الأخلاقية. ثم أردف قائلا إن السلام كما ورد في تلكم القواعد هو أعلى مثاليات الإنسان. بيد أنه وضع شروطا كي يسود السلام العالم قائلا: إن نبيا عبرانيا صاغ رؤيته لنزع سلاح العالم، والسلام منذ ألفين وسبعمائة عام مضت، بعبارات تجدونها مسجلة خارج هذا المبنى (يقصد مبنى الأمم المتحدة).. إن رؤيته كانت هي نفسها هدف الأمم المتحدة في مطلع ميثاقها . وأنهى حديثه بقوله دعونا نأمل أن يكون اجتماعنا هذا صادقا تجاه ذلك الهدف النبيل، وأن نتقدم تجاه تحقيقه.

هذه العبارات التي تحتوي شروط السلام الدائم على الأرض ـ كما عبر عنها شامير ـ نجدها في سفر أشعياء : (4:2/2) ونصها كما يلي:

«ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله؛ لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم ، وينصف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد».

وعلى هذا فقد تم تصميم الإطار القانوني للنظام العالمي الجديد على أساس أن تعلوا الفكرة الصهيونية ... ودارت عجلة ذلك الجهاز العالمي (منظمة الأمم المتحدة) على محاور الفلسفة الصهيونية وتصورها للسلام الدائم الشامل !!

إن من يراجع طبيعة تكوين وإدارة أفرع الأمم المتحدة ، والمنظمات المتخصصة التابعة لها، واللجان المنبثقة عن أفرعها الرئيسية ليتبين له أن للأمم المتحدة استراتيجية تسير في خط مستقيم تم رسمه، منذ صمموا ميثاق هذه المنظمة، وجعلوا لمواده طبيعة تشريعية دستورية، بسبب تنظيمها «للمجتمع الدولي» في إطار قانوني جديد، هو استثناء على القانون الدولي، ولسمو مواد الميثاق على كل المعاهدات الدولية السابقة عليه واللاحقة له، ذلك الخط

المستقيم بلغ الآن مرحلة تنظيم ما يسمى «مجتمع العالم» World Society ؛ أى أنه بدأ بتنظيم العلاقات الدولية، ووصل الآن مرحلة دمج الأمم كلها فى مجتمع واحد، يُحكم مركزيا على مستوى الكوكب الأرضي[1] ... وأطلقوا على هذه الفكرة «الكوكبية» Glo-balism ، وجعلوا غايتها «السلام الدائم» lasting Peac ، وهى العبارة التى ما فتئ مصمموا النظام العالمى الجديد يرددونها منذ أول انعقاد للجمعية العامة لهذه المنظمة وحتى الآن.

ويعد اختيار «نيويورك» (العاصمة الحقيقية للصهيونية العالمية) مقرا للأمم المتحدة بمثابة إشارة واضحة إلى أداتى تشكيل النظام العالمى الجديد، وهما الأداة القانونية المتمثلة فى المنظمة الدولية، بفروعها، ومنظماتها المتخصصة، ولجانها، والأداة السياسية / العسكرية، أو الذراع القوية، المتمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولفرض السلام الصهيونى ذى الطبيعة الكوكبية، فقد أنشئت «منظمات إقليمية» مرتبطة بالأمم المتحدة، وتسير فى فلكها من الناحية القانونية، وتهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكية، واقعيا، من الناحيتين السياسية والاقتصادية. وهى منظمات أقامتها الدول الإمبريالية قبل أن تُخلى المسرح العالمى للتدخل والهيمنة الأمريكية، وذلك استنادا إلى ميثاق الأمم المتحدة، الذى عرّف هذه المنظمات، وحدد دورها، ومهمتها، وارتباطها بالمنظمة العالمية، ارتباط الفرع بالأصل. وهى منظمات تنمّى التناقضات، وتكرّس الفرقة، ولا تتفق إلا على ما يلقى إليها من تعليمات من سادة النظام العالمى الجديد، عن طريق هذه الدولة المحورية العضو أو تلك.

وقد كانت جامعة الدول العربية[2] التى قامت بناء على تصريح «أنطونى إيدن» ، وزير

---

(1) يلاحظ أن اسم المنظمة «الأمم المتحدة» ، كما أن ديباجة الميثاق بدأت بعبارة «نحن شعوب الأمم المتحدة»، ولم يستخدم لفظ «دول» أو «حكومات»، رغم أنها منظمة حكومية، وأشخاصها القانونية دول .. كما أن المادة 103، التي تقرر سمو مواد الميثاق على كل المعاهدات السابقة واللاحقة، تعد إلغاء لقاعدة عرفية استقرت في القانون الدولي وهي «قدسية الاتفاقات الدولية»، أو «المعاهدة شريعة المتعاهدين». من جهة أخرى نجد أن المنظمة أنشأت في إطارها لجنة لتدوين قواعد القانون الدولي (بما لا يتعارض ومواد ميثاق المنظمة بطبيعة الحال)، كما تبنت المنظمة في عِقدْ التسعينيات من القرن العشرين عَقدْ مؤتمرات قمة لصياغة أمور اقتصادية واجتماعية، ووضعها في إطار قانوني دولي ملزم طواعية أو باستخدام وسائل ضغط بعينها مما يعد مقدمة لسموها على القانون الداخلي للدول!

(2) بدا لبريطانيا وفرنسا منذ نهاية القرن التاسع عشر أن فراغ قوة سينشأ إذا ما انهارت الدولة العثمانية ، وعملت فرنسا من جانبها على تشجع حركة قومية عربية ، قاعدتها لبنان ، وتولى قيادتها غيرالمسلمين ، وعلمانيين أمثال : =

خارجية بريطانيا، يوم 29 مايو 1941م ـ هى أول المنظمات الإقليمية ، إذ أصبح ميثاق الجامعة نافذا اعتبارا من 11 مايو 1945م. وقامت الجامعة وأعضاؤها سبع دول عربية... ثم قامت منظمة الدول الأمريكية فى 13 ديسمبر 1951م، ثم منظمة الوحدة الأفريقية فى 25 مايو 1963م.

ولئن كان الارتباط القانونى بين المنظمة العالمية والمنظمات الإقليمية قد سجلته مواثيقها جميعا، فإن الارتباط بين هذه المنظمات الإقليمية والولايات المتحدة الأمريكية هو ارتباط واقعى لا يخطئه كل ذى بصيرة. وقد يكون مناسبا أن أورد هنا نص هذه العلاقة الثلاثية الأطراف، نقلا عن أحد مراجع علم السياسة، الذى يعبر عن وجهة النظر الأمريكية الرسمية الثابتة : (1)

" ... The United States has Sought to implement its world Community Orientotion through The United Nations. The United States is olso acting Through additional and supplementory institutions, both universal and regional, That are dedicated - or in The Future may become dedicated - to The basic values of our Western soiety."

وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾

[إبراهيم / 46]

وكما كانت أهم وأخطر ما حققته عصبة الأمم أن وضعت تصريح (وعد) بلفور موضع التنفيذ العملى، وأضفت عليه الصبغة القانونية الدولية، ومن ثم تزايدت الهجرات إلى الأرض

= بطرس البستاني وعبد الحميد الزهاوى، وساطع الحصرى، وميشيل عفلق، وأنطون سعادة.. وعقد المؤتمر القومي العربي الأول بباريس عام 1913م، ثم طرحت بعد ذلك أفكار إقامة سوريا الكبرى ، والهلال الخصيب، الذي يضم العراق إلى سوريا الكبرى، وأخيرا استقر رأى بريطانيا على إقامة تجمع هش يحمل في طياته متناقضات «أيديولوجية» ، بحيث يملك الفراغ ولا يكون ذا تأثير على وجودها في المنطقة ، ولا يعرقل قيام الدولة العبرية في فلسطين. وقامت الجامعة من سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية ومصر واليمن.

(1) Carleon Clymer Rodee & Others, Introduction to Political Science, MCGRAW - HILL KOGAKUSHA, LTD., 3 rd ed., 1967, P. 450.

المقدسة، وبدأ اليهود يكونون مؤسسات شبه عسكرية، وشبه سياسية فى فلسطين، ويشترون الأراضى تارة (يطلقون عليها إعادة شراء الأراضى)، ويغتصبونها غالبا، ويدبرون المذابح وأعمال الطرد الجماعى، وكما كان هذا هو الشأن فى ظل الانتداب البريطانى على فلسطين، فإنه بقيام الأمم المتحدة بدأ العمل ينشط لإعلان قيام «الدولة العبرية».

وفى توافق كامل بين الدول الليبرالية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، وبين الاتحاد السوفيتى (الماركسى) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم 181 لعام 1947م بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية، ودولة يهودية، وهذه الأخيرة تشغل 56.47 ٪ من أراضى فلسطين تحت الانتداب، على أن يكون «للقدس الموحدة» كيان مستقل تابع مباشرة للأمم المتحدة.

تدفق السلاح من الكتلتين: السوفيتية، والغربية على العصابات الصهيونية، التى أعلنت قيام «الكيان الصهيونى» على الأرض المقدسة، وسموه «إسرائيل» يوم 15 مايو عام 1948م، فبادرت الولايات المتحدة الأميريكية بالاعتراف به بعد دقائق من الإعلان، واعترف الاتحاد السوفيتى بعد إحدى عشرة دقيقة!، وكانت بريطانيا قد انسحبت من فلسطين قبل الإعلان بليلة واحدة. وأدارت الصهيونية العالمية معركة، بدعم من الأمم المتحدة، والقوى الصليبية الغربية، والماركسية، فاستولى اليهود على 77.4٪ من أرض فلسطين، بما فى ذلك القدس الغربية، وشُرِّد قرابة نصف مليون فلسطينى، وفرضت هدنة بين إسرائيل والدول العربية المحيطة بها (مصر - لبنان - سوريا - الأردن)، وأصبحت إسرائيل العضو التاسع والخمسين فى الأمم المتحدة اعتبارا من 11 مايو عام 1949م، بعد أن وقعت اتفاقات هدنة مع مصر فى 24 فبراير، ولبنان فى 23 مارس، والأردن فى 3 إبريل ، (ثم سوريا بعد ذلك فى 20 يوليو). واعترفت الدول العربية بقرار التقسيم فى مؤتمر لوزان يوم 12 مايو 1949م.

إذن فقد تمت صياغة الإطار القانونى للنظام العالمى الجديد على أساس فلسفة صهيونية نابعة من فكرة إمكانية فرض السلام الشامل الدائم. بيد أن سنة الله تعالى فى هذا الكون هى التغيير المستمر، وتداول الأيام، والتدافع حتى لا تفسد الأرض.

ومن هذا المنطلق فقد أدى دخول الولايات المتحدة الأميريكية، ثم الاتحاد السوفيتى، ثم بريطانيا، وفرنسا، والصين الشعبية عصر التكنولوجيا النووية ، وإلحاق غير هذه الدول بعد ذلك بها (دون إعلان)، أدى إلى خلق عقبة أمام فكرة فرض السلام.

فى البداية أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية ـ بطريقة عملية ـ عن امتلاكها «للسلاح المطلق» "absolute arm" فأنهت الحرب العالمية الثانية بإطلاق قنبلتين نوويتين على اليابان: الأولى على مدينة هيروشيما فى السادس من أغسطس 1945م، والثانية فى التاسع من نفس الشهر على مدينة ناجازاكى، فأعلنت اليابان استسلامها فى اليوم التالى مباشرة[1]. وظن البعض أن السلام سوف يسود، لكن هذا الخيال المثالي لا يعدو أن يكون وهما، إذ ثار خلاف بين حلفاء الأمس، أمريكا وبريطانيا وفرنسا من جانب، والاتحاد السوفيتى من جانب آخر حول تبعية بولندا، التى كان الغرب قد أعد لها حكومة «ليبرالية» فى المنفى، فى حين أقام الاتحاد السوفيتى بها حكومة شيوعية بعد دخول قواته بها عام 1944م، ورفض جوزيف ستالين اتفاقية «يالطا»[2] التى وقعها روزفلت، وستالين، وتشيرشل فى فبراير 1945م، فأعلن ونستن تشرشل فى مطلع عام 1946م أن الاتحاد السوفيتى قد أسدل «ستارا حديديا» قسّم به أوروبا. وفى مارس عام 1947 ألقى ترومان (رئيس الولايات المتحدة الذى خلف روزفلت) خطابا أمام الكونجرس أعلن فيه أن «مبدأه الاستراتيجى» هو تصميم الولايات المتحدة على حماية «الشعوب الحرة» Free peoples .

ومساعدتها على مقاومة أية محاولة للتسلط عليها من جانب أقليات مسلحة، أو ضغط خارجى[3].

---

(1) كانت ألمانيا قد وقعت وثيقة الاستسلام يوم 29 إبريل ، وانتهت الحرب رسميا على جبهة أوروبا يوم 8 مايو عام 1945م.

(2) تقع يالتا في شبه جزيرة القرم. وقد تم الاتفاق فيها على تقسيم ألمانيا إلى أربعة مناطق احتلال توزع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وأن تجرى انتخابات ديموقراطية في بولندا بعد انتهاء الحرب، وأن تدخل روسيا الحرب ضد اليابان خلال ثلاثة شهور، إلى جانب الصين، وأن تصبح منغوليا مستقلة. وفي المقابل تصبح كل من روسيا البيضاء وأوكرانيا أعضاء في الأمم المتحدة إلى جانب الاتحاد السوفيتي، عند قيام المنظمة قانونا.

(3) كان هذا الإعلان بمثابة الأساس الذي قام عليه «حلف شمال الأطلنطي NATO» ، الذي وُقّع ميثاقه في واشنطن في أبريل عام 1949م، وأصبح نافذا في 14 أغسطس. وكان ترومان يقصد «بالشعوب الحرة» =

ونظرا للضعف الشديد الذى كانت تعانيه الدول الأوروبية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فقد أصبحت المواجهة مباشرة بين من سُمّوا «بالقوتين العظميين» The Two Super-powers (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى).

ولم يكن أى من الجانبين يرغب فى دخول حرب جديدة؛ لذا كانت بينهما حرب من نوع جديد، هى حرب «أيديولوجية» فى المقام الأول، تحارب من خلال الأزمات والحروب الصغيرة المحكومة، التى تحارب بالوكالة، فى ميادين خارج أوروبا، مع سباق تسلح أداره الجانبان، وحرب دبلوماسية فى أروقة الأمم المتحدة، وخارجها. وسميت هذه الحرب بالحرب الباردة The Cold War ... واستمرت قرابة أربعين عاما.

* * *

= تلك التي تتبع النهج «الليبرالى» في أوروبا خاصة، ويقصد بالأقليات المسلحة الأحزاب الشيوعية في أوروبا، ويقصد بالضغط الخارجي ذلك الذي قد يمارسه الاتحاد السوفيتي.

الفصـل الثالـث

واقـع النظام العالمي الجديد
(قوتان عظميان وحرب باردة)

لقـد خرجت الأيديـولوجيـتان: «الليـبرالية»، و«المـاركسيـة» من رحم واحدة، هـى رحم الحضارة «الصهيونية الصـليبية»؛ لذا فقد كان هناك قدر مشترك من التوافق بـينهما يتمثل فى نـقل مـسرح الـصـراع إلى مـا صـار يعـرف «بالعـالم الـثـالـث»، أو «الجنوب»، أو «الـدول النامية»[1]، وإخلاء هذا المـسرح من القـوى الإمبريالـية القديـمة؛ مقابـل إبعاد خطـر الصرا ع المسلح عن أوروبا. وكان من الأمور المتفق حولها ضمنا، بين القوتين العـظميين، ضمان بقاء وأمن الكيان الصهـيونى فى الأرض المقدسة، والحيلولة دون فاعلـية أى تجمع إسلامى، أو نمو أية قوة إسلامـية نموا حقيقا؛ إلـى درجة أنه، رغم العداء الأيديولـوجى بين المعسكـرين، فقد كان الـغرب لا يمانـع من انتشـار الماركسيـة الصريحـة، أو المقنعـة كالاشتراكـية الأفريقـية، وغيرها من الصور التى عرفتها مجتمعات إسلامية أخرى، بل ويتعاون الغرب مع تلكم النظم كبديل يـفضله على ظهور صحوة أو نهضة إسلامية ... وهو تدبير ماكر اتضحت أبعاده فى عقد التسعينيات من القرن العشريـن ، إذْ أنه ما أن انهار المعسكر الإلحادى الماركسى، بزعامة روسيا فـى أواخر الثمانـينيات، حتـى وجدنا النخـب الاشتراكيـة والماركسية فـى مجتمعـاتنا الإسلاميـة ترفع شعـار الليبـرالية، وتحج إلى واشـنطن، وتدافـع فى تعصـب وتشنج عـن قيم «الليبرالية»، ووجدنا واشنطن تحتضنهم احتضان الولى لوليه الحميم.

حقا كـان هناك صراع وتراشق بـين القوتيـن العظميـين، كان يبلغ أحـيانا حافة الـهاوية، وتشتعل من أجله النيران، هنا وهناك علـى أراضى أمتنا، بالوكالة، إلا أن الباحـث المدقق يجد أن القوتين العـظميين تقفان دائما إلى جانـب الطرف غير الإسلامى، كوقوفها بـجانـب الهند

(1) كان هذا الإعلان بمثابة الأساس الذي قام حلف شمال الأطلنطي NATO الذي وقع ميثاقه في واشـنطن في أبريل عام 1949م وأصبح نافذا في 14 أغسطس وكان ترومـان يقصد بالشعوب الحرة تلـك التي تتبع النهج الليبرالي في أوروبا خاصة ويقـصد بالأقليات المسـلحة الأحزاب الشيوعـية في أوروبا، ويقصد بـالضغط الخارجي، ذلك الـذي قد يمارسه الاتحاد السوفيـتي ، هذه كلها تسميات يـضاف إليها تسمية الشـرق الأوسط «وعدم الانحياز» تستهدف طـمس الهوية الإسلامية، وفرض شعور نفسي بالدونية على البلدان المشكلة لهذه المسميات، وغالبيتها العظمى بلدان إسلامية.

مرتين ضد باكستان (عام 1965م ، وعام 1971م)، وكوقوفها بجانب إثيوبيا الماركسية ضد الصومال التى كان يحكمها نظام ماركسى ، لكن شعبها مسلم، وتبادلهما الأوضاع الاستراتيجية عام 1977م بأسلوب يُذهب عقل الحكيم[1] ... وكإشعالهما النار، وسكب الوقود عليها من كلا الجانبين فى الحرب العراقية / الإيرانية التى استمرت ثمانى سنوات (1980 -1988م) ... إلخ.

حقا لقد كان صراع القوتين العظميين إبان الحرب الباردة أشبه ما يكون بالمصارعة الحرة، التى يكاد ينخلع قلب المشاهد لها، ظنا منه أن أحد الطرفين سوف يقضى على الآخر، من هول الضربات الوهمية التى يشاهدها من كل مصارع للآخر، ثم يخرجان من المصارعة

---

(1) كان الصومال (تحت الحكومة الماركسية برئاسة محمد زياد بري) قد حصل على قدر مناسب من التسليح من الاتحاد السوفيتي، فعمد الصومال إلى محاولة تحرير إقليم «أوغادين»، وسكانه من القبائل العربية المسلمة، تحريره من الحكم الإثيوبي، مستغلا فرصة عدم استقرار الأوضاع في إثيوبيا، بسبب الانقلاب الذي قام به الشيوعيون عام 1974م ضد الإمبراطور هيلاسي لاسي، وكان الصومال في حالة تحالف مع الاتحاد السوفيتي ... وإثيوبيا في تحالف مع الولايات المتحدة.

دخلت القوات الصومالية إقليم أوغادين بمطلع عام 1977م، وكادت تحرر الإقليم تماما من السيطرة الإثيوبية ؛ إذ حاصرت القوات الصومالية، وقوات جبهة تحرير إقليم «أوغادين» القوات الإثيوبية في بعض المدن، وحررت باقي أراضي الإقليم.

وفي فبراير 1977م اتخذ الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» قرارا بتصفية الوجود الأمريكي في إثيوبيا دفاعا عن «حقوق الإنسان»! وحل الاتحاد السوفيتي فورا محل الولايات المتحدة الأمريكية، ليزود الحكومة الإثيوبية بما تحتاجه من سلاح وخبرة ومعلومات ... وأصبح الاتحاد السوفيتي حليفًا لإثيوبيا، ونقض عهده مع الصومال ، ففقد الصومال المصدر الوحيد للسلاح والذخيرة والصيانة!

وبعد تلكؤ أعلن كارتر في 26 يوليو أن بلاده مستعدة لإمداد الصومال بالسلاح مقابل تخليها عن علاقاتها بالاتحاد السوفيتي، وأعلنت بريطانيا وفرنسا إعلانين مشابهين .. ولم تصل أية معونات عسكرية من الغرب إلى الصومال.

وفي سبتمبر أعطت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وعدا للصومال بتزويده بالسلاح شريطة انسحابه من إقليم «أوغادين».

قطع الصومال علاقاته بالاتحاد السوفيتي في 13 نوفمبر 1977م بتشجيع من مصر والمملكة العربية السعودية ، ولم تصل الأسلحة الغربية، واجتاحت القوات الإثيوبية، التي أعيد تسليحها، القوات الصومالية في شهر ديسمبر 1977م وطردتها من الإقليم!

لمزيد من التفاصيل راجع :

Roberto Aliboni, The Red Sea Region (Local Actors and Superpowers), Croom Helm, London & Sydney, 1985, PP.46 - 72.

وكأنما كانا يسيران فى نزهة تحت ظلال الأشجار الوارفة .. ولا عجب فخيوط «الدميتين العُظْميين» كانت فى أيدى الممثل الأوحد القابع خلف الستار فى مسرح العرائس العالمى، وهو «الصهيونية» ، إلى أن ظهر على المسرح عبقرى الاستراتيجية الحديثة البروفيسور اليهودى «هنرى كيسنجر»، ليضع يد الزعيم السوفيتى «ليونيد بريجينيف» فى يد الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» فى شهر مايو عام 1972م، فى موسكو، ويعلن عن نهاية اللعبة وبداية «الانفراج» detente ، ومن ثم التوجه نحو «نظام عالمى جديد» يشهده القرن الحادى والعشرون، وفيه «تزدهر القيم الأمريكية» (الصهيونية / الصليبية) ، وتسود العالم، لقد كانت حقا حربا باردة.

وفى حُقب الحرب الباردة هذه تنامى دور أجهزة الاستخبارات لدى الجانبين، ولم تقتصر على جمع المعلومات، والتجسس، ومحاربة الجاسوسية، وإنما لعبت أدوارا إيجابية، فدبرت الانقلابات، ونفذت ما دون ذلك مما يعرف «بالنشاطات التحت الأرضية»، والأعمال القذرة.

وقد اعتمد الاتحاد السوفيتى كثيرا على ميل الحكومات، التى قامت فى أعقاب حصول البلدان التى كانت محتلة من قبل، ميلها لانتهاج النهج الاشتراكى[1] ، فتفوق المعسكر الماركسى على المعسكر الليبرالى أيديولوجيا خلال عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن

(1) يمكن تفسير افتتان حركات التحرر، والحكومات، والكثيرين من النخب الثقافية بالأفكار الاشتراكية بأنه كان رد فعل يعبر عن رفض الإمبريالية ، والرغبة في مخالفة نهجها السياسي والاقتصادي. ومن جهة أخرى كانت الحكومات خلال العقود الثلاثة التالية للحرب العالمية الثانية تصل إلى الحكم عن طريق الانقلابات، ومن ثم كان يناسبها اتباع الشمولية والمركزية السياسية المفرطة، والاعتماد على الحزب الواحد، وإقامة اقتصاد الدولة من خلال تأميم الثروات ونزع ملكيتها، حتي تصبح الحكومة قادرة على التدخل اجتماعيا واقتصادية، وتستطيع الإنفاق على جهازها الأمني، ومن ثم تحافظ على النظام السياسي.

لكن المؤسف حقا أن خلفت هذه الموجة العارمة نخب سياسية وثقافية تربعت على قمم مجتمعاتنا الإسلامية، يعملون ضد ما أمر به الإسلام، ويكيدون لأهله، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ومن الأمثلة المبكرة التي تدعو للعجب أن ينسب أمير الشعراء أحمد شوقي الاشتراكية للإسلام وهو في معرض مدحه لرسول الله صلي الله عليه وسلم . في قصيدة نهج البردة فيقول:

الاشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوي القوم والغلواء

تغنيها «أم كلثوم» الملقبة «بسيدة الغناء العربي»... والله يشهد وملائكته وأولوا العلم أن رسول الله برىء من الاشتراكية، التي إذ طبقت ضاع نصف الإسلام!!

ولم يكن أحمد شوقي آخر من نسب الاشتراكية للإسلام ظلما.

العشرين، ومن ثم تغلغل الاتحاد السوفيتى فى بلدان الأمة الإسلامية ثقافيا، ومن خلال تقديم المعدات العسكرية والخبرة العسكرية بأسعار رخيصة نسبيا، لضعف قيمة الروبل وثباته، وعدم تأثره بارتفاع الأسعار العالمية.

وعلى الجانب الآخر امتلكت الولايات المتحدة الأمريكية المبادأة الاستراتيجية وحافظت عليها، واعتمدت فى تدخلها فى بلدان الأمة الإسلامية على المعونات الاقتصادية[1] ، وتقديم القروض، وبيع السلاح، وإقامة القواعد العسكرية تنفيذا لمبدأ «القوة البحرية» الذى صاغه الأدميرال «ألفريد ما هان»، وتابعه بنشاط وفاعلية كل الرؤساء الأمريكين، وبصفة خاصة منذ تولى جون كينيدى الرئاسة، وحتى سيطر جورج بوش على مصادر البترول فى اخليج عام 1991م ... ومن ثم كانت الحركة الاستراتيجية الكوكبية السوفيتية طوال فترة الحرب الباردة ، فى الغالب الأعم، مجرد رد فعل للحركة الأميريكية فى إطار نظرية «توازن القوى» balance of Power ، التى كانت القوتان العظيمان تعتبرها الضمانة الوحيدة للسلام العالمى (لا يقصد بالسلام العالمى سوى السلام فى أوروبا، وعدم قيام حرب عالمية ثالثة يكون نتيجتها تدمير القوتين العظميين جميعا).

وقد يكون مناسبا أن نعرض لبعض تفاصيل الاستراتيجيتين الأميريكية والسوفيتية على المسارح العالمية، التى توافقت القوتان العظميان على إدارة الصراع بينهما عليها:

مسرح الشرق الأوسط ؛ كان، ولا يزال، هو المسرح الأكثر أهمية، والذى يحتل الأسبقية الأولى ، بعد أن استبعدت أوروبا من أن تكون مسرحا للصراع بين القوتين

---

(1) ومن الطريف المحزن في آن واحد أن نجد كتابا أمريكيا يعرض للمعونات الخارجية الأمريكية في «العالم الثالث» خلال الثمانينيات فيصدّر «باور» P.T. Bauer الذي ينسب إليه الفصل العشرون مقالته بفقرة يرويها عن الشيخ محمد عبده، قالها في لندن عام 1884م.

«لا تحاولوا أن تسدوا إلينا بالمزيد من الإحسان . فإحسانكم قد سبب لنا بالفعل الكثير من الضرر» (الشيخ محمد عبده، مصرى ، لندن عام 1884م).

"Do not at tempt to do us any more good. your good has done us too much harm already."

-- Peter Duignan - Alvin Rabushka, eds. The United States in 1980 s, Croom Helm London - Hoover Institition Press Stanford, Clifornia, P. 559.

العُظْميين، ويرجع ذلك لأسباب عقدية / اقتصادية / جيوستراتيجية/ تاريخية / حضارية متداخلة[1].

وإذا كانت روسيا قد اقتطعت جزءا عزيزا من الأمة الإسلامية، نمت فيه معظم حضارتها، ألا وهو بلدان وسط آسيا والقوقاز، اقتطعته روسيا وألقت عليه بظلالها الماركسية الإلحادية البغيضة، ومن ثم أصبحت حدودها متاخمة لحدود «منطقة الشرق الأوسط»، بحسب تعريفها الجيوبوليتيكى الغربى خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، فإن الولايات المتحدة الأميريكية لم تنتظر حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانسحاب الإمبراطوريتين الإمبرياليتين (البريطانية والفرنسية) من المنطقة، بل بدأت تدخلها منذ عام 1942م عندما أنشأت «مركز المعونة الأميريكية»، وجعلت مقره مصر، ثم تواجد الأسطول الأمريكى، دون منافس فى شرق البحر المتوسط منذ عام 1945م. وكانت الشركات الأمريكية تنقب عن البترول فى المملكة العربية السعودية من قبل ذلك.

كانت أولى المواجهات بين القوتين العظميين فى إيران عام 1946م عندما رفض الاتحاد السوفيتى سحب قواته من إقليم أذربيجان (شمال غرب إيران) تنفيذا للاتفاق بينه وبين التحالف الغربى إبان الحرب العالمية الثانية، وبدلا من الانسحاب قام الاتحاد السوفيتى بتعيين حكومة محلية شيوعية هناك، وضغط على الحكومة الإيرانية كى تعطى تنازلات فى مجال البترول ... وكانت أولى القضايا التى بحثتها الأمم المتحدة هى «القضية الإيرانية»، ونتج عنها أول نصر للمعسكر الليبرالى على المعسكر السوفيتى فى أروقة الأمم المتحدة .. والمفعول به أرض إسلامية، وثروات إسلامية.

حدث نفس الشىء فى تركيا، إذ ضغط الاتحاد السوفيتى عليها كى تسلمه إقليم كارس Kars شمال شرقى البلاد، والملاصق لأرمينيا السوفيتية، كى تمارس الدولتان سيادة مشتركة على مضيق الدردنيل، فكان نتيجة ذلك تدفق المساعدات الغربية إلى تركيا، وقبولها بعد ذلك كعضو فى حلف شمال الأطلسى (رغم أنها دولة ذات شعب مسلم ونظام حكم

(1) The New Encyclopoedia Britanica, 1985, International Relations, P.805.

وقد كان لانعقاد أول مؤتمر قمة عامة 1943م، في طهران، بين ستالين وروزفلت وتشرشل، لبحث إقامة الأمم المتحدة، دلالة واضحة على أهمية هذه المنطقة في المرحلة القادمة.

علماني) .. وتداعت الأحداث في اليونان فكانت الحرب الأهلية التي استمرت ثلاث سنوات؛ حتى تم الإطاحة بالحكومة الماركسية عام 1949م، وأصبحت اليونان أيضا عضوا في حلف شمال الأطلنطي، وأغلق شرق البحر المتوسط أمام الاتحاد السوفيتي.

توافقت القوتان العُظْميان، كما أوضحنا من قبل، على تقسيم فلسطين، وعلى الاعتراف «بالدولة العبرية» في فلسطين، وعلى دعمها عسكريا وسياسيا أثناء قتالها ضد العرب عام 1948 / 1949 (1) ، وقد انضمت بريطانيا وفرنسا إلى الولايات المتحدة الأميريكية فأصدروا ما سمي بالإعلان الثلاثي في 25 مايوم عام 1950م، ويقضي بالتعهد بأن يتدخلوا تدخلا عسكريا مباشرا لوقف أي انتهاك لخطوط الهدنة بما يعرض أمن إسرائيل للخطر.

بدأ صراع أجهزة الاستخبارات الأميريكية، خاصة «وكالة الاستخبارات المركزية» سي . آي. إيه» CIA، والسوفيتية، خاصة «لجنة أمن الدولة» «كي . غي . بي» KGB، على أرض إيران، من أجل السيطرة على البترول، الذي كانت تتولى استخراجه وتكريره وبيعه شركة الزيت الأنغلو ـ إيرانية AICO . ففي يوم 30 أبريل 1951 أعلن محمد مصدق رئيس الوزراء الإيراني تأميم الشركة، وتبع ذلك مقاطعة البترول الإيراني من جانب شركات البترول الست الكبرى آنذاك. أدى ذلك إلى تدهور الاقتصاد الإيراني، وسادت البلاد فوضى سياسية.

لم يجد مصدق مخرجا من الأزمة إلا اللجوء إلى الرئيس الأمريكي الجديد «دوايت أيزنهاور» فأرسل إليه رسالة في 9 يناير 1953م جاء ردها في اليوم التالي أن أمريكا سوف تنظر في موضوع فتح الأسواق أمام البترول الإيراني. وفي آخرمايو بعث مصدق رسالة أخرى كان ردها بعد شهر برفض طلبه. وفي 22 يوليو صدق الرئيس الأمريكي كيرميت روزفلت Kermit Roosevelt الاتصال بالشاه، وبالجنرال فضل الله زاهدي، وبآخرين من الجيش والشرطة والعامة. فأثيرت اضطرابات ضد مصدق يوم 18 أغسطس، وعين زاهدي رئيسا للوزراء يوم 19 أغسطس عام 1953م، وحصلت إيران على تسعمائة ألف دولار فورا من ميزانية الاستخبارات ، ثم على 45 مليونا كمنحة طوارئ. وفي أكتوبر 1954م صدق

(1) دائرة المعارف البريطانية ، المرجع السابق ، صـ 806 .

البرلمان الإيراني على أن تقوم خمس شركات أمريكية كبرى بإنتاج وتوزيع البترول مقابل أربعين بالمائة من قيمته، تقتسمها فيما بينها. وتزايد التواجد الأميريكي في إيران منذ ذلك الحين، بحيث أصبحت إيران في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين أحد دعامتين Two Pillars استراتيجيتين ترتكز عليهما أمريكا في منطقة الخليج خاصة ، والشرق الأوسط بصفة عامة (هما إيران والمملكة العربية السعودية). وظل الوضع هكذا إلى أن أطاحت الاستخبارات الأمريكية بالشاه في 16 يناير 1979م بعد أن استنفد دوره والغرض من وجوده[1].

وبنجاح وكالة الاستخبارات المركزية الأميريكية في هذه المهمة أصبحت الأعمال السرية أحد أهم وسائل تنفيذ الاستراتيجية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، وللاتحاد السوفيتي ، بحيث أنه ما من انقلاب عسكري تم منذ خمسينيات القرن العشرين ، إلا وكان من تدبير ومساعدة لجهاز استخبارات إحدى القوتين العظميين، وتكون النتيجة الطبيعية أن تحمل الحكومة التي أتى بها الانقلاب الجميل في عنقها لولي نعمتها. ويكون الثمن أن تصبح الدولة تابعة لهذه القوة العظمى التي أتت بالحكومة الجديدة على رأس البلاد، تسير في فلكها، لا تخرج عنه إلا لتلحق بفلك القوة العظمى الأخرى، من خلال انقلاب جديد غالبا.

ترتب على ذلك أن أصبحت «البلدان التابعة» Satellite States تعتمد على القوة العظمى اعتماد الرضيع على ثدي أمه. أدى ذلك إلى سلب الإرادة السياسية من البلدان التي أُطلِق عليها «العالم الثالث» (ومنها كل بلدان الأمة الإسلامية)، ومن ثم لم يعد بمقدور الأمة الإسلامية ككل، ولا بلدانها فرادى، أن تمارس دورا فاعلا على المسرح الدولي، واكتفت كل منها بلعب الدور الذي رُسم لها في إطار إقليمي، أو شبه إقليمي.

ذلك، ولم تشذ الحركة المصرية التي قام بها «الضباط الأحرار» في مصر في 23 يوليو 1952م عن هذا السياق، إلا أنها كانت تتميز بخصوصية أضفاها عليها زعيمها «جمال عبد الناصر» بشخصيته «الكاريزمية»، وطموحاته الواسعة، وقدرته على إيجاد قاعدة شعبية

(1) William Stivers, America,s ConFrontation With Revolutionary Change in The Middle East (1948 - 1983), Macmillan Press, 1986, PP. 19 - 20& P. 85.

واسعة، انبهرت بخطاباته ، ليس فقط فى مصر، ولكن أيضا فى البلدان العربية، وبعض البلدان الإسلامية والأفريقية.

قاد جمال عبد الناصر الحركة المصرية، وله صلات قوية بأجهزة الاستخبارات فى كل من القوتين العظميين؛ مع الاتحاد السوفيتى لأسباب «أيديولوجية»[1]، متوسطة وبعيدة المدى، ومع الولايات المتحدة الأمريكية، لأسباب تكتيكية قصيرة المدى تتمثل فى الاعتماد على الولايات المتحدة الأمريكية كى تمنع بريطانيا، التى كانت تحتفظ بأكبر قواعدها فى ما وراء البحار (52000 جندى) فى قناة السويس، تمنعها من التدخل فى الأحداث التى جرت على أرض مصر منذ ليلة 23 يوليو 1952، وكى تقوم بدور الوسيط بين مصر وبريطانيا من أجل تحقيق الجلاء عن قناة السويس، فقد كان هذا هو أول أهداف «ثورة» يوليو 1952م.

لم تأخذ الولايات المتحدة الأمريكية طبيعة فكر جمال عبد الناصر، ولا طبيعة التحول الاجتماعى الذى كان بصدد إحداثه، رغم نزعه لملكية الأرض الزراعية، الأكثر من مائتى فدان ، فى 9 سبتمبر 1952، بهدف إعادة توزيعها، ورغم إلغائه النظام الحزبى، الذى كان سائدا فى مصر من ثلاثة عقود، وذلك فى 18 يناير 1953م، ورغم إصداره كتاب «فلسفة الثورة» عام 1954م يحمل أفكاره الاشتراكية.

وربما عرفت ذلك وقبلت التعايش معه من منطلق «براغماتى»، أملا فى تطويعه، لذا فمنذ انفرد جمال عبد الناصر بالسلطة فى أبريل 1954م كانت هناك مقابلات يومية بينه وبين ضابطى الاستخبارات الأمريكيين كرميت روزفلت Kermit Roosevelt، ومايلز كوبلاند Miles Copeland.[2] لكن إسرائيل سارعت، من خلال جهازى استخبارتها (الموساد – أمان) ، ومن خلال التنسيق ، الذى كان قد تم بين وكالة الاستخبارات الأميريكية CIA،

---

(1) كان جمال عبد الناصر يعتنق الفكر الاشتراكي الماركسي منذ اللحظة الأولى (كتابه فلسفة الثورة، الفصل 30:25 / الجزء الأول) ، فقام بصياغة النموذج العربي للماركسية، الذي سمى بعد ذلك بالناصرية، ولم يكن في هذا مبتدعا تماما، فقد اقتبس أفكار حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث شعاره الذي كان (وحدة، حرية، اشتراكية)، فجعله (حرية اشتراكية وحدة). وكان يتصور إمكان الاستقلال عن القوتين العظميين من خلال اتباع أفكار «عدم الانحياز» التي صاغها في الأربعينيات «جواهرلال نهرو» رئيس وزراء الهند، وإقامة تجمع عربي اشتراكي من الخليج إلى المحيط .. يتولى زعامته.

(2) William Stivers , P.24.

وجهاز موساد الإسرائيلى منذ عام 1951م، وتنامى بسرعة مذهلة، ومن خلال عمليات التخريب التى قام بها عملاء إسرائيليون ضد المركز الثقافى الأمريكى وأهداف أخرى عام 1954 [1] ثم قيام إسرائيل بشن غارة كبيرة على قطاع غزة، الذى كان تابعا للإدارة المصرية، وذلك يوم 28 فبراير 1955م ، ورفض كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا طلب مصر بإمدادها بالسلاح، فى حين كانت الدول الثلاث تقوم بإمداد إسرائيل بكل ما تطلبه من سلاح متقدم[1].

أدركت الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الأوروبية (التى خرجت من الحرب العالمية الثانية فى حالة ضعف اقتصادى وعسكرى شديدين)، أن العصر الإمبريالى قد ولىّ. وعلى حين أن فرنسا لم تقبل هذا الواقع، فخاضت قواتها حروبا ضارية ضد حركات التحرير الشعبية، خاصة فى الجزائر والهند الصينية، ولاقت عنتا شديدا إلى أن استطاعت أن تجد مخرجا من معضلتها، بابتكار فكرة تجمع الدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون)، فحافظت على علاقات ثقافية واقتصادية، ونقدية، بل وعسكرية، مع معظم الدول التى كانت تحتلها. على حين كان هذا مسلك فرنسا، فإن بريطانيا قبلت بالأمر الواقع تحت ضغط من أمريكا، التى كانت تستعد للحلول محلها، كذا تحت ضغط «حركات التحرر الشعبية».. ومن ثم بدأت الانسحاب من إمبراطوريتها شرق السويس، مع إقامة علاقة خاصة بين بعض هذه البلدان والتاج البريطانى فى إطار «الكومنولث» ، وكان منها الهند (التى ظلت إسلامية ستة قرون)، ولم تتركها بريطانيا إلا بعد أن قسمتها فى أغسطس عام 1947م إلى دولة الهند «العلمانية» اسما ، والهندوكية حقيقة، ودولة باكستان المسلمة، المنقسمة إلى شطرين، بينهما الهند، وأقامت التقسيم على أساس بقاء معظم الثروة والموارد فى الهند[2] .. كما أنها أنشأت مشكلة دائمة تثير الصراع الذى لا ينقطع بين الهند وباكستان هى مشكلة «جامووكشمير»،

(1) سميت هذه العملية بالعملية «سوزانا» ، كما اشتهرت بقضية لافون (أو فضيحة لافون)، نسبة إلى وزير الدفاع الإسرائيلى، الذي قيل إنه أمر بتنفيذها. وكانت تستهدف إلقاء القنابل على سينمات، ومكاتب بريد، ومنشآت بريطانية وأمريكية بهدف استثارة غضب «واشنطون» و«لندن»، وإظهار الحكومة المصرية في حالة عجز تجعلها غير صالحة كحليف للغرب! وقد بدأت العملية في شهر يوليو 1954م، وفشلت ، وقبض على بعض منفذيها من اليهود ...

(2) The New Encyclopaedia Britanica, Pakistan, P. 389.

الواقعة فى شمال كل من الهند وباكستان . وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى «لجامووكشمير» من المسلمين .

فقد تواطأ المجتمع الدولى «الصهيونى الصليبى»، داخل وخارج الأمم المتحدة، على خلق هذه المشكلة، واضحة الحل، بالوقوف إلى جانب الهند، التى احتلت قواتها جزءا من كشمير، يوم 27 أكتوبر 1947م، وبذا صارت «جامووكشمير» ذات الأهمية الاقتصادية والجيوستراتيجية الكبيرة أسيرة، ومصدر تهديد مستمر لباكستان بل وكانت السبب المباشر فى غزو الهند (تؤيدها القوتان العظميان والمجتمع الدولى) لباكستان الشرقية، كى تفصلها عن الدولة الأم، وتقيم دولة جديدة هى «بنغلاديش»، فى ديسمبر 1971م، وتنصب عليها حكومة ماركسية رأس وزراءها الشيخ مجيب الرحمن فى يناير عام 1972م... والأمة الإسلامية شاهدة صامتة!

انسحبت بريطانيا من فلسطين فجأة ، وأتمت انسحابها ليلة إعلان قيام «دولة إسرائيل»، ثم بدأت تتفاوض مع حكومة الثورة فى مصر، منذ عام 1953م للجلاء عن السودان ومصر.. ووقعت اتفاقية للجلاء عن السودان فى 12 فبراير 1953م ، وعن مصر، فى 18 يونيو 1954م.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكيةى لتترك الميدان للاتحاد السوفيتى ، بل كانت تعد العدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية للحلول محل بريطانيا وفرنسا.. لذا ما أن وصل «دوايت أيزنهاور» إلى البيت الأبيض فى يناير 1953م حتى أعلن عن مبدئه الاستراتيجى المعتمد على «ملء الفراغ» فى الشرق الأوسط، و«احتواء» الاتحاد السوفيتى من خلال محاصرته بمجموعة من الأحلاف العسكرية تتكامل مع «حلف شمال الأطلنطى».

وقد اعتمد فى صياغة مبدئه الاستراتيجى على مذكرة أعدها «مجلس الأمن القومى» NSC جاء فيها:

«إن مما يزيد صعوبة تحقيق الأهداف الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط انتشار الفقر، وعدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى والسكانى، وضعف الكفاءة الإدارية للأنظمة القائمة، وتصاعد المد القومى، بسبب ضمان الولايات المتحدة الأمريكية لأمن إسرائيل، وبسبب الثورات القائمة بين البلدان فى المنطقة، كتلك اللتى بين الهند وباكستان،وبين العرب وإسرائيل».

ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعتقد من مطلع القرن العشرين أن من أهدافها القومية «بناء قوة مسلحة تكون قادرة على مواصلة شن حرب هجومية كلما سنحت الفرصة» (1) فقد جاء مبدأ أيزنهاور كما يلى: (2)

«يجب على الولايات المتحدة الأميريكية أن تستعد لاستخدام القوة المسلحة لتأمين وحماية الوحدة الإقليمية للدول التى تطلب هذه المساعدة، وأن تحفظ استقلالها فى مقابل أى عدوان تشنه دولة أخرى تسيطر عليها الشيوعية العالمية» . من أجل ذلك سعى أيزنهاور إلى:

ـ تقوية الحزام الاستراتيجى الشمالى لمنع توسع الاتحاد السوفيتى (الذى يعتنق فكرة القوة البرية، كما ذكرنا من قبل)،وذلك من خلال إقامة «حلف بغداد» الذى ضم: العراق، وتركيا، وبريطانيا، وباكستان ، وإيران ، وانضمت إليه الولايات المتحدة الأمريكية فى الأول من فبراير عام 1958م، وسعت أمريكا لضم مصر إليه، لكنها لم تفلح...

ـــ محاولة إقامة سلام عربى / إسرائيلى ، كى لا يكون هناك عداء للولايات المتحدة الأمريكية.

ـ منح معونات اقتصادية لدول الشرق الأوسط مع الاستعداد للتدخل عسكريا ضد أى جماعات شيوعية مسلحة... وقد كان التدخل فى لبنان عام 1958م تحت هذه المظلة، رغم أن أزمة لبنان كانت بين رئيسها المارونى كميل شمعون وزعماء المسلمين، فاستدعى شمعون القوات الأميريكية لحمايته، فوصل بيروت أربعة عشر ألف جندى من قوات البحر الأمريكية.

ظلت مصر، كما كانت منذ الحروب الصليبية ، العصر الإمبريالى ـ بسبب موقعها الجيوستراتيجى، ووزنها الثقافى ـ بمثابة مفتاح «الشرق الأوسط». وقد كانت هذه هى نظرة الولايات المتحدة الأمريكية أيضا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد بنيت استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد أيزنهاور على هذا الأساس.

سعت أمريكا لمحاولة إقامة علاقات متوازنة بين الفريقين المتصارعين[3]، بدءا بتعليق

(1) Rodee & Others, Introduction to Political Sience, P. 376.

(2) Text in Us Department of State, United States Policy in the Middle East, September 1956 - June 1957 (Washington, DC: GPO, 1957), 15 - 23 .

(3) كانت هذه فكرة وزير الخارجية «جون فوستر دالاس»، والتي تقدم بها في صورة مذكرة في مطلع عام 1953م «لأيزنهاور» ، ملقيا اللوم علي الإدارات الأمريكية السابقة، التي كانت تخضع تماما لرغبات الصهيونية. =

المساعدات الاقتصادية لإسرائيل فى 20 أكتوبر 1953م عندما بدأت إسرائيل العمل على إقامة محطة كهرومائية فى المنطقة منزوعة السلاح بينها وبين سوريا، وكان المشروع يستلزم تحويل نهر الأردن، فتخلت إسرائيل عن مشروعها حتى بدأت العمل فيه مرة أخرى فى مطلع الستينيات، وبلغت غايته عام 1964م.

من جهة ثانية عملت أمريكا كوسيط فى مباحثات سلام بين جمال عبد الناصر وبن غوريون، خلال نائب وزير الدفاع الأمريكى «روبرت أندرسون» من منتصف يناير حتى أواخر أبريل 1956م ، على أساس ترسيم حدود بين مصر وإسرائيل، وتعويض اللاجئين الفلسطينيين (تسعمائة وأربعين ألفا آنذاك)، من قرض دولى تسهم فيه الولايات المتحدة الأمريكية ... وكان دالاس هو الذى طرح هذا الاقتراح فى أغسطس 1955م .. لم يكن مثل هذا الاقتراح ليرضى الصهيونية العالمية.

لم يكن الاتحاد السوفيتى ليقف موقف المتفرج، فاستبق الباب (مصر) ليقدم صفقة الأسلحة التشكيكية لمصر، بموجب اتفاقية وقعت فى 27 سبتمبر 1955م بعد رفض الدول الثلاث الضامنة لأمن إسرائيل بيع السلاح لمصر.

كانت إسرائيل تعد للحرب وهى تعلن أنها على استعداد لإقامة السلام. وقد ألمح «بن غوريون» إلى هذا ـ لتهيئة الرأى العام ـ فى خطاب له فى 2 نوفمبر 1955م، فرد جمال عبد الناصر محاولا تهدئة الموقف ، إذ لم تكن مصر قد تسلمت السلاح الذى تعاقدت عليه، ومن ثم لم تكن القوات المسلحة المصرية قد تدربت عليه استعدادا لقتال .. فصرح جمال عبد الناصر بأن مصر ليس لديها أية نية لمهاجمة إسرائيل، وإنما هى على استعداد للبحث عن حل وسط لتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم 181 فى 29 نوفمبر 1947م.

كان طبيعيا ألا تدخل مصر حلف بغداد إرضاء للاتحاد السوفيتى الذى أمدها بالسلاح. ورغبة فى تطويع الإرادة المصرية سحبت الولايات المتحدة الأميريكية عرضها بتمويل بناء السد العالى فى مصر يوم 19 يوليو 1956م، وتبعتها بريطانيايوم 20 يوليو، فالبنك الدولى للإنشاء والتعمير (التابع لمنظمة الأمم المتحدة) يوم 21 يوليو ... أمم جمال عبد الناصر «الشركة العالمية لقناة السويس البحرية فى خطاب استعراضى أخذت به الباب الجماهير، وزاد شعبية جمال عبد الناصر باعتباره أول زعيم قادر على تحدى إرادة القوى الكبرى منذ وقع محمد على اتفاقية لندن الشهيرة.

= وقد اقتنع بها أيزنهاور، لكنه فشل في وضعها موضع التنفيذ بسبب تأصل النفوذ الصهيوني في بلاده ووصوله إلى كل مؤسسات صنع القرار ، والاقتصاد ، والمال ، والسينما والإعلام والنشر :

Willim Stivers, PP. 14 - 16.

كان بن غوريون ، الذى عقد العزم على العدوان، قد انسحب من المباحثات غير المباشرة مع جمال عبد الناصر فى أواخر أبريل 1956م بحجة عدم قبوله إلا بمباحثات مباشرة، لم يكن الرئيس المصرى ليجرؤ على الإقدام عليها ... وبمجرد تأميم قناة السويس سعت إسرائيل بما لها من نفوذ صهيونى فى فرنسا وبريطانيا[1]، لشن حرب ثلاثية يتم من خلالها فتح مضيق باب المندب أمام الملاحة الإسرائيلية العلنية، فضلا عن بروزها فى قناة السويس تحت علم دولة أخرى، بموجب قرار مجلس الأمن فى أول سبتمبر 1951م ... ولإجهاض القوات المسلحة المصرية قبل أن تستكمل استعدادها...

كانت فرنسا، ورئيس وزرائها الصهيونى «غى موليه» ، من أشد المتحمسين لتسليح إسرائيل وإعدادها لجولة جديدة[2]، تحقق بها قدرا أكبر من أهدافها . وقد زاد من هذا الحماس إلقاء مصر بثقل كبير فى معاونة «جبهة التحرير الوطنى الجزائرية» بالمال والسلاح، منذ عام 1954م ، الأمر الذى أرهق فرنسا. وقد انطلق موقف مصر من منطلق «قومى عربى اشتراكى» ، لاقى قبولا عند قادة الجبهة أمثال «بن بلاّ» ، و«هوارى بومدين»، أول رئيسين للجزائر بعد استقلالها عن فرنسا عام 1962م .. على الرغم من أن الإسلام كان لحمة الثورة

---

(1) Jeon D. Epstien, British Politics in the Suez Crisis, Univrersity of Illinois Press, Urbana, 1964, PP. 173 - 198.

كان عدد اليهود في بريطانيا عام 1880م حوالي ستين ألفا، وكان وزنهم أضعافا مضاعفة لهذا العدد كما ذكرنا من قبل، وقد بلغ عددهم عام 1914م ربع المليون يهودي، وفي الخمسينيات بلغ العدد قرابة أربعمائة وخمسين ألفا. وفي عام 1990م بلغ العدد ثلث المليون ، ولهم اثنان وعشرون مقعدا في البرلمان (أى أكثر من خمسة أضعاف نسبتهم العددية لإجمالي الشعب البريطاني). وبالمقارنة نجد أن مسلمي بريطانيا يصلون ثلاثة ملايين وليس لهم عضو واحد في البرلمان

وفي الثالث والعشرين من مارس 1990م أذاعت إذاعة لندن BBC خطابا بصوت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر في حشد من الجالية اليهودية في لندن حثت فيه الشعب البريطاني باتخاذ اليهود قدوة لهم لأنهم منضبطون، كرماء ، ذوو أخلاق ، ويهتمون بالشئون العامة.

ويبلغ عدد اليهود المنضمين لحزب المحافظين الحاكم في التسعينيات ضعف عددهم في حزب العمال.. وكان الأمر خلاف ذلك في الثمانينيات.

(2) راجع يوسي ميلمان ـ دان رافيف ، الجواسيس غير الكاملين ، ترجمة لواء أح د. فوزي محمد طايل، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة، ط 1، 1994، صـ 131 .

فقد كثفت فرنسا من رحلات النقل التي تحمل الأسلحة ، والذخائر ، وأحدث الدبابات والطائرات الفرنسية آنذاك منذ أبريل عام 1956 ، استكمال لتنفيذ صفقات تم عقدها خلال عام 1955م.

وسداها ومحركها الوحيد.

تم التآمر الثلاثى ، على الأرض الفرنسية ، بتعاون سياسى وعسكرى واستخباراتى، منذ شهر أبريل 1956م ، وتم الاتفاق المبدئى بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا على القيام بعمل عسكرى مشترك فى شهر أغسطس ، وتم التوقيع على التفاصيل فى بروتوكول «سيڤر» (من ضواحى باريس) يوم 24 أكتوبر 1956 (1) وبدأت إسرائيل تنفيذ المؤامرة مساء يوم 29 أكتوبر، ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب، من خلال «السيناريو» المحكم يوم 31 أكتوبر، انطلاقا من ميناء «فاليتا» بمالطة، ومن الجزائر، ومن قبرص، و«الحبّانية» بالعراق ، و«هويلس» بليبيا. وخصصت فرنسا غطاء جويا فوق إسرائيل، وجسرا جويا لنقل وحداتها المظلية التى بدأت «العدوان الثلاثى» فى سيناء.

ورغم انشغال أيزنهاور فى الانتخابات الرئاسية للمدة الثانية، وانشغال الاتحاد السوفيتى فى القضاء على محاولتى الانقلاب ضد النظامين الشيوعيين فى بولندا والمجر، فقد كان هناك تنسيق كامل بين إسرائيل والولايات المتحدة(2)، صاحبة توافق كامل بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى على أن تكون نهاية عام 1956، هى نهاية بريطانيا وفرنسا كدولتين إمبرياليتين كبيرتين.. وتم تسخير الأمم المتحدة لهذا الغرض ، وكأنما كلتا الدولتين لا تملكان حق النقض (الفيتو) فى مجلس الأمن! ذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية مارست ضغطا عليهما من طريق آخر ، هو التهديد بوقف القروض الممنوحة لهما من صندوق النقد الدولى.. وكانتا فى أمس الحاجة لها.

نتج عن ذلك العدوان الصهيونى ، من البداية إلى النهاية ، وعن الحل الصهيونى الذى وُضع لتصفيته ، أن تم تأمين حدود إسرائيل ، مع مصر وقطاع غزة، بقوات طوارئ دولية، تابعة للأمم المتحدة، وفتح مضيق تيران(3)، أمام مرور السفن الإسرائيلية ، تحت حماية قوات الطوارئ ، التى تواجدت فى شرم الشيخ .. وحصلت إسرائيل من فرنسا على مفاعل نووى

---

(1) وقع الاتفاق «ديفيد بن غوريون» رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، و«غي موليه» رئيس وزراء فرنسا، وسلوين لويد وزير خارجية بريطانيا، في حضور موشي ديان رئيس الأركان العامة الإسرائيلي.

(2) المرجع السابق ، صـ 131-132 .

(3) كانت مصر قد استأجرت جزيرتي تيران وصنافير المتحكمتين في المضيق، استأجرتهما من المملكة العربية السعودية يناير عام 1950م ، وذلك لغلق مضيق تيران أمام استخدام ميناء إيلات في الملاحة من إسرائيل إلى البحر الأحمر، وذلك بعد أن استولت إسرائيل ، عقب توقيعها لاتفاقتي الهدنة مع مصر والأردن على قرية أم رشراش المصرية وحولتها إلى ميناء سمته إيلات، تربطها بالدول الواقعة علي المحيط الهندي. =

بقدرة 24 ميغاوات ، وعلى مئات الخبراء والفنيين، و «المعرفة الفنية» Know How اللازمة لإقامته، لتنتج إسرائيل بعد ذلك سلاحا نوويا، بعد أقل من خمس عشرة سنة، وتصبح بذلك خامس دولة نووية .

وقد نتج عن العدوان الصهيونى على مصر عام 1956م أيضا فائدة كبيرة حصلت عليها إسرائيل ، وهى قيام الرئيس جمال عبد الناصر بطرد واحد وعشرين ألف يهودى ، عام 1957م ، وصادر ممتلكاتهم . ولا ندرى ما إذا كان يدرك أن ما تم الاستيلاء عليه من مال لا يساوى تحقيق أول وأهم أهداف الصهيونية العالمية، وجوهر فكرتها ، وهو هجرة اليهود إلى فلسطين[1]...

= وقد أصدر مجلس الوزراء المصري قرارا في 18 مارس 1951م بإغلاق خليج العقبة أمام السفن الحربية والتجارية الإسرائيلية ، بعد إبلاغ القنصليات الأجنبية أن مضيق تيران مياه إقليمية مصرية.

* يمكن القول إن اليهود كانوا روادا في مجال علم التكنولوجيا النووية ، «فأينشتين»، وأوبنهيمر» يهوديان ألمانيان هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. وقد تولى اليهود نقل التكنولوجيا النووية إلى الاتحاد السوفيتي، سرا عن طريق عالم الفيزياء الألماني كلاوس فوشس» ، منذ عام 1942م، ومن ثم تمكن الاتحاد السوفيتي من إنتاج قنبلته في سبتمبر 1949م.

وقد كان «موريس سيردان» (موشى سيردان)، اليهودي الذي ولد في القرم عام 1913م هو الذي تولى البرنامج النووي الفرنسي، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهو الذي أسهم في نقل التكنولوجيا النووية إلى إسرائيل منذ عام 1952م حينما أنشأت لجنة الطاقة الذرية ، وتسلمت مفاعلا طاقته 5 ميغاوات، من الولايات المتحدة عام 1955م، في إطار برنامج الرئيس أيزنهاور «الذرة من أجل السلام»، وركبته في مستعمرة «ناحال سوريك»، واستخدمته في الأبحاث .. أما المفاعل الذي تسلمته إسرائيل من فرنسا فقد تم تجهيزه في «ديمونه» بصحراء النقب، تحت غطاء مصنع نسيج . قامت إسرائيل بسرقة 110 رطلا من اليورانيوم المخصب من شركة أمريكية يرأسها «زالمان شابيرو»، اليهودي ، الذي كان يستشعر ولاءه للصهيونية ، فيسر لهم الحصول على هذه الكمية ، التي لم يكتشف سرقتها إلا عام 1965 م .. وبدأت رحلة إنتاج السلاح النووي الإسرائيلي!

(1) يذكر صموئيل أتينجر في كتابه سالف الذكر ، ص ص 418:439 أنه منذ نهاية عام 1917م عقدت في الإسكندرية والقاهرة عدة مؤتمرات صهيونية شارك فيها الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان ، وشارك فيها آلاف من الشباب اليهودي، وعدد من قادة الحكومات المصرية والوجهاء ، وأنشئت «اللجنة العامة لصالح أرض إسرائيل» منذ عام 1918م فأسهمت طوال العشرينيات في نقل آلاف من يهود أوروبا إلى فلسطين . ووصل مصر منذ عام 1940م آلاف من الجنود اليهود ، وعقدوا منتديات صهيونية بالقاهرة والإسكندرية، وشكلوا جمعيات صهيونية مختلفة ، وأعادوا تأسيس «الاتحاد الصهيوني المصري» عام 1945م ، والذى ظل يمارس نشاطه بشكل قانوني حتى عام 1948م، رغم تنامي الشعور المعادي للصهيونية في مصر منذ أوائل الأربعينيات.

وقد كان في كل من تونس والجزائر وليبيا والمغرب نشاطات صهيونية شبيهة طوال الأربعة العقود الأولى من القرن العشرين . وكان نفوذ اليهود أكبر ما يكون في المغرب . وكان يهود المغرب أكثر اليهود تأييدا للفكرة الصهيونية . وهاجر عشرات الآلاف منهم حتى عام 1955م إلى إسرائيل.

** مع ذلك ، فقد يكون هذا أهون مما حدث فى تونس والمغرب، فقد تولى اليهود فى عهد كل من الرئيس التونسى الحبيب بورقيبه، وملك المغرب السابق محمد الخامس ، والحالى ، الحسن ، مناصب وزارية ، ومناصب استشارية على أعلى مستوى ، فيسروا الهجرة اليهودية إلى إسرائيل ، وإلى فرنسا.

أحرز الاتحاد السوفيتى نصرا «أيديولوجيا» فى المنطقة على ثلاث جبهات: فقد حدثت وحدة بين مصر وسوريا ـ وكانت مصر قد دخلت بداية الطريق إلى الاشتراكية . أعلن قيام «الجمهورية العربية المتحدة» فجأة يوم 22 فبراير 1958 ، وقد خلا دستورها ـ عن عمد ـ من أى ذكر للهوية الإسلامية .. وفى العراق حدث انقلاب عسكرى[1] فى 14 يوليو 1958م قاده عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ، أعلن الهوية الإسلامية للعراق، والوحدة بين العرب والأكراد، ثم ما لبث أن نحىّ عبد الكريم قاسم نائبه عبد السلام عارف، ليتحالف مع الشيوعيين، وليخرج العراق من حلف بغداد، ثم ليطيح حزب البعث العربى الاشتراكى بقاسم عام 1963م.

لم تكن الجمهورية العربية المتحدة مقبولة لدى إسرائيل ، ولا القوتين العظميين،ولا المملكة العربية السعودية، ولا الأردن، فما لبث أن شهدت انقلابا انفصاليا قام به حزب البعث العربى الاشتراكى السورى فى سبتمبر 1961م، فى الوقت الذى أعلن فيه جمال عبد الناصر قراراته الاشتراكية.

وفى جنوب شبه الجزيرة العربية بدأت حركة مقاومة شعبية (ماركسية) ضد الاحتلال البريطانى.

ولم يكد عقد الستينيات يبدأ حتى كان معظم البلدان الإسلامية تتعامل تجاريا، وعلى نطاق واسع مع الاتحاد السوفيتى، وتستورد منه السلاح، وتستقبل خبراءه العسكريين ، وفى مجال الصناعة ، وتقديم الخبرات الإنشائية (لإقامة السد العالى فى مصر) ، وكانت معظمها من خلال قروض . وتنامت الروابط الثقافية والأيديولوجية معه.

---

(1) ثارت في نفس التوقيت الحرب الأهلية الأولي في لبنان ، ورست سفن من الأسطول الأمريكي السادس على شواطئه، وسارعت بريطانيا بإرسال قوات مظلية رابطت في الأردن بموافقة من الملك حسين.

كان رد الفعل الأمريكى ، منذ نهاية الخمسينيات هو اعتبار أن المحيط الهندى قد أصبح منطقة بالغة الأهمية، وأن أوْلى المصالح الأمريكية بالرعاية تقع فى منطقة الخليج (حيث البترول).

لذا توجهت الولايات المتحدة الأمريكية، التى كان لها تواجد عسكرى وبترولى فى كل من الظهران بالمملكة العربية السعودية منذ عام 1945م ، كما بدأ استخدام قاعدة الظهران الجوية عام 1947م، وفى ميناء المنامة بالبحرين منذ عام 1949م، توجهت منذ نهاية الخمسينيات إلى وضع «المبدأ الجيوبوليتيكى» «للقوة البحرية»، الذى صاغه الفريد ماهان فى نهاية القرن التاسع عشر، لتحقيق الهيمنة الكوكبية، من خلال السيطرة البحرية على المحيط الهندى، وضعه موضع التنفيذ، وذلك بأن تحل الولايات المتحدة الأمريكية محل التواجد الإمبريالى الأوروبى، «لملء الفراغ»، خلال عقد الستينيات.

وما إن تولى «جون كينيدى»[1] رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية بمطلع عام 1961م حتى أعلن عن مبدئه الاستراتيجى الذى سماه «الحدود الجديدة»، ومفاده اعتباره المحيط الهندى (بذراعيه الخليج والبحر الأحمر) بمثابة المسرح الحيوى لنشاط الولايات المتحدة الأمريكية؛ ومن ثم فعلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تنشئ قوة بحرية، تابعة لها فى المحيط الهندى بصورة مستديمة، وأن تحافظ على الوجود البريطانى العسكرى شرق السويس، إلى أن تحصل الولايات المتحدة الأمريكية على جزر، وشواطئ مطلة على المحيط ، فى جنوب شرقى آسيا، وشرق أفريقيا، والخليج الفارسى تمكنها من إدارة عملياتها بالمحيط الهندى.

لم يتخلف الاتحاد السوفيتى عن الولايات المتحدة الأمريكية، وإن اختلفت آلية الحركة

---

(1) كان مبدأ جون كينيدى في الشرق الأوسط أنه على أمريكا ألا تخدع نفسها بالتقليل من شأن العرب، وأن عليها أن تقيم توازنا بين العرب وإسرائيل، دون أن تلجأ إلى إقامة نظم عربية عميلة لها في المنطقة. (راجع William Stivers, P.38) ... بيد أن كينيدي ما لبث أن قتل في أواخر نوفمبر عام 1963م، وقُتل قاتله في السجن قبل أن يُحاكم، كي تختفي بصمات الأصابع الصهيونية التي تمكنت من استخدام وكالة الاستخبارات الأميريكية CIA لتتخلص من ذلك الرئيس «العقبة»، ولتأتي «بليندون جونسون» الذي كان لا يرى العالم إلا بعيون صهيونية . فقد كانت بطانته، وخاصة أصدقائه من اليهود.

للهيمنة الكوكبية ؛ فقد تدخل من خلال التواجد العسكرى / السياسى المصرى فى اليمن فى أعقاب الانقلاب الذى قام به العقيد «عبد الله السلال» ، رئيس الأركان اليمنى فى 26 سبتمبر 1962م، وأعلن أن هدفه إقامة جمهورية «اشتراكية» على النمط المصرى. وكان الاتحاد السوفيتى أول دولة تعترف بالحكومة الجديدة فى 28 سبتمبر ، تلتها مصر يوم 29 سبتمبر، بعد أن وصلت طلائع القوات المصرية إلى اليمن .. وجرى قتال حدودى بين المملكة العربية السعودية (التى لجأ إليها إمام اليمن) تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية، وتشاركها قوات أردنية، وبين اليمن يدعمها الاتحاد السوفيتى، وقوات مصرية بلغت أكثر من ثلث القوات المسلحة. وانشغلت مصر كلها بهذه الحرب فى الوقت الذى كانت إسرائيل تعد فيه لجولة جديدة، خاضتها ضد مصر وسوريا والأردن[1] فى 5 يونيو 1967م، وتواطأ فيها مع إسرائيل كل من الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية، وسكرتير عام الأمم المتحدة[2] .. واجتاحت إسرائيل الجيوش العربية، التى لم تكن لها عقيدة قتال، ولا خطط للهجوم أو للدفاع، فاحتلت إسرائيل سيناء والضفة الغربية والقدس والجولان.

كان المكسب الذى حققه الاتحاد السوفيتى من وراء حرب اليمن وهزيمة العرب كبيرا، فقد غرست بذرة الاشتراكية فى اليمن، وسارت الاشتراكية فى مصر وسوريا إلى أقصى اليسار، وقويت شوكة الثوار الماركسيين فى «عدن»، فأصدرت بريطانيا «كتابها الأبيض» فى فبراير عام 1966م أوضحت فيه أن بريطانيا سوف تنسحب من «عدن»، ومن «اتحاد محميات الجنوب» بمنطقة الخليج بحلول عام 1968م، لتتم انسحابها بنهاية عام 1971م.

سارع الاتحاد السوفيتى، الذى كانت له تسهيلات بحرية فى موانئ مصر، سارع إلى

(1) انعقد أول مؤتمر قمة عربي في سبتمبر عام 1964م بسبب اتضاح نية إسرائيل السير قدما تجاه تحقيق مشروعها الصهيوني، وأنشئت قيادة عربية مشتركة (على الورق فقط) بعد ستة عشر عاما من قيام إسرائيل، وبعد أربعة عشر عاما من توقيع بروتوكول التعاون الاقتصادي والدفاع المشترك ، الذي لم يحدد من هو العدو؟
وفي الوقت الذي كانت إسرائيل تعد للجولة الجديدة، وتوسع نطاق الاشتباكات الحدودية مع سوريا والأردن أعلن رئيس وزرائها «ليفي أشكول» في 17 مايو 1965م ما سماه «مشروع السلام»، وما كان سوى مناورة تكتيكية يؤهل بها الرأى العام العالمي لقبول ما ستقوم به إسرائيل بعد عامين بالضبط .. وقد قبل الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ذلك المشروع، وحاول الترويج له، لكنه لم يلق أذنا صاغية.

(2) راجع لواء أح د. فوزي محمد طايل، النظام السياسي في إسرائيل، الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 1962م، ص 244:239 .

المحيط الهندى، عبر البحر الأحمر، ليضع جانبا من قواته البحرية فى جزيرة «سومطرا»، التابعة لجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية (عدن) منذ مطلع عام 1968م، بينما سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الخليج لحماية مصالحها البترولية هناك ... وذلك من خلال تجهيز عدد من القواعد البحرية فى سواحل شرق أفريقيا، وسواحل بحر العرب، وإعداد جزيرة «ديغوغارسيا»[1]، كى تصبح حاملة طائرات ضخمة، ومركز للتموين والاتصال، فضلا عن القاعدتين الأمريكيتين فى الظهران بالمملكة العربية العسودية، والمنامة بالبحرين.

لم يكن «لليندون جونسون» فكر استراتيجى يذكر، فاستنفذ مهمته فى توريط بلاده فى حزب فيتنام، التى أحدثت هزة عنيفة للهيبة الأميريكية، وعقدة نفسية لدى الشعب الأمريكى، كما أمد إسرائيل بالدعم غير المحدود قبل وبعد عدوان عام 1967م، وسار جونسون خطوات محدودة تجاه تنفيذ مبدأ كينيدى الذى يقضى «بالتواجد البحرى فى ما وراء الأفق».

استعان «ريتشارد نيكسون» منذ توليه رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عام 1969م «بهنرى كيسنجر»، كمستشار للأمن القومى، ثم جُمع إليه فيما بعد منصب وزير الخارجية. ويمكن وصف فترتى رئاسة نيكسون، رغم انقطاع الثانية باستقالته، بسبب فضيحة تجسسه على منافسه فى الانتخابات، فى ما سمى «فضيحة» «ووترغيت» Water - Gate، بأنها كانت الحقبة التى أعيد فيها صياغة العلاقة بين القوتين العظميين، من خلال اتفاقية «الانفراج» de'tente ، فى مايو 1972م، والتى أدت إلى بداية انسحاب الاتحاد السوفيتى تدريجيا من المسرح العالمى ، وتقدم الولايات المتحدة الأمريكية تدريجيا، فأقامت قناة للعلاقات مع الصين الشعبية ، وانفردت بحل الصراع بين إسرائيل ومصر (أهم جبهات

---

(1) جزيرة «ديغوغارسيا» Diego Garcia تقع شمال المحيط الهندي، على مسافة 2400 ميلا بحريا من الساحل الغربي لماليزيا، وألف ميل بحري من الساحل الجنوبي للهند، و2500 ميلا بحريا من مضيق هرمز، جنوب الخليج الفارسي، وألفي ميل بحرى من الساحل الشرقي لتنزانيا. وهي جزيرة كانت تابعة لبريطانيا، استأجرتها منها أمريكا لمدة خمسين عاما، منذ سنة 1965م، لتجهزها كقاعدة بحرية / جوية/ برية أمريكية رئيسة، يمكن استخدامها في التدخل السريع. وقد قامت بريطانيا بإجلاء أهالي الجزيرة منها عام 1968م، وأعادت توطينهم في جزر موريس، وبدأ تجهيز الجزيرة في ربيع عام 1976، لتصبح مرتكزا مناسبا لعمل قوات القيادة المركزية CENTCOM التي بدأ إعدادها منذ عام 1981م.

الصراع العربى/ الإسرائيلى)، وتمت تسوية الحرب فى فيتنام ، وتركزت الجهود الأمريكية حول صياغة وتنفيذ استراتيجيتها فى المحيط الهندى.

وقد كان هنرى كيسنجر هو الذى صاغ كل هذه الاستراتيجيات، وأشرف على تنفيذها، بل وكان هو متخذ القرار الحقيقى فى الولايات المتحدة الأميريكية، خاصة فى مدة رئاسة نيكسون الثانية ، التى انشغل فيها بفضيحته ، التى استُخرجت له لتسير الأمور بالطريقة التى ذكرناها حالا.

تبنى نيكسون فكرة فصل منطقة الخليج العربى (الفارسى) عن باقى منطقة الشرق الأوسط، بسبب أهيمته الحيوية، لوجود معظم احتياطى البترول العالمى به.. وأصبحت الولايات المتحدة تتحرك فى هذه المنطقة فى إطار استراتيجية شاملة لحوض المحيط الهندى، الذى اعتبرته أمريكا أنه يحتل أعلى درجات الأولوية.

ومن ثم طرح نيكسون فكرة الاعتماد على «دعامتين» فى الخليج هما إيران، والمملكة العربية السعودية، على أن تقوم أمريكا بإمدادهما بالسلاح، والتدريب، والمعونة الفنية، و«اللوجستية»[1]، مقابل توليهما مهمة تحقيق الاستقرار فى المنطقة، والقيام بمهام رجل الشرطة فى الخليج.[2]

ورغم حصول إيران على سلاح متقدم من أميريكا إلا أنها حصلت أيضا على أنواع من السلاح المتقدم من الاتحاد السوفيتى ، خاصة فى مجال الدفاع الجوى.

وقد كانت العلاقات الإيرانية / الإسرائيلية قوية ، على كل المستويات، بما فى ذلك العلاقات العسكرية والاستخبارية ، منذ الستينيات، ومع ذلك فقد عملت الولايات المتحدة الأمريكية على إيجاد محور استراتيجى بين إيران ومصر، يقوم على أساس العلاقة

(1) ليس لكلمة Logistics مقابل في العربية، وهي تعني كل أعمال «النقل والتخزين والإعاشة» الخاصة بالقوات المسلحة.

(2) تطلع شاه إيران إلى القيام بأكثر من دور الحارس للمصالح الأمريكية، فاستولى على جزيرتي طنب، وأبو مسوى، وتطلع إلى ضم البحرين، بل والهيمنة على بحر العرب وشمال غرب المحيط الهندي.. وبعد أن قضى على التمرد الماركسي الذي حدث في إقليم ظفار بعمان عام 1972م زادت طموحاته، فقامت الولايات المتحدة الأمريكية بالإسهام في عملية الإطاحة به عام 1979م.

الشخصية بين زعيمى الدولتين، من أجل الضغط على كل من سوريا والعراق، فتنضمّان إلى أية تسوية سلمية مستقبلية مع إسرائيل.

ولنفس السبب شجعت الولايات المتحدة الأمريكية قيام محور شبيه بين زعيمى مصر والمملكة العربية السعودية، وذلك منذ نبذت مصر التحالف الاستراتيجى مع الاتحاد السوفيتى، بطردها الخبراء العسكريين السوفيت فى شهر يونيو 1972م، وهى تستعد لجولة رمضان 1393هـ (أكتوبر 1973م) التى استهدفت «إزالة الجمود العسكرى»، و«تسوية النزاع العربى الإسرائيلى»، على المدى القريب، وتحقيق ما سمى «السلام الشامل الدائم» فى المدى البعيد[1] .. وهو جوهر فكرة «النظام العالمى الجديد»، كما أوضحنا تفصيلا من قبل.. ومع ذلك فقد كانت جولة رمضان علامة بارزة فى التاريخ وبرهانا من الله على صدق ما جاء فى كتابه العزيز: ﴿ .. وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم / 47].

ولئن كان هنرى كيسنجر قد بدأ التحرك فور انتهاء القتال ، لفض الاشتباك على الجبهتين المصرية والسورية، مع إسرائيل، ثم الإعداد لتوقيع إطار لتسوية «الصراع العربى/

---

(1) بالرجوع إلى كتاب الرئيس المصرى محمد أنور السادات «البحث عن الذات» نجده قد حدد التوجيه السياسي للقوات المسلحة المصرية يوم الخامس من رمضان 1393هـ (الأول من أكتوبر 1973) كما يلي:

« ... تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى عن طريق عمل عسكري حسب إمكانات القوات المسلحة يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو ... ذلك سوف يؤدى إلى تحقيق نتائج محققة...:

ـ في المدى القريب : ... في الإمكان أن نصل إلى حل مشرف لأزمة الشرق الأوسط.

وفي المدى البعيد: فإن تحدى نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدى بالتراكم إلى تغيير أساسي في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية» (صـ 436 وما بعدها).

وفي يوم التاسع من رمضان (الخامس من أكتوبر) أصدر توجيها استراتيجيا للقائد العام للقوات المسلحة جاء فيه:

... قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية:

ـ إزالة الجمود العسكرى الحالي بكسر وقف إطلاق النار اعتبارا من يوم 6 أكتوبر 1973م.

ـ تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

ـ العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

ـ تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية (صـ444).

وفي حديث للرئيس محمد حسنى مبارك (قائد القوات الجوية في حرب رمضان) أدلى به يوم السادس من أكتوبر 1994م لبرنامج «صباح الخير يا مصر» في القناة التليفزيونية الأولى قال: «إن إقرار السلام كان الهدف من الحرب».

والحقيقة أن مصر حددت هدف «السلام» في دستورها الصادر في 11 سبتمبر 1971م كأول أهدافها، فجاء في ديباجة الدستور: (أولا) السلام لعالمنا ....

الإسرائيلي»، ومن ثم «اتفاقيات سلام» بين إسرائيل وجاراتها على التوالى، فإن الولايات المتحدة الأمريكية أمدت إسرائيل بسيل من الأسلحة المتطورة بلغ ثمنها 3400 مليون دولارا فى المدة من 1974 حتى 1977م، لتصبح إسرائيل، على حد تعبيرهم، «القوة العظمى الإقليمية».

وقد كان من النتائج ذات التأثير العالمى بعيد المدى لحرب رمضان قيام فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية بدعوة الدول العربية إلى خفض تصدير البترول بنسبة خمسة بالمائة كل شهر اعتبارا من 17 أكتوبر 1973م، حتى تنسحب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها عام 1967م. فاستجابت للنداء الدول الخليجية والعراق وسوريا ومصر وليبيا والجزائر، ولم تشارك عمان ، وفى شهر نوفمبر تم خفض الإنتاج بنسبة 25 بالمائة، وحظره كلية عن كل من الولايات المتحدة وهولندا (بسبب تأييدها المطلق لإسرائيل لكبر الجالية اليهودية وقوة تأثيرها هناك)

ولا يمكن تصور إقدام المملكة العربية السعودية على هذه الخطوة الخطيرة إلا بموافقة الولايات المتحدة الأميريكية شريكها الاستراتيجى، ومصدرها الوحيد للسلاح، ومستودع معظم إيداعاتها البترو دولارية.

لقد كانت خسارة الولايات المتحدة الأميريكية من هذا الحظر البترولى ضئيلة بالنسبة للمكاسب الكبيرة التى حصلت عليها: فبينما نجد أن اليابان كانت تستورد 80 بالمائة من احتياجاتها البترولية من الشرق الأوسط، وتستورد أوروبا 64 بالمائة من احتياجاتها من نفس المنطقة، نجد أن الولايات المتحدة لا تستورد سوى 7.9 بالمائة فقط من احتياجاتها من الشرق الأوسط، فى الوقت الذى نجد أن للشركات الأمريكية التى تعمل فى مجال البترول هناك، وأهمها الشركة العربية الأمريكية Aramco، مصلحة كبيرة فى ارتفاع سعر البترول، الذى بلغ أربعمائة بالمائة بحلول شهر يناير 1974م .. ولا شك أن هذا الحظر قد أدى إلى تضاعف الإيداعات البترودولارية فى البنوك الأمريكية، بل وأحدث انتعاشا فى قطاع استخراج البترول بداخلها ، لتعويض الكمية التى أصابها الحظر الكلى..وهذا بدوره سيزيد من حصيلة الضرائب ومن الدخل القومى للإجمالى.

من جهة أخرى كانت الولايات المتحدة ترغب في ممارسة ضغط تجارى على كل من اليابان، التي بدت كعملاق اقتصادى، بدأ يغزو الأسواق الأمريكية بمنتجاته الرخيصة نسبيا والتى تُرضى الذوق الأمريكى، كذا على المجموعة الاقتصادية الأوروبية (EEC) [1] التى كانت قد دخلت المرحلة الثانية من سعيها نحو إقامة سوق أوروبية مشتركة، ثم وحدة أوروبية اقتصادية، الأمر الذى يوجد منافسا قويا للولايات المتحدة الأمريكية فى الأسواق العالمية.. فنقص البترول سوف يؤدى إلى ترشيده ، من ثم تقليل الطاقة المستخدمة فى المصانع، فيقل الإنتاج. كما أن ارتفاع أسعار البترول (الذى كان لا يتناسب مع قدر تخفيض الإنتاج، لوقوع شركات احتكار تسويق البترول عالميا «الكارتيل» فى أيدى الصهيونية العالمية) سوف يؤدى إلى ارتفاع أسعار المنتجات الأوروبية واليابانية فيقل الطلب عليها، وتقل قدرة المجموعة الأوروبية أيضا على تمويل خط الغاز الذى كان قد اتفق على مده من سيبيريا إلى أوروبا الغربية.

ذلك فضلا عن أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت راغبة فى أن تثور هذه الأزمة حتى تكون ذريعة لها كى تشدد قبضتها على منابع البترول بحجة حماية المصالح الغربية بصفة عامة. وقد نجحت فى إدارتها لهذه الأزمة المختلفة، فلم يكد يمر على قرار الحظر البترولى خمسة أشهر؛ حتى تم رفعه فى شهر مارس 1974م، وعاد سفراء أمريكا إلى دول إمارات الخليج، وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية تنفيذ خطة لاستهلاك إيداعات الدول العربية البترولية فى بنوكها ، من خلال بيع السلاح المتقدم، وتقديم الخبراء، والمعونة الفنية. كما بدأت حركة متنامية لاستقبال أبناء الخليج فى جامعاتها، بهدف إحداث تغييرات اجتماعية

---

(1) بانتهاء الحرب العالمية الثانية خرجت أوروبا على وشك الإفلاس الاقتصادي، ولما كان أمن الولايات المتحدة الأمريكية يتأثر كثيرا بأمن أوروبا الغربية (الليبرالية)، التي تشاركها نفس القيم (الصهيونية/ الصليبية)، والتي تقف كمنطقة عازلة بينها وبين الاتحاد السوفيتي، لذا فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بدعم أوروبا من خلال «خطة مارشال» Mar-shall Plan التي تقضي بمنح مساعدات قيمتها سبعة عشر مليار دولار لأوروبا الغربية، كي تصلح اقتصادها . وضعت الخطة عام 1948م ونفذت عام 1952م. ولما خسرت بريطانيا وفرنسا حرب السويس عام 1956م، دعت فرنسا لإقامة تكامل اقتصادي أوروبى هدفه إقامة وحدة اقتصادية أوروبية ، تضم كل أوروبا، وتنفذ على ثماني مراحل كل منها أربع سنوات، فتم توقيع اتفاقية روما في 25 مارس 1957م بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ولكسمبرغ، وأصبحت سارية المفعول في أول يناير 1958م وانضمت بريطانيا والدنمارك وإيرلندا عام 1972م .. ثم أسبانيا والبرتغال واليونان والنرويج... إلخ.

وثقافية على المدى الطويل[1].

وعلى الجانب الآخر أدت حرب رمضان (أكتوبر 1973) إلى تقوية صلات الاتحاد السوفيتي الاستراتيجية والأيديولوجية بكل من حزبى البعث فى سوريا والعراق،واليمن الجنوبى، والصومال وليبيا والجزائر ، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأصبح بالنسبة لهم المورد الوحيد للسلاح، والشريك التجارى الأكبر، ومن ثم حصل على تسهيلات بحرية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى.. فى الوقت الذى كان الاتحاد السوفيتي يستعد للانسحاب من المسرح العالمى أمام الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا بمثابة تناقض غريب، يفسره وجود قيادات سياسية ونخب ثقافية على قمم تلكم البلدان، تشبثت بذيل الماركسية وهى تستعد للرحيل تدريجيا، كما يفسره رغبة الولايات المتحدة الأميريكية ألا يملأ التيار الإسلامى، الذى كان قد بدأ صحوته منذ هزيمة العرب أمام إسرائيل عام 1967م، وانفصال شطرى باكستان عام 1971م ، وازداد عزمه بما يُمكن أن يُعد نصرا لقوات إسلاميةعلى الصهيونية فى حرب رمضان 1393هـ (اكتوبر1973م)؛ رغبة الولايات المتحدة الأمريكية، وحرصها على ألا يملأ تيار الصحوة الإسلامية الفراغ الذى سيتركه انسحاب الاتحاد السوفيتى من المسرح العالمى .

ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفاؤها الغربيون، قد توقعوا منذ منتصف السبعينيات، أن الاتحاد السوفيتى سينهار نتيجة انسحابه هذا لا محالة، وأنه لن يستطيع أحد أن يوقف الصحوة الإسلامية التى انتشرت فى كل أنحاء المعمورة فقد بدأت البحوث الاستراتيجية تشير إلى ضرورة الاستعداد لمواجهة «العدو الجديد» .. الإسلام!

*** انعكس هذا المفهوم على الفكر الاستراتيجى الأميريكى، فصاغ «زبيغنيو بريجنيسكى»[2] zbigniew Bryezeinski مستشار الأمن القومي فى عهد كارتر نظريته التى تعتبر الشرق الأوسط «قوس عدم الاستقرار»، أو «قوس الأزمات» «arcof Crises» وبُنيت الاستراتيجية الأمريكية منذ عهد جيمى كارتر على ثلاث ركائز: نزع إرادة الجهاد

---

(1) Charles A. Kupchan, The Persion Gulf and the West (The Dilemmas of Security) , Boston, Allen & Unwin, 1988, P. 51.

(2) شاركه في ذلك أيضا «صمويل هنتنغتون» Samuel Huntikgton الذي أخرج عام 1994م كتابه عن صِدَام الحضارات والذي تنبأ فيه بحتمية الصراع بين الصهيونية/ الصليبية من جانب والإسلام من جانب آخر.

من المسلمين، من خلال فرض سلام بينهم وبين إسرائيل، والحيلولة دون تحول الصحوة الإسلامية إلى نهضة حقيقية، وإحداث تشوه ثقافى واجتماعى يحول دون استعادة المسلمين لمنظومة قيمهم، وتبنت الإدارات الأمريكية المتعاقبة خيار استخدام القوة المسلحة فى منطقة الخليج لهذا الغرض.

وما أن وقعت مصر وإسرائيل اتفاقيتى كامب ديفيد فى 17 سبتمبر 1978، ثم «اتفاقية السلام فى 29 مارس 1979م، وتواكب ذلك مع الثورة الإسلامية فى إيران (أغسطس 1978)، والإطاحة بالشاه (16 يناير 1979م)، وتواكب أيضا مع وصول نظام ماركسى إلى سدة الحكم فى أفغانستان (أبريل 1978م)، وغزو الاتحاد السوفيتى لأفغانستان (26 ديسمبر 1979م)، حتى صاغ جيمى كارتر مبدأه الاستراتيجى فى خطابه يوم 23 يناير 1980م أمام الكونغرس، الذى تناول فيه حالة الاتحاد State of the union :

«إن أية محاولة من قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى سوف ينظر إليها على أنها هجوم على المصالح الحيوية الأمريكية ، وسوف يتم رد هذا الهجوم بكل الوسائل بما فى ذلك القوة المسلحة».

لقد كانت تقديرات الولايات المتحدة الأمريكية أن الثورة الإسلامية فى إيران تعد التهديد الأخطر الذى يسبق تهديد الوجود السوفيتى فى أفغانستان[1] . والذى يسبق وجود أربع وعشرين فرقة سوفيتية فى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى والقوقاز.

واستعدادا للتدخل العسكري في الخليج خططت إدارة كارتر منذ مطلع عام 1980م لإنشاء قوة مشتركة للانتشار السريع RDJTF من مائتي ألف جندي تتمركز في قاعدة ماكديل MacDill الجوية بولاية فلوريدا، وتستعد للفتح في منطقة الخليج عند وقوع أزمات؛ وذلك من أجل حل مشكلات ذات طبيعة «سياسية واقتصادية واجتماعية»، قد تهدد المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية. وأن يكون تدخلها بطلب، أو بدون طلب. كما تضمن التخطيط ضرورة حمل دول المنطقة علي التعاون مع قوات التدخل الأمريكية.[2]

---

(1) Charles A. Kupchan, The Persion Gulf and the West, P. 95.

(2) أصبحت قيادة القوات المشتركة للانتشار السريع جاهزة في أول مارس 1980م، وتم توقيع اتفاقيات لتجهيز قواعد لاستقبالها في مُصيره بعمان (9 أبريل)، وومباسابكينيا، ومقديشو، وبربرة بالصومال (22 أغسطس) ، على أن تقدم هذه الدول التسهيلات والإمكانات المحلية لهذه القوات. وقد أبدت مصر تحمسا للفكرة، ويسرت استخدام مطار =

وريثما يتم إعداد قوة التدخل فى الخليج تم إشعال حرب عقيم بين العراق وإيران فى سبتمبر عام 1980م لاحتواء الدولتين «العدوتين» للمصالح الأمريكية فى المنطقة. وقد أغرت حالة عدم الاستقرار، التى تلت قيام الثورةالإيرانية، أغرت النظام العراقى البعثى على محاولة كسب إقليمى فى منطقة شط العرب بخلاف ما جاء بالاتفاقية الموقعة بين البلدين فى الجزائر عام 1975م. ولاقت هذه الحرب القبول عند الأوروبيين لتكون فرصة للتدخل فى المنطقة، وبيع السلاح والعتاد الحربى. كما كان الاتحاد السوفيتى راضيا بها للفت الأنظار بعيدا عن تدخله فى أفغانستان، ولزيادة مبيعات سلاحه إلى العراق وسوريا، أما عن الدول الخليجية (خاصة العربية السعودية والكويت) فقد كانت الحرب فرصة لإبعاد خطر العراق البعثى وإيران بثورتها الشيعية، خاصة وأن لكل من الدولتين تطلعاتها فى الخليج. ومع ذلك فقد انحازت الدول الخليجية إلى جانب العراق دبلوماسيا وماليا وإعلاميا... تمشيا مع الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة.

ولم تكن كل من مصر وسوريا أقل استفادة من غيرهم من هذه الحرب، فجنت مصر فوائد اقتصادية من زيادة حركة المرور فى قناة السويس، وتزويد العراق بالسلاح[1] .. وفوائد سياسية إذْ لم يعد بمقدور إيران تصدير ثورتها إلى مصر. وتوقف العراق ، نسبيا عن مهاجمة اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية. وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مصدرا رئيسا للسلاح إلى مصر، بعد توقف الاتحاد السوفيتى تمام عن تصديره لمصر منذ منتصف السبعينيات.

أما سوريا فقد انحازت لإيران، وأقامت محورا معها ومع حزب الله فى لبنان، فكان هذا

= غرب القاهرة، وميناء راس بناس، على البحر الأحمر، لكن دون اتفاقات مكتوبة... وبنهاية يوليو 1980 بدأ التجهيز اللوجستي والبحري لجزيرة دييجوجارسيا..وفي ١١ نوفمبر بدأت عملية نقل وحدات من الفرقة 101 المحمولة جوا إلى الجزيرة، وأجريت تدريبات مشتركة مع مصر والعربية السعودية، وتم نقل المجموعة 150 مقاتلات تكتيكية إلى الجزيرة عبر مطار غرب القاهرة: William Stivers, PP. 90 - 91.

(1) Anthony H. Cordesman, The Gulf and The West, Westview Press, Boulder -- Monsell Publishing Limited, London, 1988, P.418.

بجانب وجودها فى سهل البقاع بمثابة تعويض أمنى عن احتلال إسرائيل لهضبة الجولان. كما اتقت سوريا النزاع الأيديولوجى المحتدم بين حزبى البعث فى كل من سوريا والعراق، لانشغال الأخير في الحرب. ذلك فضلا عن استمرار تدفق السلاح السوفيتي على سوريا، بما يعوضها عن فقد تحالفها الاستراتيجى مع مصر بعد توقيعها اتفاقية السلام مع إسرائيل.

وقد ازدادت أهمية باكستان ، لكونها أقرب الدول ذات الثقل الإقليمى لمضيق هرمز، وبسبب وجود حدود مباشرة لها مع أفغانستان، استغلت فى دفع المجاهدين لقتال الجيش السوفيتى وحلفائه؛ بعد تسليحهم وتدريبهم قرب الحدود. وقد تلقت باكستان الكثير من احتياجاتها من التسليح من الولايات المتحدة الأمريكية فى مقابل ما أعطته من تسهيلات فى موانيها للأسطول السابع الأمريكى الذى كان قد بدأ تكثيف تواجده فى المحيط الهندى.

يسرت هذه الظروف لباكستان إمكانية السير قدما فى برنامجها النووى، فى محاولة للحاق بالهند التى كانت قد فجرت قنبلتها النووية الأولى عام 1974م[1].

فإذا ما عدنا لتطور الاستراتيجية الأميريكية فى منطقة الشرق الأوسط منذ بداية عهد «رونالد ريغان» فى يناير 1981م نجد أنها قامت على إطلاق يد إسرائيل فى الشمال (فلسطين، ولبنان، والجولان) والإعداد للتدخل بالقوة المسلحة فى منطقة الخليج... مع

---

(1) أنشأت الهند هيئة الطاقة النووية عام 1954م، وبنت أول مفاعلاتها النووية عام 1958م، في «أبسارا» Apsara ، وقد دخلت الهند مجال الفضاء بإطلاق أول قمر صناعي باستخدام صاروخ سوفيتي عام 1975م، ثم بصاروخ هندي عام 1980م، ودشنت أول غواصة ذرية من طراز «شاكرا» Shakra في قاعدة فيشاك vishak البحرية يوم الرابع من فبراير 1988م، ودخلت غواصتها الثانية الخدمة عام 1991م. وتنتج الهند السلاح المتقدم بترخيص من الاتحاد السوفيتي، وفرنسا وأمريكا.

ذلك، وتتوافر لباكستان كل مقومات الدولة النووية من علماء للفيزياء النووية ، منهم من حصل على جائزة نوبل، وهو البروفيسور عبد السلام، فضلا عن المهندسين والفنيين ، وبباكستان منجم لليورانيوم في «باجالشور» يقدر ما به بحوالي عشرين ألف طن من الخام. ولدي باكستان، منذ الستينيات معملان نوويان في لاهور، ومفاعل أبحاث بنته الولايات المتحدة الأمريكية عام 1965م بطاقة 5 ميجاوات في روالبندي. وبنت مفاعلا للطاقة الكهربائية في «كاهوتا» بطاقة 125 ميغاوات، بدأ العمل به عام 1972م بالتعاون مع شركة جنرال الكيتريك الكندية. وبنت مفاعلا آخر بالغرب من إسلام أباد عام 1987م.. ولها تعاون نووي مع الصين وإيران.

محاولة إيجاد رابطة بين المسرحين الفرعيين:

ـ فمنذ يناير 1981م كانت سياسة «ريغان» تقوم على ألا تمارس الولايات المتحدة الأميريكية أى ضغط على إسرائيل فى ما يختص بالقضية الفلسطينية، والأراضى المحتلة بعد عام 1967م. ولتخفيف الضغط عن إسرائيل حاولت الولايات المتحدة الأمريكية إقناع العربية السعودية بأن الخطر السوفيتى أكبر وأهم من تهديد إسرائيل لها، وقدمت على ذلك دليلا هو إمدادها بست وعشرين طائرة من طراز 15 -- FI ، فى السادس من مارس عام 1981م، وكان اعتراض إسرائيل عليها مظهريا، ردت عليه أمريكا بأن هذه الأسلحة لن تستخدم ضد إسرائيل! وفى أبريل باعت أمريكا للسعودية خمس طائرات للإنذار المبكر من النوع المتقدم طراز AWACS ، وهو ما لم تزود به أية دولة أخرى، بما فى ذلك إسرائيل ومصر اللتان حصلتا على طراز آخر هى A2C . على أن طائرات الإنذار المبكر الموجودة بالعربية السعودية كانت قد وضعت تحت قيادة أطقم أمريكية،ولا تخرج إلا فى إطار خطة أمريكية للإنذار المبكر فى كل المنطقة. وتم إعداد القواعد الجوية اللازمة لاستقبال وإقلاع هذه الطائرات جميعا،والتخطيط على تزويد العربية السعودية بالمزيد من هذه الطائرات خلال الثمانينيات وما بعدها.. الأمر الذى رفع عدد الخبراء الأمريكيين، فأصبح عددهم منذ الثمانينيات يربو على خمسين ألفا، يتزايدون بتنوع وزيادة كمية التسليح، وبتطور تجهيز مسرح العمليات فى منطقة الخليج ككل.

استغلت إسرائيل هذه الظروف وقامت بضرب المفاعل النووى العراقى، بالغرب من بغداد فى السابع من يونيو 1981م.. وفى الشهر التالى بدأت إسرائيل قصفا جويا منتظما على لبنان.. ومع ذلك وقعت أمريكا وإسرائيل فى 30 نوفمبر «مذكرة للتفاهم الاستراتيجى يتضمن القيام بمشروعات مشتركة فى البحر المتوسط، والصيانة، والتدريب،والبحوث، وإنشاء البنية الأساسية.

أصدر الكنيست الإسرائيلى فى 14 ديسمبر 1981 قانونا أساسيا (لا يجوز تعديله أو إلغاؤه إلا بموافقة ثلثى المجلس، بضم مرتفعات الجولان ـ التى كانت إسرائيل قداحتلتها عندما

اعتدت على سوريا فى شهر يونيو 1967م.

التقى وزير الخارجية الأمريكى «الكسندر هيغ»، ووزير الدفاع الإسرائيلى «آريل شارون» فى شهر مايو 1982م بواشنطون واتفقا على أن تقوم إسرائيل باجتياح لبنان اعتبارا من السادس من يونيو 1982م بهدف ضرب منظمة التحرير الفلسطينية[1]، وتأمين جنوب لبنان بتواجد إسرائيلى هناك، يستمر بعد انسحاب إسرائيل من لبنان بما يمكن من منع مهاجمة الجليل الشمالى من الأراضى اللبنانية.

وفى مجال التدخل بالقوة المسلحة فى منطقة الخليج نجد أن «رونالد ريغان» لم يأت بمبدأ استراتيجي جديد، بل بنى على مبدأ كارتر، وطوره. لذا أعلن وزير الدفاع الأمريكى «كاسبر واينبرغر» Casper Weinberger يوم 24 أبريل 1981م ضرورة زيادة حجم وقدرات القوات سريعة الانتشار، وإنشاء قيادة جديدة لها. وبالفعل تضاعف حجم هذه

---

(1) بعد تأمين الجبهة المصرية مع إسرائيل من خلال اتفاق سلام، لم يعد هناك عقبة أمام تصفية القضية الفلسطينية سوى تطويع كل من منظمة التحرير الفلسطينية لتقبل بواقع ابتلاع إسرائيل لمعظم أرض فلسطين، وتطويع سوريا وإضعافها تمهيدا لابتلاعها في المدى المتوسط، وصولا إلى «نهر الفرات». وقد أديرت حرب لبنان عام 1982م، بموافقة كاملة من جانب الولايات المتحدة ، بل وأعلنت إدانتها لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تستخدم جنوب لبنان في تهديد شمال إسرائيل. وأعلن الكسندر هيج أن : «تنظيف إسرائيل للبنان من منظمة التحرير الفلسطينية يحقق المصالح الأمريكية».. وفي السابع من يونيو تحدث «هيغ» عن نتائج القتال، مشيرا إلى خسائر إسرائيل فقال: «لقد خسرنا طائرة هيليكوبتر بالأمس»! مما أحدث خلافا بينه وبين شخصيات من الإدارة الأمريكية أدت إلى استقالته يوم 25 يونيو !! وخلفه «جورج شولتس»، الذي عمل على إجلاء منظمة التحرير الفلسطينية عن بيروت في أول سبتمبر في الوقت الذي كان «ريغان» يوجه خطابا عن الشرق الأوسط قال فيه: «لقد منحتنا حرب لبنان فرصة جديدة للسلام في الشرق الأوسط»! وقدم اقتراحا بحكم ذاتي فلسطيني في غزة والضفة الغربية مع إقامة وحدة مع الأردن.. ولم يتحدث عن مصير مليونين ونصف المليون من اللاجئين الفلسطينيين . ولم يرفض أى من القادة العرب «مبادرة ريغان»، في حين رفضتها إسرائيل.. فتراجع ريغان عن مبادرته يوم الخامس من سبتمبر .. وأعقب هذا انفجار سيارة نقل ملغومة في معسكر لجنود البحر الأمريكيين ببيروت فقتلت منهم المئات، فانسحبت القوة الأمريكية يوم العاشر من سبتمبر، بعد أن حصلت إسرائيل على موافقة بتحريض ميليشيات «إيلى حبيقة» المارونية كي تقتحم معسكرى «صابرا وشاتيلا» لذبح الفلسطينيين العزل من السلاح طوال 36 ساعة متواصلة، تحت حماية القوات الإسرائيلية!

القوة بنهاية عام 1982م ليصبح أربعمائة وأربعين ألف جندى(1)، وضعت منذ الأول من يناير تحت ما سمى بالقيادة المركزية والأميريكية USCENTCOM، وصدر عن «البنتاغون»

(1) «بدأت فكرة قوات الانتشار السريع منذ عهد كينيدى إذ أنشأ قوات خاصة تحت مسمى «ذوو القلنسوات الخضراء» Green Berets لتعمل كقوات حرب عصابات فى الدول النامية. وقد استخدمت بعد ذلك فى فيتنام. وفى أغسطس 1977م صدرت التوجيهات الرئاسية رقم 18 بإنشاء قوات الانتشار السريعة RDF للاستيلاء على آبار بترول الخليج باستخدام القوة المسلحة..

ذلك وتتكون قوات «القيادة المركزية الأمريكية»، التى أنشئت من أجل «التواجد العسكرى / السياسى الأمريكى فى المنطقة من باكستان حتى المغرب»، تتكون من:

- خمس فرق [محمولة جوا - فرسان جو - اقتحام جوى - مشاة - مشاة ميكانيكى].
- فرقة جنودبحر، وفوج جنود بحر معهم طائراتهم.
- وحدات صاعقة وحرب غير تقليدية.

يبلغ إجمالى الدبابات طراز M-60 575 دبابة.

- سربان من القاذفات الاستراتيجية.
- عشرة أجنحة مقاتلة تكتيكية.
- خمسة أسراب قتال ضد الغواصات.
- مجموعة قتال بحرى ، وثلاث سفن نقل جنود.
- ثلاث حاملات طائرات.
- يبلغ إجمالى طائرات المعاونة 364 طائرة قتال، و438 هيليكوبتر.
- تبلغ إجمالى طائرات النقل 80 طائرة طراز C-54 نقل ثقيل، و234 طراز C-14 نقل متوسط، وعدد من طائرات النقل الخفيف طراز C-130، فضلا عن التخطيط لاستخدام 220 طائرة نقل مدنية.
- وتبلغ إجمالى السفن المستخدمة للقتال 600 سفينة ، وللنقل 100 سفينة، ويمكن لطليعة هذه القوات (كتيبة قوات بحر محمولة جوا مكونة من 1800 فرد بمعداتهم وأسلحتهم) أن تصل إلى المكان المحدد خلال 48 ساعة ، يلحق بها لواء محمول جوا (3000 فرد بمعداتهم وأسلحتهم) يصل خلال أربعة أيام... وقد وضع فى التخطيط أن تتمركز مركز قيادة هذه القوات فى كراتشى بباكستان».

المرجع:

-- Yevgeni Rumyantsev, Indion Ocean and Asian Security, Allied Publishers Private Limited, Ahmed abad & other cities, 1988, PP. 105 -- 111.

-- Mcnaugher, Arms and Oil, 55, 65, and Us Congress, Senate, Armed Services Committe, Department Of Defense Authorization For Appropriations For Fiscal Year 1983, Pt. 1, 292.=

(وزارة الدفاع الأمريكية) توجيهات دفاعية عن المدة من 1984 حتى 1988م للتخطيط من أجل «التدخل الأمريكى المباشر باستخدام القوة المسلحة حينما تسنح الظروف بذلك».

ذلك، وقد تحدد مسرح عمليات القوات التابعة للقيادة المركزية ليكون من باكستان حتى المغرب، مع اعتبار منطقة الخليج ـ على حد تعبير «كاسبر واينبيرغر» ـــ هى مركز الصراع العالمى فى المستقبل المنظور.

ذلك؛ ويتم تدبير بعض هذه القوات من القوات الأمريكية العاملة ضمن حلف شمال الأطلنطى، على أن يتولى الحلفاء تعويضها بإمكاناتهم عند استخدامها، والبعض الآخر من هذه القوات يتم سحبها من منطقة المحيط الهادى..

وفضلا عن إعداد جزيرة «ديغوغارسيا» بالممرات الجوية، والمخازن، وإمكانات الاتصال، ومراسى السفن.. إلخ للفتح الدائم لجزء من الأسطول السابع، ولاستقبال قوات القيادة المركزية عند استخدامها، خاصة الغواصات «تريدنت» Trident، والقاذفات الاستراتيجية B-52 ، فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإقامة البنية الأساسية، والتعديلات اللازمة فى عدد من القواعد الجوية والبحرية على جانبى البحر الأحمر والبحر العربى، وخليج عمان، والقرن الأفريقى، والخليج.. وأجرت التدريبات المشتركة مع قوات «البلدان الصديقة».

فقد بدأت تدريبات «النجم الساطع» Bright Star عام 1981م بالتعاون مع القوات المسلحة المصرية، والسودانية، والصومالية،على أراضى هذه البلدان، وتحولت منذ عام 1983م إلى مناورات سنوية.

كما بدأت مناورات «النمر المجهد» Jade Tiger فى عمان، وهذه يشارك فيها القاذفات الاستراتيجية B-52 ، وحاملة الطائرات الأمريكية Enterprise ، وطائرات الإنذار المبكر

= «وقد خُطط أن يضاف إلى هذه القوة فرقة باكستانية من عشرين ألف رجل، تصل إلى العربية السعودية خلال 24 ساعة» ؛ بيد أن أحداث أزمة الخليج (2 أغسطس 1990م) لم تسر على هذا المنوال إذ استمرت باكستان على موقفها الحيادي الذي اتخذته منذ الحرب العراقية / الإيرانية، ومن ثم رفضت الإسهام في ما سمى بعملية «عاصفة الصحراء»، ففرضت عليها الولايات المتحدة عقوبات، وحجبت عنها المعونة العسكرية، وجمدت صفقة سلاح دفع ثمنها مقدما، واستبدلت الهند بباكستان لفتح مركز السيطرة على قوات القيادة المركزية .. ولم ترفع العقوبات، ولم يفرج عن صفقة السلاح جزئيا إلا من سبتمبر 1995م!!

AWACS من العربية السعودية.

فضلا عن مناورات «المنارة الجنوبية» Southern Beacon التى تبدأ من ميناء مومباسا بكينيا حتى استراليا.وهذه بدأت منذ يناير 1983م.

أوضح «واينبرغر» ، وزير الدفاع الأمريكى، فى أكتوبر 1984م، فى خطاب له، الظروف التى تستخدم فيها القوات المسلحة الأمريكية فقال: «لن يتم دفع القوات المسلحة الأمريكية إلا لتحقيق الأهداف الأمريكية الحيوية، وفى ظروف يغلب فيها كسب المعركة، وإلا فلا يتم دفعها على الإطلاق.. ومن الضرورى أن يتم تحديد الأهداف السياسية والعسكرية بدقة إذا ما أردنا دفعها للقتال فيما وراء البحار، وأن تكون القوات المرسلة قادرة على تحقيق تلك المهام. ولا يجب أن تكلف أية قوة بمهام قتالية إذا ما خرجت بهدف «حفظ السلام».

وقد انعكست النظرة الاستراتيجية الأمريكية فى عهد «ريغان» على صياغة الأهداف القومية الأمريكية الستة [1]، التى نجد الأربعة الأولى مشتركة مع كل الأمم، أما الخامس والسادس من هذه الأهداف فنجدهما وقد صيغا كما يلى:

ـ الحفاظ على النظم «العلمانية» الحاكمة فى المنطقة من المغرب حتى باكستان فى مقابل تصدير «الأصولية الإسلامية المقاتلة» من إيران، ومنع انتقال الحماس الثورى إليها والإطاحة بها.

ـ **إيقاف خطر الإرهاب** الذى يعد مكونا فى السياسات الخارجية لحكومات مثل ليبيا وسوريا وإيران.

أما عن محاولة الربط بين المسرحين الفرعيين لمنطقة الشرق الأوسط؛ فقد كان من خلال مبدأ أعلنه «رونالدريغان» بعد شهرين من وصوله البيت الأبيض، وسماه «الإجماع الاستراتيجى» Strategic Consensus . وقد عبر عن مبدئه بقوله: «إننا ننظر إلى الشرق الأوسط، بما فى ذلك الخليج الفارسى، باعتباره جزءا من مسرح سياسى/ استراتيجى أكبر،

(1) William P. Snyder - James Brown, Defense Policy in The Reagan Administration, National / Defense University Press, Washington, DC, 1988, PP. 523.

حدوده: تركيا، وباكستان، والقرن الأفريقى، ونعتبره كيان استراتيجى واحد، يتطلب تعاملا شاملا لتحقيق توازن قوى مناسب».

لذا قام وزير خارجيته «الكسندرهيغ» بزيارة باكستان، وتركيا، ومصر، وإسرائيل، والأردن، والعربية السعودية، وإمارات الخليج، عقب هذا التصريح، لإقناعهم بأن هذا ليس من قبيل التحالف، لكنه مجرد ترتيبات أمن مشتركة، غير رسمية ، بين «أصدقاء أمريكا»، فهو من قبيل «الواقعية الاستراتيجية».

وعلى الرغم من فشل هذه الفكرة الاستراتيجية، فقد نتج عنها «مجلس التعاون الخليجى» الذى يضم ست دول (العربية السعودية ـ عمان ــ الإمارات العربية المتحدة ـ قطر ـ البحرين ــ الكويت)[1] ، واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية بهذا التجمع، وخططت لاستقطاب مصر وسوريا إليه، بسبب ضعف الإمكانات البشرية والتدريبية لجيوش هذه البلدان، وذلك فى حالة استخدام القوات الأمريكية فى الخليج (وهذا هو عين ما حدث فى أزمة الخليج التى ثارت فى أغسطس عام 1990م عندما احتل العراق الكويت).

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الأميريكية ـ تحركها الصهيونية العالمية ، بل تحكمها حكما ـ كانت ، ولا زالت، تستهدف القضاء على كل من إيران والعراق، وتفريغهما من كل قوة ، إلا أنها عملت على إقامة قناة اتصال ومصالح، ومساعدات من كل نوع معهما، بما فى ذلك المساعدات العسكرية[2]، والمعلومات الاستخباراتية، للحفاظ على استمرار

---

(1) نشأ مجلس التعاون الخليجي في 25 مايو 1981م بهدف زيادة التعاون الاقتصادي والاجتماعي والأمني بين الدول الست، والتي تتميز بأنها دول بترولية غنية، وهي أكثر الدول الإسلامية تجانسا من ناحية طريقة الحياة الاجتماعية.

(2) على حين كانت المعونات الغربية والسوفيتية والعربية موجهة كلها إلى العراق، كان هناك أكثر من خمسمائة فرع لشركات أمريكية ظلت تعمل في إيران، خاصة في مجال البترول.. وعلى حين كانت الأسلحة الغربية والشرقية تتدفق على العراق ظهرت على السطح فضيحة قيام أمريكا بإمداد إيران بالسلاح سرا، فيما سمى «بإيران غيت» Irangate ، نسبة لفضيحة نيكسون «Watergate» ، وسميت أيضا «إيران ــ كونترا». وهي قضية تظهر جانبا من هيمنة الصهيونية العالمية على الولايات المتحدة الأمريكية. فالقضية يهودية مائة بالمائة.. إذ اتفق أحد عناصر الاستخبارات الإيرانيين، الموجودين في أوروبا...

[واستخبارات إيران «السافاك» لها تاريخ يمتد أكثر من عقدين من الزمان وهي في تعاون وثيق مع الموساد الإسرائيلي، مما جعل للجالية اليهودية في إيران (30000 يهودي) نفوذا كبيرا لدى السلطة في عهد الشاة] اتفق مع تاجر السلاح =

الحرب بين الدولتين الإسلاميتين، ريثما تستعد قوات القيادة المركزية، ويتم الوصول إلى تسوية بين القوتين العظميين على المسرح الأوروبى، وفى أفغانستان، وإحداثا لأكبر قدر ممكن من الإنهاك للعراق وإيران، إذ استخدم العراق الأسلحة الكيمائية، دون مراعاة لأن القتال يدور بين أخوة فى العقيدة. وعمد كل جانب إلى تدمير القدرات الاقتصادية للجانب الآخر، من خلال ما سمى «بحرب ناقلات البترول»، التى نفذت منها الصهيونية العالمية لرفع تحكمى آخر لأسعار البترول، سموه «الصدمة البترولية الثانية»، ولتفرض الولايات المتحدة الأمريكية وجودها البحرى المكثف فى الخليج منذ عام 1987م تحت زعم حماية ناقلات البترول الكويتية.

وما أن أعلن «ميخائيل غورباتشيف» وثيقة تسليم الاتحاد السوفيتي المسماه «البيريسترويكا»، عام 1985م، عقد مؤتمر «ريكيافيك» (أكتوبر 1986م)، ثم مؤتمر «واشنطن

= الشهير «مانوشر غوربانيفار»، وعميل الموساد «يعقوب نمرددي»، على توريد صفقة بسلاح أمريكية، من بينها صواريخ للدفاع الجوي من طراز Hawk ، وقد أشرف على هذه العملية رئيس الوزراء الإسرائيلى، آنذاك، «شمعون بيرريس»، وأدارها من الجانب الأمريكي الكولونيل أوليفر نورث Oliver North، مساعد مستشار الرئيس للأمن القومي ، وكان «ريغان» على علم تام بها، وأشرف نائبه، جورج بوش (الرئيس الذي تلاه مباشرة) على العملية من الجانب الأمريكي.

وكانت الخطة التي بدأ تنفيذها منذ شهر أغسطس 1985م، أن تتوسط الموساد الإسرائيلي في صفقة متعددة الأطراف، ياع فيها السلاح لإيران، ويورد الثمن لعصابات «كونترا» الموالية لأمريكا، والتي تقاتل في «نيكاراغوا» ضد الحكومة الماركسية، ويتم الإفراج عن المحتجزين الأمريكيين الموجودين لدي الشيعة في لبنان.

ولكي يكسب اليهود أكبر كسب ممكن، بجانب العمولات، وتهريب اليهود الإيرانيين، اتفقوا مع الأمريكيين على أن يرسلوا إلى إيران صواريخ مستعملة، يستعوضونها فيما بعد بصواريخ أمريكية جديدة...وافتضح الأمر في شهر نوفمبر 1986م .. وقامت الصهيونية العالمية بحماية «ريغان» بإنكار معرفته تماما بهذا الموضوع، وتولى جورج بوش رئاسة الولايات المتحدة الأميريكية، وأعلن عن قتل «أميرام نير» (الذي كان يعمل مستشارا لرئيس وزراء إسرائيل، والمطلع الوحيد على وثائق هذه العملية)، وذلك في حادث غامض بالمكسيك، وحوكم «أوليفرنورث» وخرج من المحاكمة ليعلن أنه بطل عظيم من أبطال أمريكا.. الصهيونية!

راجع : الجواسيس غير الكاملين ، مرجع سابق ، صـ 443:468 .

ـ قامت بريطانيا وفرنسا، والاتحاد السوفيتي ، وغيرهم، ببيع السلاح لكلا الجانبين: العراق وإيران ، وقد تم الكشف عن هذه الصفقات في أوائل السبعينيات، ولكن دون اعتبارها فضائح! فالهدف من الفضيحة المدبرة إذا «هو إحكام السيطرة الصهيونية على أمريكا».

(ديسمبر 1987م) حتى بدأ الإعداد لإنهاء الحرب، لصالح العراق، من أجل الدخول إلى مرحلة جديدة فى تنفيذ المبدأ الاستراتيجى طويل المدى الذى وضعه «الفريد ماهان» منذ نهاية القرن الماضى، والذى تمت صياغته فى صورته النهائية عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تعد قوات القيادة المركزية.. إنه التواجد السياسى / العسكرى الأمريكى المكثف فى شمال المحيط الهندى بذراعيه (الخليج ـ البحر الأحمر) ، خاصة فى المملكة العربية السعودية، التى تطل على ذراعى المحيط، ولها حدود مع كل إمارات الخليج، وعمان، واليمن ، فضلا عن الأردن والعراق، وتعد جارا غير مباشر لكل من الإيران ومصر والسودان، ومن ثم فإن لها أهمية استراتيجية كبرى، تضاف لأهيمتها الاقتصادية كأكبر منتج للبترول فى المنطقة، وإلى أهميتها السياسية، خاصة بعد إسهامها الكبير فى تسوية الحرب الأهلية اللبنانية، وقيامها بلعب الدور الأهم فى حشد المجاهدين ، وتمويلهم، ودفعهم للقتال فى أفغانستان. ومن الناحية العقدية يعتبرها الغرب بمثابة درع المنطقة فى مواجهة انتشار الماركسية،وفى مواجهة احتمالات تكرار الثورة الإسلامية على النمط الذى حدث فى إيران.

وبسقوط الشاه زادت أهمية إقامة علاقات أمريكية / سعودية أقوى، وزاد احتياج العربية السعودية للسلاح؛ لتحقيق أمنها ضد تهديدات من إيران ، أو العراق، أو اليمن.. حسب التصور الأمريكى.

ولقد ثبت خلال الحرب العراقية / الإيرانية، وفترة «حرب الناقلات» بصفة خاصة، أن التواجد البحرى الأمريكى يقصر عن تحقيق الأهداف الاستراتيجية الأمريكية، لصعوبة مناورة القطع البحرية، أو قيامها بأعمال واسعة النطاق، ولأن ما يمكن لحاملات الطائرات توفره من طلعات جوية يُعد محدودا جدا. ومن ثم كانت الحاجة ماسة لإقامة مخازن كبيرة للأسلحة والذخائر وقطع الغيار ، وإمكانات لتقديم المعاونة الفنية، التى قد تستخدمها القوات الأمريكية عند عملها فى منطقة الخليج. بيد أن السعودية ـ بعكس الحال فى عمان ـ ظلت رافضة لفكرة منح القوات الأمريكية تسهيلات على أراضيها، لكنها لم تمانع من تعاون مع قوات القيادة المركزية حال وقوع تهديد لها.

وبالموازنة بين خطورة كل من العراق وإيران على إسرائيل والمصالح الأمريكية فى الخليج،

وجدت الولايات الأميريكية أن العراق هو الأخطر؛ إذا خرج منتصرا محتفظا بقوة برية وجوية ضخمة جاهزة للعمل، تمكنه من احتلال الكويت، وتهديد العربية السعودية، كذا تهديد إسرائيل، بما لديه من برنامج نووى وكيمائى وبيولوجى. كانت هذه التقديرات فى اعتبار المخطط الاستراتيجى الأمريكى منذ مطلع عام 1988 ، على الأقل[1].

وقد فضل الأمريكيون أن يخرج العراق منتصرا على إيران، وأن يتم تضخيم قدراته إلى حد يفوق حقيقتها بكثير، وتضخيم ما يوجهه من تهديد للمنطقة وللعالم بأسره؛ حتى يبرروا وصول قوات القيادة المركزية إلى منطقة، ويحشدوا لذلك قوى عالمية أخرى. وقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية فى تدبير الأزمة، والحصول على تأييد معظم الرأى العام العالمى، بل والإسلامى... وحددت أربعة أهداف استراتيجية يتم تحققها بالتدخل العسكرى المباشر فى الخليج [2]:

1 ـ تأمين الوصول إلى بترول الخليج،والحصول عليه بالسعر المناسب، دون خوف من أى ابتزاز سياسى، أو اقتصادى ، أو عسكرى.

2ـ تحقيق ميزان تجارى مستقر ومجز (من وجهة النظر الأميريكية طبعا).

3 ـ ضمان استخدام الودائع السائلة لدول الخليج؛ للاستثمار فى الغرب، أو منحها كمساعدات خارجية لتحقيق تنمية واستقرار دول العالم الثالث الصديقة.

4 ـ إقامة نوع من العلاقات السياسية / العسكرية مع دول الخليج؛ تؤدى إلى تشجيع ودعم مواقف أمريكا السياسية، وتوجهها نحو الحل السلمى للصراع العربى ـ الإسرائيلى.

وعلى الرغم من أن النظام السياسى البعثى الاشتراكى العراقى ليست له هوية إسلامية، بل إنه يناقض الإسلام ولا يتفق معه أبدا، فقد خاضت الولايات المتحدة الأمريكية ومعها 22 دولة متحالفة(منها دول الخليج، وسوريا ومصر، وهى دول شعوبها مسلمة فى غالبيتها العظمى) خاضوا الحرب ضد العراق، والتى أطلق عليها «حرب تحرير الكويت»، أو «عاصفة

(1) Anthony H. Cordesman, The Gulf and The West, Westview Press, Boulder -- Mansell Publishing Limited, London, 1988, P.460.

(2) المرجع السابق صـ 15 . والمرجع المذكور اعتمد على وثائق رسمية، وعلى مقابلات كبار الرسميين الأمريكيين، كما ذكر مؤلفه في تقديمه Preface للكتاب .

الصحراء» ، خاضوها باعتبارها أحدث حرب صليبية. وقد بدا هذا واضحا كل الوضوح من تصريحات القادة الغربيين، الذين بدت العداوة والبغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر.

ومن جانب الصهيونية العالمية، فقد اعتبرت هذه الحرب بمثابة الجولة النهائية، التى لابد أن يليها إعادة ترتيب الأوضاع على المستويات الثلاث للحركة الصهيونية: تسوية القضية الفلسطينية ــ الهيمنة على الشرق الأوسط ــ إقامة النظام العالمى الجديد الذى يُفرض فيه السلام على كل شعوب الأرض، ويكون حكمها من القدس «أورشليم».

لذا فقد زاد معدل هجرة اليهود إلى الأرض المقدسة، خاصة من الاتحاد السوفيتى(1)، وكان منهم العلماء فى كل التخصصات ، والمهندسين، والأطباء، والفنيين. وقد استوطن معظم هؤلاء فى الضفة الغربية والقدس، وغيروا من خصائصها الجغرافية و«الديموغرافية»، وحاصروا الفلسطينيين فى معازل شبه مغلقة. وأصبح لدى إسرائيل قاعدة كبيرة من العلماء والتقنيين، خططت لاستخدامهم فى تحقيق هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط. ولإحداث التوازن السكانى فى المجتمع الإسرائيلى، استغلت «حرب الخليج الثانية»، وما بعدها، فى تهجير من بقى من يهود الفلاشا من الحبشة، ويهود اليمن، والهند، وسوريا..

وما أن انتهت الحرب «بتحرير الكويت» ، وتقسيم العراق ثلاثة أقسام ــ من الناحية الواقعية ـ وإخراجه من مسرح الصراع كلية، ثم العمل بكل الوسائل على تحليل مجتمعه، وتفريغه من كل المقومات، ما أن انتهت تلكم الحرب حتى انعقد مؤتمر مدريد «للسلام» فى المدة من 30 أكتوبر حتى 2 نوفمبر 1991م، ليكون بمثابة نقطة البداية لإقامة النظام العالمى الجديد الذى أعلن «جورج بوش»، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، عن قيامه فى مارس عام 1991م.

---

(1) تضمنت كل مؤتمرات القمة التي تمت بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي منذ عام 1972م، ثم 1986م، وحتى انهار عام 1991م، الاتفاق والتأكيد على ضرورة السماح ليهود الاتحاد السوفيتي بالهجرة.

وقد تدفقت هذه الهجرات منذ عام 1989م، وكان من بينها عدد كبير من العلماء اليهود الذين كانوا يعملون في مجال الفضاء، والمجال النووي، وغيرها. هاجر بعضهم إلى أمريكا وأوروبا والبعض إلى إسرائيل . وقد أدى هذا إلى هدم النظام العلمى والتكنولوجي السوفيتي، ومن ثم إلي سرعة تدهوره وانهياره.

وكمـا أسهم الـيهود فـى صياغـة الفكر الاشـتراكى ، والـنظريـة الماركسـية، وفى الـثورة البلشفيـة، وفى إقامة الاتحاد السوفيتى، أسهـموا فى هدم هذه القوة العظمى فـى ديسمبر عام 1991م وباختفاء هذه القـوة العظمى انتهـت الحرب الباردة... وانفـردت الصهيونية الـعالمية، راكبـة الجواد الأمريـكى، ورافـعة علـم الأمم المتحـدة، بالسـاحة ، لإعـادة ترتيـب الأوضـاع، وفرض السلام، وتحقيق أفكار النظام العالمى الجديد.

ومع انتهاء عرض هذه الجزئـية يبرز سؤال.. إذا كانت حـقبة نصف القرن التالـية للحرب العالميـة الثانية هى الحقبـة الصهيونية، الـتى جعلت من منـطقة قلب الأمة الإسلاميـة (المسماة الشرق الأوسـط) قوسا للأزمـات ، ومسرحا لـلصراع الساخـن، ودفعت بهـا لتحتـل مركز الصـدارة فى الاهتمـام العالمـى فماذا كانـت طبيعـة صراع القـوتين العـظميين على المسرح الأوروبى، وما هو التأثير المتبادل بين المسرحين عبر البحر المتوسط؟

ـ المسـرح الأوروبى والأطلنطى ؛ يمـتد هـذا المسـرح «جيوبـوليـتيكـيا» لـيضـم كل البلدان[1] الواقعة شمال البحـرين الأسود والمتوسط؛ فهو يمتد من مينـاء فلاديفونستوك ، فى

---

(1) لا تدخل اليـابان في هذا المسرح، بسـبب الاختلاف الثقافي ، والاسـتقلال التاريخي، والبعد الجغرافي، رغم ارتـباطها بالغرب من عدة نواح: فهي دولة ليبرالية بالمقياس الغربي، وهي دولة صناعية متقدمة، أصبحت منذ التسعينيات عضوا في مجـموعة السـبعة الدول الصـناعية الـكبرى G7 . ورغم تـنافسـها التـجاري والاقتـصادي مع الـولايات المتـحدة الأمريكية فهي تستظل بالحماية العسكرية الأمريكية منذ وقّعت وثيقة الاستسلام في الحرب العالمية الثانية.

وتنص المادة التاسـعة من الدستور على أنه يحظر على اليـابان امتلاك قوة حربية. وأنها في حالة العدوان الأجنبـي عليها تلجأ إلي الرد عليه مستعينة بترتيبات الأمن اليابانية الأمريكية.

وعلى الرغم من امتلاك اليابان الـتكنولوجيا الفضائية والنووية فهي لا تـستطيع امـتلاك صواريخ عابرة للقارات، ولا طائرات بعيـدة المدى. كما لا تـستطيع ممارسـة «حق الدفاع الجماعي» حسـب المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة.

ورغم استعادة الاقتصاد الياباني عافيته منذ عام 1955م إلا أن علاقاتها ظلت، حتى أوائل الثمانيـنات، علاقات إقليـمية مرتبطة بالمحيط الهادي ودول جنوب شـرق آسيا. وكان اهتمـامها «بالشـرق الأوسـط» يقتصر عـلى البترول الذي يـشكل 80 بالمائة من احتياجاتها البترولية، وقدر محدود من العلاقات التجارية والثقافية.

وقد اشتدت حدة التنافس التجاري، ثلاثي الأطراف، بين اليابان ، والـولايات المتحدة ، وأوروبا، منذ منتصف السبعينيات، لكنه بلغ درجة «الحرب التجارية» في أعقاب حرب الخليج الثالثة.

ذلك ويحتل الاتحاد الروسـي أربع جزر يابانية شـمال غرب اليابان ، تـسمى جزر الكوريل، منذ الحرب العالميـة الثانية، حتى الآن.

أقصى شرق الاتحاد الروسى (حاليا)، حتى ميناء سان فرانسيسكو فى أقصى غرب الولايات المتحدة الأمريكية، مرورا بشمال المحيط الأطلنطى. وهى المنطقة التى أطلق عليها «غورباتشيف» «البيت الأوروبى المشترك» عندما أعلن عن «البيريسترويكا».

وقد انقسم هذا المسرح منذ عام 1946م إلى معسكرين: المعسكر الماركسى (ويتضمن الاتحاد السوفيتى، ودول أوروبا الشرقية، ذات الأنظمة الماركسية)، والمعسكر الليبرالى (ويضم الولايات المتحدة الأميريكية، وكندا، ودول أوروبا الغربية)، وتأكد ذلك الفصل ببناء سور برلين عام 1961م ، ليقسم ألمانيا إلى شطرين. وقد فصل بين المعسكرين دول محايدة كالسويد والنمسا وسويسرا ، وأخرى ماركسية تمردت على معسكرها منذ عام 1945م، ثم أعلنت «الحياد الإيجابى» مع مصر والهند وإندونيسيا ، منذ عام 1955م، هى الاتحاد اليوغسلافى.

وبمنطق المبدأ الاستراتيجى «للقوة البرية» ضم الاتحاد السوفيتى، منذ عام 1944م، جمهوريات ثلاث مطلة على بحر البلطيق هى: إستوينا، ولاتفيا، ولتوانيا، فضلا عن بيصاربيا، وبوكرفينيا، وأجزاء من فنلندا. وبانتهاء الحرب فرض هيمنة سياسية وأيديولوجية على أوروبا الشرقية (رومانيا ـ بلغاريا ـ بولندا ـ ألمانيا الشرقية ـ ثم تشيكو سلوفاكيا اعتبارا من عام 1948م، وعلى ألبانيا (ذات الشعب المسلم) من أوروبا الوسطى.

ومد الاتحاد السوفيتى هيمنته السياسية والأيديولوجية فى اتجاه الشرق الأقصى فشمل منشوريا، والصين[1]، وكوريا الشمالية، وفيتنام الشمالية، والتبت.

(١) ظلت الصين (الشعبية) حليفا للاتحاد السوفيتي فترة حكم ستالين، وكانت على نزاع مستمر مع «الصين الوطنية» (تايوان حاليا) ، التي كانت تحتل أحد المقاعد الخمسة الدائمة بمجلس الأمن. وعندما تولي خرو شتشيف سكرتارية الحزب الشيوعي السوفيتي تبني سياسة «التعايش السلمي»، ومن ثم لم يجار الصين الشعبية في نزاعها المستمر مع الصين الوطنية، واضطر للتراجع أمام الولايات المتحدة الأمريكية في أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962م، ثم أحجم عن تزويد الصين بالتكنولوجيا النووية، كما سعى منذ عام 1963م للتوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية. اعتبرت الصين هذه المواقف بمثابة خيانة، فكانت القطيعة بين الدولتين، وأقام «ماوتسي تونغ» معسكرا ماركسيا فرعيا، كانت «ألبانيا» من أعضائه؛ بل وصاغ ماو أيديولوجية ماركسية فرعية سمت «بالماويه».

واتجهت «الصين الشعبية» إلى «دول العالم الثالث» في آسيا وأفريقيا لتقيم تضامنا، ولتشارك في حركة عدم الانحياز. وسعت لإقامة علاقاتها مع تلكم البلدان، مركزة على البعد الثقافي، والإمداد بالسلاح والخبراء والتجارة، التي لا تنافس، بسبب الرخص النسبي للمنتجات الصينية، وأنتجت الصين قنبلتها النووية عام 1964م. =

ولدمج هذه الدول تدريجيا فى الاتحاد السوفيتى أُنشئ «مجلس المعونة المتبادلة» Comec-on بهدف التخطيط الاقتصادى المشترك بين هذه الدول. كان ذلك ردا على مشروع «مارشال» (وزير خارجية أمريكا)، والذى أعلنت عنه الولايات المتحدة عام 1947م، وتضمن دعم أوروبا الغربية بمبلغ سبعة عشر مليار دولار لإعادة التعمير، فأنشأ الاتحاد السوفيتى المجلس المذكور فى يناير عام 1949م، وضم إليه الدول الأوروبية الشيوعية سالفة الذكر، ثم انضمت إليه منغوليا عام 1962م.

وما أن ثارت أزمة برلين فى عام 1948م، وكانت المواجهة بين القوتين العظميين حتى أعلن ترومان عن قيام «حلف شمال الأطلنطى»، فتم توقيع ميثاقه فى الرابع من أبريل 1949م، وكان الرد أن حاول الاتحاد السوفيتى إقامة نظام دفاعى أوروبى يواجه حلف شمال الأطلنطى، لكنه لم يلق القبول، بل كان الرد الغربى هو إعادة تسليح ألمانيا الغربية، وضمها إلى اتحاد أوروبا، ومن ثم إلى حلف شمال الأطلنطى بعد ذلك (فى 23 أكتوبر 1955م) .

كان رد الاتحاد السوفيتى هو إنشاء «حلف وارسو»، الذى وقعت دول أوروبا الشرقية على ميثاقه فى المدة من 29 نوفمبر حتى 2 ديسمبر 1954م، وألبانيا فى 14 مايو 1955م (ثم انسحبت فى سبتمبر 1968).

ورغم تنافس المعسكرين فقد توافقا على أمرين بالنسبة لأوروبا:

أولهما؛ أن يتم نقل مسرح الصراع بينهما جنوبا .. إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، والشرق الأقصى.

وثانيهما؛ تنظيف هذا المسرح الجنوبى من الوجود الأوروبى. وقد كانت نقطة التحول الهزيمة السياسية/ العسكرية التى لحقت ببريطانيا وفرنسا فى أعقاب حرب السويس (أكتوبر 1956م) ، فانكمشت أوروبا، وأصبحت شبه محايدة، وانكفأت على نفسها فى محاولة

= ظلت علاقة الصين متوترة مع كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. ثم في نفس عام 1972م الذي حدث فيه انفراج في العلاقات السوفيتية الأمريكية، حدث انفراج شبيه بين الصين وأمريكا. وكان هنري كيسنجر هو المخطط والمحرك لهذا الإنفراج، الذي أدى إلى تبنى الصين لسياسة «الباب المفتوح» ، وأقامت علاقات تجارية واقتصادية مع الغرب، خاصة أمريكا... ومن ثم حلت «الصين» محل تايوان في مجلس الأمن، كعضو دائم له حق النقض Veto .

لإعادة بناء اقتصادها على أسس تكاملية ، أخذت شكلها النهائى الذى ما زال تنفيذه جاريا حتى الآن، وهو معاهدة روما لعام 1957م.. التى قامت بناء عليها «المجموعة الاقتصادية الأوروبية» EEC، والتى تُعد فرنسا صاحبة فكرتها ، ومحركها، وأكثر المتحمسين لها.

وما أن أطلق الاتحاد السوفيتى عام 1957م صاروخه عابر القارات سبوتنيك Spoutnic ، ومن ثم أصبح قادرا على إصابة أوروبا وأميريكا بقنابله النووية، والهيدرجينية (التى بدأ إنتاجها منذ عام 1953م)[1] ، ما أن حدث ذلك حتى ثارت مشكلة «الأمن الأوروبى»، وسارت متوازية مع فكرة التكامل الاقتصادى الأوروبى.

تزعمت فرنسا، منذ ذلك الحين، فكرة أنه يجب على أوروبا أن تعتمد على نفسها فى تحقيق أمنها، فقامت بصنع قنبلتها النووية، واتبعت سياسة الاكتفاء الذاتى الدفاعية، ومن ثم حافظت على وجودها العسكرى والثقافى والنقدى، فى معظم البلدان الناطقة بالفرنسية فى أفريقيا والمحيطين الهندى والهادى ، ولم تخرج عن هذا السياق سوى الجزائر، التى حصلت على استقلالها عنوة عام 1962م، ثم بدأت تتبع سياسة «للتعريب» منذ منتصف الستينيات. ذلك فضلا عن قيام فرنسا بالانسحاب من المنظمات العسكرية لحلف شمال الأطلنطى اعتبارا من 10 مارس 1966م، وتم نقل قيادة الحلف إلى «بروكسل» ببلجيكا، لكن فرنسا بقيت عضوا بالحلف، والتزمت بالمشاركة فى عملياته العسكرية إذا اقتضت الظروف ذلك.

لم يكن موقف فرنسا نابعا من فراغ، لكنه كان نابعا من استشعار أن حوار «الرعب النووى» بين القوتين العظميين كان يستهدف تطويع أوروبا، من خلال إبقائها رهينة الخوف من حرب عالمية ثالثة، تستخدم فيها الأسلحة النووية، بقرارات من خارج أوروبا[2].

---

(1) فجرت بريطانيا قنبلتها النووية الأولى عام 1953م، وقنبلتها الهيدروجينية عام 1956م، وبدأت برنامجا للصواريخ آ. تى أول إنتاجه عام 1958م، لكنها أوقفته عام 1962، واعتمد على استيراد صواريخ بولاريس من الولايات المتحدة، ثم بدأت تستورد صواريخ ترايندت Trindet التي تعمل من الغواصات النووية منذ الثمانينيات.

(2) وجه «بولغانين» رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي إنذار لبريطانيا وفرنسا، أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 بأن يجتاح أوروبا، مستخدما الأسلحة النووية. وبانتهاء الأزمة عام 1957م طرح الجنرال «نورستيد»، قائد قوات حلف الأطلنطي فكرة نشر صواريخ ذرية في أوروبا، فقبلت بريطانيا في تكتم، وقبل البرلمان الألماني الغربي «البوند شتاغ» بأغلبية ضئيلة، واشترطت فرنسا أن يكون المقابل دعم أمريكا للبرنامج النووي الفرنسي ماليا وفنيا... فلم تقبل أمريكا.. بل وألغيت فكرة نشر الصواريخ في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962م.

*** وخلال الفترة من ربيع عام 1961 حتى آخر أكتوبر 1962م ثارت أزمتنا «برلين»، و«كوبا»، وأقيم سور برلين ، ليقسم المدينة، ومن ثم أوروبا، إلى شطرين منذ أغسطس 1961م. وأسفرت من الصدام النووى، ومن تلكم اللحظة بدا واضحا أن فكرة الحرب النووية هى فكرة تستخدم للردع والتهديد، وأنها مستبعدة تماما...

وإمعانا فى إبعاد القوتين العظميين شبح الحرب النووية عنهما، توافقتا على جعل أوروبا مسرحا للتصعيد المتبادل.. واتجهت أوروبا إلى اتخاذ مواقف أقرب ما تكون إلى السلبية والحياد.

وفى الوقت الذى اتجهت فيه القوتان العظميان إلى تصعيد سباق التسلح، ونشر الصواريخ النووية والقوات التقليدية فى أوروبا بدأت حركة «تنزيل لحدة التوتر» من خلال ما سمى «التحكم فى التسلح» Arms Control . وأخذت أوروبا تبحث عن أمنها. وبينما طرح الاتحاد السوفيتى فكرة «التعايش السلمى» بين الماركسية والليبرالية فقد طرحت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة «الانفراج» de'tente . وكان هذا بمثابة تعبير عن عدم الرغبة فى الدخول فى حروب قادمة بين المعسكرين، وإن كان هذا لم يستبعد رغبتهما فى ممارسة حروب بالوكالة على أراضى الآخرين، فى صورة حروب أهلية طويلة الأجل (كما حدث فى السودان وأنغولا وموزمبيق وكمبودتشيا)، أو حروب حدودية محكومة تتدخل فيها القوى الكبرى (كما حدث بين إثيوبيا والصومال، وبين ليبيا وتشاد).

وقد فضلت أوروبا الغربية، منذ عقد الستينيات أن تحقق أمنها من خلال مشروعها للتكامل الاقتصادى، إذْ فشلت فى تحقيق قدر مناسب من الاتفاق حول الدفاع المشترك. وقد دفع إلى ذلك انعكاس هزيمة الأمريكيين فى فيتنام على الشعب الأمريكى، إذ تركت تلكم الحرب آثار نفسية سيئة، فلم يعد الشعب الأمريكى مستعدا للتضحية بالمزيد من الجنود لا من أجل الدفاع عن أوروبا ولا غيرها. وتربى جيل الشباب الأوروبى، الذى وُلد أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، على أساس أن الدفاع عن القيم الغربية لا يجب أن يكون من خلال التهديد المستمر بإبادة الجنس البشرى والحضارة الإنسانية. وأصبحت التفجيرات النووية التى يشاهدونها على شاشات «التليفزيون» تصيبهم بالخوف. ومن ثم أصبح من الأفضل للقادة

الأوربيين أن يركبوا موجة «السلام» طلبا لتأييد شعوبهم(1).

واستجابة لضغط الكونغرس الأمريكى من أجل سحب القوات الأمريكية من أوروبا أعلن الرئيس الأمريكى نيكسون فى مطلع السبعينيات أن «عصر المفاوضات» قد بدأ، وأن «عصر المواجهة قد ولى» ، وأن شرط الاستقرار العالمى هو أن يبنى السلام على خمسة ركائز هى: الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى، والصين الشعبية، واليابان، وأوروبا الغربية.

ومن هنا بدأ هنرى كيسنجر رحلته إلى الصين فى صيف عام 1971م، «لتطبيع العلاقات بين أميريكا والصين وبدأت فى نفس العام محادثات للوصول إلى اتفاق للحد من الأسلحة الاستراتيجية SALT بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا، وصاحبها تدخل أمريكى فى الاقتصاد السوفيتى «لتحديثه» ، ولإمداد السوفيت بالقمح الأمريكى.. وعقدت المجموعة الاقتصادية الأوروبية اتفاقا مع الاتحاد السوفيتى لإقامة خط أنابيب لنقل الغاز الطبيعى من سيبيريا إلى أوروبا الغربية.

وما أن حل عام 1972م حتى عقد مؤتمر القمة السوفيتى/ الأمريكى (فى شهر مايو)، وتم توقيع الاتفاقية «سولت ـ 1» 1 -- SAIT ، وتم الاتفاق على مؤتمرين خاصين بأوروبا (بالتوازى مع بعضهما)، أحدهما عن «الأمن والتعاون فى أوروبا»، والثانى عن «الخفض المتبادل والمتوازن للقوات». وعقد المؤتمران فى عام 1973م.. فعقد الأول فى «هلسنكى» بحضور خمسة وثلاثين دولة أوروبية من حلفى شمال الأطلنطى ووارسو، وعقد المؤتمر الثانى فى «فينا» وحضره إحدى عشرة دولة. وقد تم التوقيع على اتفاقية هلسنكى عام 1975م، فى حين ركد مؤتمر «فينا»، وزاد الاتحاد السوفيتى من نشر قواته فى أوروبا الشرقية.

وكان أهم ما نتج عن هذه المؤتمرات هو الاعتراف بالحدود بين البلدان الأوروبية، وأنها غير قابلة للتعديل، وضرورة احترام «حقوق الإنسان» فى كل الدول الأوروبية.

ظهرت دراسات ورسائل علمية تشير بوضوح، من النصف الثانى لعقد السبعينيات، إلى ظاهرة «الانحلال التنافسى» بين المعسكرين الشرقى والغربى.. وأصبح من المتوقع أن يسقط

---

(1) Pierre Lellouche, L'Avenir de La Guerre, April 1985, PP. 113 -- 130.

الاتحاد السوفيتى «سقوطا نهائيا»[1] Chute Finale لأسباب عدة، منها التدهور الاقتصادى المستمر، وتزايد ظاهرة إدمان الكحول، والتخلف التكنولوجى ، ونقص استخراج المواد الأولية، وبدء انخفاض مستوى المعيشة، والنقص الحاد فى معدل الزيادة السكانية بين السلاف، وارتفاعه بين المسلمين، الأمر الذى ينبئ بقرب حدوث «انقلاب ديموغرافى»، وتغير حاد فى منظومة القيم.[2]

وعلى الرغم من التفاوض بين القوتين العظميين لإبرام اتفاق آخر للحد من الأسلحة الاستراتيجية «سولت ـ 2» SALT -- 11 فقد توافقت القوتان على إلحاق الرعب بأوروبا فنشر الاتحاد السوفيتى ـ فى أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينات ـ صواريخه المتقدمة من سلسلة طراز «SS» (من 16 حتى 19)، فى أوروبا الشرقية، واستكمل حركته هذه بنشر صواريخه المتقدمة طراز «SS--20» ، فما كان من أوروبا الغربية إلا أن هرولت تجاه أمريكا كى تنشر صواريخها من طراز «بيرشنغ» Pershing على أراضيها، لتردع بها الصواريخ السوفيتية. وما أن بدأ نشر هذه الصواريخ حتى أعلن الرئيس الأمريكى «ريغان» ما سمى «بمبادرة الدفاع الاستراتيجى» SDI يوم 23 مارس 1983م، والتى عرفت بحرب النجوم[3] ، ورغم أن هذه المبادرةتحتوى على قدر كبير من الخيال إلا أنها أدت إلى ردع الاتحاد السوفيتى؛ فما أن انتخب «ميخائيل غورباتشيف» سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى حتى أخرج من جعبته أشهر كلمة فى القرن العشرين: «البيريسترويكا» (أى إعادة البناء). وما كانت فى حقيقتها سوى بداية هدم الاتحاد السوفيتى، ووثيقة التسليم الأيديولوجى ، والإعلان عن انتهاء الحرب الباردة...

أدى هذا كله إلى تناقص وضعف التأثير المتبادل بين أوروبا والشرق الأوسط، إذْ حرصت القوتان العظميان على فصل المسْرَحَيْن، والتعامل مع كل منهما من خلال استراتيجية مستقلة...

---

(1) المرجع السابق ، صـ 95:93 .

(2) راجع لواء أح د. فوزي محمد طايل ، آثار تفكك الاتحاد السوفيتي على أمن الأمة الإسلامية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1414هـ ـ 1994م، صـ 100:57 .

(3) المرجع السابق ، صـ 82:80 .

وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تلعب دور الوسيط بين أوروبا والشرق الأوسط، وبنفس الطريقة تعاملت إسرائيل مع أوروبا فى أعقاب العدوان الثلاثى عام 1956م. ولم يرفض هذا الدور سوى الرئيس الفرنسى «شارل ديغول» إذْ اتخذ قرارا بتعليق التعاون العسكرى مع إسرائيل فى أعقاب حرب عام 1967م.. فما كان من إسرائيل إلا أن حصلت على ما أرادت أخذه من فرنسا عنوة[1]، بعد أن استقال «ديغول» (إذْ خذله الناخبون فى استفتاء على مقترحات سياسية قدمها، ولم يكن هناك ما يدعو لهذه الاستقالة!). ثم حلت الولايات المتحدة محل فرنسا وبريطانيا فى تسليح إسرائيل منذ ذلك الوقت.

وكان من بين أدوات السياسة الأمريكية، للحد من العلاقة الأوروبية المباشرة بالشرق الأوسط، أن تم تحديد النطاق الجغرافى لعمل حلف شمال الأطلنطى، ليقتصر على أوروبا وشمال الأطلنطى، وإن كانت المادة السادسة قد أدخلت فى ذلك النطاق كلا من تركيا والجزائر، والجزر التابعة لأى من أعضاء الحلف، وتقع شمال «خط السرطان».

لقد كانت أزمة البترول عام/ 1973-1974م بمثابة ضربة أمريكية لأوروبا، استخدم فيها العرب مجرد واجهة، كى يزداد الانفصال بين أوروبا وبلدان «الشرق الأوسط»، فتنفرد الصهيونية العالمية، من مقرها بأمريكا بتصفية الصراع حول الأرض المقدسة. تحركت المجموعة الاقتصادية الأوروبية ـ دون مشورة الولايات المتحدة ـ لبدء ما سمى «الحوار العربى ـ الأوروبى» عام 1974م، الذى ما لبث أن اصطدم بالسخط الأمريكى، كما اصطدم بتباين المصالح، وفرقة العرب وعدم جديتهم، ووقوع الجميع تحت الضغط الصهيونى، ففشل

---

(1) راجع يوسي ميلمان ـ دان رافيف، الجواسيس غير الكاملين، ترجمة لواء أح د. فوزي محمد طايل، مرجع سابق، ص 150:139، فقد قام الإسرائيليون ليلة 25 ديسمبر 1969م بسرقة خمسة قوارب صواريخ، كانت راسية في ميناء شيربورغ Cherbourg الفرنسي، كان الفرنسيون يرفضون تسليمها لهم تنفيذا لقرار «ديغول». كما قاموا بسرقة تصميمات محرك الطائرة ميراج، من خلال مهندس سويسري يهودي يدعى «ألفريد فراونكنخت».. «Alfred Frauenknecht» ، عام 1970م، وبنت إسرائيل على أساس تلكم التصميمات طائرتها القتالية «نشر»، ثم طائرتها الشهيرة «كفير» ، التي أعلنت عنها في 29 أبريل 1975م.

وبنفس الكيفية سرقت إسرائيل، من خلال جهاز استخباراتها العلمية «لاكام» ، 810 جهازا أليكترونيا لتفجير القنابل النووية «Krytvon»، من شركة «ميلكو كاليفورنيا» الأمريكية في مطلع الثمانينات، فضلا عن سرقة 110 رطلا من اليورانيوم المخصب من شركة «نيوميك» الأمريكية ، عام 1962 . وهربت 200 طنا من اليورانيوم الطبيعي عن طريق «الشركة العامة للمناجم»، البلجيكية في نوفمبر 1968م.

الحوار، ولم تفلح محاولات تجديده، حتى بعد أن أصدرت دول المجموعة الأوروبية التسع (آنذاك) ما عرف «ببيان البندقية[1]»، فى 13 يوليو 1980م، وما كان إلا محاولة أوروبية من جانب واحد للعب دور فى حل الصراع حول الأرض المقدسة. وقد سبق هذا البيان أربع بيانات فى المدة من 1977:1979م لكن هذه المحاولات أحبطت. ثم توسط الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» (الصديق الحميم لشمعون بيريس، والمتزوج من يهودية) دور الوساطة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، عام 1988م ، فى المراحل الأولى من التسوية.. ثم استبعدت أوروبا تماما[2] من ما يطلق عليه «المسيرة السلمية»، واقتصر الأمر على مجرد استخدام أراضى «النرويج» ، و«أسبانيا» فى عملية التفاوض السرية بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، خلال النصف الأول من عقد التسعينيات، وفى عقد ما سمى «بمؤتمر السلام متعدد الأطراف» فى «مدريد» فى أكتوبر/ نوفمبر من عام 1991م... الذى يعد امتدادا لحرب الخليج الثانية، واستغلالا ذكيا لنتائجها... ومن ثم بداية للمرحلة التى نعيشها الآن، والتى تستهدف استكمال بناء ما يسمى «النظام العالمى الجديد».

ذلك، وقد تم دفع العلاقات الأوروبية/ الإسلامية إلى استعادة العداء التقليدى. فبمجرد

---

(1) حاول البيان أن يكون متوازنا بين الواقع الذي فرضته إسرائيل من خلال الحروب، خاصة حرب عام 1967م، وبين حق المسلمين في الأرض المقدسة، مع الأخذ في الاعتبار القرارات التي صدرت من الأمم المتحدة خلال السنوات الثلاث عشرة السابقة عليه.

وقد كان مرجع البيان هو القرارين أرقام 242 ، و238 الصادرين من مجلس الأمن ، إلا أنه أشار إلى وضع القدس، وإلى طبيعة المشكلة الفلسطينية، والمستوطنات اليهودية، وهي أمور لم ترد في القرارين المذكورين.

وأكد البيان على أن المشكلة الفلسطينية أكبر وأعمق من أن تكون مجرد مشكلة لاجئين، وأنه لا يجوز تغيير وضع القدس من جانب واحد، وأن المستوطنات اليهودية في الأراضى المحتلة تعد غير مشروعة بالنظر إلى القانون الدولي...

ومع أننا لا نتوقع ممن أسهموا في إقامة الدولة العبرية في الأرض المقدسة أكثر من ذلك فإن المسلمين فرطوا حتى في هذا القدر الذي لم يكن من شأنه إلا إعادة قدر ضئيل جدا من الحق إلى نصابه. كان من نتيجة ذلك أن كف الأوروبيون عن الحديث في هذا الموضوع، بل وتم تنحيتهم تماما في التسويات الجائرة التي تمت في عقد التسعينيات من القرن العشرين.

(2) يلاحظ أن مساهمة أوروبا في «حرب الخليج الثانية» كان رمزيا، ولم يكن الهدف منه سوى إظهار وجود إجماع دولى على تنفيذ العملية، وضمان تمرير القرارات التي أعدتها أمريكا ضد العراق في مجلس الأمن بسلاسة. وقد كان الاتحاد السوفيتي في أدنى حالاته، إذ ما لبث أن انهار بعد انتهاء الحرب. وكانت الصين تأمل في تلقى تكنولوجيا أمريكية متقدمة مقابل ديارها. وقد لعبت إسرائيل دورا وسيطا بين الصين وأميريكا، بلغ حد تسليمها تكنولوجيا أمريكية متقدمة، دون إذن من الولايات المتحدة، كعربون للصمت.

توقيع اتفاق «ريكيافيك» (أكتوبر 1986) بين القوتين العظميين، بدأ ما يسمى «البحث عن عدو جديد». ولم تجد مؤسسات البحث والإعلام «الصهيونية» أفضل من هذه فرصة، فلقنت الغرب «الصليبى» أن العدو الجديد لن يكون الصين، ولن يكون اليابان... ولكنه الإسلام! وسارع قادة وزعماء الغرب ومفكروه يعلنون بكل الصراحة أن العدو الجديد هو الإسلام...

*** «لكن الصهيونية العالمية عادت لتلقن «الغرب الصليبى»، الأعمى والأصم، وتحذر من أن مثل هذا الإعلان «المستفز» يوقظ المارد الإسلامي ويحول صحوته إلى نهضة، ويعرض مصالح الغرب فى البلدان الإسلامية للخطر... فلقّنوهم من جديد أسلوبا غاية فى المكر والدهاء لمواجهة «عدوهما الإسلامى»؛ ذلك بتقسيمه إلى: «إرهاب إسلامى»، «وتطرف فكرى إسلامى»، و«أصحاب فكر إسلامى معتدل»، و«مسلمون يقبلون التعايش مع الحضارة الغربية»، و«مسلمون يقبلون الاندماج فى الحضارة الغربية»، و«عامة الناس ، الذين لا يكادون يعون ما يدور حولهم» .. وأن لكل فئة خصائصها النفسية/ الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن المواجهة يجب أن تكون شاملة وعامة، وأن تستخدم فيها كل الوسائل الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فإن المواجهة يجب أن تكون انتقائية، وأن تختلف باختلاف التصنيفات المذكورة، وألا تكون مستفزة،وأن يصحبها فصل بين هذه الفئات المذكورة، يصل درجة «**استعداء بعضها على بعض**»، أو «**تحييد بعضها بينما يتم ضرب آخرين**».

وبينما أعلن الغرب «الصليبى الصهيونى» ، مُؤيِّدا بفئات من المسلمين ممن ذكرنا حالا، حربه الشاملة العامة التى لا هوادة فيها، ضد ما أسموه «الإرهاب الإسلامى»، فقد قاموا بتوجيه ضربات معنوية نفسية خطيرة ضد الأمة الإسلامية من خلال «مذابح البوسنة والهرسك»، و«استباحة أراضى الصومال»، و«تجويع شعب العراق»، وسكب الزيت على نار «الحرب الأهلية فى الجزائر» ...وغيرها . ﴿**وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾ [إبراهيم / 46]

ومع ذلك ، فمن قبيل التبسيط غير المقبول أن نتصور خلو الكرة الأرضية إلا من قوة عظمى وحيدة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنها تتحالف مع أوروبا لضرب الأمة

(1) وهذا من صنع اليهود، معتقدين ذلك بنصوص في توراتهم المزيفة، ويمكن أن تراجع ذلك في [سفر أشعياء 5:2/19] فتقول التوراة: (وأهيج مصريين على مصريين، فيحاربون كل واحد أخاه مدينة مدينة، ومملكة مملكة، وتهراق روح مصر داخلها....).

الإسلامية. فهناك قوى أخرى ، ليست إسلامية، ولكنها تواجه القوة الصهيونية / الصليبية العظمى، وهى الصين، واليابان... بل إنك قد تحسب المعسكر الصهيونى/ الصليبى جميعا، والحقيقة هى أن قلوبهم شتى؛ فهناك حرب خفية بين الولايات المتحدة وأوروبا. وهذه الأخيرة هى المرشح الثانى للسقوط النهائى كما سقط الاتحاد السوفيتي من قبل؛ وذلك لأسباب كثيرة أهمها: الانحطاط الأخلاقى، وتسرب الفساد إلى النُّخَب، والتدهور «الديموغرافى» (السكانى)، فأوروبا على وشك أن تصبح أمة شيخة، خلال ربع قرن. فالزيادة السكانية حتى مطلع القرن العشرين لن تزيد عن ثلاثة بالمائة، فى مقابل 13 بالمائة فى الولايات المتحدة واليابان، وقرابة 37 بالمائة فى باقى بلدان العالم[1] . إلى درجة إفساد الحياة الاجتماعية. ومنها التخلف التكنولوجى عن أميريكا واليابان، فأوروبا لا تزال على عتبات «الثورة التكنولوجية الثالثة».

(ثورة المعلومات والليزر والهندسة الوراثية). ومنها أن احتمال اشتعال حرب عامة فى كل شبه جزيرة البلقان يهدد بتورط قوى كروسيا وألمانيا من أجل تصفية ضغائن قديمة، وأحقاد الحربين العالميتين.. بل وقيام الصهيونية العالمية بتصفية حسابها مع الصليبيين، الذين استذلوا اليهود تسعة عشر قرنا. ناهيك عن ما يحمله تفاقم مشكلة البطالة من آثار اجتماعية واقتصادية مدمرة. ومنها حالة الاسترخاء العام [2] ، الناتجة عن ارتفاع مستوى المعيشة فى

---

(1) نشرت صحيفة الأوبزيرفر The Observer الصادرة يوم الأحد 14 أغسطس 1994م، بمناسبة انعقاد مؤتمر «السكان والتنمية» بالقاهرة في 5 :13 سبتمبر 1994م خريطة إحصائية تبين معدلات الخصوبة في العالم فجاءت كما يلي:
غرب أفريقيا 4.5 بالمائة ـ وسط وجنوب آسيا 4.2 بالمائة ـ أمريكا الوسطى 3.5 بالمائة ـ جنوب شرق آسيا 3.4 بالمائة أميريكا الجنوبية والكاريبي 3.1 بالمائة ـ الولايات المتحدة 2.1 بالمائة ـ استراليا وشرق آسيا 1.9 بالمائة ـ شمال أوروباوكندا 1.8 بالمائة ـ أوروبا الشرقية 1.6 بالمائة ـ غرب وجنوب أوروبا 1.4 بالمائة ـ وأقل بلاد العالم إيطاليا التي يصل معدل الخصوبة بها 1.2 بالمائة.

(2) يعالج بيير ليلوش Pierre Lelouche ، في كتابه L'avenir De La Guerre، مرجع سابق، الفصل الثاني من الجزء الثاني هذا الموضوع تحت عنوان «المسالة الغربية: شرخ في الإرادة، فيستعرض لمظاهر السلبية في أوروبا، ويرجع هذا إلى «الطبيعة الديموقراطية» للمجتمعات الغربية التي تعد ـ في رأيه ـ «المرض المزمن للردع»... فالأجيال الجديدة التي لم تشهد الحرب العالمية الثانية ، ولم تشهد الحرب الباردة ترى أن الدفاع عن القيم الغربية لا يكون بالتهديد المستمر للجنس البشرى والحضارة الإنسانية، فهذا في نظرهم أمر غير أخلاقي .. لذا فالمطالبة برفع ميزانية الدفاع يقابل بحساسيات شديدة لدى الرأي العام الأوروبي... ومن الأبعاد الخارجية المؤثرة ـ في رأيه ـ أن الشعب الأمريكي لم يعد مستعدا للتضحية المالية من أجل الوفاء بالتزامات الدفاع تجاه أوروبا.

بعض بلدان أوروبا. ومنها أن النفايات الصناعية والنووية أصبحت تهدد البيئة بشدة... إلخ.

وإذا ما سقطت أوروبا فسوف يكون هناك فراغ لا يدرى أحد من الذى سيملؤه .. وهذا يفسر التناقض فى العلاقات الأميريكية الأوروبية، التى تدير حربا خفية ضد أوروبا، وتخشى سقوطها فى آن واحد، لأن انهيار أوروبا لا يعنى سوى انهيار «الليبرالية» بكل قيمها، والحضارة الغربية الصليبية / الصهيونية بشكل عام .. وهذا يعنى انهيار الولايات المتحدة الأميريكية بالتالى:

- ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ [الإسراء / 17]، وقال تعالى:

- ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ... ﴾ [القصص / 58]، وقال تعالى:

- ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ [الأنبياء / 11]

ذلك ؛ وقد خلفت فترة الحرب الباردة عددا من المشكلات التى تشكل تهديدا حقيقيا للنظام العالمى .. فهناك ترسانة نووية هائلة لا تزال موجودة فى الولايات المتحدة ، وروسيا، والصين، فضلا عن فرنسا، وبريطانيا، وإسرائيل والهند. وانتشار الأسلحة النووية إلى غير هذه البلدان أصبح أمرا محتملا.

وهناك فجوة تكنولوجية وأخرى اقتصادية بين الدول الصناعية الكبرى وغيرها من البلدان . وهناك ظلم بيّن فى التبادل التجارى، يصحبه تنافس شديد أدى إلى ظهور إرهاصات حرب تجارية لن تُبقى ولن تذر، وتهدد بانهيار النظام الاقتصادى العالمى. وهناك دول أعلنت إفلاسها بسبب ما تراكم عليها من ديون ربوية، وأخرى على وشك الإفلاس!

ذلك ؛ وقد نصبت الولايات المتحدة الأمريكية (الصهيونية) نفسها حاكما يفرض وصايته على كل الأمم ، وظنوا أنهم قادرون عليها ، وأصبحوا يتعاملون مع أهل الأرض جميعا كما يتعامل عمدة فاسد مع أهل «قرية»[1] يمقتونه وينافقونه، يخشون بطشه ويرجون معوناته الاقتصادية ، يتمنون هلاكه ولا يدرون ماذا سيحدث إذا هلك !

---

(1) صدرت آخر التعبيرات أن «العالم كله قد صار قرية صغيرة» على لسان الرئيس الأمريكي ويليام (بيل) كلينتون يوم 29 سبتمبر 1995م في خطابه المذاع على العالم كله ، أثناء توقيع ما سموه «اتفاق توسيع سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني» .. وكان هذا التعبير قد بدأ يتردد منذ ثارت أزمة الخليج عام 1990م.

ومنذ أعلن الاتحاد السوفيتي وثيقة تسليمه، وأكدها بتوقيعات فى مؤتمرات قمة ثنائية من عام 1986 حتى عام 1989م، أخذت الولايات المتحدة الأمريكية (الصهيونية) تحكم قبضتها على «المنظمة العالمية للأمم المتحدة» وتسخرها ، فى تنسيق مع ما آتاهم الله تعالى من قوة مادية، لصياغة «النظام العالمى الجديد»، مستخدمين فى ذلك أساليب وآليات لفرض ثقافتهم وقيمهم على العالم كله رغم أنفه:

ـ قال الرئيس الأمريكى «كلينتون» يوم تنصيبه فى 20 يناير 1993:

« إن أمريكيا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشرى، وإننا نستشعر أن علينا التزاما مقدسا لتحويل العالم إلى صورتنا».

ـ ومن قبله ألقى الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» الخطاب الوحيد فى مؤتمر قمة «مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى» الذى انعقد بباريس فى المدة من 21:19 نوفمبر عام 1990م فقال:

« إن وحدة الأيديولوجية فى دول العالم ، بأن تسود «قيم الديموقراطية الغربية» ، هى الطريق الوحيد للتفاهم والتعاون الدولى، ولأن يسود الاستقرار والسلام فى العالم ...».

ـ ومن قبله ألقت السيدة «مارغريت تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا خطابا فى سبتمبر عام 1988م قالت فيه: «إن الإمبريالية الأوروبية ـ نعم ، ولا أعتذر عن هذا ـ هى التى نقلت الحضارة إلى الكثير من شعوب العالم. لقد كانت هذه هى حكاية مواهبهم وفروسيتهم!».

ـ ولقد سبقهم الدكتور «هنرى كيسنجر» وزير الخارجية الأمريكى حينما أعلن فى أعقاب توقيع اتفاق «الانفراج» مع الاتحاد السوفيتى فى مايو 1972م: «أن السياسة الخارجية الأمريكية فى القرن القادم سوف تقوم على تهيئة نظام عالمى مستقر تحيا فيه القيم الأمريكية وتزدهر» .. وقد تم وضع هذا النص كما هو كهدف قومى أمريكى فى عهد «رونالد ريغان» فجاء كما يلى: «رابعا ـ إقامة والحفاظ على نظام عالمى مناسب لا يحقق بقاء القيم الأمريكية فحسب ، بل وازدهارها».

ـ ومن قبل هذا كله كان خطاب «دزرائيلى» رئيس وزراء بريطانيا فى قصر البللور «Crystal Palac» عام 1872م الذى قال فيه: «إن من الواجب على من صنعوا المدنية أن ينقلوها إلى الآخرين على شروطهم الغربية».

قال تعالى:

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾

[إبراهيم / 46-47]

الباب الخامس

آليات وأساليب إقامة النظام العالمي الجديد

ويتكون هذا الباب من تمهيد وفصول أربعة :

الفصل الأول : مؤتمر سلام الشرق الأوسط

الفصل الثاني : النظام الشرق أوسطي الجديد

المحور الأول :وجهة النظر الأمريكية.

(النظام الشرق أوسطي جزء من النظام العالمي الجديد)

المحور الثاني : أوروبا والبديل البحر المتوسطي.

الفصل الثالث : مركزية السيطرة على الاقتصاد العالمي

المحور الأول : تحالف الدول الصناعية الكبرى.

المحور الثاني :ضبط المواليد وفرية نقص الموارد .

الفصل الرابع : الترويج لثقافة السلام

المحور الأول : هدم فكرة الدولة.

المحور الثاني : محاولة هدم نظام الأسرة.

المحور الثالث : إزالة الخصومات والثقافة العقدية.

المحور الرابع : محاربة الإرهاب.

الباب الخامس

آليات وأساليب إقامة النظام العالمي الجديد

تمهيد :

وقف الرئيس الأمريكى «جوج بوش» يوم الخامس من مارس 1991م أمام «الكونغرس» الأمريكى ليعلن أن «حرب الخليج» (الثانية) كانت الاختبار الأول لنظام عالمى جديد «تقف أميريكا على قمته».

وقد أوضح برنت سكوكروفت Brent Scowcroft مستشار الرئيس الأميريكى «بوش» للأمن القومى هذا الأمر فقال(1) : «إن الأمم المتحدة سوف تستعيد مبادئها ومثالياتها كما جاءت بميثاقها، من أجل سياسة العالم ومعاقبة المسيئين، وذلك إذا ما تولت الولايات المتحدة الأمريكية قيادة العالم، وأذعن الاتحاد السوفيتى لذلك».

وعلى الرغم من أن الكثيرين من المفكرين فى العالم، وفى الغرب أمثال: «روبرت غيتس» مساعد «سكوكروفت» نفسه ، و«زبيغنيو بريجينسكى»، الذى كان مستشار الرئيس الأمريكى «كارتر» للأمن القومى، و«دوغلاس هيرد» وزير الخارجية البريطانى، وغيرهم ، قد عبروا عن غموض وعدم وضوح فكرة النظام العالمى الجديد (2)، طوال عامى 1991م، و1992م إلا أن ملامح النظام العالمى الجديد، وأساليبه وآلياته قد تكشفت وصارت واضحة منذ مطلع عام 1993م، بمقدم الرئيس الأمريكى «كلينتون»(3) .

---

(1) Tive, April 1 , 1991, P. 22.

(2) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .. العبارات التي صرحوا بها وتعطى هذا المعني.

(3) وهو متزوج من السيدة «هيلاري» ـ وهي يهودية ـ وله توجهاته الصهيونية التي تتعدي كل الحدود التي بلغها الرؤساء الأمريكيون السابقون عليه .. وقد تم إعداد كلينتون علي عين الصهيونية العالمية. ففي خطابات متبادلة في الكنيست الإسرائيلي مساء 27 أكتوبر 1994م ، بمناسبة حضوره توقيع الاتفاق الأردني الإسرائيلي ، الذي عبروا عنه بأن «أبناء إبراهيم (عليه السلام) قد اتفقوا ..! جاء ما يلى:

جاء في خطاب رئيس الوزراء «يتصحق رابين» موجها كلامه إلي الرئيس كلينتون:

ـ تذكر وصية أستاذك في المرحلة الثانوية «القس واو» التي أوصاك بها وهو على فراش الموت بأن تحافظ على إسرائيل =

وعلى الجانب الآخر نجد أن الدراسة التي صدرت عن «مركز جافي Jaffee Center للدراسات الاستراتيجية» التابع لجامعة تل أبيب، وشارك فيها ثماني عشرة شخصية من كبار المفكرين اليهود، وتركزت حول «ما حملته حرب الخليج لإسرائيل من مضامين»، ونشرتها صحيفة جيروساليم بوست عام 1992م، و«وست ڤيو برس» «Westveiew Press» بأمريكا

= وترعاها عندما تصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية!

ـ الإرهاب الإسلامي هو عدو السلام، وعدو العالم كله ، وعدوكم.. وسيعبر البحار والمحيطات ليصل إليكم!

ـ إيران هي التي تقود هذا الإرهاب .

ـ أورشليم كانت وستظل إلى الأبد عاصمة إسرائيل، القلب النابض للشعب اليهودي.

ـ من أورشليم ، سرة العالم ، تقبل هذا الدعاء : «يباركك الرب من صهيون ـ سلام على إسرائيل».

وجاء في خطاب زعيم كتلة ليكود (المعارضة) بنيامين نتانيا هو:

ـ عما قريب نكون قادرين على اجتياز نهر الأردن، بالسلام، وعيوننا على جبال مؤاب (بداخل الأردن ويظنون أن موسى عليه السلام قد دفن هناك).

ـ المعاهدة مع الأردن لم تستقطع جزءا من أرض إسرائيل .. فهي سلام حقيقي.

ـ أما دمشق فعليهم أن يدفعوا ثمن السلام .

ـ التطرف القومي والإسلامي لا زال موجها ضدنا.

ـ أصبحنا شعبا قويا يعيش على أرضه ويهود مدينة القدس.

ـ السلام الحقيقي يكون بتقوية الصهيونية ، وعدم ترك «السامرة» (يقصد الضفة الغربية لنهر الأردن) ، ومحاربة الإرهاب وعدم التسامح معه، ولا مع زعمائه ، وبتمسكنا بعاصمتنا الأبدية (القدس)، فهي مدينة مقدسة . ويجب أن تكون موحدة في أيدينا.. ويجب أن تكون هذه سياستكم.

ـ السعي من أجل السلام لا يجب أبدا أن يكون بديلا عن الصهيونية.

ـ زعيم المعارضة يبارك رئيس وزراء إسرائيل.

ثم كان خطاب كلينتون كما يلي :

ـ أشعر كأنني في بيتي .. لقد حققت إسرائيل أمس جزءا من حلم الآباء بتوقيعها للاتفاق مع الأردن.. هذا السلام هو من أجل الشعب الأمريكي أيضا .. إننا نعرف أهمية إسرائيل منذ عهد الرئيس ترومان، وإن بقاءها هو بقاء لكل القيم العزيزة علينا. أنا ملتزم بالعمل مع الكونغرس لصيانة المستوى الحالي للمعونة الاقتصادية والعسكرية والتعاون العلمي وتصدير التكنولوجيا المتقدمة لإسرائيل، كي تبقى في مقدمة التقدم العلمي والتكنولوجي العالمي للتغلب على مخاطر السلام! لذا سنرسل لإسرائيل خمس عشرة طائرة طراز F - 15 لتكون قادرة على الدفاع عن نفسها بنفسها...

ـ لقد أصبحت سوريا جادة للدخول في السلام . إن الجندي الإسرائيلي الذي قتله الإرهاب (قبلها بيومين) كان أمريكيا أيضا.. لذا فعلينا مجابهة الإرهاب بصورة حازمة؛ فالتطرف والإرهاب لا زالا يهددانا جميعا.

ـ نحن نحترم الإسلام وعندنا ملايين من الأمريكيين يستجيبون كل يوم لنداء الصلاة في المساجد. والصراع هو مع من يثيرون العنف ويريدون تدمير السلام!

ـ الإرهاب يهددنا من الداخل.. ونقول لتجار الإرهاب لن تحققوا النجاح.

ـ جئت إلى القدس قبل ثلاثة عشر عاما، وعشت الكتاب المقدس، كتابنا وكتابكم.. وقلت للقس «واو» الذي أوصاني بشعب إسرائيل وقال لي: «عندما تصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فإن الله لن يسامحك أبدا إذ قصرت في تأمين إسرائيل» قلت له لن أنسى وصيتك .. وبمشيئة الله فإن القدس وهي موطن الكتاب المقدس ستظل إلى أبد الآبدين...

عام 1993م، قد حددت ملامح «**النظام العالمى الجديد**»، وأولوياته، وأساليبه، وآلياته من خلال تجميع ما صدر عن الرئيس الأمريكى «جورج بوش»، وكبار مساعديه، كوزير الخارجية «جيمس بيكر»، ووزير الدفاع «ريتشارد تشينى»، ورئيس الأركان المشتركة «كولين باول»، ومساعد وزير الخارجية «جون كيلى»، تجميع تصريحاتهم ، وأطلقوا عليها النقاط الأربع عشرة (المبادئ الأربعة عشر) «لبوش» (PP.48 : 51)، وقسموها قسمين: القسم الأول؛ مجموعة مبادئ التى تعيد تنظيم العلاقات الدولية. والقسم الثانى ؛ الخطوط الرئيسة لنظام شرق أوسطى جديد[1].

أما **القسم الأول** فقد جاء به:

ـ نظام جديد فى علاقاته ، وأهدافه، واتفاقاته، وأجوائه .. فهو ليس إصلاحا تدريجيا، بل يوم جديد، وعصر جديد ، وعلاقات شراكة جديدة بين الأمم.

ـ عالم مسالم ، وأسلوب سلمى لحل المنازعات.

ـ تحقيق الأمن المتبادل من خلال شبكة للأمن الجماعى.

ـ الولايات المتحدة الأمريكية تتعهد بإقامة هذا النظام الجديد بوصفها المؤهلة لإدارة«مجتمع العالم» World Community [2] تجاه غايته النبيلة.

ـ الرعاية المشتركة للنظام العالمى الجديد من قبل أمريكا والاتحاد السوفيتى ، بعد زوال الحرب الباردة.

ـ الدعوة عامة لكل الأمم من أجل المشاركة بروح من الاعتماد المتبادل ، باعتبار أن التحالف من أجل الحرب ضد صدّام سوف يتحول تلقائيا إلى تحالف سلمى أوسع.

ـ ستلعب الأمم المتحدة ، والمنظمات المتخصصة التابعة لها دورا هاما فى النظام العالمى الجديد، فستعاد إليها حيويتها، وستزداد صلاحياتها، وستنفذ قراراتها بقوة أعضائها.

---

(1) نذكر بما سبق أن قلناه أن الصهيونية العالمية تتحرك على ثلاث دوائر: إقامة إسرائيل الكبرى بحدودها التوراتية ـ الهيمنة على الشرق الأوسط، بمعنى «قلب الأمة الإسلامية»، من القوقاز حتى المحيط الهندي، ومن حدود الصين حين المحيط الأطلنطي ـ الهيمنة الكوكبية وحكم العالم من القدس .. وفرض السلام على الأرض.

(2) أصبح هذا هو المصطلح الجديد الذي حل محل اصطلاح «المجتمع الدولي» International Society الذى استخدم منذ صلح وستفاليا عام 1648م وكان مواكبا لنشأة «فكرة الدولة».

وأما **القسم الثانى** فقد جاء فيه :

ـ يحتل الشرق الأوسط قمة الأولويات ، فقد كان مسرحا لآخر الأزمات الدولية الحادة، وهو مصدر التهديد الرئيسى للسلام العالمى! ومن ثم فحل مشكلاته فورا هو بمثابة إقامة النظام العالمى الجديد.

ـ يجب أن تكون أولى المهام هى تحقيق الأمن لكل دول الشرق الأوسط من خلال مجموعة من الآليات المختلفة، ويكون هذا من خلال تقوية إمكاناته الدفاعية، وتخزين السلاح والمعدات الأمريكية، واتخاذ إجراءات لبناء الثقة المتبادلة بين دوله، على حساب العدائيات الإقليمية، والتوسع فى التواجد الأمريكى البحرى، أو البرى، وزيادة إمكان ضمان أمن المنطقة بضمانات أمريكية أو دولية.

ـ التحكم فى التسلح، لمنع سباق التسلح فى المنطقة، من خلال مبادرة منسقة فيما بين الموردين الرئيسيين للسلاح، تُحظر الأنواع الرئيسة من التسليح (خاصة أسلحة التدمير الشامل، الذرية والكيمائية والبيولوجية، والصواريخ) مع خفض فى الأسلحة التقليدية الأخرى.

ـ الدول الصناعية الكبرى مدعوة لإقراض دول المنطقة من أجل الاستثمار، ومنحها المعونات الاقتصادية فى صور أخرى ، للإنشاء والتعمير، والتنمية على المدى البعيد ، بما يزيل الفوارق بين دول المنطقة.

ـ حماية مصادر الطاقة، وضمان تدفق البترول بالكمية والسعر المناسبين، بما يحقق فائدة ومصلحة كل الأطراف.

ـ إزالة كل ما من شأنه أن يؤدى إلى الصراع فى منطقة الخليج، وبين العرب وإسرائيل، وفى لبنان.

ـ اتباع دبلوماسية ذات طريقين متوازيين Two- track diplomacy لحل الصراع العربى/ الإسرائيلى من خلال مفاوضات بين الدول العربية المعنية وإسرائيل، فى الوقت الذى يتم فتح حوار إسرائيلى / فلسطينى.

مما سبق يمكن القول بإن هناك طريقين للحركة فى آن واحد: طريق إقامة شرق أوسط جديد، وهذا تتولاه إسرائيل، تساندها الصهيونية العالمية مستخدمة القوة الأمريكية الشاملة، وتلعب فيه روسيا دورا هامشيا مظهريا، ويستبعد منه كل القوى العالمية والأمم المتحدة أيضا، وطريق تشكيل «النظام العالمى الجديد»، وهذا تتولاه الصهيونية العالمية مباشرة مستخدمة ذراعها القوى (الولايات المتحدة)، وإطارها القانونى، الذى أعدته منذ بداية الحرب العالمية الثانية، وأعادت له حيويته وفاعليته.

أما عن الأساليب والآليات المستخدمة فى كلا الطريقين المتوازيين فهى أساليب وآليات متداخلة أحيانا، ومتميزة من بعضها أحيانا أخرى.

* * *

الفصل الأول

مؤتمر سلام الشرق الأوسط

أشرنا من قبل أن من أهم أهداف إثارة أزمة الخليج فى أغسطس 1990م وحسمها بالقوة المسلحة خلال شهرى يناير / فبراير 1991م هو تهيئة الدول العربية للدخول فى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل ، ومن ثم تصفية الصراع العربى/ الإسرائيلى برمته. وقد كان هذا هو المبرر الوحيد الذى جعل إسرائيل تحجم تماما، وللمرة الأولى فى تاريخها القصير، على الرد الانتقامى، حينما قصف العراق بعض المدن الإسرائيلية بالصواريخ.

ولقد استغل هذا الضرب من جهة أخرى فى إقناع الرأى العام داخل إسرائيل بضرورة التفاوض المباشر مع العرب، الذين أصبحوا فى أضعف حالاتهم ، خاصة بعد إخراج العراق كلية من أية مواجهة عسكرية قادمة، وحدوث شقاق بين الأنظمة العربية الحاكمة ذاتها، كما أن الوقت لا يمضى فى صالح الفلسطينيين، مع تزايد الاستيطان، وقطع الدول العربية البترولية المعونات المالية عن منظمة التحرير الفلسطينية لوقوفها بجانب العراق أثناء أزمة الخليج. يضاف إلى هذا كله أنه ليس للعرب استراتيجية من أى نوع.

*** **ولقد حدد الإسرائيليون** طبيعة المفاوضات التى سيدخلونها مع العرب فى أنها يجب أن تكون طويلة، بطيئة، معذِّبة، مؤلمة ، مثيرة للأزمات. وحددوا أهدافهم منها كما يلى(1):

- إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين خارج الحدود الإسرائيلية، ومن ثم يتخلى الفلسطينيون عن فكرة العودة. وبنزع «شوكة» اللاجئين هذه تشطب القضية الفلسطينية من «أجندة» العالم.
- بعد توقيع اتفاق سلام مع الدول العربية شرط مسبق وضرورى لحل القضية الفلسطينية. ولو تم تحقيق شبكة عريضة بالقدر الكافى من علاقات السلام، فإنه من الممكن الوصول إلى تفاهم، حتى ولو رفضت إحدى الدول التوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل.
- ينبغى التوصل إلى اتفاق تفصيلى حول توزيع مصادر المياه فى ما بين إسرائيل والأردن

(1) Jaffee Center Study Group On War in The Gulf: Implications For Israel, Westview Press, 1993, PP. 395 - 397.

وسوريا ولبنان.

ويمكن أن يكون هذا الاتفاق جزءا من اتفاق أوسع بضم تركيا، والعراق، ومصر.

- إقامة اتحاد اقتصادى فى المنطقة، لحل المشكلات الاقتصادية فى المنطقة.
- إقامة علاقة مشتركة تضم إسرائيل والأردن والفلسطينيين فى إطار علاقة أمنية/ اقتصادية / سياسية شبيهة بالوحدة الاقتصادية الأوروبية.
- صياغة اتفاقية تفصيلية لإقامة ترتيبات أمن محددة: نزع سلاح، تحكم فى التسلح، تفتيش... إلخ.

كما حدد الإسرائيليون قبل التوجه إلى مؤتمر «مدريد»، الذى عقد فى المدة 30 أكتوبر حتى الثانى من نوفمبر عام 1991م، حددوا خطوطا لا ينبغى التنازل عنها، لأنها بمثابة المصالح الحيوية:

- الوصول إلى حل توفيقى بخصوص الأرض، بما يحقق أمن إسرائيل[1] بقدر مرضى! ومن ثم يمكننا استيعاب الهجرات، التى تعد جوهر الأمن (حسب ما تمليه الصهيونية).
- عدم التنازل عن السيادة على الجولان إذْ أن بها مصادر المياه.. لذا ينبغى بقاء المستوطنات بها، ونزع سلاحها، وتعديل الحدود بما يحقق أمن إسرائيل!

وكما اعتدنا خلال المائتى العام السابقة، سيق العرب إلى «مؤتمر مدريد للسلام»، الذى انعقد فى المدة من 30 أكتوبر حتى الثانى من نوفمبر 1991م، بناء على دعوة من جورج بوش رئيس الولايات المتحدة ، وميخائيل غورباتشيف رئيس الاتحاد السوفيتى (الذى كان يستعد لهدم هذا الاتحاد والفرار ليعيش خارجه.. فى أمريكا)، وتحت رعاية هاتين القوتين العظميين. **وقامت مصر بدور الوسيط الفاعل**، إذ لعبت دورا محوريا فى هذا المجال. وأملت إسرائيل استبعاد كل من الأمم المتحدة وأوروبا. إلا من حضور هامشى لممثل المجموعة الأوروبية.. التى اختفت فلم تظهر إلا فى بعض المباحثات متعددة الأطراف.. وبانهيار الاتحاد السوفيتى لم

---

(1) هذا يعنى عدم الاعتداد حتى بقرار مجلس الأمن رقم 242 ، رغم إجحافه، وحمايته للظلم، وهذا هو الخط الأمريكي الثابت، وهو ما عبر عنه سكرتير عام الأمم المتحدة د. بطرس غالي في أول مؤتمر رسمي يعقده بعد توليه منصبه في يناير 1992م، إذ قال باللغة العربية «إنه قرار غير ملزم»؛ فهو لم يتخذ استنادا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة .. وكان يتحدث قبل هذا التصريح بالإنجليزية والفرنسية، وعاد إلى الحديث بهما بعد هذا التصريح...

يعد له سوى دور هامشى أقل وزنا من أوروبا. أما أمريكا فقد قامت بدور الخصم والحكم والضامن، فتصرفت كما قال عالم السياسة اليهودى «أهارون وليدافسكى» Wildavsky: «إن الولايات المتحدة إذا ما تصرفت وكان ليس لها مصلحة قومية فى إسرائيل فهى إنما تتخلى تماما عن هويتها الدينية والأخلاقية والثقافية والسياسية»!

وقبل أن يوجه كل من الرئيسين الأمريكى والسوفيتى، الدعوة يوم الثامن عشر من أكتوبر لعقد المؤتمر المذكور ، قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالإشراف على مباحثات سرية مكثفة وغير مباشرة مع الأطراف ثم قدمت ما سمى برسائل تطمينات إلى الأطراف المختلفة [1] نكتفى منها بما يلى:

ـ احتوت رسالة التطمينات إلى لبنان: تأييد الولايات المتحدة لقرار مجلس الأمن رقم 425 الذى ينص على استقلال لبنان ووحدة أراضيه، وتوفير «حدود آمنة» لكل من إسرائيل ولبنان، ونزع سلاح الميليشيات، وسحب كل القوات غير اللبنانية (يشار هنا إلى القوات السورية الموجودة بسهل البقاع)، على ألا يتوقف هذا على التسوية الشاملة ، ولا يرتبط بها.

ـ واحتوت رسالة التطمينات إلى إسرائيل : ... هذا المسار من المفاوضات مبنى على العلاقات الفريدة بين دولتينا، التى تستند على قيم ومصالح مشتركة وعلى احترام الديموقراطية.

إننا نؤكد لكم أن التزاماتنا بأمن إسرائيل باقية على ما هى عليه، وكل من يحاول أن يدس بيننا ساعيا إلى المس بهذه الالتزامات ، فهو لم ينجح فى فهم الروابط العميقة بين دولتينا وطبيعة التزاماتنا بأمن إسرائيل، بما فى ذلك الالتزام بتثبيت «تفوقها النوعى»...

ووفقا للسياسة التقليدية للولايات المتحدة لا نؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة... تدعم الولايات المتحدة المشاركة وتنظيم المفاوضات متعددة الأطراف، التى تتمحور حول موضوعات إقليمية عامة مثل: المياه، والبيئة، والتحكم فى التسلح، والأمن الإقليمى، والتطوير الاقتصادى، ومسألة اللاجئين ... تأمل الولايات المتحدة بتوسيع حجم السلام

---

(1) ملف السياسة الدولية، مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط، مجلة السياسة الدولية، يناير 1992م، صـ132:104 .

بحيث يشمل دولا أخرى فى المنطقة...

لقد عبرتم عن قلق خاص بالنسبة إلى هضبة الجولان ... تواصل الولايات المتحدة دعم تعهد الرئيس «جيرالدفورد» لرئيس الحكومة رابين فى الأول من سبتمبر 1975م بأن الولايات المتحدة ستؤيد الموقف بأى تسوية شاملة مع سوريا فى سباق اتفاق سلام يضمن أمن إسرائيل فى وجه هجوم من هضبة الجولان .. ستولى الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بموقف إسرائيل بأن كل تسوية سلمية مع سوريا يجب أن تقوم على بقاء إسرائيل فى هضبة الجولان ... والولايات المتحدة على استعداد لاقتراح ضمانات أميركية للترتيبات الأمنية التى ستيفق عليها بين إسرائيل وسوريا...

وفيما يتعلق بلبنان، وطبقا للسياسة التقليدية للولايات المتحدة فإننا نؤمن بأن لإسرائيل الحق فى الأمن على امتداد كل الحدود الشمالية. أكثر من ذلك ـ ستبقى الولايات المتحدة ملتزمة بانسحاب كل القوات الأجنبية من لبنان وبتجريد كل الميليشيات من أسلحتها.

إننا نستمر فى النظر إلى معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر، والروابط بينهما، كحجر الزاوية لسياستنا فى المنطقة ...

ـ كما احتوت رسالة التطمينات الأميريكية للفلسطينيين ما يلى: ... القدس يجب ألا تكون مقسمة مرة أخرى أبدا، ووضعها النهائى يجب أن يحدد خلال المفاوضات ... ومن حق الفلسطينيين إثارة أية قضية بما فيها قضية القدس الشرقية على طاولة المفاوضات... الولايات المتحدة عارضت ، وستواصل معارضة، النشاط الاستيطانى فى المناطق المحتلة عام 1967م والذى يبقى عقبة فى طريق السلام.

ـ الولايات المتحدة ستقبل أية نتيجة توافق عليها الأطراف(1).

ـ كما جاء فى رسالة التطمينات إلى سوريا ما يلى: ... الحل الشامل يجب أن يستند إلى قرارى مجلس الأمن 242 ، و338 ومبدأ الأرض مقابل السلام.

---

(1) المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين هي مفاوضات بين من بيده المنح والمنع، ومن لا يملك بيده أى شيء يساوم عليه.

الولايات المتحدة لن تؤيد أية عملية أخرى تجرى بالتوازى داخل الأمم المتحدة أو مجلس الأمن. والاتفاق النهائى يأتى نتيجة التفاوض[1] ... وتأكيدا لهذه السياسة سوف تظل الولايات المتحدة ترفض الاعتراف بضم الجولان وتطبيق القانون الإسرائيلى والتشريع الإسرائيلى والإدارى على الجولان ... إن الولايات المتحدة مستعدة لتقديم ضمانات أمريكية لضمان الحدود التى تتفق عليها سوريا وإسرائيل، فى إطار الإجراءات الدستورية والأمريكية.

وعلى حين جاءت كلمات الوفود العربية فارغة من كل مضمون عقدى نجد أن كلمة الوفد الإسرائيلى جاءت لتعبر عن مغزى عقد المؤتمر فى «مدريد» بالذات، فقال يتصحق شامير فى مطلع كلمته: «... خلال ألفى عام من الترحال حطّ الشعب اليهودى ههنا لمئات السنين حتى طُرد من هذه الأراضى قبل خمسمائة سنة، وفى ختامها عبر الشاعر والفيلسوف الكبير «يهودا هاليفى عاليزى عن شوق جميع اليهود إلى صهيون فقال: «إن قلبى فى الشرق وأنا فى أقصى أرجاء الأرض».

وأنكر شامير كل وجود إسلامى فى الأرض المقدسة، مدعيا أن الشعب اليهودى هو الشعب الوحيد الذى سكن هذه الأرض ــ باستثناء فترة المملكة الصليبية القصيرة ـ وأنه الشعب الوحيد الذى عاصمته القدس، والذى توجد أماكنه المقدسة فقط فى «أرض إسرائيل» .. وقرأ أجزاء من سفر المزامير التى تعبر عن الشوق لأورشليم .. وادعى أن اليهود لم يحتلوا أرضا أجنبية لكنهم صدوا هجوما عربيا، وحالوا دون إبادة شعب إسرائيل، وأعلنوا استقلالهم عام 1948م ، وأن حملة من الاضطهاد ومصادرة الأموال والطرد أسفرت عن خروج جماعى لليهود، وطرد ثمانمائة ألف يهودى، غادروا الدول التى عاشوا فيها منذ ظهور الإسلام!

وادعى : «أن زعماء العرب هم الذين شجعوا مئات الآلاف من العرب سكان فلسطين

---

(1) إذا علمنا أن قرار مجلس الأمن رقم 242 لا ينص على إعادة الأراضى، ولكن على إعادة أراضٍ احتلت عام 1967م.

وإذا علمنا أن أمريكا تضمن أمن إسرائيل وتفوقها النوعي ـ كما ذكر في خطاب التطمينات إلى إسرائيل ـ فالأرض والسلام في يد طرف واحد من أطراف التفاوض فبم وعلى أى شيء يفاوض الطرف الآخر؟

على الهرب من بيوتهم» ... ثم أشاد بزيارة الرئيس المصرى محمد أنور السادات للقدس عام 1977م، وبمعاهدتى كامب ديفيد، ومعاهدة السلام الإسرائيلية المصرية...

وقال : «إن اجتماعنا اليوم هو ثمرة جهود أمريكية متواصلة تقوم على مشروع السلام الذى قدمناه (أى قدمته إسرائيل) فى مايو 1989م.

ثم وجه كلامه للوفود العربية قائلا : «اظهروا استعدادكم لقبول إسرائيل ككيان ثابت فى المنطقة ... **«إننى أناشدكم إلغاء الجهاد ضد إسرائيل»**.

إننا نناشدكم شجب ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذى يدعو إلى القضاء على إسرائيل، وأدعوكم إلى شجب التصريحات التى تدعو إلى القضاء على إسرائيل مثل ذلك التصريح الذى صدر عن مؤتمر الرفض فى طهران الأسبوع المنصرم. إننا نناشدكم أن تمكنوا اليهود الراغبين فى الخروج من بلادكم من تحقيق رغباتهم. إنه من المؤسف أن تتركز المحادثات أولا وقبل كل شىء على موضوع الأرض فهذا هو أسرع الطرق إلى الجمود ...».

وأنهى خطابه بقوله: «والآن فعلينا أن نتعلم كيف نعيش معا بدون حرب وبدون سفك دماء، فاليهودية أعطت العالم ليس فقط فكرة الإيمان بالإله الواحد الأحد، وإنما أيضا فكرة أن الناس جميعا رجالا ونساء خُلقوا على شاكلتنا؟!(1)

وفى اليوم الثالث للمؤتمر (الجمعة ، الأول من نوفمبر 1991م) عقب «يتصحق شامير»، وكان أول المتحدثين فبدأ بقوله : «اسمحوا لى أولا أن أقدم اعتذارى لأنى سأضطر وبعض زملائى إلى مغادرة القاعة فور انتهائى من إلقاء كلمتى وذلك للعودة إلى إسرائيل قبل غروب الشمس للحاق بسبْت يوم السبت (2)».

وحينما جاء الدور على «الدكتور حيدر عبد الشافى» رئيس الوفد الفلسطينى للتعقيب

(1) سبق أن أوضحنا أن هناك نصا في نسخ التوراة يدعى أن الله تعالى «خلق الإنسان على صورته» (تكوين : 26:1) .. وهو جل شأنه «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» . ومع ذلك فإن اليهود فسروا دعواهم الفاسدة بما هو أبعد، إذ يتصورون أن اليهود خلقوا على صورة الله ، وأن باقي البشر خلقهم الله على صورة اليهود ليكونوا لهم تبعا، وليُسخروا لهم في يسر!! وهذا ما قصده شامير وختم به خطابه. ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن هناك حديثًا صحيحًا «إن الله خلق آدم على صورته»، أي على صورة آدم.

(2) يبدأ اليوم عند اليهود بعد الغروب. وفي يوم السبت لا يأتون بأى نشاط، فتتوقف وسائل المواصلات، وكل صور النشاط، حتى غروب الشمس .. ويوصف هذا بأنهم يسبتون، أي يسكنون.

بدأ كلمته بقوله: «... السيد شامير غادر الحفل الكريم صباح اليوم بحجة يوم السبت وهذه مسألة ليست مقنعة لنا فمسألة الحقوق الدينية لا أعتقد أنها بأهمية ما نناقش.. اليوم هو يوم الجمعة مثلا، هو يوم الصلاة عند المسلمين... وقد اخترنا أن نبقى فى هذه القاعة وألا نغادرها لمزاولة طقوس العبادة الخاصة بنا... لبئس ما نطقت به! لقد كان ردا هو مزاج بين الجهل والتفريط فى القيم.

ثم استأنف السيد حيدر عبد الشافي حديثه... والحضور من الوفود العربية غالبيتهم العظمى من المسلمين، وكأنما لم يأمرنا ربُّنا بأن نسعى إلى ذكر الله، وأن نذر ما بأيدينا عندما يُنادى للصلاة من يوم الجمعة! لقد كان الأجدر به أن يقول خيرا أو ليصمت.

وقد يكون مناسبا تفصيل المباحثات متعددة الأطراف فى مكانها المناسب من آليات النظام العالمي الجديد، ونكتفى هنا ببيان نتائج المباحثات الثنائية بين إسرائيل، وكل من منظمة التحرير الفلسطينية، والأردن، وسوريا، وانعكاساتها على الأمة الإسلامية بصفة عامة، وعلى الدول العربية الخليجية بصفة خاصة.

ذلك؛ ولم يكد ينتهى المؤتمر الافتتاحى فى «مدريد» حتى بدأت مباحثات ثنائية علنية، وأخرى سرية، مع منظمة التحرير الفلسطينية فى «أوسلو» تخللتها تصريحات عدائية من قبل إسرائيل مثل تصريح «يتصحق شامير» يوم 18 فبراير 1992م الذى قال فيه : «إن على العرب أن يقبلوا بوجودنا فى كل إسرائيل الكبرى...» وطالب الجيش الإسرائيلى بالاستعداد لحرب قادمة فى المدى المتوسط.

وبنهاية عام 1992م وافق الرئيس الأميريكى على أن تحصل إسرائيل على ضمانات حكومية لاقتراض عشرة مليارات من الدولارات لاستخدامها فى توطين المهاجرين اليهود بالضفة الغربية والقدس...

وفى 13 سبتمبر 1993م تم فى واشنطن، توقيع «إعلان مبادئ لترتيبات الحكم الذاتى الفلسطينى»[1]

---

(1) ترتيبات الحكم الذاتي صيغت على أساس «الاتفاقية الأولى لإطار السلام» التي أبرمت بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة في «كامب ديفيد» في 17 سبتمبر 1978م. راجع : لواء أح د. فوزي محمد طايل، النظام السياسي في إسرائيل، مرجع سابق، صـ 330:324 ، وهي تجعل كل ممارسات السيادة الخارجية والأمن والمياه بيد إسرائيل .. ولا سلطة للفلسطينيين على المستوطنين اليهود.

فى قطاع غزة ومدينة أريحا فقط[1] ، تحت مسمى «غزة وأريحا أولا»، على أن يتم توسيع نطاقه من خلال مباحثات تالية بين الطرفين، وعلى مدى عامين جرت مفاوضات ـ بدت شاقة جدا وطويلة ـوأسهمت فيها مصر، على أعلى مستوى ، بدور رئيسى ، تجاوز مجرد الوساطة... ومع ذلك لم تسفر إلا عن نتائج هزيلة سجلت فى أربعمائة صفحة؛ وتم التوقيع عليها فى طابا يوم 24 سبتمبر ثم في واشنطن يوم 28 سبتمبر 1995م فى مظهرية مبالغ فيها لدرجة ممجوجة.. وكأنما كان التوقيع على انتهاء حرب عالمية، وهو لا يزيد عن حكم محلي محدود ، على شعب يتواجد فى نصف قطاع غزة،وثلاثة بالمائة فقط من الضفة الغربية. فى قرى مكتظة بالسكان ، ومحاطة بمستوطنات ومعسكرات تحتل أكثر من ثمانين بالمائة من أراضى الضفة الغربية، ومدينة القدس كلها ، بل وبداخل مدينة الخليل ومسجدها الإبراهيمى!

ومن المفروض أن يتم التفاوض حول القدس، والوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزة،

---

(1) لماذا غزة أريحا؟ أجاب على هذا السؤال «حاييم رامون» وزير الصحة ، وآربيه درعي وزير الداخلية الإسرائيلى فقالا: «إن هذه المنطقة لا تشكل قيمة تاريخية أو دينية لإسرائيل:

«وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلا ملعون قدام الرب: الرجل الذي يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا. ببكْره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها» (يشوع : 26/6) ـ «فلم يتبق عناقيون في أرض بنى إسرائيل لكن بقوا في غزّة وجتّ وأشدود» (يشوع : 22/11) . يضاف إلى هذا أن غزة (900.000 فلسطيني) مكتظة بالسكان، وهي أكثر المدن عداء للصهيونية، ففيها تأسست حركة الميثاق الإسلامي (حماس) عام 1973، ومنها بدأت الانتفاضة في ديسمبر عام 1987م، كما أنها فقدت كل أهمية استراتيجية لإسرائيل بعد توقيع السلام مع مصر.

أما أثناء توقيع اتفاق 13 سبتمبر ؛ فقد حرص رابين في كلمته أن يقول : «لقد جئنا من القدس العاصمة الأبدية والخالدة للشعب اليهودي» .. وأنهى حديثه بدعوة الحضور للتأمين على دعائه لإسرائيل .. وقرأ دعوات من التوراة.. وعلى الجانب الآخر لم يذكر ياسر عرفات ربّه بكلمة واحدة ، لكنه بدأ خطابه بتوجيه حديثه للرئيس الأمريكي قائلا: سيدى الرئيس إننى أغتنم الفرصة لأؤكد لكم ولشعبكم العظيم أننا نشاطركم قيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان .. وأنهى حديثه بقوله: سيدى الرئيس: شكرا .. شكرا .. شكرا! لقد كان موقفا مفعما بالرياء والصّغار.

وفي رحلة العودة مر يتصحق رابين، وشمعون بيريس على «الرباط»، واستقبلهما الملك الحسن (أمير المؤمنين حسب نص دستور المغرب) فخطب باللغة العبرية مهنئا الشعب اليهودي بالسنة العبرية الجديدة، التي بدأت يوم 15 سبتمبر، أي في اليوم التالي للزيارة. وكما كان الاتفاق الأول بمناسبة بدء السنة العبرية فقد جاء الاتفاق الثاني في نفس المناسبة (بعد عامين كاملين)، وجاءت التهنئة بالعبرية هذه المرة من ياسر عرفات نفسه، في طابا يوم 24 سبتمبر ، ثم كررها في واشنطن يوم 28 سبتمبر 1995م.

والمستوطنات، واللاجئين الفلسطينيين، وترتيبات الأمن، فى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية التى تستمر خمس سنوات... لكن ا لوقت لا يسير ـ حسب الظاهر لنا ـ فى صالح الفلسطينيين.. ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [يوسف / 21].

*** وقد تعهد ياسر عرفات بمحاربة «الإرهاب» (وهو لفظ يُشار به إلى حركات الجهاد الإسلامى، وحماس، وحزب الله) بمساندة كاملة من إسرائيل وأمريكا، وهذا ما أعلنه رابين وكلينتون فى خطابيهما يوم 28 سبتمبر، وفى التصريحات الصحفية بعد ذلك.. كما تعهد عرفات بتعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، الذى ينص على استعادة أرض فلسطين، وأن القدس عاصمتها... وحصل «عرفات» على «جائزة نوبل للسلام» عام 1994م، كما حصل عليها السادات من قبل عام 1980.

وبين هذين الاتفاقين الخاصين «بالحكم الذاتى الفلسطينى» وقع حسين ملك الأردن، ويتصحق رابين رئيس وزراء إسرائيل على إعلان مبادئ يوم 25 يوليو 1994م ينهى حالة الحرب رسميا بين الجانبين. ثم وقع الجانبان اتفاق سلام نهائى فى «وادى عربة»، شرق الأردن، يوم 26 أكتوبر 1994م، عبر عنه رابين بقوله: «الآن اتفق أبناء إبراهيم» .. وهذا يعنى أن الأمر انتهى، ولم يعد للمسلمين حق فى الحديث عن الأرض المقدسة!

وقد تضمن الاتفاق بين الجانبين نصا يعطى المزارعين الإسرائيليين حق البقاء لمدة 25 عاما فى الأراضى الأردنية التى كانوا يزرعونها من قبل فى وادى عربة، وجنوب بحر الجليل، وسمى هذا «بالنظام الخاص» Special regime فى مقابل «حق» الأردنيين فى العمل بداخل إسرائيل. وهذا نظام لا يوجد له مثيل فى أى بلد بالعالم كله، إذ أن من حق الشرطة الإسرائيلية الدخول إلى تلكم المناطق لفض المنازعات، والتحرى والبحث فى الجرائم التى قد تقع بين اليهود هناك! ويسمح للمزارعين اليهود بالدخول بأسلحتهم للدفاع الشخصى.

بيد أن الأكثر غرابة أن يوقع الملك حسين يوم 11 أغسطس 1995م قانونا أصدره البرلمان بإلغاء قانون المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل ، والسماح للأجانب ، الذين لا يحملون أى جنسية عربية، بأن يشتروا أو يستأجروا أو يتملكوا، بشكل مباشر، أو غير مباشر، أموالا عقارية (أراضٍ ومنازل) فى الأردن، دون حاجة للحصول على موافقة الحكومة الأردنية...

إنها بداية ضياع شرق الأردن كما ضاعت كل فلسطين من قبل!

وكان الأردن أول دولة عربية ـ بعد مصر ـ تجمد نشاطها فى مكتب مقاطعة إسرائيل رسميا... لذا لم يكن غريبا أن تشهد الأعوام بين 1992 حتى 1995م مسارعة البلدان العربية الخليجية إلى رفع المقاطعة الاقتصادية مع إسرائيل، والإعلان عن مشروعات مشتركةمعها، كمشروع خط أنابيب الغاز بين قطر وإسرائيل. واستقبل السلطان قابوس يتصحق رابين فى مسقط يوم 26 ديسمبر 1994م، ثم أقامت عمان رسميا علاقات تجارية مع إسرائيل فى الثانى من أكتوبر 1995. ولم تتخلف المملكة العربية السعودية عن هذه المسارعة، فقد صدرت فتوى من هيئة كبار العلماء تجيز الصلح مع إسرائيل، ومن ثم فتحت الباب أمام العلاقات الرسمية بين البلدين.(1)

لقد كان توقيع الاتفاق الإسرائيلى الأردنى بمثابة تحصيل حاصل ، فالعلاقة بين الجانبين لم تنقطع أبدا فى أى وقت، منذ وضع اليهود أقدامهم فى فلسطين. لقد كان بينهما سلام واقعى..

وتعد جبهة الأردن هى أخطر الجبهات على إسرائيل فالمدفعية الثقيلة التى تنصب فى الأردن تستطيع ضرب أى مكان فى وسط إسرائيل. وفرقة مدرعة واحدة تستطيع الاندفاع تجاه الغرب لتصل إلى البحر المتوسط شاطرة إسرائيل شطرين خلال يوم واحد... لذا سارعت واشنطن ـ التى أفرغت قيادتها السياسية نفسها تماما لهذه الاتفاقات، وأعطتها أعلى درجات الأولوية ـ سارعت إلى الإعلان عن التنازل عن قدر كبير من ديونها لدى الأردن،

---

(1) غفر الله لهيئة كبار العلماء على اجتهادهم هذا .. لكن من واجبنا، كمسلمين، أن نتساءل ... هل يجوز التصالح على تسليم أرض أورثنا الله تعالى إياها بنص كتابه العزيز، وبارك فيها للعالمين، وجعلها مهبط أنبيائه، ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبها أولى القبلتين وثالث الحرمين، تسليمها لمن أنبأنا رب العزة أنهم ﴿**أشد الناس عداوة للذين آمنوا**﴾ .. وأنهم ﴿**لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة**﴾ ، وأنهم لن يرضوا عنا حتى نترك ديننا، ونرتد بعد إيماننا كفارا حسدا من عند أنفسهم؟!

على أى الأحوال فقد أعطت هذه الفتوى السند الشرعي للوجود الأميركي (الصهيوني) المكثف بالمملكة، ويسرت للأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية لقاء زعماء الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد توقيع اتفاق «توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني»، ومعه الشيخ حمد بن جاسم، وزير خارجية قطر، لحثهم على دعم «عملية السلام»، كما قدم الوزيران دعوة مفتوحة لليهود الأمريكيين بزيارة بلديهما بدون قيود. وجدير بالذكر أن معظم يهود الولايات المتحدة الأمريكية يحملون الجنسية الإسرائيلية بجانب الجنسية الأمريكية، وأن أبناءهم يجندون بالجيش الإسرائيلي.

ومنحته خمسين طائرة طراز F-16 ومساعدات عسكرية أخرى، وسارع رئيس البنك الدولي للإنشاء والتعمير (التابع للأمم المتحدة) بإعلان أن الأردن سيحقق مكاسب اقتصادية كبيرة بعد قيامه بتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل.

ورغم أن الفلسطينيين لم يحصوا على شيء ذى قيمة إلا أن الاتفاق فتح أمامهم باب الصراع الداخلى على السلطة، وكف يد المجاهدين عن قتال الصهاينة، انتظارا لما قد يلقى إليهم به. ولن يُلقي اليهود إليهم إلا بالوهم وزخرف القول .. فإن القضية الفلسطينية مرشحة للنسيان الكامل خلال السنوات الثلاثة القادمة، بحيث يتوقع فتور الحماس الدولى عندما يطالب الفلسطينيون إسرائيل ببحث الوضع النهائى للقدس وغزة، والضفة الغربية، واللاجئين فى مايو 1996م... وقد يدعم هذا التوقع احتمال تولى كتلة ليكود الحكم فى منتصف عام 1996م ذاته، وتحالفها مع أحزاب «دينية» أكثر تشددا تجاه الاستيطانى والتهويد. كذا فيحتمل وقوع حدث جلل فى القدس بحلول شهر يناير 1997م، الذى ينتهى فيه الاحتفال، الذى بدأ مساء الرابع من سبتمبر عام 1995م، بمناسبة مرور ثلاثة آلاف عام على فتح داود عليه السلام مدينة القدس[1]، (أورشليم Jerusolem) واتخاذها عاصمة لمملكته..

---

(1) كان أول بيت وضع للناس هو البيت الحرام بمكة، وبعده بأربعين عاما وضع المسجد الأقصى بالقدس، ويؤرخ لبناء مدينة القدس بحوالي خمسة آلاف عام. وقد نص قرار تقسيم فلسطين عام 1947م على قيام دولة يهودية على 56.47 بالمائة من الأرض، وأخرى عربية على42.9 بالمائة، وأن تبقى القدس كيانا مستقلا Corpus Separatum ، تحت إشراف الأمم المتحدة، لكن من نتائج حرب عام 1948 -1949م، كما ذكرنا من قبل أن استولي اليهود على 77.4 بالمائة من الأرض، وعلى القدس الغربية، وقامت بتوسيعها وتهويدها ... ثم كان من نتائج حرب يونيو 1967م أن احتلت إسرائيل كل القدس، وأصدرت يوم 27 يونيو القانون رقم 5727 بخصوص «حماية الأماكن المقدسة، وهو ليس إلا ضما نهائيا لكل القدس، وهو ما عبر عنه «بن غوريون» في مؤتمر صحفي عقد قبيل صدور القانون. تتابعت قرارات مجلس عامي 1968م و1969م بإدانة تصرف إسرائيل إلى أن أحرق اليهود المسجد الأقصى في جمادى الآخرة 1389هـ (21 أغسطس 1969) ، وكان أقوى قرارات مجلس الأمن هو رقم 298 يوم 25 سبتمبر 1971م، فوجهت إسرائيل في اليوم التالي خطابا إلى مجلس الأمن تزجره على قراره. وجاء في الخطاب أن حكومة إسرائيل لن تدخل في أى مناقشات على أساس هذا القرار .. وأن إسرائيل سوف تستمر في تطوير المدينة.

توالت قرارات مجلس الأمن عامي 1979م ، و1980م تستنكر ممارسات إسرائيل، فأصدرت إسرائيل في نفس العام «قانونا أساسيا» باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل.

انعقد بالطائف ، في يناير 1981م أقوى مؤتمرات قمة منظمة المؤتمر الإسلامي تحت شعار «دورة فلسطين والقدس الشريف»، أعلن فيه المؤتمر أن قضية فلسطين هي «قضية الأمة الإسلامية الأولى»، وأكدوا التزامهم بتحرير كل الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة، ورفضوا اتفاقيتي كامب ديفيد، وقرار مجلس الأمن رقم 242، واتفقوا على =

ويدعـم هذا التوقـع أيضا أن الحـمية قد فـترت عنـد المسلـمين ذاتهـم، بسبـب ما تتعـرض له الصحـوة الإسلامية فى كل مكـان من ضربات ... فى البوسـنة، وشيشان، وطاجيـكستان.. وغيرها من البلدان الإسلامية. ناهيك عن ما يتعرض له المسلمون فى البلاد غير الإسلامية.

بذا تصبـح المهمة الـرئيسة للصـهيونية الـعالمية، بمركـزى ثقلها (أميـريكا ـ إسرائـيل) هى جذب سـوريا إلـى طاولة الـتفاوض، بـهدف الحـصول علـى توقـيعهـا على اتـفاق سـلام مع إسرائيل... عاجلا ما أمكن!

= إعلان «الجهاد المقدس» لإنقاذ القدس الشريف، ونصرة الشعب الفلسطيني ... لكنها كانت مجرد كلمات .. ﴿**كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ [الصف / 3].

فقد تم التراجع تدريجيا عن هذا الإعلان في مؤتمرات القمة التالية.. واستبدل «التعاون الدولي لمكافحة الإرهاب» «بالجهاد لتحرير الأرض المقدسة»! .. وأصدر الكونـغرس الأمريكي في مطلع عام 1990م قرارا باعتبار القـدس الموحدة عاصمة إسرائيل، وأوصى بنقـل السفارة الأمريكيـة إليها..وفي فبراير عام 1990م أصدر الرئيـس الأمريكي جورج بوش بيانا خطيا يؤيـد فيه حرية اليهود في الهـجرة إلى الأرض المقدسة. وفي 16 مارس أصدر وزير خارجيته خطابا مـوجها إلى العضو الديموقراطي (اليهودي) «ميل ليفن» يعترف فيه بـحق اليهود في الهجرة والاستيطان أينما شاءوا بما في ذلك كل القدس، التي ينبغي أن تظل موحدة!

وفي ديسمبر عام 1991م أصدرت الجمعية العامة لـلأمم المتحدة ـ بدفع من أمريكا ـ قرارا غير مسـبوق ـ بإلغاء القرار رقم 3379، الصادر عن نفس الجمعية عام 1975م ، ويعتبر الصهيونية شكلا من أشكال التميز العنصرى. وقد امتنعت 13 دولة إسلامية عـن التصويت على قرار الإلغاء، عـلى حين غابت 17 دولة إسلاميـة، فكأنما وافقت الدول الـثلاثون على قرار الإلغاء موافقة سكوتية!

استمرت إسرائيل في مصادرة الأراضي، وهدم الأحياء العربية والمساجد لتهويد المدينة، في الوقت الذي ادعى الملك حسين ولايته الدينية علـى القدس استنادا إلـى اتفاقيته مـع إسرائيل. وكان هذا الموضـوع مثار جدل انسحب علـى إثره الملك حسين من مؤتمر القمة الإسلامي السـابع (13 :15 ديسمبر 1994م) بالدار البيضاء، وذلك يوم 14 ديسمبر.

أصدرت المحكمة العليا الإسرائيلية قرارا يوم 3 أغسطس 1995م يسمح لليهود (خاصة جماعـة أمناء جبل الهيكل) بالدخول إلى ساحة المسجد الأقصى والصلاة فيها.. وخولت الشرطة الإسرائيلية صلاحية التدخل عند حدوث شغب هناك!

والآن يحتفل اليهود على مدي أكثـر من ستة عشـر شهرا في مدينة القدس، التي يسكنها خمسـمائة وستون ألفا ، منهم مائة وخمسة وخمسـون ألفـا فقط من العرب... وقد خططت الصـهيونية العالمية لتوسيـع المدينة، بضـم 11 بالمائة من أراضي الضفة الغربية إليها، بمصادرتها ونزعها من أيدى السكان العرب، وبناء مساكن للمستوطنين اليهود عليها ابتداء من عام 1996م .. فهـم يأملون أن يبـلغ عدد اليـهود بالقـدس مليون نـسمة.. بعد أن اسـتولوا بالـفعل علـى قرابة 95 بالمائـة من مساحة أراضي القدس.

وفي لقاء لبابا الفـاتيكان «يوحنا بولس الثاني» بزعماء اليـهود الأميريكيين يوم 8 أكتوبر 1995م، وعدهم بزيـارة القدس عام 2000م، وأخبرهـم أنه ـ بعد إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل في مطلع عام 1995م ـ قد أعد منشـورا بابويا يدعو إلى مكافحة العداء للسـامية.

وما يسمونه «بالمسار السورى» فى عملية «السلام» هو المسار الأكثر تعقيدا بسبب الارتباط العميق بين سوريا ولبنان، ولوجود قوات سورية فى سهل البقاع اللبنانى منذ الحرب الأهلية اللبنانية، ولارتباط سوريا «بحزب الله» اللبنانى، وهو الفئة الوحيدة، حتى الآن، التى تجاهد فى سبيل الله لطرد الإسرائيليين من جنوب لبنان ولإسقاط نظام الحكم الانفصالى الموالى لإسرائيل هناك، كى تعود وحدة أراض لبنان. و«حزب الله» جماعة من المسلمين الشيعة لها ارتباطات قوية مع إيران، الدولة الإسلامية الوحيدة، الآن، التى ترفع راية الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من الوجود الصهيونى، ومن ثم فهى تقوم بدعم «مجاهدى حزب الله» عسكريا وماديا من خلال سوريا، لعدم وجود اتصال جغرافى مباشر بين إيران ولبنان.

ولقد كان لدخول سوريا ومصر الحرب فى رمضان 1393هـ (أكتوبر 1973م) فى آن واحد ضد القوات الإسرائيلية التى كانت تحتل شبه جزيرة سيناء، وهضبة الجولان آثارا استراتيجية ومعنوية، لم تكن لتتحقق بهذه الصورة لو أن أحد البلدين دخل وحده الحرب.

وحتى تحقق الصهيونية العالمية هدفها[1]، وتفرض السلام فقد كان عليها أن تدفع إلى عقد تسوية نهائية بين إسرائيل والفلسطينيين (أهل الأرض التى يتم الصراع من أجلها)، فكانت اتفاقية «كامب ديفيد»، التى وضعت إطار هذه التسوية، لكنها لم توضع موضع التطبيق ــ جزئيا ــ إلا منذ شهر سبتمبر عام 1993م، ثم مع الأردن (التى يعتبرونها المعبر الذى سيمر به الفلسطينيون من الأرض المقدسة إلى منفاهم فى شبه الجزيرة العربية والسودان)، ونظراً

---

(1) صاغت إسرائيل أهدافها القومية في أعقاب حرب يونيو 1967م كما يلي:

ــ تسوية النزاع العربي الإسرائيلي.

ــ تأمين الدعم السياسي والاعتراف بإسرائيل من جانب أكبر عدد ممكن من دول العالم.

ــ تنمية التبادل الاقتصادي والثقافي مع كل دول العالم.

ــ الدفاع عن كيان الدولة ووجودها .

ــ تأمين الهجرة اليهودية إلى إسرائيل.

ــ اتخاذ الإجراءات المضادة للتحرك العربي.

ــ تقوية الشعور الديني والثقافي والروابط التاريخية بين إسرائيل ويهود العالم.

راجع : Richard F. Nyrop, Israel (A Country Study) The Amreican University, Washington, 1979, P., 165.

للحساسية السياسية / التاريخية بين الأردن وباقى الدول العربية، فإن الاتفاق الإسرائيلى معه تأجيل ـ من الناحية الشكلية فقط ـ حتى تمت أولى خطوات التسوية مع الفلسطينيين. وكانت مصر (التى يعتبرها الفكر الصهيونى/ الصليبى مفتاح منطقة «الشرق الأوسط») هى أول الدول المجاورة لإسرائيل حركة تجاه التسوية مقابل عودة شبه جزيرة سيناء، وحصول مصر على معونة اقتصادية وعسكرية أمريكية، هى الثانية بعد إسرائيل، فى مقدارها وأولويتها.

بقيت سوريا التى تعلم [1]، ويعلم كل من له عقل، حتى ولو كان مغرقا فى العلمانية والتبعية للغرب / الصليبى / الصهيونى، أن إسرائيل تتطلع إلى ضم أراضيها ـــ فى المدى المتوسط أو البعيد ـ حتى تصل إلى نهر الفرات .. لأسباب عقدية واستراتيجية واقتصادية فى آن واحد... بقيت سوريا ، حتى كتابة هذه السطور، رافضة لفرض السلام الصهيونى عليها.

ومنذ بدت بوادر سقوط الاتحاد السوفيتى، فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن العشرين، واضحة للعيان، خططت الصهيونية بجناحيها (فى أمريكا وإسرائيل) على أساس أن السند السياسى/ الأيديولوجى للنظام البعثى الاشتراكى السورى، ومصدره الوحيد للسلاح قد انقطع ، ومن ثم سوف تصبح سوريا معزولة، أو شبه معزولة، خاصة وأنها انحازت إلى جانب إيران فى أثناء الحرب العراقية الإيرانية، فزادت حالة الجفاء بينها وبين كل من العربية السعودية ، ومصر، والأردن، والتى بدأت منذ انتهاء حرب رمضان (أكتوبر 1973م)، التى لم تستطع فيها سوريا استعادة هضبة الجولان، رغم قتال جنودها ببسالة.

---

(1) بدا هذا المفهوم واضحا في الحديث الصحفي الذي أجراه رئيس تحرير صحيفة الأهرام (القاهرية) مع الرئيس السوري حافظ الأسد، ونشر يوم 11 أكتوبر 1995، مواكبا لزيارة سريعة أجراها الرئيس المصري محمد حسني مبارك لسوريا لحث قيادتها على اتخاذ خطوات نحو توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل. جاء هذا اللقاء بعد اثنى عشر يوما من توقيع ما سمى باتفاق «توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني»، وفشل الاتصالات الأمريكية / السورية خلال الأسبوع الذي أعقب ذلك الاحتفال الاستعراضي الضخم.

وقد شهدت الأعوام 1992 :1995م مؤتمرات قمة ثنائية مصرية ـــ سورية، فجائية ومخططة، بمعدل ليس له مثيل في التاريخ كله؛ بين أى رئيس دولتين . وقد كانت العلاقات المصرية السورية فاترة جدا منذ حدث الانفصال بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة في سبتمبر 1961م، ثم حدث تنشيط لها في المدة من 1971 حتى 1973م، ثم عادت لفتورها الشديد في أعقاب حرب رمضان (أكتوبر 1973م).

وبناء على ذلك حافظت الصهيونية العالمية على خيارى الحل السلمى، والقتال مع سوريا مفتوحين ... فإما أن يتم التصالح مع بقاء مرتفعات الجولان[1] ، بوضعها الجيوستراتيجى الهام، ومنابع مياهها فى يد إسرائيل، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى أن تسنح ظروف إسرائيل لاستكمال مشروعها الصهيونى بالوصول إلى نهر الفرات، وإما أن يتم الوصول إلى نفس الهدف باستخدام القوة المسلحة، التى ستكون بمثابة مخاطرة محسوبة تعتمد على أن كلا من مصر والأردن والفلسطينيين، والعراق ، وباقى الدول العربية خارج ميدان الصراع.

وتتبع الصهيونية العالمية فى إدارتها للصراع على الجبهة السورية على نصيحة د. هنرى كيسنجر التى نشرت فى «لوس أنجيلوس تايمز»، فى أول أغسطس 1992م، ومفادها «كسب الوقت»، فقد يكون مناسبا البدء بإيران فيسقط آخر سلاح فى يد سوريا، وهو «حزب الله».. ويتحقق الهدف فى الاتجاه السورى دون قتال، أو بأقل خسائر ممكنة بسبب عدم قدرة سوريا على استيراد السلاح والذخيرة وقطع الغيار بالمعدلات السابقة على انهيار الاتحاد السوفيتى.

أما عن الخيار العسكرى، فقد تم صياغته على أساس أحد احتماليـن: إما أن يحدث تغيير فى النظام السورى فتكون سوريا هى البادئة بالقتال لتحرير «الجولان»، وإما أن تجد إسرائيل أن الظروف تسمح لها بأن تنال ما تريد باستخدام القوة المسلحة.. وإسرائيل بطبيعتها ترجح، وتفضل هذا الخيار الأخير.. لذا فقد نجد صياغة هذه الفكرة الاستراتيجية فى أول دراسة صدرت عن «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» قبيل «أزمة الخليج»، وجاءت بعنوان

---

(1) أصدرت إسرائيل في 14 ديسمبر 1981م قانونا أساسيا بضم هضبة الجولان إليها، بعد أن اطمأنت من سير مخططها الذي استهدف إجراء تغيير «ديموغرافي» (سكاني) جذرى. فسكان الجولان حاليا خمسة عشر ألفا من الدروز، الذين لهم ولاء عقدى وسياسي لإسرائيل، وقد ربطوا مصيرهم بمصير اليهود منذ قيام إسرائيل عام 1948م، وبها قرابة عشرين ألف مستوطن يهودي، وتم التخطيط لزيادتهم حتى واحد وثلاثين ألفا بحلول عام 1997م. في الجولان أربعين مستوطنة، تم ضم بعضها في مدينة سميت «قبنصرين». وفي المقابل يوجد عشرون ألف سورى، يعيشون في خمس قرى، بعد نزوح قرابة مائة وخمسين ألفا، وصل عددهم الآن أربعمائة ألف، يتجمعون في المدن السورية انتظارا للعودة إلى أراضيهم.

«أرض المعركة المقبلة والصراع العربى الإسرائيلي[1].

وتعتمد إسرائيل، حسب ما جاء فى هذه الدراسة ، على التفوق التكنولوجى العسكرى، وعلى تدهور الظروف الاقتصادية فى سوريا ، التى تتبع «النهج الماركسى»،ولا تكاد تحصل على معونات اقتصادية خارجية ، فضلا عن التأييد الأمريكى المطلق لها، وتأمين جبهتها مع مصر والأردن[2]. ولا تجد من السلبيات فى هذا الخيار سوى الحساسية الإسرائيلية الشديدة للخسائر البشرية.

وعند التطبيق العملى لهذه الاستراتيجية المزدوجة استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل عدة أساليب كانت خليطا من الوعد والوعيد :

---

(1) Hirsh Goodman - W. Seth Carus, The Future Battlefield and The Arab - Israeli Conflict, Transaction Publishers, USA, 1990, 218 Pages.

و«معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» هو أحد مؤسسات «لجان العمل السياسي اليهودي» في الولايات المتحدة الأميريكية PACS ، والتي أعيد تنظيمها عام 1982م، ومن أشهر هذه المؤسسات : «اللجنة القومية للعمل السياسي» NATPAC، و«معاهد الرأى» المتعددة ، والتي تعد مؤسسات تجسس وحرب نفسية بداخل المجتمع الأميريكي لصالح الصهيونية العالمية. فهي تتجسس وتخاطب الرأى العام في آن واحد. ومن هذه المؤسسات أيضا «المعهد اليهودي لشئون الأمن القومي» JINSA، الذي تأسس عام 1977م ليكون بمثابة مركز لمتابعة وزارة الدفاع الأميريكية (البنتاغون)، ولإقناع الرأى العام الأميريكي بالارتباط الحتمي بين أمن الولايات المتحدة وأمن إسرائيل. ومن خلال هذا المعهد تتسرب المعلومات العسكرية السرية الأمريكية إلى إسرائيل.

ويعتبر «معهد واشنطون لسياسة الشرق الأدنى» ، الذي تأسس عام 1982م أحد أهم هذه اللجان، وهو يعمل تحت ستار «مؤسسة خاصة للتعليم» تشجع «البحث العلمي» والحوار البناء، في مجال المصالح الأميريكية في الشرق الأدنى.

وقد تولى رئاسته «والترمونديل» نائب الرئيس الأسبق «رونالد ريغان». ويضم المعهد إلى عضويته عددا من الساسة أمثال «لورانس إيغلبرغر»، وزير خارجية أمريكا بالإنابة في أواخر عهد الرئيس السابق «جورج بوش» ، و«جين كيرباتريك»، المندوبة الأمريكية السابقة في الأمم المتحدة، و«روبرت ماكفرلين»، و«الكسندرهيغ»..وغيرهم ممن تولوا كبرى المناصب السياسية والأمن القومي الأمريكي. ويقوم هذا المركز بإعداد الدراسات المستقبلية، ووضع مقترحات استراتيجية، ويروج للتأييد الصهيوني في أوساط المثقفين والعلماء ورجال الإدارة والسياسة وشئون الأمن القومي في أميركا.

(2) نظرا لأن الدراسة كانت قبل توقيع اتفاقية السلام إسرائيلية أردنية فقد جاء التعبير عن العلاقة بين الجانبين أنها «حالة لا حرب» "The State of non - belligerency With Jordan"

فقد دعت الولايات المتحدة الأميريكية سوريا إلى دخول التحالف العسكرى ، الذى شكلته فى أعقاب أزمة الثانى من أغسطس 1990م، «لتحرير الكويت»، رغم أن سوريا مُدرَجة على قائمة وزارة الخارجية الأمريكية «للدول المشجعة للإرهاب». وقد كان من نتيجة هذا الانضمام حصول سوريا ومصر على مكاسب مالية، وعلى تنازل عن بعض ديونهما لدى الكويت، فضلا عن حدوث قدر من الانفراج السياسى فى العلاقات مع دول الخليج، خفف عن سوريا وطأة العزلة التى عاشتها فى أثناء الحرب العراقية الإيرانية، والتى زادت بعد قيام ما سُمّى «مجلس التعاون العربى» بين العراق ومصر واليمن والأردن عام 1989م.

** وقد بدأت سياسة العصا والجزرة هذه حتى قبل أزمة الخليج .. ففى الوقت الذى كان «جورج بوش» يقدم الخطة المسماة باسمه من أجل «نزع السلاح» صرح مساعد رئيس الأركان الإسرائيلى فى شهر يونيو 1990م أن: «حربا مع الدول العربية المجاورة لإسرائيل سوف تقع حتما، وساعتها لن تتوقف قوات جيش الدفاع الإسرائيلى عند الضفة الشرقية لقناة السويس بل ستتجاوزها إلى الغرب»... ثم عاد لينكر نسبة هذا التصريح إليه بعد عدة أيام.

** وأثناء حدة أزمة الخليج ، وفى 13 نوفمبر 1990م صرح الرئيس الإسرائيلى «حاييم هرتصوغ» ـ ولأول مرة ـ أن إسرائيل تمتلك سلاحا نوويا. وفى نهاية نفس الشهر صرح «يتصحق شامير» رئيس الوزراء أن «الوقت قد حان أن تمتد حدود إسرائيل فى هذه المرحلة من البحر إلى النهر». وتحت ضغط الاستنكار السياسى الخارجى عاد ليصرح أنه ما قاله كان مجرد أحلام.

وما كادت حرب الخليج الثانية تضع أوزارها؛ حتى زار ريتشارد (ديك) تشينى «القدس» يوم 30 مايو 1991م ليوقع اتفاقا استراتيجيا جديد مع إسرائيل، يسمح بنشر وتخزين أسلحة أمريكية متطورة هناك، فضلا عن المشاركة فى تطوير الصاروخ المضاد للصواريخ «حيتص». وتسمح الاتفاقية باستخدام الأسلحة المشار إليها عند الضرورة. كما أشار الوزير الأمريكى إلى أن بلاده تعمل على بقاء التفوق الإسرائيلى العسكرى حفاظا على أمنها.

كرر يتصحق رابين (زعيم المعارضة آنذاك، ووزير الدفاع السابق) كرر ما قاله الرئيس الإسرائيلى «هير تصوغ» عن امتلاك إسرائيل للسلاح النووى، فى محاضرة ألقاها فى جامعة «حيفا» أثناء ندوة عقدت فى الأسبوع الأول من شهر يونيو 1991م، وأضاف أن إسرائيل قادرة على إبادة أية دولة من الدول المجاورة لها.. وأن على جيش الدفاع الإسرائيلى أن يظل هجوميا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، وأن يظل قادرا على إبقاء القوات الإسرائيلية الأقوى والأفضل تسليحا بالمنطقة». ورغم عودة رابين لإنكار ما جاء فى محاضرته فإن وكيل وزارة الدفاع الأمريكية «بول وولفوتيز» صرح فى مؤتمر صحافى: «أن إسرائيل لن تتخلى عن احتكارها للسلاح النووى»! إنه توزيع للأدوار بين الكيانين الصهيونين من أجل ممارسة «الردع بالشك».

ولم تكن هذه آخر التهديدات الإسرائيلية، ولن تكون، فقد صرح يتصحق رابين فى السابع من يناير 1995م عقب اجتماعه بوزير الدفاع الأمريكى ويليام بيرى فى إسرائيل: «أن على إسرائيل الاستعداد لخوض «حرب شاملة» على المدى المتوسط والبعيد.

ولم تقف إسرائيل عند حد التصريحات ، فحاولت كسر تحالف (سوريا ــ إيران ــ حزب الله) من خلال «ضربة عسكرية جراحية Surgical Strike وجهتها إسرائيل بآلتها الحربية الساحقة إلى جنوب لبنان (المدنيين ومجاهدى حزب الله) على حدٍ سواء، طوال الأسبوع الأخير من شهر يوليو 1993م، فأدى ذلك إلى نزوح مئات الآلاف من الأشخاص، فضلا عن مئات القتلى والجرحى، وتدمير أكثر من عشرة آلاف بيت تدميرا كاملا، واحتلت إسرائيل بضعة كيلو مترات أخرى فى جنوب لبنان. ولم يزد رد فعل «الجامعة العربية» عن دفع نصف مليار دولار كتعويضات للمُخرَجين من ديارهم وأموالهم. فكان هذا بمثابة إقرار وموافقة على ما قام به العدو الصهيونى ، بل إن هذه التعويضات تعد بمثابة دعم غير مباشر لإسرائيل.

لقد كان هذا العدوان بمثابة امتحان لإرادة الأمة، ثبت منه أنها غائبة. بل لقد كان بعض هذه الأمة متواطئا مع أعدائها ، وهم يشنون هذا العدوان الغاشم. فقد تلقت القيادة السورية

الشكر على ما قدمته عون للعدو المشترك ليسحق الحليف[1].

أعلنت إسرائيل هدفها منذ اللحظة الأولى قائلة إنها «ضربة حاسمة إلى التشدد الإسلامى». وبعد انتهاء القتال صرح وزير الخارجية الإسرائيلى «بيريز» فى أول أغسطس: «يمكننى القول بأن هذه العملية مكنتنا من إزالة أكبر لغم فى طريق عملية السلام».

كانت سوريا ترجو من وراء فعلتها هذه الحصول على الرضا الأمريكى ليرفع اسمها من قائمة الدول المشجعة للإرهاب، وليفى الجانب الأمريكى بما جاء بتعهداته فى خطاب التطمينات سالف الذكر. وليس هذا أو ذاك إلا وهم وسراب!

على أن هناك حافزين هامين استخدما لدفع سوريا إلى قبول التوقيع على اتفاقية سلام وتطبيع كامل للعلاقات مع إسرائيل. بدأ استخدام أول الحافزين منذ انتهاء حرب الخليج الثانية، وبفشله استخدم الحافز الثانى. وهو مستمر حتى تحسم العلاقة السورية/ الإسرائيلية سلما أو حربا. هذان الحافزان هما إقامة تجمع اقتصادى/ أمنى يضم دول الخليج وسوريا ومصر، ويسمى «بإعلان دمشق»،والحافز الثانى هو إقامة علاقات تكامل اقتصادى مصرية/ سورية، من شأنها، إذا خلصت النوايا، ولم تتحول إلى مجرد سراب ككل محاولات الوحدة التى حاول العرب إقامتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أن تُحدث تنشيطا للاقتصاد السورى فى بعض قطاعاته، خاصة المتعلقة بالطاقة والبنية الأساسية.

فأما «إعلان دمشق»؛ فإنه ما إن توقف حرب الخليج الثانية بناء على قرار مجلس الأمن رقم 686 فى الثانى من مارس 1991م حتى عقدت دول مجلس التعاون الخليجى، ومعها مصر وسوريا اجتماعا فى دمشق يومى الخامس والسادس من مارس 1991م وأخرجوا ما

---

(1) راجع : International Herald Tribune, August 2, 1995, P.4

«قامت سوريا بإعاقة وصول إمدادات الذخيرة من إيران عبر مطار دمشق ، تطبيقا لاتفاق ثلاثي منذ عام 1983م تتولى سوريا بناء عليه تسليح وتدريب «مجاهدي حزب الله». لذا لم يكن عجيبا أن يوجه كل من الرئيس الأمريكي كلينتون، ورئيس الوزراء الإسرائيلى رابين الشكر للرئيس حافظ الأسد يومي الأول والثاني من أغسطس لدوره الهام في وقف القتال، الذي وصل معه وزير الخارجية الأمريكي «وارين كريستوفر» إلى سوريا بمهمة حضها على منع السلاح والذخيرة نهائيا عن حزب الله، والتعاون مع الحكومة اللبنانية لنزع سلاح المقاتلين. لم يكن هذا هو التنازل السوري الوحيد، بل سمحت سوريا لأربعة آلاف يهودي بالهجرة...

عُرف بإعلان دمشق «للتنسيق والتعاون» بين هذه الدول الثمانى. وأن «هذا التنسيق والتعاون لن يكون موجها ضد أى طرف ، بل يمكن أن يكون مقدمة لفتح حوار مع الأطراف الإسلامية والدول التى تحترم المصالح العليا «للأمة العربية»، وتلتزم بمبادئ الشرعية الدولية المستقرة، خاصة ما يتعلق منها باحترام سيادة الدول وعدم التدخل فى الشئون الداخلية وتسوية المنازعات بالطرق السلمية.. (و) تسعى الأطراف المشاركة إلى جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من جميع أسلحة الدمار الشامل، خاصة الأسلحة النووية، وتعمل على تحقيق ذلك من خلال الأجهزة الدولية المعنيية»[1].. .إلخ.

لقد ولد هذا الإعلان مبتسرا، وأهله له كارهون، وتم وأده فور ولاته. وقد جرت محاولات أمريكية، مؤيَّدة من قبَل بعض أعضاء الإعلان لتوجيهه ضد إيران، لكن المحاولة لم تفلح .. ولم تمض سوى أسابيع قليلة حتى انسحبت القوات المصرية والسورية، كما انسحبت القوات الباكستانية التى كانت موجودة فى العربية السعودية قبل أزمة الخليج، ولم تشارك فى الحرب ضد العراق... وانفردت القوات الأمريكية بالمنطقة، بيد أنها أعطت فرصة للتدريب المشترك بين قوات دول الخليج وكل من بريطانيا وفرنسا.

وبفشل فكرة «إعلان دمشق» تم التركيز على العلاقات الثنائية المصرية السورية، فتم تنشيط اللجنة العديا المشتركة، التى تضم معظم وزراء البلدين، واجتمعت هذه اللجنة مرات عديدة هنا وهناك، ووقعت الاتفاقيات،وكان نشاطها ـ ولا يزال حتى كتابة هذه السطور ـ مشهودا إذ لا يضارعه أى نشاط بين بلدين إسلاميين، والله من وراء القصد، وهو سبحانه وحده الذى يعلم ما سيسفر عنه هذا النشاط الكبير.

وفى ما بين إعلان دمشق، وتنشيط العلاقات الثنائية المصرية/ السورية كحافزين لدفع سوريا إلى توقيع اتفاق سلام استمر مسلسل التهديد تارة، وتقديم حوافز أخرى تارة أخرى، وكان من هذه الحوافز قيام الرئيس الأرجنتينى كارلوس منعم[2] بزيارة سوريا فى شهر

(1) النص الكامل للإعلان يرجع إلى مجلة السياسة الدولية، العدد 104، القاهرة ، أبريل 1991، صـ 74-75 .

(2) وهو سورى الأصل، من عائلة مسلمة، هاجر أبوه إلى الأرجنتين، ثم ارتد كارلوس إلى النصرانية حتى يستطيع أن يتولى المناصب المختلفة، إلى أن انتخب رئيسا للأرجنتين.

نوفمبر 1994م، زيارة شابها الغموض، والتساؤل عن كيف يأتى رئيس الأرجنتين للتوسط فى العلاقة الإسرائيلية / السورية ؟ ورغم الإعلان عن عدم نجاح مهمته ، إلا أن زيارة وزير خارجية الأرجنتين إلى إسرائيل فى أواخر يونيو 1995م أزالت الغموض عندما أعلن الوزير الأرجنتينى عن عزم بلاده تزويد سوريا بمفاعل نووى (3 ميغاوات) للأغراض السلمية، وفى المجال الطبى على وجه التحديد. وبالفعل وصل وفد سورى إلى الأرجنتين صباح 14 أغسطس 1995م لاتمام الصفقة ، التى وافقت عليها إسرائيل لتصبح بمثابة الحافز الذى يسبق التحرك الدبلوماسى المكثف على «المسار السورى» فور توقيع اتفاقية «توسيع نطاق الحكم الذاتى الفلسطينى»،والذى تم كما أوضحنا من قبل يوم 29 سبتمبر 1995م.

وقد استخدمت وسائل الإعلام الصهيونية العالمية كل وسائلها لدفع سوريا إلى توقيع اتفاق «سلام» مع إسرائيل، وألقت الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها فى هذا الاتجاه. ومن هذه الوسائل مثلا: أنه فى الوقت الذى كان الرئيس محمد حسنى مبارك يزور سوريا ـ زيارة مفاجئة ـ يوم العاشر من أكتوبر 1995م، وانتهاء اللقاء بمؤتمر صحفى أعلن فيه الرئيس حافظ الأسد أن: «الوقت لا يمثل عنصر ضغط على سوريا»، وأنه «لا يتوقع تقدما يذكر فى المباحثات مع إسرائيل خلال العام القادم بسبب قرب الانتخابات الإسرائيلية (فى نوفمبر 1996م)، والتى تواكبها الانتخابات الأمريكية»، فى نفس هذا الوقت تطالعنا كل وكالات الأنباء العالمية بأن وفدا يابانيا يزور سوريا وإسرائيل لبحث المشاركة فى قوات حفظ السلام بالجولان، وأنه من المقرر (ولا ندرى من ذا الذى قرر) أن ترسل اليابان وحدات من «قوات الدفاع الذاتى» إلى المرتفعات فى شهر فبراير القادم (1996م) لتولى مهام النقل والشئون الإدارية. وأن مهمة الوفد دراسة الموقف الأمنى وتحديد نوعية المعدات اللازمة من خلال زيارة لكل من سوريا وإسرائيل تستغرق عشرة أيام. وقد سبق هذا بشهور عن قيام «ويليام بيرى» وزير الدفاع الأمريكى بتفقد الجولان من الجو يوم الثامن من يناير 1995م استعدادا لنشر قوات أمريكية فى الجولان بعد التسوية السلمية!

ومن قبل ذلك أذاعت وكالات الأنباء أن الإدارة الأمريكية أبلغت الكونغرس ، فى منتصف يونيو 1994م بأن سوريا وإسرائيل ترغبان بأن يكون الوجود العسكرى الأمريكى فى مرتفعات الجولان جزءا من ترتيبات الأمن فى الهضبة جاء ذلك فى إطار تقرير قدمه

«روبرت بلليترو» مساعدوزير الخارجية أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب ، وأعلن فيه أن التسوية بين سوريا وإسرائيل ستتم بنهاية العام (1994م) ، رغم هوة الخلاف بين الجانبين.[1]

والتساؤل الذى يطرح نفسه: لماذا تتعجل الصهيونية العالمية التسوية مع سوريا، وهناك رأى صهيونى مستقر عندهم أن الوقت يمر فى صالح إسرائيل التى تحتل مرتفعات الجولان بالفعل، وتحتل جنوب لبنان، ولا يمثل الصراع مع حزب الله تهديدا خطيرا للأمن الإسرائيلى؟

والرد على هذا التساؤل يسير؛ فالوضع الحالى فى العراق لابد أن يُسوّى ، وهناك ما يدل على أن تسوية قد تكون بتولى الملك حسين عرش الجزء الأوسط من العراق[2]، الذى أصبح مُقسّما واقعيا إلى ثلاثة أجزاء (أكراد فى الشمال ، وشيعة فى الجنوب) وأن هذا الوضع يحتاج حركة تسبقه تجاه إيران لتطويع نظامها، أو إسقاطه واستبداله. والحركة تجاه إيران تكون أيسر بزيادة عزلتها وتهديدها بتحالف يضم سوريا (إعلان دمشق) ، أو بعد فصم عرى التحالف الإيرانى / السورى. وهذا الأخير بدوره سيؤدى إلى نزع سلاح «مجاهدى حزب الله»، ومن ثم تأمين شمال إسرائيل . وزيادة عزلة إيران ... فالنتيجة واحدة.

وفى الوقت الذى يجرى فيه هدم العراق وتقسيمه، فإن هناك اتصالات أمريكية وإسرائيلية لجر العراق كى يستأنف حربه مع إيران من جديد، بمعاونتهما. وهذه الصيغة تحقق «الاحتواء المزدوج» لكل من العراق وإيران، كما تحدث عنه «أنتونى ليك» مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى. فإذا حدث هذا أصبحت سوريا فى حالة عزلة.

---

(1) عادت وكالات الأنباء ووسائل النشر والإعلام تتحدث عن هذا الموضوع من جديد خلال الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر عام 1994م، فَطُرح جدل غريب حول «عدد القوات الأمريكية المزمع نشرها بالجولان»، على الرغم من عدم حدوث أي تقدم في المباحثات الإسرائيلية/ السورية!

(2) هذه هي مكافأة الملك حسين في مقابل توقيعه اتفاق «السلام» مع إسرائيل، والسماح للأجانب بشراء العقارات الأردنية . وقد تم التمهيد لهذا الوضع بإعادة المقومات الاقتصادية إلى الأردن، وبتزويده بخمسين طائرة طراد F-16 ، وإعادة تنظيم وتسليح الجيش الأردني، وهو أخطر الجيوش على إسرائيل، لو أن هناك نية لمواجهة مقبلة ... ثم بدأ مسلسل هروب أقرب المقربين من الرئيس صدام حسين إلى الأردن وغيرها منذ شهر أغسطس 1995م ثم تصريح الملك حسين لصحيفة «الإندبندنت» البريطانية يوم 30 أغسطس أنه يتوقع سقوط نظام صدام حسين (الذي كان متحالفا معه أثناء غزوه للكويت!) خلال تسعة أشهر!! وقيام الملك حسين بالاتصال بالمعارضة العراقية التي اتخذت من لندن مقرا لها...

ولزيادة الضغط على كل من سوريا والعراق وإيران، فقد وقعت السيدة تانسو تشيلررئيسة وزراء تركيا،ويتصحق رابين رئيس وزراء إسرائيل اتفاقية أمنية فى أوائل شهر نوفمبر 1994م .. عبرت عنها رئيسة الوزراء بأنها اتفاقية تحقق مصلحة مشتركة للبلدين، وأنها ذات أهمية كبيرة.

من جهة أخرى فإسرائيل فى عجلة من أمرها، لإعادة ترتيب الأوضاع فى الدائرة الثانية للحركة الصهيونية العالمية، وهى «منطقة الشرق الأوسط» ، بإقامة ما يسمونه «النظام الشرق الأوسطى» الجديد... الذى تتولى إسرائيل الهيمنة عليه وقيادته اقتصادية، وأمنيا. ووجود سوريا خارج هذا النظام سيجعله ناقصا، بل سيجعله مستحيلا، لأن المياه ـ وهى أهم عناصر ذلك النظام تأتى إلى إسرائيل من الجولان، وجنوب لبنان، ومن المفروض أن تأتى أيضا من تركيا عبر سوريا. وقيام إسرائيل بدور دفاعى رئيس، بالتعاون مع أمريكا ، فى البحر المتوسط، كما هو مخطط لها، لا يمكن تصور حدوثه، وما زالت حالة الحرب قائمة بين إسرائيل وسوريا... ومهما أعلن كبار المسئولين الإسرائيليين أن قيام التجمع الشرق الأوسطى لن ينتظر انضمام سوريا إليه فإن قيام «النظام الشرق الأوسطى» ـ فى شقه الأمنى على الأقل ـ مستحيل دون انضمام سوريا.

* * *

الفصل الثاني

النظام الشرق أوسطي الجديد

لا شك أنه ثمة علاقة وثيقة بين الاقتصاد والأمن، أشار إليها القرآن الكريم في «سورة قريش» موضحا أن كلا الأمرين بيد الله تبارك وتعالى ، وأنهما متلازمان:

﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ [سورة قريش/ 4:1]

كما أن التناسب طردى بين مقدار الإنفاق على الدفاع (الإنفاق فى سبيل الله إعدادا للقوة التى بها يكون الجهاد) وبين المردود فى كل مجالات القوة، بما فى ذلك القوة الاقتصادية. بقول الله تعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال / 60].

فضلا عن أن العلاقة طردية بين نهضة الأمة ومقدار إنفاقها على إعداد قواتها المسلحة(1) .لكن المشكلة التى قد يطرحها البعض هى هل الدجاجة أولا أو البيضة؟ أى: هل نبنى القوة الاقتصادية أولا أو نبنى القوة العسكرية القوية أولا. والحقيقة التى أوضحها لنا القرآن الكريم هى أن يكون الأمران فى آن واحد **﴿ ما استطعتم ﴾ - ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾** .

لقد كانت أمتنا أجدر الأمم بفهم هذه الحقيقة ووضعها موضع التنفيذ . لكن يبدو أننا وجدنا أنفسنا، بما قدمته أيدينا ، فى حلقة مفرغة ، يعمل أعداؤنا من خلالها على سلبنا مقومات القوة والأمن جميعا:

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال / 53].

---

(1) ما من أمة بنت حضارتها على مر التاريخ إلا وكانت معتمدة في نهضتها وحضارتها واستمراريتهاعلى القوة المسلحة. وأول ما يدخل النقص على الأمم أن تفتر حميتها، فيطمع فيها الطامعون، وتكون بداية النهاية ... فلا حفاظ على القيم، ولا على التماسك الاجتماعي، ولا على التقدم الاقتصادي بدون القوة المسلحة .

ذلك ؛ وقد أشرنا من قبل إلى أن فكرة إقامة «نظام شرق أوسطى جديد» قد أعلن عنها فى نفس توقيت الإعلان عن بدء الحركة نحو عقد «اتفاقات سلام» إسرائيلية عربية، وتسوية القضية الفلسطينية، كما أن الأمرين نجدهما مسجلين كهدفين قوميين (الهدف الأول، والهدف الثالث) من أهداف إسرائيل. هذا فضلا عن أن الشرق الأوسط ـ كما أوضحنا من قبل ـ هو الدائرة الثانية للحركة الصهيونية.

ومن ثم «**فالنظام الشرق الأوسطى الجديد**» فكرة صهيونية خالصة تستهدف إضافة قوة البلدان الإسلامية الواقعة فى هذه المنطقة الجيوستراتيجية، إضافتها إلى إسرائيل كى تستطيع أن تلعب دورها فى الإطار الكوكبي[1]، وأن تكون قادرة على فرض السلام على كل شعوب الأرض وحكمها من القدس (أورشليم).

وعلى الرغم من أن تعبير «الشرق الأوسط» هو الوريث التاريخى لما سُمّى «المسألة الشرقية»، إلا أنه بقى تعبيرا غير محدد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. بيد أن لهذا التعبير مفهوم واضح لدى الصهيونية العالمية، وهو المنطقة التى تمثل معظم الأمة الإسلامية، والتى تحيط بالأرض المقدسة من كل اتجاه، وتحتوى على القدر الأكبر من ثروات الأمة، بل والقدر الأكبر من المخزون البترولى للعالم.. هذه المنطقة ، كما ألمحنا من قبل، هى الواقعة بين جبال القوقاز شمالا، والمحيط الهندى جنوبا، وبين هضبة التبت شرقا، والمحيط الأطلنطى غربا.

ذلك ؛ ومن المستحيل ، عملا ، أن تستولى الصهيونية العالمية على هذه المنطقة باستخدام القوة المسلحة، ولا حتى باستخدام القوة المسلحة الأمريكية؛ لذا كان التخطيط الصهيونى أن يتم الاستيلاء عليها من خلال الاتفاق على إحداث تكامل، هو أشبه ما يكون بالتكامل بين الذئب والغنم، إذا صح التعبير. فالصهيونية العالمية ترى فى «الشرق الأوسط» المال، ومصادر الثروة، والطاقة، واليد العاملة الرخيصة، والتنوع الجغرافى والمناخى، والمياه، والآثار القديمة، والأماكن المقدسة، والأرض الخصبة، والسواحل الممتدة، والسوق المتسعة، وأن لديهم العلماء والفنيون، سواء الذين هاجروا إلى إسرائيل من روسيا ووسط آسيا وشرق أوروبا، أو من لا يزالون يشكلون ركنا هاما فى القاعدة العلمية بأوروبا وأمريكا.

وبعد أن أعدت الصهيونية العالمية للأمر عدته، ونحن عن هذا غافلون، وأحاطت حركتها بالدعاية الإعلامية المناسبة، وبالحركة السياسية النشطة، تمت الدعوة وجهت الدعوة لعدد من

(1) الكوكبي يعني كوكب الأرض ويستعاض عنها بالمعنى المتعارف عليه بالعالمي الإطار الكوكبي، يعني الإطار العالمي.

الدول، هى «نواة الشرق الأوسط الجديد» ، ومرحلته الأولى. وكانت هذه الدول هى:(1) إسرائيل ، والأردن ، ومصر ، ولبنان ، وسوريا (التى رفضت الدعوة) ، والمغرب،

---

(1) رغم أن الدعوة لم توجه إلى ليبيا، ورغم إعلان ليبيا العداء لإسرائيل، إلا أن موقف القيادة الليبية وتصرفاتها منذ انقلاب الفاتح من سبتمبر عام 1969م حتى الآن يجعلنا نتساءل: ما هى هوية النظام الليبى، ولمن ولاؤه، وهل له دور فى التحرك الصهيونى العالمى؟ ورغم أنه لا توجد عندى إجابات قاطعة على هذه التساؤلات فإن غض الطرف عن تاريخ «النظام الثورى الليبى» يجعل حلقة البحث فى موضوعنا ناقصة.. لذا أورد هنا المعلومات التالية.. وأوكل إلى فطنة القارئ الكريم أمر تقديرها والإجابة على الأسئلة المطروحة:

- بتولى العقيد معمر القذافى «السلطة فى ليبيا (قرابة 3 مليون معظمهم من البدو والعرب والبربر) أعلن أنه يعمل على إقامة القوة العالمية العظمى الثالثة، من خلال تطبيق ما سماه «بالنظرية الثالثة» ، والتى سجلها فى «الكتاب الأخضر». وقد بنى جوهر ومحتوى هذا الكتاب على الخلط بين الفكر الماركسى ، والقومى، وأفكار مشوشة نسبها ظلما للإسلام وما هى من الإسلام . لذا كان تقارب ليبيا مع الاتحاد السوفيتى كبيرا، وسعت قيادتها إلى إقامة اتحاد مع مصر وسوريا ـ (1971 / 1972)، لم يكتب له النجاح، فجرت محاولات وحدة مع بلدان عربية وغيرعربية، كانت كلها فاشلة. وترفض ليبيا فكرة السلام العالمى، ومن ثم تعلن رفض إطارها القانونى (الأمم المتحدة) (إقليم أوزو). وقد عرض العقيد القذافى أن يتولى قيادة القوات المسلحة فى مصر وسوريا ، وأن يقوم بنقل بعض القوات المصرية إلى سوريا لتوجيه ضربة إلى إسرائيل، وتنفيذ قرار التقسيم لعام 1947م بالقوة. وبسبب رفض مصر للخطة ، لمخالفتها لكل أصول ومبادئ الحرب سحبت ليبيا سربا من طائرات الميراج أثناء سير القتال، كان قد أرسل إلى مصر من قبل.. وتفاقم الخلاف بين أشخاص القيادتين المصرية والليبية حتى كان صدام مسلح حدودى عام 1977م.
- أعادت القيادة الليبية تنظيم البلاد منذ أبريل 1974م، فأنشأت «اللجان الشعبية»، وألغت سلطة الدولة ـ نظريا ـ فسبقت بذلك النظام العالمى الجديد بالقضاء على فكرة الدولة ، وتم توجيه معظم العائدات البترولية لإثارة ودعم النزاعات العرقية والقومية فى كل مكان فى العالم، ومنها مثلا دعم الجيش الجمهورى فى أيرلندا الشمالية فى حربه الانفصالية ضد بريطانيا، وبذا تم تبديد الثروة والمال رغم أن ليبيا .. على قلة عدد شعبها ـ تمتلك ثروات معدنية كبيرة، ويمكنها الزراعة على الأمطار فى الساحل، وعلى مياه الآبار فى الداخل، وتحتل المركز الثانى عشر بين الدول المنتجة للبترول.
- اشترت ليبيا منذ منتصف تسعينيات كما هائلا من السلاح السوفيتى، تم تدمير معظمه فى تشاد، حيث ساندت أحد جانبى الحرب الأهلية هناك، وكان هذا فى الوقت الذى أنشأت فيه ليبيا محورا مع إثيوبيا الماركسية، وحركة التمرد الانفصالية المحاربة للإسلام فى جنوب السودان.
- شنت القيادة الليبية حربا ضد المساجد بدعوى «تحريرها»،ودعا الزعيم الليبى إلى حذف كلمة «قل» من آيات القرآن الكريم!
- يركز الكتاب الأخضر على فكرة «التمكين للمرأة» فى الحياة العامة، والمساواة التامة بينها وبين الرجل، إلى درجة وجود نسوة فى الحرس الخاص بالزعيم الليبى. وبذا سبقت ليبيا أفكار مؤتمر المرأة الذى عقد بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة فى بكين.
- بدأت ليبيا تنفيذ مشروع «النهر الصناعى العظيم» بتكلفة 25 مليار دولار فى سبتمبر 1989 لينتهى عام 1997م . وبعد احتفالات هائلة، حضرها بعض الزعماء العرب فى أواخر أغسطس 1991م ، بعد ذلك أعلن القذافى عدة مرات =

وتونس، والجزائر، ودول مجلس التعاون الخليجى، وسلطة الحكم الذاتى الفلسطينى، وذلك لعقد مؤتمر قمة «للتعاون والتنمية الاقتصادية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا »، فى الدار البيضاء بالمغرب، تحت إشراف الولايات المتحدة ـ فى نفس المكان الذى عقد فيه مؤتمر القمة الاقتصادى العالمى قبل عام ـ وقد عقد المؤتمر الشرق الأوسطى فى 30 أكتوبر 1994م. وقامت إسرائيل بتقديم «وثيقة» عبارة عن دراسة متكاملة، مدعمة بالخرائط

= منذ شهر سبتمبر 1992م أنه سيقوم بتوزيع عائدات البترول على الليبيين بالتساوى،وعليهم أن يهاجروا إلى مصر والسودان وتشاد للاستثمار فيها لأن ليبيا مقبلة على سنوات من الجفاف. وطالب بهجرة مائة ألف أسرة فى المرحلة الأولى ... وأعلن أن من أهداف هذا القرار القضاء على التطرف الدينى!

ـ أوقفت ليبيا عام 1994م العمل بالتقومى الميلادى، وتم تغيير التاريخ الهجرى ، ليبدأ من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس من هجرته!

ـ حاول العقيد القذافى أن يلغى التعليم الابتدائى فى مطلع عام 1984م وأن يجعله فى المنازل ، لكن المؤتمر الشعبى العام لم يوافق!

ـ منذ أثيرت أزمة تفجير الطائرة الأمريكية فوق «لوكاربى» ووسائل الإعلام تركز على رفض العروبة والإسلام (صحيفة الجماهيرية منذ أوائل يونيو 1992م)... فى الوقت الذى يُعلن فيه عن عزم ليبيا إحياء الخلافة الفاطمية؟!

ـ بدأت ليبيا منذ الثانى من فبراير 1993م تعمل بنظام الكميونات (الماركسى) بتقسيم البلاد (3 مليون نسمة) إلى 1500 وحدة لا مركزية، منها 350 وحدة فى العاصمة طرابلس . وبذا سيكون الكميون بمثابة «جماهيرية مصغرة»، ولجان شعبية وأمناء..

ـ وصل يوم عرفة (الموافق 29 مايو 1993) مائتى ليبى لزيارة القدس، بدلا من حج بيت الله الحرام. بحجة التزام العربية السعودية بالحظر الجوى الذى فرضه مجلس الأمن على ليبيا فى إطار أزمة «لوكاربى». دبر لهذا العمل رجل الموساد المشهور يعقوب نمرودى ، وأسهم فيه الملياردير السعودى عدنان خاشوقجى. تمت الزيارة برا، عبر مصر، بمعرفة شركة سياحة إسرائيلية يرأسها «مايرى قابلان»، واستقبلهم وزير السياحة الإسرائيلى «عوزى بارام» مرحبا! وأعلنت واشنطن بعد هذه الزيارة أنها لن تؤثر على العقوبات الاقتصادية المفروضة على ليبيا منذ منتصف أبريل 1992م.

ـ طردت ليبيا معظم العمالة الإسلامية من البلاد خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر 1995م، وكان منهم سبعة آلاف مصرى، وثلاثين ألف فلسطينى استقر معظمهم فى خيام على الحدود مع مصر، لرفض استقبالهم فى الدول العربية وغزة. كما تم طرد ثلث المليون سودانى. وفى 17 أكتوبر أنذرت ليبيا الأمم المتحدة أنها ستطرد مليون أفريقى فورا. وعلى حين تم تبرير طرد العمالة بسوء الأحوال الاقتصادية فى ليبيا، تم تبرير طرد الفلسطينيين بأن النظام الليبى يريد إحراج العالم وإبراز المشكلة الفلسطينية!.

ـ قد تتحول ليبيا بمطلع القرن القادم إلى أرض بلا سكان No man's land . فيا ترى ستكون من نصيب من؟!

والإحصـاءات(1) للمـرحلة الأولى مـن إقامة «النـظام الشرق الأوسـطى الجديد»، حـسب ما تريده الصهـيونية العالمية أن يـكون ـ ويجدر بالذكر أنـه كانت هناك خطوات تـنـفيذية ، فى مجال البـنية الأساسية، وبـعض الاتفاقات الثـنائية، ومتعـددة الأطراف وقعت، قبل عـقد هذا المؤتمر خلال السنوات الثلاث السابقة على المؤتمر...

وقد يكـون من المناسـب أن أعرض للخـطوط الرئيسـة لاستراتيـجية هذا الـنظام الذى يوشك أن يصبح واقعا مفروضا لا مفر منه، وذلك من خلال ما جاء بالوثيقة الجادة المدروسة الوحيدة التى قدمت لمؤتمر القمة المذكور: تتضمـن الوثيقة خمسة فصول وملحق عن «عملية سلام الشرق الأوسط»:

الفصل الأول ـ يعرض للأهميـة التاريخية والجيوستراتيجية لـمنطقة الشرق الأوسط، وأن التـنمية الاقتصاديـة والاجتماعية هـما قوام التقـدم والاستقرار فى المنـطقة، التى تحتـوى على ستين بالمائة من مـصادر بترول العالم، والتى تشكل سوقا هائلة. وأن استقرارها سيكون بمثابة إقرار لـلسلام فـى العـالم بأسـره؛ لكنـه يتعـين الـقضاء عـلى الجهـل، والفـقر، وعلـى جذور «الأصـولية» من أجل أن تسود الديـموقراطية. إنـه لا يجب فقط مبادلة «الجـوارب بالبنادق»، و«الأحذية بالدبابات»، و«الزبد بالمدافع» ، بل يجب مبادلة «الخبز بالدبابات».

ويشير هـذا الفصل إلى أن الإنفـاق على التسلح والمعرفة والمواهب فى مـجال الأمن جاء على حسـاب الاعتبارات الاجتماعيـة؛ فأدى إلى الفقر وضياع الأمـوال، وهذه بدورها أدت

---

(1) Government of Isvad (Ministry of Forgien Affairs _ Ministry Of Finance), Development Options For Regional Cooperation, Submitted to The Middle East and North Africa Economic Summit, October 1994,

اعتمدت هذه الوثيقة بصفة أساسية على كتاب أصدره شمعون بيريز وزير الخارجية الإسرائيلى بعنوان:

The New Middle East, Henry Holt and Company, New York, 1993.

كذا على ما جاء بكتاب «أفراهام شوحاط» وزير المالية الإسرائيلى بعنوان :

The Role Of The Private Sector in The Middle East Process.

وأسهم في إعدادها عشرات الباحثين الإسرائيليين، وردت اسماؤهم في بداية كل قسم من أقسام الفصل الرابع.

إلى نمو «الأصولية» و«التعصب»، و«المسيحانية الكاذبة».(1)

ويشير إلى أن الغلبة لم تعد فى الوقت الحالى للقدرة العسكرية؛ بل لاعتبارات نوعية أخرى كالتقدم العلمى والتكنولوجى، والمواصلات، والحفاظ على البيئة ، وأن الإنفاق على إعداد الجيوش الجرارة قد بلغ حد ما بعد التشبع، وأصبح الاستمرار فيه يهدد القدرة على التواؤم مع الاعتبارات النوعية سالفة الذكر.

ثم يعرض الفصل الأول للتكامل الاقتصادى بالمنطقة، وأن تنظيم هذه المنطقة هو مفتاح السلام والأمن، وأن هذا الأمر يحتاج ثورة فكرية. ومن ثم فالهدف الأسمى لهذا المشروع هو إيجاد مجتمع من الأمم لها سوق مشتركة على غرار«المجموعة الأوروبية»! وتحقيق هذا يمكن أن يتم على ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى : مشروعات ثنائية ومتعددة الأطراف . ومن أمثلتها الناجحة المشروعات المصرية / الإسرائيلية فى مجال الزراعة.

والخطوة الثانية : إنشاء مؤسسات مالية دولية برءوس أموال ضخمة لإنشاء مشروعات ضخمة كقناة بين البحر الأحمر والبحر الميت، ومنطقة للتجارة الحرة، وميناء إسرائيل / أردنى/ سعودى مشترك على خليج العقبة، وتطوير الصناعات وتوليد الكهرباء فى منطقة البحر الميت.

والخطوة الثالثة : اتباع سياسة إقليمية موحدة، وإقامة مؤسسات رسمية إقليمية. ولتخطى العقبات التى تصادف تحقيق هذا التصور فإن على المنطقة أن تبنى أربعة قرارات اقتصادية / سياسية:

القرار الأول : نزع السلاح ، الذى تنفق عليه دول الشرق الأوسط ستين مليارا من الدولارات سنويا. وخفضها للنصف لن يؤثر على الأمن القومى لكل دولة فرد.

(1) يقصد بهذا أن تيار الصحوة الإسلامية، والأمل في نهضة الأمة يعدان ـ في نظره ـ من الأمور الممقوتة ، والتي يجب ألا يركز الاهتمام عليها، بل يجب التركيز على التنمية الاقتصادية وإشباع الحاجات المادية للبشر في هذه المنطقة. وكلمة «المسيحانية» لا تستخدم في الثقافة الإسلامية، لكنها تشير إلي انتظار المسيح ليقيم السلام الدائم العادل على الأرض، في الثقافة اليهودية / النصرانية ... وهذه هي غاية النظام العالمي الجديد، ومن ثم الشرق الأوسط الجديد، الذي تريد الصهيونية أن يتحقق فيه «المسيحانية الحقيقية» حسب رؤيتهم لها، وبشروطهم ... **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾** [الصف/ 8].

القرار الثانى : عن المياه ، والهندسة الوراثية،وغزو الصحراء، لتوفير الغذاء الوفير.

القرار الثالث : إقامة البنية الأساسية من طرق، ووسائل اتصال لازمة للسوق المشتركة.

القرار الرابع : اعتبار السياحة هى مشروع المستقبل، فهى صناعة هامة، تدر الربح على المدى القريب، وتوجد فرصا للعمل، فضلا عن قيمتها السياسية، لأنها سوف تفرض الهدوء، وهى مفيدة فى مجال تحقيق الأمن.

وعلى الدبلوماسية أن تقوم بدور أخلاقى تاريخى فى مجال تغيير «العلاقة المشوهة» على الإنفاق على التسليح ، والإنفاق على الاحتياجات الإنسانية من خلال تخفيض بنود الإنفاق على الإعداد للحرب، إحداث التدمير، فى الميزانيات . وجذب الأموال العالمية لدعم «عملية السلام» من أجل رخاء المنطقة.

وعلى حين يلعب هذا الفصل على وتر نجاح المجموعة الاقتصادية الأوروبية، الذى يلقى إعجابا كبيرا فى بلادنا، وميلا عظيما لدى المتربعين على قمم الفكر والثقافة من المفتونين بالحضارة الغربية، لتقليد النموذج الأوروبى متناسين أن تجارب الأمم لا تصلح لأن تقلدها أمم أخرى، وأن التقليد سمة القرود، وليس الأمم. على حين يلعب على هذا الوتر فإنه يخوّف من القوة الاقتصادية الهائلة لأوروبا فى القرن القادم، والتى قد تصل سوقها إلى 800:600 مليون نسمة .. وأن منطقة التجارة الحرة الأمريكية (بين الولايات المتحدة، وكندا، والمكسيك)، والتى قد تمتد إلى أمريكا الوسطى والجنوبية ، تضم مليار نسمة[1] .. كذا فإن آسيا بها تجمع اقتصادى (تايلاند ـ سنغافورة ـ ماليزيا ـ أندونيسيا ـ الفلبين ـ كوريا الجنوبية) ، وهو سوق ضخم، فضلا عن كل من الصين، والهند كسوقين كبيرين...

ومن ثم يخلص هذا الفصل إلى أن «التجمع الشرق الأوسطى» حتمية تفرضها اتجاهات النظام العالمى الجديد الذى تحل فيه الأسواق محل الدول المنفردة، ويعطى أهمية لجو التنافس على حساب فكرة «الحدود» القديمة.

---

(1) اقترحت بريطانيا في أوائل شهر أكتوبر 1995 إنشاء منطقة تجارة حرة على جانبي المحيط الأطلنطي لربط أوروبا وأمريكا، ومن ثم لتحقيق فكرة العالم المكتمل Le monde Fini ، والذي يمتد من فلاديفوستوك بشرق روسيا، حتى سان فرانسيسكو ، بغرب الولايات المتحدة ... ويقصدون به العالم الصليبي المكتمل .. لذا يتساءلون دائما .. وما هو وضع اليابان ، التي لا تشاركهم نفس القيم؟

الفصل الثانى : يتناول مصادر التمويل ، منطلقا من فكرة أن العالم لديه من المال أكثر مما لديه من الأفكار لاستثمارها ... وهذا يحتاج بناء قاعدة معلومات، يتم تحديثها باستمرار ، من أجل اتخاذ القرار.

ويضيف أن الاقتصاد فى الشرق الأوسط يواجه مشكلتين هما: ارتفاع نفقات الدفاع، والحدود المغلقة، ويقول : إن «عملية السلام» سوف تتغلب عليهما.

ويحدد أن من مصادر التمويل المعونة والاستثمارات الأمريكية ، وتطلع أوروبا واليابان لفتح أسواق لها تمكن من الحصول على الأموال فى مجال البنية الأساسية . وكما أن هذه الأمم سوف تساعد فى مجال «عملية السلام» فإنها أيضا سوف تسهم فى عملية التمويل التى تأتى من ثلاثة مصادر:

ـ **المصدر الأول للتمويل** : يتم تدبيره من أموال المنطقة نفسها على حساب نفقات التسليح، فضلا عن نسبة واحد بالمائة من إجمالى دخل الدول البترولية.

ـ **المصدر الثانى** : قيام الشركات العالمية العملاقة (ومعظمها مملوكة لليهود) بالاستثمار فى المنطقة، وإنشاء البنية الأساسية فيها، والإقراض طويل المدى.

ـ **المصدر الثالث** : المعونات الأجنبية المباشرة.

وفى هذا الفصل حساب تقديرى للمتوقع الحصول عليه من الأموال (27:18 بليون دولار) وكيفية توزيعها على القطاعات المختلفة (مياه ـ زراعة ـ مقاومة التصحر ـ سياحة ـ نقل ـ طاقة ـ اتصالات ـ بيئة ـ صناعة ـ مشروعات شق القنوات) . ويأتى التخصيص النسبى، بطبيعة الحال، حسب التصورات الإسرائيلية؛ فأكبر الاستثمارات توجه إلى المياه ، والنقل، والطاقة، وشق قناة البحر الأحمر/ البحر الميت.

ويعرض هذا الفصل لضرورة إنشاء ما يسمى «ببنك التنمية فى الشرق الأوسط»، والذى كان أحد أهم الموضوعات التى تم التواصل إليها فى مؤتمر القمة الاقتصادية الثانية[1]، الذى عقد فى عمّان بالأردن فى 29 أكتوبر 1995م. وقد كانت أوروبا مترددة تجاه إنشاء هذا البنك، بيد أن الرئيس الفرنسى «ميتيران» كان من أنصار إنشائه، وواصلت فرنسا تأييد

(1) عقد المؤتمر بحضور «وارين كريستوفر» وزير خارجية الولايات المتحدة، وكان من موضوعاته الأساسية أيضا إنشاء آلية للسياحة الإقليمية، ومجلس لرجال الأعمال.

الفكرة بعد تولى «جاك شيراك» الرئاسة عام 1995م . ومارست الولايات المتحدة الأمريكية ضغطا على الدول الصناعية السبع الكبرى عند عقد قمتها فى 14 يونيو 1995م لسرعة إنشاء ها البنك.

ويعمل القطاع العام فى دول الشرق الأوسط فى المرحلة الأولى، بصفة أساسية، فى مجال إنشاء البنية الأساسية، ثم تأتى المرحلة الثانية التى يتولاها القطاع الخاص. وقد حدد هذا الفصل دور الحكومات فى تمهيد الطريق أمام عمل القطاع الخاص، وتحرير السوق.

ـ **الفصل الثالث** : وتناول خيارات التعاون الإقليمى فى مجال التنمية، وقدم لها بأهداف تنمية المنطقة:

ـ تقديم المعنى الملموس للسلام .

ـ اتخاذ إجراءات لبناء الثقة.

ـ إقامة التزامات تؤدى إلى تقليل النشاطات العدائية.

ـ الارتقاء بالاقتصاديات الوطنية والإقليمية.

ـ إيجاد مصادر إضافية للدخل، ورفع مستوى المعيشة.

ـ تقديم أولويات للتنمية فى المشروعات المشتركة، وفى تخصيص الموارد لتنفيذها.

ثم قدم هذا الفصل الخصائص الجغرافية المتعلقة بالموارد الاقتصادية فى المنطقة، ومن ثم المجالات المحتملة للتعاون الذى افترض أنه حتمى، وأن يتطلب بالضرورة تخطيطا إقليميا متكاملا. وأتبع ذلك بالمشروعات المقترحة فى كل القطاعات الاقتصادية ، سالفة الذكر:

ـ بدأ الفصل بقطاع المياه ، الذى تضمن: ما سمى «بإدارة المياه» ، و«التحكم فى النشاطات الهيدروليكية»، واستخراج المياه الجوفية، وإزالة ملوحة ماء البحر، واستغلال السيول والفيضانات، وإعادة استخدام مياه الصرف الصحى[1]، ونقل المياه من تركيا.

ـ ثم تحدث عن استخدام التكنولوجيا الحديثة فى مجال الزراعة، بما فى ذلك الزراعة على المياه المالحة. وأعقب ذلك مقاومة التصحر، وزراعة النباتات المقاومة للجفاف، وشجر

(1) هذه المياه تعد نجسة فلا يجوز استخدامها، فضلا عن أنه يصعب تخليصها من كل الميكروبات وكل الكيمائيات الضارة، حتى الآن. ومن ثم فإن استخدامها في الزراعة يعرض الصحة العامة للخطر، فضلا عن أنه لا يجوز استخدامها في الشرب أو النظافة أو الوضوء.

الغرقد[1]...

ـ وقد أفاض بعد ذلك فى مشروعات السياحة، فتناول السياحة فى المواقع الثقافية، وأماكن الجذب السياحى التاريخية [2] . وفصّل لما أسماه «برفييرا البحر الأحمر»، وتحويلها إلى محميات، ومناطق حرة، وحدائق دولية .. وإقامة ميناء مشترك يضم مينائى العقبة، واستغلال شواطئ البحر الميت، فضلا عن السياحة عبر الصحارى فى الأرض وفى الجو، والسير فى الطريق الذى سلكه موسى عليه السلام من مصر حتى الأردن. وإعادة تنظيم الساحل الشرقى للبحر المتوسط للأغراض السياحية، والسياحة الجبلية والانزلاق على الجليد وأخيرا «طريق الحج»!؟

ـ كما جاء بتفاصيل تدعمها خرائط مجالات النقل، والطاقة، والاتصالات، التى أشار فيها إلى البث الإذاعى والتليفزيونى المشترك، ومراكز المعلومات الإقليمية المشتركة.

ـ وبعد ذلك تناول الخدمات «اللوجستية»، والتجارة، والصناعة، ثم البيئة. وأخيرا فكرة إقامة قناة من البحر الأحمر إلى البحر الميت (فرق منسوب 400 مترا) لتوليد الطاقة.

ـ **الفصل الرابع** : هذا الفصل هو أكبر الفصول ويحتوى 161 صفحة، فضلا عن 23 خريطة ورسم بيانى، وعد كبير من الجداول الموجودة بالمتن. وهو تفصيل لما جاء مجملا فى الفصل الثالث.

ـ **الفصل الخامس** : ويتناول مراكز التنمية الإقليمية المتكاملة، وهى خمسة، موضحة على خريطة، وعلى جدول لبيان مواقعها ونشاطاتها، والمجال الجغرافى لهذه النشاطات . ثم أوضح الفصل الخامس تفصيلا دقيقا لعمل هذه المراكز.

ـ ويحتوى «الملحق» المرفق تسجيلا تاريخيا للمؤتمرات الثنائية، ومتعددة الأطراف التى عقدت منذ مؤتمر مدريد فى 30 أكتوبر 1991، حتى انعقاد هذا المؤتمر فى 30 أكتوبر 1994، كما أورد فقرات من خطب رئيس الوزراء «يتصحق رابين» للتأكيد على أمور محددة

---

(1) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «تقاتلكم اليهود فتُسلطون عليهم حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي ورائى فاقتله إلا شجر الغرقد فهو شجر اليهود» . (رواه البخاري)

(2) تقوم مصر حاليا بتحويل مدينة الأقصر إلى محمية دولية، وفصلها عن محافظة قنا لتصبح كيانا ثقافيا دوليا مستقلا.

بعينها، تصبح بمثابة قرارات فى هذا المؤتمر ومنها:

ـ خطاب الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات المرسل لرئيس الوزراء الإسرائيلى أثناء مؤتمر أوسلو السابق على توقيع إعلان المبادئ، ويحتوى الاعتراف بإسرائيل، ونبذ الإرهاب، وتعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، والتعهد بالحصول على التصديق الرسمى من المجلس الوطنى الفلسطينى على ذلك.

ـ محتوى خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلى بعد التوقيع على إعلان المبادئ فى 13 سبتمبر 1993م ، والذى جاء فيه : «القدس العاصمة القديمة والأبدية للشعب اليهودى» تبقى موحدة تحت السيادة الإسرائيلية ، مع حرية العبادة للكافة، هو الموقف الإسرائيلى المبدئى، والذى سيظل كذلك.

ـ محتوى الاتفاق الإسرائيلى / الأردنى ، والذى تم توقيعه فى واشنطن فى 25 يوليو 1994م، بما فى ذلك «أن إسرائيل تحترم الدور الذى يلعبه «الملك الهاشمى» حسين فى الإشراف على المواقع الإسلامية المقدسة فى القدس».

لم تضيع إسرائيل العام التالى لعقد مؤتمر «الدار البيضاء» ، فقامت بإعداد وثيقة أخرى، أكثر تفصيلا ودقة، قدمتها إلى «مؤتمر القمة الاقتصادية» الذى عقد فى عمّان بالأردن اعتبارا من 29 أكتوبر 1995م، تحت إشراف الولايات المتحدة كسابقة. كما انتهز يتصحق رابين ، رئيس وزراء إسرائيل فرصة احتفالات الأمم المتحدة بمرور خمسين عاما على قيامها[1]، وعقد اجتماعا، غير مخطط له، مع الحسن الثانى، ملك المغرب، ليقوم الأخير بدوره المعتاد فى الوساطة بين إسرائيل والدول العربية الأخرى لدفع عملية إقامة النظام الشرق الأوسطى بشقيه؛ الاقتصادى والأمنى.

وقد احتوت الوثيقة الإسرائيلية الجديدة 162 مشروعا، بتكلفة إجمالية تقدر بخمسة وعشرين مليارا من الدولارا، وتقوم على نفس الأسس التى قامت عليها الوثيقة السابقة عليها، وترسّخ فكرة التفوق التكنولوجى والعسكرى الإسرائيلى، وتخلف دول المنطقة صناعيا، وضرورة استمرار أنماط الإنتاج كما هى، من خلال تقسيم وظيفى وتخصص:

---

(1) تم الاجتماع يوم 21 أكتوبر 1995م ، في نيويورك، وركز على «النظام الشرق الأوسطى»، ومحاربة «التطرف» في المنطقة.

فتنتج إسرائيل السلع المتقدمة تكنولوجيا ، والسلع الاستهلاكية اللازمة للمنطقة وللتصدير خارجها، وتتخصص مصر فى تقديم العمالة الرخيصة وإنتاج المنسوجات والحديد، والأردن تنتج الأدوية والأسمدة، ولبنان تنتج الصناعات الخفيفة، أما دول الخليج فمن نصيبها التمويل والبتروكيماويات.

وتركز الوثيقة تركيزا كبيرا على السياحة[1] باعتبارها صناعة تفرض «الهدوء وثقافة السلام» . وتعتبر الوثيقة أن ساحل البحر الأحمر، وشرق البحر المتوسط، والمناطق التاريخية والآثار هى أهم عناصر السياحة ، التى تستلزم تخطيطا وترويجا مركزيين.

وكما تسعى إسرائيل ، من خلال هذه الوثيقة إلى الهيمنة على السياحة فإنها تسعى أيضا إلى الهيمنة على موارد المياه، والنقل والاتصالات، والشبكة الكهربائية التى تربط كل دول المنطقة ، وتصل إلى أوروبا، عبر تركيا، كذا الهيمنة على توزيع البترول والغاز الطبيعى.

*** **وتشير الوثيقة** إلى العداء للأصولية الإسلامية، كما تطرح فكرة تحمل كل دول المنطقة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين باعتبارها «مشكلة إقليمية»، ومن ثم تبرز نوايا إسرائيل فى إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين فى البلاد العربية [2] مع احتمال طرد المزيد من الفلسطينيين، فى مرحلة تالية، من فلسطين المحتلة إلى شبه الجزيرة العربية عبر الأردن، الذى سيقيم «اتحادا فيدراليا مع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينية» خلال الفترة الانتقالية للحكم الذاتى الفلسطينى، وعن تمويل هذه المشروعات تركز الوثيقة على أفكار نزع السلاح وتخفيض نفقات الدفاع، تحت شعار «الخبز مقابل الدبابة»، كذا على إنشاء «بنك التنمية» الذى تتحمل الدولة البترولية العربية فى الخليج العبء الأكبر فى تدبير رأسماله.

وعلى الجانب الآخر تقدمت مصر بوثيقة «موازية» إلى قمة عمان الاقتصادية، وأُعلن منذ البداية أن الرؤية المصرية ، التى شارك فى إعدادها ثمانى وزارات، وأشرفت وزارة الخارجية

(1) عقد بالقاهرة يوم 17 أكتوبر (قبل مؤتمر عمان باثنى عشر يوما) الدورة الحادية عشرة لمنظمة السياحة العالمية، حضره سبعة وستون وزير سياحة ، وممثلو 120 دولة، وافتتحه رئيس جمهورية مصر العربية، الذي أعلن أن السياحة تحتل أولوية متقدمة في السياسة الاقتصادية المصرية ، وأن السياحة والسلام متلازمان.

(2) يتواكب هذا مع طرد ليبيا لثلاثين ألف فلسطيني كانوا يعملون بها.. كان منهم ستمائة فلسطيني يحملون جوازات سفر سورية، نقلوا على سفينة يملكها أحد اليهود، إلى عرض البحر قبالة الساحل القبرصي حتى أرسلت لهم سوريا سفينة تحملهم إليها.

المصرية على إخراجها لم تقدم لمواجهة إسرائيل، بل لتكمل المشروع الإسرائيلى، فى إطار «العلاقة التبادلية بين السلام والتنمية»، وهى علاقات قائمة بالفعل[1] . فالوثيقة المصرية تحاول وضع الأمر الواقع فى إطار قانونى دولى.

وتكرس الوثيقة المصرية أفكار «**ثقافة السلام**» Peace Culture، التى تعد أحد آليات النظام العالمى الجديد، كما تؤيد بشدة أفكار «النظام الشرق الأوسطى» بشقيه الاقتصادى والأمنى. وتعتبر الوثيقة المصرية «الشرق الأوسطية» هى الطريق إلى تحويل العالم كله إلى «سوق اقتصادية واحدة»، وهذه هى الأخرى آلية النظام العالمى الجديد.. وفى هذا السبيل تدعو إلى تشجيع الاستثمار الأجنبى، وإلى تنمية القطاع الخاص على حساب القطاعين العام والتعاونى، من خلال ما يسمى «بإصلاحات تشريعية» لتهئية المناخ، و«لحماية البيئة»، كذا ربط المنطقة بشبكة معلومات وتعزيز البحوث المشتركة. كما أثبتت الوثيقة المصرية المشروعات الخاصة بالبنية الأساسية، وغيرها، والتى تم البدء فيها، وقُطع فى تنفيذها شوطا، والمشروعات التى تم الاتفاق على البدء فى تنفيذها.

وقد بدا من الكتابات المختلفة والآراء التى طرحها المفكرون المصريون، من كل التوجهات، حتى أولئك الذين لهم ارتباط بالسلطة الحاكمة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أن الفكرة «الشرق الأوسطية» هى فكرة غير مقبولة لما فيها من مخاطر واضحة، وضياع للمصلحة بشكل عام، فى حين نجد أن وزارة الخارجية المصرية تعتبر أن النظام «الشرق الأوسطى» هو أمر واقع لا سبيل أمامنا إلا أن نقبله على حاله[2] وقد أيد هذا المنهج الأخير، وروج له، عدد من الكتاب المشكوك فى نزاهتهم وحيدتهم، رغم صوتهم العالى.

مع ذلك نجد الدكتور سمير طوبار، نائب رئيس جامعة الزقازيق، ورئيس اللجنة الاقتصادية بالحزب الوطنى الديموقراطى (الحاكم) ، يقول بالحرف الواحد[3] : «...فالكتيّب الذى أراه ويضم مشروعات (يقصد الوثيقة المصرية المقدمة لمؤتمر عمّان) يجعلنى فى حيرة،

---

(1) راجع الرؤية المصرية في قمة عمان الاقتصادية، عرض للوثيقة المصرية المقدمة للمؤتمر، الأهرام القاهرية، 19 أكتوبر 1995م ، صـ 14 .

(2) مثلا راجع الندوة التي عقدت بصحيفة الأهرام ونشرت يومي 20 ، و27 أكتوبر 1995م، وشارك فيها خمس عشرة شخصية من مختلف التخصصات والمواقع الوظيفية.

(3) الأهرام القاهرية ، 20 أكتوبر 1995م، صـ 5 عمود 5.

خاصة وأننى شخصياً وشخصيات جزء من العملية فى صياغة السياسة الاقتصادية فى مصر، بحكم رئاستى للجنة الاقتصادية بالحزب الوطنى الحاكم فى مصر، لكن لا أعلم شيئا عن هذه المشروعات نهائيا، ولم تعرض علينا للمناقشة ، ولم تطرح على أى مستوى للمناقشة، فهل سندخل بهذه المشروعات إلى المؤتمر ونحن ملتزمون بها، أم الأمر مجرد أن إفساح مجالا لمناقشة هذه المشروعات فى مؤتمر ... ولكن الأمور غير محددة.. **من الذى يضع السياسة الاقتصادية لمصر؟ وكيف تُعتمد هذه السياسة؟ .. لماذا تجاهلنا الأمن العربى؟** وعندما نتحدث عنه تصبح القيادة لطرف آخر فى أن يحافظ على هذا الأمن!

إن ما لم يقله المسئول المصرى هو أن الوثيقة المقدمة من مصر ليست خطة استراتيجية مستقبلية، وإنما هى تسجيل لمشروعات تمت بالفعل، أو فى طريقها للاكتمال، فى إطار «النظام الشرق الأوسطى» ، فهى تكريس لأمر واقع، ومحاولة لاضفاء الصبغة القانونية عليه... وأن مصر إنما دخلت إلى مفاوضات «النظام الشرق الأوسطى» ، و«النظام البحر المتوسطى» ، المنافس ، فى آن واحد، دون رؤية واضحة.. وكذلك فعلت كل البلدان الإسلامية التى تشارك فى هذا التجمع أو ذاك...

وقد تتضح لنا صحة هذا الرأى من الحوار الساخن الذى دار بين عمرو موسى وزير خارجية مصر وحسين بن طلال ملك الأردن، عندما انتقد الأول بُلْدانا عربية «تهرول» نحو إقامة علاقات اقتصادية مع إسرائيل»، فرد الثانى قائلا إننا لا نهرول فقط، بل «نركض» للحاق بمصر التى وقعت اتفاق سلام وقامت بتطبيع علاقاتها مع إسرائيل قبل سبعة عشر عاما!

يقول الله تعالى :

﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولن نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾

[المائدة / 52]

*** **مما سبق نجد أن فكرة «النظام الشرق الأوسطى»** تعد أحد آليات النظام العالمى الجديد؛ إذْ تستهدف اقتطاع الجزء الأكبر من الأمة الإسلامية، لتلحقها بإسرائيل، فتصبح بالنسبة لها مجالا حيويا، وسوقا، وقوة مضافة إليها، فتصبح إسرائيل بذلك أكثر تأثيرا وفاعلية على الصعيد العالمى، وأكثر قدرة على الحركة الكوكبية، باعتبارها والولايات المتحدة

جناحى الصهيونية العالمية.

ولئن كانت الفكرة صهيونية ، فإن صناعتها أيضا صهيونية، تقف منها الأمة موقف المتفرج، المندهش، الذى لا حول له ولا قوة، إلا من بعض التصريحات الجوفاء هنا وهناك، إمعانا فى التضليل وخداع النفس، أو المناداة بغير المعقول؛ كالدعوة إلى «شرق أوسط جديد يقوم على السلام والتنمية وتكامل الحضارات»[1] ! وهى دعوة إلى الاسترخاء رغم إدراك الخطر!

ولا يقوم أى تجمع اقتصادى، فقط، على «الاعتماد المتبادل»، و«المصالح المتوازنة» ، حتى ولو كانت هذه الأمور قد رُوعيَت عند قيام هذا التجمع ـ وهذا ، لم يحدث، كما لا يمكن تصور نجاح هذا التجمع دون أن يكون بين أطرافه قيم مشتركة . ولن يتأتى هذا إلا إذا حدث أحد أمرين: الأول ؛ أن يتبع يهود الدولة العبرية دين الحق، الإسلام .. وهى أمنية .. لكنها لا تغنى شيئا. فلو شاء الله لهدى الناس جميعا .. ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم** ﴾. لذا فإن البديل الذى يَطرح نفسه بقوة ووضوح هو أن تتنازل دول المنطقة عن ما بقى من هويتها الإسلامية، وأن تتبع من النظم الاجتماعية والقيم، وأن تسن من التشريعات ، وتقيم من المؤسسات، وتحدث من «التغييرات فى كافةالمجالات»[2] ما يبعدها أكثر وأكثر عن قيم الإسلام وشرعته ومنهاجه.. وهذا هو ما يتم بالضبط، فى كل دول المنطقة، دون استفزاز أو جلبة، منذ وطأت أقدام الجنود الأمريكيين أرض الخليج، فى أغسطس 1990م . ومن المتوقع أن تشهد السنوات الباقية من القرن العشرين المزيد من الإجراءات ، والقرارات، والتشريعات التى من شأنها ـ حسب تخطيطهم وكيدهم ـ أن تغير وجه المنطقة ، ليحل محلها «شرق أوسط جديد» ... ﴿ **... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

[يوسف / 21]

---

(1) العنوان الرئيسي لصحيفة الأهرام القاهرية ، 6 رجب 1415هـ ، 9 ديسمبر 1994م.

(2) راجع مثلا : صحيفة الأهرام القاهرية، الجمعة 25 من المحرم 1416هـ / 23 يونيو 1995م ، العنوان الرئيسي بالصفحة الأولى، الصفحة الاقتصادية صـ 4 ـ نفس الصحيفة ، 30 سبتمبر 1995م، الأسبوع الاقتصادي ـ نفس الصحيفة، 7 أكتوبر 1995م ، الأسبوع الاقتصادي ... وذلك في إطار الاستعداد لقمة عمان الاقتصادية في نهاية شهر أكتوبر 1995م.

وكما أوضحنا من قبل ، فإن الاقتصاد والأمن وجهان لعملة واحدة ، لذا فإن الحديث عن إقامة نظام أمنى «للشرق الأوسط الجديد »لم ينقطع ، ولكنه بدأ بصوت خفيض لسببين: **السبب الأول** هو أن الحاجز النفسى بين شعوب المنطقة والصهيونية لا يزال عاليا سميكا، لأسباب تاريخية وعقدية يصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، إزالتها .

والسبب الثانى أن أى ترتيبات أمنية مشتركة لابد أن تكون موجهة ضد «عدو » محدد . وقد حددت الصهيونية لـلتجمع الأمنى الذى تسعى إليه عدوين ، أولهما فى المدى القصير، والثانى فى المدى المتوسط.

فأما الأول : فهو « إيران » ، وأما الثانى : فهو أوروبا . ولا يمكن القول بأن الصهيونية العالمية قد تمكنت، بكل وسائلها ، أن تقنع شعوب ، ولا حتى كل النظم الحاكمة فى المنطقة، بضرورة التحالف من أجل مواجهة هذين «العدوين». وحتى يكون الأمر أكثر وضوحا فلابد من تفصيل محدود لموقف كل من الولايات المتحدة الأمريكية (المقر الرسمى للمنطمة الصهيونية العالمية) وأوروبا ، من فكرة «النظام الشرق الأوسطى الجديد».



المحور الأول

وجهة النظر الأمريكية
(النظام الشرق أوسطى جزء من النظام العالمى الجديد)

تضع الولايات المتحدة الأمريكية فكرة «إقامة النظام الشرق الأوسطي الجديد» فى أعلى درجات الأولوية باعتبارها من أهم آليات تحقيق أهداف الأمن القومى الأمريكى ، بل وأحد عناصر هذا الأمن .. ويزيد من حماس الإدارة الأمريكية فى هذا المجال، أن الرئيس الأمريكى ويليام (بيل) كلينتون ، شخصيا، وعدد كبير من إدارته، ومعظم أعضاء الكونغرس الأمريكى الحالى ، اليهود منهم وغير اليهود، يتخذون الصهيونية عقيدة لهم[1]، ومن ثم يعملون مخلصين فى خدمتها، من خلال إعلان أمريكا نفسها «شريكا كاملا» فى تصفية القضية الفلسطينية ، وفرض «السلام الصهيونى » على منطقة الشرق الأوسط، كخطوة أولية هامة فى سبيل إقامة «النظام العالمى الجديد» بوصفه وفلسفته وأهدافه وهويته التى سبق أن أوضحناها.

يضاف إلى هذا ، وينتج عنه أن الشركات الأمريكية العملاقة ـ ومعظمها مملوكة لليهود ـ سوف تجد فى قيام هذا النظام فرصة مناسبة لها كى تمد من نشاطها إلى منطقة الشرق[2] الأوسط، وتكسب من ثم سوقا ضخمة، ويكون لها الأولوية على غيرها من المنافسين التجاريين.

---

(1) لا أدل على ما ندعيه من قيام مجلس الشيوخ الأمريكي بإقرار مشروع قانوني يقضى بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس بحلول 31 مايو عام 1999م كحد أقصى، وقد صيغ المشروع، وحصل على أغلبية تحول دون استخدام الرئيس الأمريكي حق النقض veto ضده. فقد أيد المشروع 93 عضواً من مجلس الشيوخ، وعارضه خمسة، ولم يصوت عضوان فقط. كان ذلك يوم 24 أكتوبر 1995م والوفود المشاركة في مؤتمر قمة عمان الاقتصادي تستعد للوصول إلى عمان.

وعند إعطاء الكلمة ليتصحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى بدأها بقوله «لقد أتيت إليكم من القدس الموحدة، العاصمة الأبدية لإسرائيل» . لم تكن هذه أو تلك إلا صفعة إهانة وإذلال على وجه كل مسلم ... علّنا بعد ذلك نفيق ونثوب إلى رشدنا.

(2) كان الوفد الأمريكي المشارك في المؤتمر الدار البيضاء (للتعاون والتنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا) ، من الرسميين ورجال الأعمال (212 شخصية) ، هو أكبر الوفود المشاركة. وتقدمت «الهيئة الأمريكية للاستثمارات في ما وراء البحار» بمشروع إقامة نفق للسكة الحديد بين المغرب وأسبانيا بطول 35 كيلو مترا، كذا كوبري علوي لربط البلدين ، ومشروع ثالث الإقامة سكة حديد بين المغرب ونيجيريا بحذاء ساحل المحيط. وكذلك كان الوفد الأمريكي أكبر الوفود في مؤتمر عمان.

من أجـل هذا كان ضغـط الحكومة الأمـريكيـة، فى كل منـاسبة ، لـرفع المقاطـعة العربـية للشـركات اليهودية، أو التى تتعـامل مع إسرائيل .. حتى تصبح فكرة الشـرق الأوسطية أكثر فاعلية. وقـد نجحت الولايات المتحدة الأمريكـية فى هذا المجال نجاحا أكثر مما كـانت تتوقع ، بسبـب مسارعة الـدول العربيـة ، ودول إسلامية أخـرى إلى التطـوع وعرض إقامة عـلاقات ثنائية ومتعددة الأطراف مع إسرائيل ، ومع الـشركات الأمريكية (اليهودية) ، ولو كان ذلك عن طريق وضع العراقيل أمام العمالة الإسلامية فى دول الخليج، التى أصبحت على وشك أن تفقد هويتها العربية الإسلامية!!

ولم يكن موقف الدول العربية ـ الواقعة كلها تحت الهيمنة الأمريكية ـ موقفا فرديا، تبنته هذه الدولة العربية أو تلك ، بل إنه قد ظهر فى صورة تصرف جماعى عندما فشلت «الجامعة العربية» فى عـقد اجتماع «لمكتب مقاطـعة إسرائيل»[1] فى الأسبـوع الأخير من شهـر أبريل 1995م بسبب عدم رد ثلثى الأعضاء بالموافقة على عقد الاجتماع.

وتتكـرر النظرة الجيوستـراتيجيـة إلى مصر، منذ اعـتبرها الإسكـندر الأكبر مرتكـزة لغزو الشرق، إذ ترى أمريكـا أن مصر هى مفتاح المنطقة، نـظر لموقعها الجغرافى، وتأثيـرها الثقافى والسيـاسى الفعـال، فى الدول الإسلامـية بصفـة عامة، وفى مـنطقة الـشرق الأوسط بصـفة خاصة، لـكون مصر عـضوا مؤسسـا له وزنه فى كـل من الجامعـة العربيـة، ومنظمـة الوحدة الأفريقية، ومنظمة المؤتمر الإسلامى.

وقد ربطـت الولايات المتـحدة الأمريكـية، منذ منـتصف الـسبعينيـات، المصالح المـصرية

---

(1) اتخذ مـجلس الجامعة العربيـة قرارا في ديسـمبر 1945م بالمقطـاعة الاقتصادية لأى سـلع تنتجهـا المصانع اليهـودية في فلسطين. وبانتهـاء الحرب وتوقيع الهدنات بين الدول العربية وإسرائيـل أنشأت الجامعة مكتبا للمقـاطعة الاقتصادية، بدأ بتحريم التـجارة مع إسـرائيـل، ثم حظـر على الـسفن والـطائرات الـتي تتـعامل مـع إسرائيـل الاستـفادة من الخـدمات والتسهيلات في الموانئ والمطارات العربية، وتم إلغاء خط أنابيب البترول بين كركوك في العراق وميناء حيفا.
لم تتأثر إسرائيـل في البداية بهذه المقاطعـة بسـبب تلقيها التعويـضات من ألمانيا .. ثم أصدر الكونغرس الأمـريكي في صيف 1956م قانونا يشجع الشـركات الأمريكية على كسـر هذه المقاطعة ، بل وبالقيام بهجوم اقتصادي مضاد للدول العربية، كمـا أصدر مـجلس الأمـن قرارا في أول ديـسمبر 1951م قرارا يـدعو إلى رفـع القيـود المفـروضة علـى مرور الـسفن التجاريـة في قناة الـسويس، ومرور الـبضائع مهما كانـت وجهتها، ورفضت مـصر القرار لأنه قرار سياسـي اتخذ لحل مشكلة قانونية، وقد كانت آخر مرة اجتمع فيها مكتب المقاطعة هي أبريل 1993م.

بالمصالح الأمريكية، كما ربطت بين المعونات الاقتصادية والجوانب الأمنية، فأصبحت مصر مدخلا رئيسا تلج منه السياستين الخارجية والدفاعية الأمريكية إلى المنطقة. وقد لاقى هذا المسلك الأمريكى قبولا لدى النخب السياسية، وجانب كبير من النخب الثقافية المصرية، الليبرالية منها والاشتراكية، بل إنه لم يجد الممانعة الفعالة من جانب التيار الإسلامى الرئيسى المتمثل **فى جماعة الإخوان المسلمين**، رغم عدم وجود وفاق داخلى بين هذه الاتجاهات الثقافية الثلاثة.

ولا أدل على هذا القبول من جانب هذه النخب جميعا من الصمت الرهيب الذى يلاحظه الباحث عندما استجابت الحكومة المصرية للضغوط الأمريكية والأوروبية منذ عام 1987م «لتنظيف الميدان الاقتصادى الداخلى» أمام الاستثمارات الأجنبية بصفة عامة، و«الأمريكية / الصهيونية» بصفة خاصة، فوجهت ضربة قاصمة للاقتصاد الإسلامى الفتى، المتمثل فى «شركات توظيف الأموال»، والمعاملات الإسلامية غير الربوية، فصودرت عشرات المليارات من الجنيهات والدولارات، بطرق ملتوية، تتخذ من القانون ستارا خادعا، واستُصدرت فتوى بحل الفوائد (الربوية) للبنوك، وأخضعت البنوك الإسلامية لذات القانون الذى تخضع له البنوك التجارية (الربوية) . كما حدث نفس الصمت، بل والرضا الضمنى، والتشجيع العلنى غالبا ، عندما عملت مصر كرأس للحربة التى وجهت للصحوة الإسلامية منذ عام 1986م. تلك الصحوة التى أطلقت عليها تحكيما «التطرف والإرهاب»، وهو اصطلاح لم يفرق بين نشاط عنف سياسى غير مقبول، وجهاد فى سبيل الله فى أفغانستان، وكشمير، والبوسنة ، وفلسطين ، وجنوب لبنان ، ومقاومة لظلم بيّن وقع على الحركة الإسلامية فى الجزائر . فكأنما وُصف الإسلام والمسلمون جميعا بالتطرف والإرهاب... بل إن صيحات التعاون الدولى للقضاء على التطرف والأصولية والإرهاب» تضيف غالبا صفة الإسلام إلى هذه المصطلحات الغامضة!

وقد وضعت الولايا ت المتحدة الأمريكية علاقتها مع مصر، فى المجال الاقتصادى، فى إطار قانونى / استراتيجى أطلق عليه مبادرة «غور – مبارك»[1] ، يقوم بالإشراف عليه من

---

(1) صاغت الولايات المتحدة الأمريكية مبادرتين أخريين شبيهتين على المستوى العالمي؛ أولاهما مع روسيا ، والثانية مع جنوب أفريقيا.

الجانب الأمريكى ألبرت (آل) غور Al Gore، نائب الرئيس الأمريكى، وذلك من خلال مؤسسات هى: «غرفة التجارة الأمريكية فى مصر»[1]، مقرها القاهرة، و«لجنة مشتركة للتنمية الاقتصادية»، و«هيئة للتكنولوجيا والموارد البشرية».

وتقوم فكرة المبادرة على إعادة توجيه المعونة الأمريكية من الحكومة إلى القطاع الخاص، وأن يكون انفاقها، فى الغالب، فى أعمال البحوث، ودراسات الجدوى، ودراسات الاندماج فى المقاييس العالمية (الأمريكية) للإنتاج ، والتى تقوم بها «المنظمة العالمية للتوحيد القياسى» ISO ، كذا فى إنشاء البنية الأساسية ، التى تقوم بها الشركات الأمريكية، بصفة أساسية، أو التى قد تمنح ، بإذن من الولايات المتحدة الأمريكية إلى دول أخرى، كاليابان[2]، والصين، ودول أوروبا الغربية، كرشاوى وحوافز، فى إطار تهدئة الحرب التجارية الدائرة بين أمريكا وهذه البلدان ... وكل ها يستهدف ـ كمرحلة أولى ـ التمكين للشركات الأمريكية من الاستثمار فى مصر، وباقى بلدان «الشرق الأوسط» ، وتحويل المنطقة إلى سوق يمتص الوظائف والبضائع المنتجات الأمريكية... مع الاستفادة بالأيدى العاملة الرخيصة، وقرب السوق من مصادر إنتاج البترول والغاز، ثم احتكار هذه السوق فى المرحلة التالية، فى إطار الهيمنة التجارية العالمية.

وتعتبر المؤسسات المصرية / الأمريكية المذكورة بأعلاه بمثابة آليات لتنفيذ أهداف النظام

---

(1) التقى «شمعون بيريز» وزير الخارجية الإسرائيلى بأعضاء هذه الغرفة عند زيارته لمصر في أوائل يناير 1995م، وتحدث أمامهم قائلا: «لقد حان الوقت لبناء شرق أوسط جديد قائم على التعاون والأمن والسلام وبعيداً عن الحروب والفقر. وطالب بالإسراع إلى رفع المقاطعة العربية لإسرائيل، والكف عن الحديث عن امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية».

(2) تعد اليابان ثاني أكبر سوق للصادرات الإسرائيلية (إذاعة لندن في 7 سبتمبر 1995)، وهي أكبر دولة مستوردة لبترول الإمارات ، لذا فقد أسند إليها بعض مشروعات البنية الأساسية في إطار إقامة النظام الشرق الأوسطي، مثل إقامة الكوبرى المعلق الذي يربط سيناء بالدلتا في مصر. راجع «زيادة موراياما، رئيس الوزراء الياباني لمصر في منتصف سبتمبر 1995م». وليس غريبا أن يمارس اليهود دورهم التاريخي في الوساطة في ظل النظام الشرق الأوسطى . ويتضح هذا أيضا مما جاء في صحيفة الأهرام القاهرية في الثالث من ديسمبر عام 1994 على لسان وزير السياحة المصري إذ أعلن اعتزام مصر والأردن وإسرائيل تنفيذ حملات ترويجية مشتركة في الولايات المتحدة والشرق الأقصى وجنوب أفريقيا، وتطوير مطار «رأس النقب»، جنوب سيناء ليخدم الحركة السياحية في المنطقة. وفي نفس العمود نجد تصريحا من سفيرة مصر باليابان تتحدث فيه بما يستكمل عناصر هذا الموضوع، الذي أعيد فتحه أثناء المباحثات التي جرت في الزيارة المشار إليها حالا.

العالمى الجديد فى الشرق الأوسط ، من خلال مصر، أو بدءا بمصر: فهى ستعمل على مراقبة «جودة الإنتاج» من خلال سلسلة النظام «ISO 9000» ، الذى يمسك الأمريكيون بكل خيوطه[1] ، فيستطيعون بذلك التحكم فى نوع وكمية ما سينتج وما سيُصدر ، خاصة وأن مؤسسة «ستانفورد» الأمريكية هى التى أعدت «استراتيجية التصدير «المصرية حتى مطلع القرن القادم. كما سيكون بمقدرة هذه المؤسسات التحكم فى سياسات تمويل المشروعات والتوظيف، فى القطاعين الخاص والعام، كذا فى ما يسمى «بتطوير نظام التعليم»، وتدريب المدرسين، وكيفية إعداد العمالة الفنية، وتطبيق التكنولوجيا. كذا ستقوم هذه المؤسسات بمراقبة صدور تشريعات مصرية [2] شاملة تضمن تنفيذ الاتفاقيات الموقعة بين الجانبين، وبصفة خاصة فى مجالات «تحديد النسل» (تنظيم الأسرة) والزراعة والصناعة، والسياحة، وحماية البيئة، كذا استخدام القروض الأمريكية فى إقامة المشروعات بمصر العليا (تنمية منطقة الصعيد بمصر) ، والتحكم فى تصرفات مياه نهر النيل بمصر وذلك من أجل تحقيق «شرق أوسط أقوى، وأكثر استقرارا»[3] على حد تعبير نائب الرئيس الأمريكى .. وهو تعبير سياسى / أمنى يقصد منه إجراء عملية التغيير الثقافى على مقتضى «الشروط الأمريكية»، وشن الحرب الشاملة ضد ما يسمى «الإرهاب والتطرف»!

ومن خلال هذه «المبادرة الأمريكية المصرية» تحقق الولايات المتحدة قنوات للحوار، وتنشئ أدوات ضغط على أطراف أخرى فى الشرق الأوسط مثل تقوية العلاقات الاقتصادية المصرية السورية ، لدفع سوريا إلى توقيع «اتفاق سلام» مع إسرائيل، وتطبيع

---

(1) Nabia H. Omar, Buisiness Manthly (Journal Of American Chamber of Commerce merce in Egypt) , Vol. 11 No. 4, Aprillmay 1995, PP. 48 -- 60.

راجع أيضا: د. على السلمى ، مفارقة غربية في حصول الشركات المصرية على شهادة الإيزو 9000، الأهرام 15 مايو 1995م ، الصفحة الاقتصادية.

(2) راجع: صحيفة الأهرام القاهرية ، الصفحة الأولى ، العناوين الرئيسية، 23 يونيو 1995م ـ أول أغسطس 1995 ـ الأسبوع الاقتصادي ، 30 ديسمبر 1995، و7 أكتوبر 1995م.

(3) راجع : حديث «آل غور» أمام الغرفة التجارية الأمريكية بمصر ـ اتفاقية التعاون العلمى والتكنولوجي بين مصر وأمريكا:

Buisiness Monthly, April / May 1995, PP. 37 -- 47.

العلاقات بينهم. والبديل هو أن تصبح سوريا عضوا فى النظام «الشرق الأوسطى» بطريقة غير مباشرة، أى عن طريق مصر، ذات الدور المحورى فى النظام.

من جهة أخرى تحاول الولايات المتحدة إيجاد محور يضم إليها كلا من مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة تستخدمه فى احتواء إيران، لكن الأوضاع السكانية والاجتماعية فى الإمارات، وارتباطاتها الوثيقة بإيران حالت دون نجاح هذا التحرك حتى الآن. ومع ذلك فقد تنجح الإمارات فى تحركها تجاه إيجاد تقارب عراقى خليجى يؤدى فى النهاية إلى تمكن الولاياتا لمتحدة الأمريكية من تنفيذ استراتيجية «الاحتواء المزدوج» ، التى أشرنا إليها من قبل؛ أى احتواء كل من إيران والعراق فى آن واحد، بما يحقق استبعاد هاتين القوتين الإسلاميتين من التأثير فى منطقة الشرق الأوسط، ومن ثم تزداد حرية حركة إسرائيل وهى بصدد إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط.

وكما شجعت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر الدار البيضاء عام 1994م وشاركت فيه مشاركة أصلية فعالة، فقد أيدت عقد مؤتمر «عمان» فى أواخر أكتوبر 1995م، وحضر وزير خارجيتها المؤتمر، وأسهم فيه بنشاط، ودعا إلى رفع كل المقاطعة العربية لإسرائيل نهائيا، وفورا، وقام وفد رجال الأعمال الذى صاحبه بعقد الصفقات الثنائية والثلاثية، والتى كان أشهرها وأهمها صفة الغاز بين قطر وإسرائيل، بمبلغ خمسة ونصف مليار دولار ، تسرى اعتبارا من عام 2000م. وكانت شركة «إيزون» الأمريكية الطرف الثالث فيها؛ لأنها القائمة على إنتاج الغاز ونقله. وفى نفس اليوم (31 أكتوبر 1995م) أعلنت دولة الإمارات العربية المتحدة عن عزمها تمويل بناء مساكن فى «القدس الشرقية» (لغير اليهود)!

ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل هما جناحا الصهيونية العالمية، «فالشرق الأوسطية» تحقق للولايات المتحدة الأمريكية مصالح لا تقل عن تلك التى تحققها لإسرائيل، وهى فى النهاية تحقق المصالح الصهيونية، لأن الشرق الأوسط هو دائرة الحركة الثانية للصهيونية العاملية ، كما ذكرنا من قبل.

* * *

المحور الثاني

أوروبا والبديل البحر المتوسطى

لم تعد المصالح الأوروبية ـ منذ أواخر الثمانينيات ـ متسقة تماما والمصالح الصهيونية ، التى تدار من كل من الولايات المتحدة وإسرائيل[1] . وقد يرجع ذلك إلى أن كلا الجانبين يستهدف الهيمنة على البحر المتوسط، وعلى الدول الواقعة جنوبه، فلذلك كان التنافس بينهما.

لقد ارتبطت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية منذ أبريل عام 1949م برباط سياسى/ عسكرى؛ هو «منظمة حلف شمال الأطلنطى» NATO ، لكن هذا لم يمنع أوروبا الغربية من مراجعة هذا الرباط، لمحاولة الإفلات منه، منذ بدأ عصر الانفراج بين القوتين العظميين، عام 1972م . وكانت أولى المحاولات انعقاد أول مؤتمر للأمن والتعاون الأوروبى عام 1973م، الذى تحول إلى منظمة منذ عام 1995م.

بيد أن زيادة أسعار البترول عام 1973م جعلت أوروبا تخرج من عزلتها الأمنية، لتتطلع مرة أخرى إلى الهيمنة على الشرق الأوسط ، فبدأ منذ عام 1975م ما سمى «بالحوار العربى الأوروبى»، الذى ركزت أوروبا الغربية فيه على ضمان تدفق البترول إليها، كمصدر لا بديل له فى توليد الطاقة، والعائدات البترولية (البترو دولار) إلى بنوكها، وضمان استمرار فتح الأسواق أمام منتجاتها. وكان هدف المجموعة العربية الحصول على التأييد السياسى الأوروبى للقضية الفلسطينية ونقل القدرة التكنولوجية.[2]

---

(1) هذا لا يعنى أن أوروبا قد أفلتت من الهيمنة الصهيونية، فلا يزال اليهود يتولون صياغة وتسيير الاستراتيجيات والسياسات في البلدان الأوروبية، بشكل مباشر ظاهر، عندما يتولى يهودي منصب رئيس وزراء، أو وزير، وبشكل غير ظاهر، عندما يهيمن اليهود، بكل الطرق، على هذه الشخصية الأوروبية أو تلك. ولا غرو فقد كانت كل من روسيا وأمريكا واقعتين تحت الهيمنة الصهيونية، ومع ذلك فقد كان بينهما تعارض كامل في المصالح، بل وصراع (حرب باردة).

(2) عندما تتحدث بلداننا عن نقل التكنولوجيا فإنما يتصور الغافلون عندنا أن الغرب سيقوم متطوعا بنقل حضارته إلينا، ومعاونتنا على أن ننهض على أكتافه، فتتكافأ قوانا وربما استطعنا في مرحلة لاحقة التفوق على الغرب ! وهذا تفكير ساذج غاية السذاجة. أما الغرب فيتحدث عن نقل التكنولوجيا بمعنى نقل المنتجات والمصنّعات التكنولوجية .. أى بيع سلعة التي صُممت وصنّعت على أساس التكنولوجيا المتقدمة. فهي سلع استهلاكية باهظة الأسعار! فالغرب لا ينظر إلي بلداننا إلا على أنها مستودعات للمواد الخام ، والبترول ، وأسواق لمنتجاته.. لذا كان من أهم القرارات التي تتخذها مؤتمرات قمة الدول الصناعية الكبرى (مجموعة السبعة G7) منذ مؤتمر لندن عام 1991م حجب التكنولوجيا عن بلادنا بحجة أن كل أنواع التكنولوجيا الآن أصبحت «مزدوجة» ، بمعنى إمكان استخدامها في إنتاج السلع المدنية وإنتاج الأسلحة والمعدات العسكرية في آن واحد. ولما كان النظام العالمي يتجه إلى السيطرة على التسلح، تمهيدا لنزع السلاح، فإن حجب التكنولوجيا يصبح مبررا...

ونظرا لأن الجانبين كانا يتحدثان لغتين مختلفتين فى ذلك الحوار فقد فشلت المحاولة، إلى أن أعادت أوروبا الغربية فتحها من جديد بما سمى «إعلان البندقية» ــ والذى عرضنا له تفصيلا من قبل ـ فى أعقاب ارتفاع أسعار البترول عام 1979/78م دون سبب أو مبرر.

وببلوغ الحرب الباردة ذروتها فى النصف الأول من عقد الثمانينيات ارتمت أوروبا فى أحضان أمريكا، دون قيد أو شرط، طلبا للحماية النووية والأمن، وتم بالفعل نشر الصواريخ من «طراز بيرشنغ» فى أوروبا، وأعلنت أمريكا عن مبادرة الدفاع الاستراتيجى SOI . لكن ما إن وُقّعت اتفاقية ريكيافيك فى أكتوبر 1986م بين القوتين العظميين حتى بدأ الحديث فى أوروبا الغربية عن ضرورة «فك الارتباط» de'couplage مع الولايات المتحدة. وإقامة «دعامة» أوروبية أمنية مستقلة، بداخل حلف شمال الأطلنطى، للتخلص من الهيمنة السياسية والعسكرية الأمريكية على أوروبا، ومن ثم تحقيق حرية الحركة فى المجال الاقتصادى، وإقامة الوحدة الأوروبية.

وقد تطلع الفريقان : أمريكا، وأوروبا، إلى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، بصفة عامة، وعلى منطقة جنوب البحر المتوسط بصفة خاصة، لكن من منطلقين مختلفين: فبينما كانت الولايات المتحدة تتطلع إلى نقل مركز ثقل حلف شمال الأطلنطى إلى البحر المتوسط، ومن ثم مد نطاق الحلف جنوبا حتى المحيط الهندى، مركز قوتها، ومنطلقها الاستراتيجى للهيمنة الكوكبية، كما أوضحنا من قبل، ومد نطاق الحلف أيضا إلى الشرق، ليبتلع دول حلف وارسو (الذى زال بزوال الاتحاد السوفيتى).

ويصل بالتالى إلى الحدود الروسية، بل وليقيم نوعا من العلاقة مع روسيا أطلقوا عليها «الشراكة من أجل السلام» ، تسمح باحتواء روسيا نفسها، ووضعها تحت الرقابة المشددة أثناء تفكيكها، الذى يجرى على قدم وساق، وتسمح أيضا بكل أنواع التدخل فى أوروبا الوسطى والشرقية، وفى الدول الإسلامية فى وسط آسيا والقوقاز تحت شعار «الشراكة» هذه .. بينما كانت هذه هى وجهة النظر الأمريكية التى تخاطب بها أوروبا داعية إلى إقامة «مجتمع غربى فى نصف الكرة الشمالى»، «كمرحلة انتقالية» على طريق الهيمنة الكوكبية،

تحت مسمى «النظام العالمى الجديد»(1).

وبالفعل تمكن حلف شمال الأطلنطى خلال العام 1994 /1995م من عقد اتفاقات شراكة لكل من مصر ودول المغرب العربى تستهدف «محاربة الإرهاب» بصفة أساسية، ومن ثم تسمح لحلف شمال الأطلنطى أن يتدخل لهذا الغرض... وقد حرص الرئيس الأمريكى «كلينتون» على تسجيل هذا الهدف الأمريكى فى احتفالات منظمة الأمم المتحدة بمرور خمسين عاما على قيامها، إذ كان أول الرؤساء المتحدثين يوم 22 أكتوبر 1995م فدعا دول العالم إلى إقامة «حلف عالمى لمكافحة الإرهاب» ، وإنشاء شبكة عالمية لكل«أجهزة الشرطة» فى العالم.

فالولايات المتحدة الأمريكية لا تنظر إلى جنوب البحر المتوسط إلا كجزء من «النظام الشرق الأوسطى» الذى من المفترض أن تهيمن عليه إسرائيل ، لذا لم تكن تسمية مؤتمر الدار البيضاء ، ومؤتمر عمان «الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» تسمية مرتجلة، بل متعمدة، تؤكد على عدم الفصل بين ما تسميه أوروبا «المشرق العربى» ، ويضم دول الخليج البترولية، وتسلم مقدما بخضوعها للهيمنة الأمريكية ، و«المغرب العربى» ، ويضم إليه مصر، والذى لا تريد أوروبا التنازل عنه مطلقا فى إطار نظرتها الاقتصادية والأمنية والجيوبوليتيكية ، التى تعتبر قارة أفريقيا هى الامتداد الجغرافى الطبيعى لأوروبا، عبر «البحر المتوسط» ... ومن هنا كان طرح أوروبا لفكرتها «البحر المتوسطية» كبديل منافس لفكرة «الشرق الأوسطية».

ولئن كانت الفكرة «الشرق الأوسطية» فكرة صهيونية تستهدف التمكين لإقامة المشروع الصهيونى ، بوصفها مرحلة وسيطة بين إقامة الدولة العبرية، والسيطرة على الكرة الأرضية، فإن الفكرة «البحر المتوسطية» هى فكرة «أوروبية صليبية» تستهدف استعادة أوضاع «الدولة

---

(1) راجع :

Dr. Henry Kissinger, An Age of Transition, First (Forum For Decision Makers) , Quarterly, Volumeg Number 2, London, 1995, P. 15.

تضم هذه الأفكار أيضا إقامة منطقة تجارة حرة بشمال الأطلطني ، لإغلاق الثغرة الاقتصادية بين الاتحاد الأوروبي، ومنطقة التجارة الحرة لدول أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة ـ كندا ـ المكسيك) .. وقد تولت بريطانيا ـ من واقع ارتباطها بأمريكا ـ الإعلان عن ضرورة إقامة هذه المنطقة، وذلك في العاشر من أكتوبر 1995م.

الرومانية» إلى ما قبل الإسلام، لكنها تستخدم آليات جديدة غير تلك التى استخدمتها الحروب الصليبية فى عهودها الأولى، وفى العهد الإمبريالى.

طرحت أوروبا فكرة تقسيم الشرق الأوسط إلى منطقتى هيمنة بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية هما: «المشرق العربى» (وهى كل البلدان الواقعة شرق البحر الأحمر)، و«المغرب العربى» (وهى البلدان الواقعة غربه)... كمدخل للهيمنة الأوروبية على أفريقيا فى إطار ما يسمى «بالأوروأفريقية» ، «أو الرابطة الأوروبية الأفريقية».

وقد بدأت أوروبا تروّج لهذه الفكرة منذ عام 1987م . وقد بنت أوروبا فكرتها هذه على أساس واقع حاولت به الولايات المتحدة فصل منطقة الخليج بإقامتها لمجلس التعاون الخليجى منذ عام 1981م ، فتولت فرنسا الدعوة إلى إقامة تجمع مغاربى مماثل سمى «باتحاد المغرب العربى»، ويضم الدول العربية التى كانت تحتلها فرنسا شمال غرب أفريقيا، وتحدثت اللغة الفرنسية عشرات السنين (تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانيا)، وانضمت إليها ليبيا فى اتحاد أعلن عن قيامه عام 1989م [1]

كان الحسن الثانى ملك المغرب هو الذى وضع الصيغة التنفيذية للفكرة الاستراتيجية «الصليبية/ الصهيونية» الغربية عندما صرح لصحيفة لوموند Le Monde الفرنسية فى الثالث من أغسطس 1988م بقوله:

«إننى أنصح مواطنى أن يفكروا مليا، «بشكل أفقى» من أجل إنشاء «المغرب الكبير»، Le Grand Maghreb ، و«بشكل رأسى» من أجل تحقيق الرابطة الأوروبية الأفريقية L'Euroafrique.. إن هذا لهو ما نراهن عليه .. إنه رهان تاريخي Un pari historique».

وإذا ما أعدنا هذه الفكرة إلى مكانها فى «الفكر الكاثوليكى» نجدها جزءا من سياسة كوكبية شاملة تتخذ من البحر المتوسط مركزا لها global Mediterranean Policy . وإذا ما وضعناها فى إطار الفكر الصليبى الأوروبى.

(1) في أعقاب هذا مباشرة أعلن عن قيام ما سمى «بمجلس التعاون العربي» الذي ضم العراق ومصر والأردن واليمن ... والذي اتضح فيما بعد أنه لم يكن سوى اتحاد لاحتواء العراق لصالح الولايات المتحدة الأمريكية . وعلى حين قامت هذه التجمعات الفرعية الثلاث بقيت الدول الإسلامية الأخرى (إيران ـ باكستان ـ تركيا ـ السودان ـ الصومال ـ سوريا ـ لبنان) خارج هذه التجمعات .. كذا بقيت الدول الإسلامية الأخرى في أفريقيا وجنوب شرق آسيا على علاقات تبعية مع الدول الكبرى بعيدا عن هذه التجمعات .

ولما كانت فرنسا وألمانيا تقومان بالدور الرائد فى هذه الحركة الأوروبية، بالتنسيق مع الأعضاء الآخرين فى الاتحاد الأوروبى، فإن الجانب الثقافى[1] ، الغالب الظاهر من بين الآليات الأوروبية فى وضع الفكرة «البحر المتوسطية» موضع التنفيذ ، قد وجد له قناتين مناسبتين هما: المملكة المغربية كدولة عربية عضو بمجموعة الدول الناطقة بالفرنسية، ومصر بثقلها الثقافى فى الأمة الإسلامية، وبموقعها الجيوستراتيجى ، الذى يهتم به الغرب منذ القدم.

ولم ينج الأزهر الشريف ـ بوزنه الكبير فى الأمة الإسلامية ـ من محاولات اختراق الأمة ثقافيا من خلاله، فمثلا ابتعث الاتحاد الأوروبى أحد أساتذة العلوم السياسية بجامعة هامبورغ بألمانيا، هو البروفيسور «عبد الغنى القاوسى»[2] ، ابتعثه من خلال «معهد غوته» الألمانى بالقاهرة لإلقاء أربع محاضرات [3] (باللغة الإنجليزية) فى جمع من أساتذة وعلماء جامعة الأزهر، وذلك بمركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى» فى المدة من 23 حتى 28 أكتوبر 1990، وجرت بعد كل منها مناقشات مستفيضة ، وكانت خلاصة الرسالة التى جاء ليبثها إلى الأمة من خلال كبار مثقفيها وعلمائها أن «مجموعة البلدان الواقعة فى شمال أفريقيا (من مصر وحتى المغرب) هى الامتداد الثقافى والحضارى الأوروبى، والمعبر الجيوستراتيجى إلى أفريقيا، وأن وجود منظومتى قيم، ونظامين اقتصاديين مختلفين على جانبى البحر المتوسط سوف يكون عائقا أمام توسيع نطاق السوق الأوروبية إلى الجنوب، فهو بمثابة تحد ثقافى واقتصادى لأوروبا بمطلع القرن القادم» ... لذا فعلى المسلمين ـ حسب

---

(1) راجع لواء أح د. فوزي محمد طايل ، ثقافتنا والنظام العالمي الجديد، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، 1994م، ص ص . 116: 5

(2) البروفيسور القاوسي A. Ghanie Ghaussy ولد لعائلة أفغانية مسلمة، ثم هاجر وانهى تعليمه الثانوي والجامعي بألمانيا. وحصل على أعلى الدرجات العلمية في الاقتصاد والعلوم السياسية...، ولديه خبرة خاصة في منطقة الشرق الأوسط.

(3) حضر كاتب هذه السطور هذه المحاضرات ، التي سُلّمت للحاضرين مكتوبة ، وعناوينها : ـ

-- Towards a theary of Islamic Economic Order.

-- The Ethical Foundations of Islamic Economics .

-- The Impact of The Ec Sauthward - Enlargement on The Islamic Countries of The Mediterranean Basin.

_ Europe And The Islamic Challenge .... أوروبا والتحدي الإسلامي

الرسالة التى حضر إلى مصر لتبليغها (1) ـ أن يحسّنوا من صورة الإسلام لدى الأوروبيين، الذين لا يزالون يرون فيه «عقيدة غير صحيحة» ، و«دين يدعو إلى العنف» ، و«بدعة نصرانية» ... ويقول إن صورة «الإرهاب» الإسلامى ترجع إلى الوقت الذى غزا فيه المسلمون جنوب أوروبا.

وقد حصر القاوسى «التحدى الثقافى الاجتماعى» الإسلامى لأوروبا فى نظام الزكاة، والملكية، والمواريث ، وفى أحكام الأسرة، ونظام الحدود، فضلا عن ما أسماه «الانفجار السكانى» ، وانتقد نظرة المسلمين للقيم والثقافة الغربية، التى تغزو بلادهم، واعتبارها ستؤدى إلى إفساد قيم الإسلام من داخل المجتمع.

وختم محاضراته الأربع بقوله : لقد كان الإسلام قديما هجوميا، قويا، حيويا، مدافعا عن المبادئ، أما ما سماه «استعادة الاهتمام بالإسلام» revitalization of Islam ، أو ما نسميه «الصحوة الإسلامية» ـ فى تقديره ـ فهو على العكس : محاولة دفاعية يائسة لإثبات الوجود فى مقابل أوروبا! ومع ذلك ـ على حد قوله ـ فإن الأمر يحتاج إلى وقت طويل من الحوار، يسفر عن إنشاء هيكل تنظيمى بينهما يحقق الاعتماد المتبادل فى مجالى الأمن والتجارة.

وفى نفس العام 1990م زار الرئيس الفرنسى مصر مرتين، الأولى لوضع حجر أساس إقامة «جامعة ليوبولد سنغور» بالإسكندرية ، لتستقبل بعثات من البلدان الناطقة بالفرنسية، والثانية صدر خلالها ما سمى «بإعلان أسوان» لإحياء مكتبة الإسكندرية. وتولت فرنسا تزويد هذه المكتبة بآلاف الكتب. وحرصت فرنسا دائما على أن تشارك مصر فى نشاطات

---

(1) بعد خمس سنوات تقريبا .. من إلقاء هذه المحاضرات في الأزهر حصلت المستشرقة الألمانية «آنا ماري شميل» على «جائزة السلام، وهي ثاني جائزة في أوروبا بعد «جائزة نوبل».

وقد أثار حصولها على الجائزة جدلا في الأوساط الألمانية، والأوروبية بصفة عامة ، لأن ما حصلت علي الجائزة من أجله كان دراسات رصينة موضوعية نزيهة عن الإسلام، فاتهمها البعض بتأييد «الإرهاب»، في حين عبّر «رومان هير تسوغ» ، الرئيس الألماني ، الذي سلمها الجائزة في كنيسة باوليس قائلا: «يجب أن نتجاوز النظرة الضيقة للإسلام، وأن ننظر إليه من زاوية أخرى أكثر تفهما وعدالة...

وقد تبرعت السيدة آنا ماري شميل ـ الحاصلة علي الدكتوراه الفخرية خمس مرات من تركيا وباكستان، تبرعت بقيمة جائزتها لإنشاء مؤسسة في ألمانيا تعطى منحا لتعليم الإسلام.

مجموعة الدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون) رغم أن مصر لم تكن فى يوم من الأيام دولة ناطقة بالفرنسية، بل ولا تأتى اللغة الفرنسية فى مقدمة اللغات التى يقبل المصريون على تعلمها بجانب لغتهم العربية.

وقد نلاحظ أن هناك تنافسا بين فرنسا وألمانيا على تثبيت موطئ القدم الثقافية فى مصر... لكن فرنسا كسبت هذا التنافس حتى الآن ؛ فبينما نجحت فرنسا فى مد نطاق التعليم بالفرنسية من مستوى التعليم قبل الجامعى إلى مستوى التعليم فى بعض الكليات، خاصة كليتى الحقوق والتجارة نجد أن المشروع الألمانى المسمى «مبارك ـ كول» ، والذى من المفروض أن تتولاه مؤسسة «فريدريش إيبرت» ، والذى يستهدف التعليم الفنى وتدريب العمالة الفنية ـــ وهو بطبيعة الحال أكثر فائدة من المشروعات الفرنسية ـ نجد هذا الأخير قد بدأت مفاوضاته منذ أكتوبر عام 1991م ، ولم تستكمل صورته العملية حتى الآن.

ورغم هذا كله، ومعه ، فإننا نجد التدخل الأمريكى فى مجال الثقافة والتعليم هو الأقوى والأكثر فاعلية ، فهو يتناول التغيير الجذرى فى مناهج التعلبيم، وأساليبها، وفى التغيير الجذرى للقيم والمفاهيم ، والنظرة إلى الحياة بشكل عام، فى إطار غرس ما يسمى «ثقافة السلام».

وفى إطار الحركة الأوروبية لإقامة التجمع «البحر المتوسطى» نجد محاولة ضم مصر إلى الاتحاد المغاربى منذ شهر نوفمبر 1994م ، لكن هذه المحاولة ـــ التى بدت غير منطقية ـ جمّدت ، إذْ كانت محاولات إقامة «الشرق الأوسط الجديد» أسرع خطى من حركتها.

*** وإذا ما غادرنا المغرب ومصر إلى تركيا، التى تطل هى الأخرى على البحر المتوسط، نجد طريقة الاقتراب مختلفة... نجد أن تركيا تتطلع بشرق كبير للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، منذ عام 1963م ، إلى درجة أنها تقدمت بطلب التحاق إلى هذه المجموعة الاقتصادية فى أبريل عام 1987م . ورغم رفض أوروبا تماما انضمام تركيا إليها، لأن شعبها شعب مسلم ، واستخدمت فى رفضها إلفاظا متباينة للتعبير عن هذا السبب مثل «التباين الثقافى»[1] ، ومثل القول بأن «أوروبا تشك فى السياسات الداخلية التركية، وتتخوف من أن

(1) البعض يعبر عن هذا بصراحة أكثر عندما يقول: «كيف يتسنى قبول تكامل دولة إسلامية مع نادي النصارى!»

Michel Verrier (Journalist, Berlin) , Un Pays Muslumon Face Au Club Des Chre'tiens (La Turquie Pie'tine au Partes de I'union europe'enne, Le Monde Diplomatique, Mars 1995, PP. 18 _ 19.

تشكل تركيا عبئا اقتصاديا وماليا على أوروبا [1] ... ونجد فى نفس الوقت استغلالا من قبل أمريكا وأوروبا للتطلعات التركية .. فيستخدمون معها أسلوب العصا والجزرة كى تلعب دور الوكيل فى تنفيذ كل مرة يتم التلويح لتركيا بأن مكافأتها ستكون الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى.

وقد تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من الضغط على أوروبا كى تعلن عزمها على إقامة «اتحاد جمركى» (وهو صورة ثانية من صور التكامل الاقتصادى فى المجال الجمركى فقط)، أقامته بين الاتحاد الأوروبى وتركيا. وعلى مضض قبل الاتحاد الأوروبى هذا الضغط ، لكنه ينتهز كل فرصة لإعلان عدم عزمه السير فى هذا الاتجاه إلى مداه. بل وطالبت الجمعية العامة «لمجلس أوروبا» بتعليق عضوية تركيا فى المجلس ، وذلك فى أواخر شهر أبريل 1995م عندما غزت القوات التركية شمال العراق، أثناء تعقبها لمقاتلى حزب العمال الكردستانى . وطالبت الجمعية تركيا بتحسين سجلها فى مجال احترام «حقوق الإنسان» ، وتطبيق «الديموقراطية».

وسواء سعت أوروبا إلى إقامة «النظام البحر المتوسطى» من خلال مد نطاق عمل «منظمة حلف شمال الأطلنطى» إلى الجنوب ، أو مد نطاق عمل «منظمة الأمن والتعاون الأوروبى» إلى الجنوب أيضا ، أو من خلال إقامة «منتدى بحر متوسطى»[2] فإن الغاية التى تتطلع أوروبا إلى بلوغها ـ وهى استعادة الأوضاع جنوب البحر المتوسط إلى حالتها قبل ظهور الإسلام ـ هى غاية ثابتة لا تتغير بتغير خيارات التنفيذ ، ومن ثم فإن **أهداف النظام البحر المتوسطى** تنحصر فى ما يلى:

ـ الحفاظ على الفجوة التكنولوجية القائمة حاليا بين شمال البحر المتوسط وجنوبه.

ـ خفض معدلات الزيادة السكانية جنوب البحر المتوسط والوصول بها إلى حالة الاستقرار فى المدى المتوسط، وإلى التناقص فى المدى الطويل.

---

(1) تعتبر تركيا في هذا المجال أفضل من أسبانيا والبرتغال واليونان التي انضمت إلى المجموعة مؤخرا.

(2) راجع : لواء أح د. فوزي محمد طايل ، آثار تفكك الاتحاد السوفيتي على أمن الأمن الإسلامية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، 1414هـ ـ 1994م ، صـ 165 :195 ـ أزمة شيشان والخطر المحدق بمسلمى آسيا، مركز الإعلام العربي ، 1415هـ ـ 1995م ، صـ 31 :40 ـ مذابح البوسنة والهرسك (أندلس جديدة في أوروبا)، الزهراء للإعلام العربي 1412هـ ـ 1992م ، صـ 53 :56 .

ـ القضاء على الصحوة الإسلامية، والحيلولة دون تحولها إلى نهضة ، تحت مسمى «مواجهة مخاطر التشدد الإسلامى»، أو «مواجهة الأصولية الإسلامية».

ـ الحد من هجرة العمالة المسلمة إلى أوروبا، مع احتمال إجراء عملية طرد جماعى لبعضها تحت دعوى «محاربة البطالة فى أوروبا»، والقضاء على معوقات «الاندماج الثقافى» فى البلدان الأوروبية شمال البحر المتوسط.

ـ استخدم دول شمال أفريقيا كمعبر آمن إلى مستودع الغذاء العالمى، وميدان الحرب التجارية فى القرن القادم، القارة الأفريقية، التى لا تزال بكرا .. ولتأمين القارة ثقافيا فإن عمليات «تنصير واسعة النطاق تسير جنبا إلى جنب مع فرض الهيمنة الاقتصادية والسياسية على القارة[1].

والتجمع «البحر المتوسطى» يتخذ من الأصولية الإسلامية عدوا له. وليس هذا بالأمر الجديد، فهو أمر راسخ فى الفكر السياسى والاستراتيجى الأوروبى، وإن كانت نغمته قد ارتفعت من جديد منذ عام 1986م[2] . ولو حاولنا حصر ما صدر من تصريحات، وكتابات، ومؤلفات لاستغرق ذلك منا مئات الصفحات.

وقد كان «فيلى كلايس» Willy Claes ، سكرتير عام منظمة حلف شمال الأطلنطى NATO من أواخر من صاغوا هذا العداء ، فى صورة خطة استراتيجية قصيرة المدى عند ما قال [3] : «يعتبر المجاهدون المسلمون هم التهديد الأكبر الذى يواجه حلف شمال الأطلنطى.. وخطورتهم لا تقل عن الخطورة التى كانت تشكلها الماركسية من قبل .. وعلينا ألا نقلل من تقديرنا لهذه الخطورة.. وإن الحلف سوف يتحرك تجاه التعاون مع حكومات الدول التى

(1) نصف دول القارة بلدان إسلامية، منها بلدان مثل مالي وغامبيا يشكل المسلمون فيها أكثر من 95 بالمائة. ويشكل المسلمون في القارة ككل نسبة ثلاثين بالمائة، ومع ذلك يقسم الأوروبيون القارة إلي أفريقيا الإسلامية (شمال الصحراء)، وأفريقيا النصرانية (جنوب الصحراء) !! تلك أمانيهم التي يعملون على فرضها بالإكراه المعنوي والمادي . فكم من مسلم ذي أصول إسلامية يحمل هو وأولاده بطاقات هوية «مسيحي كاثوليكي» .. هكذا عنوة ، وإلا حُرم الوظيفة وحُرم أولاده من التعليم!

(2) في هذا التاريخ صدّر الغرب إلينا ثلاثة اصطلاحات تعبر ــ في تقديرهم عن أسباب الصراع في منطقة الشرق الأوسط ، خلال الربع القرن التالي لهذا التاريخ وهي: «الأصولية/ التطرف الإسلامي»، والذي تحولت تسميته بعد ذلك إلى «الإرهاب» ــ «ندرة المياه» ــ «تلوث البيئة».

(3) The Times, Friday February 3, 1995, P. 13 .

تعانى من التشدد الإسلامى (مصر ـ إسرائيل ـ تونس ـ المغرب ـ موريتانيا) . وفى مؤتمر عقد بمقر منظمة حلف شمال الأطلنطى يوم الأربعاء الثامن من فبراير 1995م قرر المؤتمر ما يلى:

ـ ضرورة إجراء محادثات مع دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لمواجهة التهديد الذى يفرضه «المسلمون المتشددون»، باعتبار التشدد الإسلامى هو أهم خطر يواجه الغرب.

ـ أوصى المجتمعون بمواجهة هذا الخطر على مرحلتين :

ـ **المرحلة الأولى** ؛ يتم فيها تبادل المعلومات مع الدول المذكورة . وتنتهى هذه المرحلة فى شهر مايو 1995م. وقد صدرت صحيفة الأهرام القاهرية يومى 25 فبراير، و28 فبراير تفيد بدء «الحوار» بين حلف شمال الأطلنطى ، وسفراء هذه الدول اعتبارا من الرابع والعشرين من فبراير.

ـ **المرحلة الثانية** ؛ ويتم فيها تقديم المساعدات العسكرية لمحاربة «الأصولية الإسلامية. وهذه المرحلة هى ما عبر عنها ويليام (بيل) كلينتون ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى خطابه بالأمم المتحدة ـ سبق الإشارة إليه ـ ودعا إلى إيجاد حلف عالمى لمحاربة «الإرهاب» ..وبالفعل بدأت فى الولايات المتحدة الأمريكيةودول الحلف، والدول الواقعة جنوب البحر المتوسط الإجراءات التنفيذية لهذه المرحلة اعتبارا من شهر يونيو 1995م .. ومن هذه الإجراءات اجتماع وزراء خارجية، ووزراء دفاع عشر دول أوروبية أعضاء فى الاتحاد الأوروبى فى أوائل شهر يونيو ، وقرروا إنشاء قوة عسكرية برية وبحرية مشتركة من إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال واليونان للتدخل السريع فى الدول جنوب البحر المتوسط إذا ثارت أية أزمة تهدد أوروبا!

مما سبق يتضح أن فكرتى «النظام الشرق الأوسطى» ، و«البحر المتوسطية» هما فكرتان متناقضتان، لكنهما تتفقان حول أمرين: الأمر الأول العداء للإسلام ، والأمر الثانى محاولة الهيمنة الاقتصادية على منطقة قلب الأمة الإسلامية، كمرحلة أولية فى طريق التخطيط للهيمنة الاقتصادية العالمية.

الفصل الثالث

مركزية السيطرة على الاقتصاد العالمي

على الرغم من أن منظمة الأمم المتحدة قد صُممت منذ إنشائها عام 1945م على أساس اختصاص أحد فروعها الرئيسية بالمشكلات الاقتصادية العالمية (وهو المجلس الاقتصادي والاجتماعي)(1) ، وارتباط المنظمات المتخصصة الأخرى [منظمة العمل الدولية – منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة – منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة – منظمة الصحة العالمية – البنك الدولي للإنشاء والتعمير – هيئة التنمية الدولية – صندوق النقد الدولي – منظمة الطيران المدني الدولية – اتحاد البريد العالمي – الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية – منظمة الأرصاد الجوية العالمية – المنظمة الاستشارية الحكومية للملاحة البحرية – الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارية (غات) – الوكالة الدولية للطاقة الذرية] ارتباطها بالأمم المتحدة لتقوم جميعا بمهمة تنسيق الأداء الاقتصادي العالمي علم الأمم المتحدة.

إلا أن منظمات حكومية أخرى قد قامت بين أكبر الدول المصدرة للخامات الاستراتيجية، وأهمها «منظمة الدول المصدرة للبترول(2) قد ظهرت بالتوازي مع المنظمات المتخصصة المرتبطة بالأمم المتحدة. وهيمنت الأيدي الصهيونية العالمية على هذه وتلك، منذ

---

(1) يتبع هذا المجلس لجان موضوعية أهمها: لجنة الإحصاءات – لجنة السكان – لجنة حقوق الإنسان – لجنة المرأة ، كما يتبع المجلس أربع لجان اقتصادية إقليمية (لأوروبا – آسيا والشرق الأقصى – أمريكا اللاتينية – أفريقيا). ويتبع الأمم المتحدة أيضا عدد من البرامج والمنظمات الموضوعية التي تقوم بمنح المعوقات لمشروعات معينة، تتولى الإشراف عليها، وأهمها: برنامج الأمم المتحدة للتنمية – منظمة الأمم المتحدة للتنمية والصناعة – معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحث – صندوق الأمم المتحدة للطفولة – مفوضية الأمم المتحدة للاجئين.

(2) انشئت منظمة الدول المصدرة للبترول OPEC ، ومعظم أعضائها من البلدان الإسلامية، عام 1960م. بهدف التشاور بين الأعضاء واتخاذ قرارات الإنتاج والأسعار، بيد أن هناك أصابع صهيونية خفية تحرك هذه المنظمة، وتجعل منها أداة طيعة للسيطرة المركزية على الاقتصاد العالمي، من خلال السيطرة على أسعار الطاقة، بشكل مباشر، وأسعار كل السلع والخدمات ، بشكل غير مباشر.. ولا غرو فمن يسيطر على البترول يسيطر على الاقتصاد العالمي.

وقد حافظت المنظمة على أسعار البترول متدنية وثابتة حتى أكتوبر 1973م. وفي ظل انخفاض الأسعار استطاعت الدول الصناعية الكبرى – وهي المستفيد الأكبر من بترول الخليج – أن تضاعف نواتجها القومية أربع مرات خلال عشرين عاما، وأن تضاعف دخولها القومية ست عشرة مرة خلال نفس الفترة.

وعندما زادت أسعار البترول عام 1973م تمكنت الدول الصناعية الكبرى من نقل عبء الزيادة إلى الدول =

البداية، فأفسدت ، وهي تدعّي أنها إنما تريد الإصلاح ...

والسبب في هذا يرجع إلي أن «مجموعة الدول المصدرة للبترول» OPEC ما هي إلا الواجهة، والمهيمن الحقيقي على البترول العالمي هو مجموعة من الشركات العالمية تسمى «الكارتيل» Cartel ، وتسمى أحيانا «الأخوات السبعة» ، منها خمس شركات أمريكية، وواحدة بريطانية، وواحدة بريطانية هولندية، وكلها نشأت في أمريكا قبل الحرب العالمية الأولي، واحتكرت صناعة البترول العالمية وتحكمت في أسعاره وكمية إنتاجه من وراء الستار. وساعدها على نجاح احتكارها هذا أن البترول سلعة غير مرنة، لا يمكن الاستغناء عنها لعدم وجود البديل... وقد حاولت الدول المستهلكة للبترول تكوين كارتيل مضاد اجتمع في ديسمبر 1975م لإجراء حوار مع مجموعة «أدبك» ، لكن الحوار فشل عام 1977م ، فزادت أسعار البترول خلال العامين التالين.

وفي العام 1975م (بعد مرور ثلاثين عاما على قيام الأمم المتحدة) أعلن عن فشل النظام الاقتصادي العالمي، وأنه أصبح من المحتم العمل على «إنشاء نظام اقتصادي عالمي جديد» ، ومن ثم ظهر ما سمى بحوار «الشمال / الجنوب» ، أى الحوار بين الدول الصناعية الغنية، التي أصبح يطلق عليها «الدول المتقدمة»، والدول التي تمتلك المواد الخام في الجنوب، والتي أطلق عليها «الدول المتخلفة» ، ثم خفف الوصف، وصارت تسمى «الدول النامية». وهذه الأخيرة هي التي تعرف سياسيا باسم «دول العالم الثالث» ، وكلها تقريبا تدخل ضمن «مجموعة عدم الانحياز» بعد أن اتسعت عضويتها... وكلها مصطلحات مرفوضة لأن

= المستهلكة لسلعها وخدماتها، وحققت أرباحا مضاعفة، واستقبلت بنوكها المزيد من عائدات بيع البترول (البترو دولار)، ووجهت هذه الأموال الطائلة إلى تحسين إنتاجها، وزيادته، وإلى البحث والتطوير وإحداث التقدم التكنولوجي، وإلى زيادة القروض الربوية التي توجه إلى بلادنا، ولا يتم تسليمها نقدا، بل على شكل سلع وخدمات ، تزيد البلدان الصناعية الغنية غنى، وتزيد من استنزافها لثروات البلدان الفقيرة، التي تورطت في الديون، وأصبحت عاجزة عن سداد فوائدها، فارتهنت موادها الخام، ووضعتها تحت إشراف صندوق النقد الدولي، الذي فرض عليها سياسات تحكمية لصالح الدول الدائنة.

وقد جاءت الصدمة البترولية الثانية عام78 /1979م بزيادة أسعار البترول، زيادة لا مبرر لها، فزاد الخلل في النظام الاقتصادي العالمي، إذ زادت أسعار المنتجات المصنعة بأكثر من الزيادة التي حدثت في أسعار البترول، وتحملت الدول المستوردة هذا العبء، واستخدمت فوائض الأموال في زيادة الديون...

الهدف منها طمس هوية الأمة الإسلامية، وذلك بوضعها في سلة واحدة مع أمم تختلف معها ثقافيا ، اختلافا جذريا، فالتجمعات المذكورة لا يجمع بين أعضائها عامل مشترك، سوى وصفها بأنها دول ذات إنتاج متدنٍ نسبيا .. فكل دول أمريكا اللاتينية، وأفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا تنتج أقل من ثلث ما تنتجه الولايات المتحدة الأمريكية وحدها[1]. والفجوة تتزايد باستمرار بين الشمال والجنوب، بحيث أصبحت فجوة خطيرة خلال عقد الثمانينيات، إذ تقوم دول الشمال بنقل عبء التضخم المزمن، الذي تعانيه، إلى دول الجنوب.

ذلك ؛ ويتركز حوار الشمال والجنوب حول ضرورة تغيير شروط التبادل التجاري ؛ برفع أسعار المواد الخام، وتقليل أسعار المواد المصنعة، وفتح أسواق بلدان الشمال أمام منتجات بلدان الجنوب، من خلال رفع الحواجز التعريفية والكمية من أمامها، كذا يطالب الجنوب الشمال بنقل المعرفة التكنولوجية إليه، وتقليل سرعة التقدم التكنولوجي في دول الشمال، وأخيرا التنازل عن الديون الربوية ذات الشروط المجحفة، أو التنازل عن جزء منها وجدولة الجزء الآخر.

وفي تقديري أن هذا الحوار هو حوار غير منطقي، رغم أن ساسة ومفكري دول الجنوب يعتبرون مطالبهم عادلة، ويجادلون محاولين تبرير طلباتهم، التي لا يبررها حقيقة، سوى العجز، والرغبة في استمرار العجز. وهذا لا يمنع أن الشمال مارس ولا يزال يمارس القرصنة والاحتيال لسلب ثروات دول الجنوب دون مقابل. ويعمل الشمال جاهدا على المحافظة على الأوضاع المتدينة في دول الجنوب، مستخدما آليات شتى منها ما هو استخباراتي سرى، ومنها ما هو ثقافي ... فضلا عن استنزاف الشمال للعقول وللأيدي العاملة الماهرة من الجنوب أولا بأول... لكن كل هذا ما كان ليحدث لولا تقصير دول الجنوب، وبلوغ الفساد الإداري والاقتصادي فيها حدا بالغ الخطورة.

وبعد أن بلغت مشكلة الديون حدا خطيرا وطريقا مسدودا، إذ تدفع بعض الدول ثلاثة أرباع ناتجها القومي لسداد فوائد الديون. وترهن دول أخرى إنتاجها من الخام الرئيسي لعدة

(1) Steven Rosen and Walter Jones, The Logic of International Relations, 2nd ed. (Cambridge, Mass: Winthrop). P. 128.

سنوات مقبلة، بوضعه تحت إشراف صندوق النقد الدولي، سداد للديون التي تتضاعف بمعدل عشرين مرة كل عشر سنوات، بسبب سعر الفائدة المرتفع، وتدهور العملات المحلية.. وتدهور أسعار المواد الخام.

وإزاء هذا الوضع غير المتكافئ تجمعت دول الجنوب في ما سمي بمجموعة السبعة والسبعين G77 (كان هذا عددها في البداية، ثم تزايد عددها ليربو على مائة وعشرين) للمطالبة بنظام عالمي جديد، بيد أن مطالبهم، سالفة الذكر، لم تجد أذنا صاغية لدي الغرب، وأدت إلي إظهار عجز الأمم المتحدة في المجال الاقتصادي. وكان انعقاد أول مؤتمر قمة للدول الأغني في العالم، وهي ما سميت بمجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى أو مجموعة السبعة G - 7 عام 1975م نفسه.

ومن جهة أخرى بدأت بلادنا «النامية» في الجنوب تقبل فكرة «الاستثمارات الأجنبية» بواسطة الشركات الأجنبية العملاقة[1] (عابرة القوميات) كبديل عن مطالبهم السالفة الذكر. بيد أن هذه الشركات كانت أكثر استغلال وشرا ومكرا، فتحت شعار «نقل التكنولوجيا» تتمتع الشركات الأجنبية بكافة المزايا، دون إضافة حقيقية للاقتصاد الوطني، بل تزيد من التبعية للشركة الأم، وتحول الدولة المضيفة إلى مجرد سوق ومخزن لليد العاملة الرخيصة. وتقتصر مجالات إنتاج هذه الشركات، وتنحصر في المجالات الاستهلاكية، ومن ثم انتقلت أنماط الحياة الغربية بما تحتويه من شر غالب، وخير أحيانا، إلى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والتعليمية في بلادنا التي تستضيف هذه الشركات الأجنبية،

---

(1) أصدر مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية UNCTAD تقريرا اقتصاديا في منتصف 1993م تضمن أن الشركات العملاقة «عابرة القوميات» transnationals قد بلغت في أوائل التسعينيات سبعة وثلاثين ألف شركة لها أكثر من مائة وسبعين ألف فرع، وأن إجمالي أصولها الإنتاجية تبلغ تريليونين (مليوني مليون) من الدولارات، تسيطر أكبر مائة شركة على ثلثها. وأن ثلث الصادرات العالمية (البالغ أربعة تريليونات) تتم بين الشركات الأم وفروعها.

وذكر التقرير أن الاستثمارات الأجنبية في الدول النامية خلال العام 1992م بلغت أربعين مليار دولار، ويتوقع أن تصل إلى ثمانين مليارا بمطلع القرن الحادي والعشرين.. وأن جزءا كبيرا من هذه الاستثمارات سيتركز في قطاع الخدمات.

وتعد الشركات اليابانية هي المستثمر الرئيسي في آسيا، بينما تعد دول الاتحاد الأوروبي هي المستثمر الرئيسي في أفريقيا. وتستأثر الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية والوسطى.

وتشجع «الاستثمارات الأجنبية».

وقد كان هذا بمثابة خطأ استراتيجي كبير.. فضلا عن أن هذه الشركات العملاقة قد حولت بلادنا إلى مجرد سوق استهلاكية لسلعها، التي تنتجها خصيصا لبلادنا، بمواصفات مختلفة عن الإنتاج الأصلي لتلكم الشركات - زيادة في الاستغلال والنهب - فإن هذه الشركات قامت بحجب التكنولوجيا المستخدمة من خلال قصر عمليات البحوث والتطوير على ما يتم في المراكز الرئيسية لتلك الشركات.

وقد كانت المؤتمرات التي عقدت عام 1981م (في كانكون، ثم مؤتمر قمة أوتاوا في يوليو، ثم مؤتمر الأمم المتحدة في سبتمبر 1981م) بمثابة خط النهاية للحوار بين الشمال والجنوب. وعرض الكسندر هيغ، وزير الخارجية الأمريكي وجهة نظر بلاده في أن الحل يكمن في تحول بلدان الجنوب إلى نظام «المشروع الحر» ، أي إلى نظام القطاع الخاص، والذي اتخذ اسما آخر هو «الإصلاح الاقتصادي»، والذي لا يتأتى - في نظر الغرب إلا من خلال تحويل «مؤسسات القطاع العام» ، التي تمتلكها الحكومة - وهو النظام الذي كانت معظم بلداننا في الجنوب تتبعه[1] إلى مشروعات للقطاع الخاص، في ما سمي «بالتخصصية»، أو الخصخصة Privatization ، وكانت هذه الفكرة بمثابة ضربة مزدوجة، يتحقق من ورائها هدم النظم الاشتراكية في جوهر وصميم قيمها الاقتصادية التي تعتمد على أفكار التخطيط ، والاقتصاد الموجه، والدعم المكثف للسلع والخدمات، والتسعير التحكمي، كما يتحقق من ورائها إمكان تسلل الاستثمارات الغربية (وهي يهودية في جانب كبير منها، خاصة الشركات العملاقة) للهيمنة على الاقتصاد العالمي.

وإزاء هذا الحل الذي لم يكن مقبولا آنذاك توقف حوار الشمال والجنوب قرابة ثماني سنوات، إلى أن انهار المعسكر الماركسي، وتفاقمت قضية الديون، وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية بتنفيذ خطتها الاستراتيجية بعيدة المدى،التي تقوم على الهيمنة الثقافية، والسيطرة

---

(1) وصلت الحكومات في معظم بلدان الجنوب إلى سدة الحكم من خلال الانقلابات العسكرية، أو من خلال تولي حركات التحرير (وهي شبه عسكرية) الحكم بعد خروج جيوش الاحتلال من بلادها، فكان رد فعلها اتباع نظم شمولية (مخالفة للنظم الغربية)، قوامها الاشتراكية الماركسية المطوّرة ، التي تعتمد على فكرة الحزب الواحد، وتأميم الممتلكات، وإقامة اقتصاد الدولة، الذي يعتمد على القطاع العام والقيم الاقتصادية الاشتراكية.

المركزية على الاقتصاد العالمي[1] من أجل كسب السلام بدون حرب» . وقد جرى تنفيذ هذه الفكرة الاستراتيجية من خلال:

– إقامة تحالف بين الدول الصناعية الكبرى التي تتبع النظام الرأسمالي.

– الهيمنة على الموارد العالمية وعلي النشاط البشري بدعوى الحفاظ على البيئة من التلوث والحفاظ على الطبيعة على الأرض.

– إنشاء منظمة للتجارة العالمية لإزالة العقبات أمام السيطرة المركزية على الاقتصاد.

– ضبط المواليد وإحياء نظرية «مالتس» للسكان بحجة الحفاظ على نتائج برامج التنمية في «الدولة النامية» من وطأة الزيادة السكانية.

* * *



(1) Lyndon H. La Rouche, Jr. The Long -term Strategy of The United States of America: ADemocratic Alternative to The Wohlstteter Report, Executive Intelligence Review "Nachricte nagentur GmbH", Jm. 14 1988.

المحور الأول

تحالف الدول الصناعية الكبرى

بمجرد الإعلان عن بزوغ النظام العالمي الجديد كان طبيعيا أن تعاد صياغة «النظام الاقتصادي العالمي». وكما مارست الولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة السياسية العالمية من خلال تحالفها مع دول أوروبا الغربية، عند إدارتها لحرب الخليج الثانية، من خارج نطاق الأمم المتحدة، فكذلك سعت لممارسة الهيمنة العالمية الاقتصادية من خلال تحالف الدول السبع الصناعية الكبرى G7 (أمريكا – اليابان – ألمانيا– بريطانيا – فرنسا – كندا – إيطاليا)، وذلك منذ مؤتمر القمة السابع عشر لهذه المجموعة، والذي انعقد في لندن (15 : 17 يوليو 1991م) للاتفاق حول الخطوط الرئيسية للاستراتيجية المشتركة لإدارة الاقتصاد العالمي مركزيا.. وإن كانت قدتناولت أمورا ذات طبيعة سياسية مرتبطة به.. وأكدت على ضرورة تسجيل مبيعات الأسلحة على المستوى العالمي، والسيطرة المركزية على التكنولوجيا المتقدمة.. وطرحت فكرة «مبادلة ديون الدولة النامية بالبيئة» . بمعنى الهيمنة على الموارد الطبيعية من مياه وغابات، وعلى النشاط البشري بالدول النامية، ودفن النفايات بها، في مقابل المزيد من القروض، أو التنازل عن جزء من الديون.. وأكدت القمة على ضرورة السير قدما نحو تحرير التجارة العالمية.

وقررت هذه القمة – التي تعد بمثابة تحول تاريخي في «النظام العالمي الجديد» – أنها ستشكل – من خلال مؤتمراتها – مجموعة تتحكم في حل المشكلات الدولية، مستخدمة في ذلك الإمكانات الاقتصادية للأمم المتحدة (البنك الدولي للإنشاء والتعمير – صندوق النقد الدولي). وقد ظهرت الولايات المتحدة منذ هذه القمة بمظهر الدولة القائد لهذه المجموعة.

ركز مؤتمر قمة طوكيو 7 :9 يوليو 1993م) على فكرة فتح أسواق للعمل والتوظيف أمام الدول الصناعية الكبرى التي تفاقمت فيها البطالة، كذا ضرورة إزالة العقبات أمام حركة

الاستثمارات في «الدول النامية» ، وتحفيز الميل للاستهلاك. وأعطت القمة الأولوية لإنهاء محادثات مؤتمرات الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة GATT ، والتي عرفت بمحادثات «جولة أورجواي». وقد جاء في البيان الختامي أن زعماء الدول السبع الصناعية الكبرى مصممون علي استبقاء الضغوط الاقتصادية الدولية المفروضة على العراق وليبيا، وسجلوا قلقهم مما سموه «السلوك الإيراني المؤيد لمنظمات الإرهاب» وزعزعة الاستقرار، وأنهم عازمون على مواجهة «الإرهاب» بكل قوة ، كما أكدوا على فكرة حجب «التكنولوجيا» عن الدول «النامية».

الهيمنة على الموارد الطبيعية وعلى النشاط البشري (حماية البيئة):

منذ بدا واضحا أن خطر الحرب النووية قد بدأ يتواري ، وفي عام 1986م بالذات، في أعقاب توقيع اتفاقية ديكيافيك (في أكتوبر) بدأ الحديث عن الأخطار الجديدة التي ستأتي من داخل الدول ، وليس من خارجها ، وبدأ الحديث عن «أخطار البيئة» التي ستنجم عن ارتفاع مستوي البحار، وجفاف بعض الأنهار، وتناقص المساحات الخضراء، وظهور ثقب في طبقة الأوزون المحيطة بالأرض[1]، وازدياد حرارة الأرض، وعدم التوازن البيئى بسبب انقراض بعض أنواع الحيوانات، وتناقص الغذاء، خاصة الحبوب. فضلا عن ظهور مشكلة التخلص من النفايات النووية والصناعية...إلخ.

وتعتبر فكرة الحفاظ علي البيئة من الأفكار الرئيسية للنظام العالمي الجديد، والتي ترتبط بكل آلياته الاقتصادية والثقافية، بل إنها تغير من طبيعة الصراع، فتحول الصراع دفاعا عن العقيدة إلي صراع لمنع المساس بالبيئة، ومن الصراع مع عدو خارج الدولة إلى صراع داخل الدولة، ومن تضارب المصالح بين الأمم إلي وحدة المصلحة، التي يتوهمون من خلالها إمكان

(1) تم عقد اتفاقية لحماية طبقة الأوزون المحيطة بالغلاف الجوي للأرض في فينا عام 1985م، وتم التوقيع على بروتوكول ملحق بهذه الاتفاقية في مونتريال بكندا يوم 16 سبتمبر 1987م، وذلك لمنع استهلاك مادة «الكلور فلورو كربون» ، والتي تستخدم في الثلاجات وأجهزة التبريد، وكانت الشركات الغربية تحتكر إنتاجها، وانتهي الاحتكار، فأرادت الدول الصناعية أن تحرم الدول الأخرى من إنتاج هذه المادة فكانت الاتفاقية.

تحويل الكرة الأرضية إلي مجتمع واحد سموه «مجتمع العالم»(1).

وتقوم أفكار الأخطار المحدقة بالبيئة على بعض الحقائق العلمية، وعلى كثير من المغالطات العلمية، التي تستهدف أساسا حرمان «الدولة النامية» من دخول مجال التكنولوجيا التي استغنى عنها الغرب، وانتقل إلى تكنولوجيا أخرى أحدث منها مثال ذلك:

– توقيع معاهدة فيينا (1985م)، وبروتوكول مونتريال (سبتمبر 1986م)، ثم مؤتمر لندن (مارس 1989م) للحفاظ على طبقة الأوزون المحيطة بالغلاف الجوي للأرض؛ بدعوى منع اتساع ثقب تم اكتشافه في هذه الطبقة، فاحتوت الاتفاقية تحريم استهلاك أو تصنيع منتجات الكلوروفلورو كربون Chlorofluorocarbans (CFCs) التي تستخدم في أجهزة التبريد. والمبيدات الحشرية، والبلاستيك الأسفنجي، وأجهزة تكييف الهواء.

– السعي إلى فرض قيود على الميكنة الزراعية، وعلى الصناعات الثقيلة بوجه عام، وتشجيع الصناعات الصغيرة واليدوية في البلدان النامية، وذلك بحجة تقليل انبعاث ثاني أكسيد الكربون في الجو، الأمر الذي يسبب ما يسمى «بالدفيئة» greenhouse effect ؛ أي ارتفاع درجة حرارة الهواء المحيط بالأرض، ويسبب ارتفاع درجة حرارة المحيطات، ومن ثم ارتفاع مستوي المياه بها، فتؤدى إلى إغراق الشواطئ والجزر وتآكلها.

وفي هذا الإطار يجرى الضغط على بلادنا «النامية» لتقليل زراعة قصب السكر والأرز، باستخدام وسائل شتى، منها تقليل مياه الري اللازمة للزراعة، بحجة أن زراعة الأرز ينتج عنها انبعاث غاز الميثين Methane الذي يتسبب هو الآخر في ظاهرة «الدفيئة» (2).

---

(1) الاصطلاح الذي ساد طوال ثلاثة قرون كان هو «المجتمع الدولي»، أي «مجتمع الدول» ... International Society أما الاصطلاح الجديد فهو World Society، وهو يعني محاولة إلغاء الحواجز بين الدول وتحويل الناس إلى أمة واحدة.. وهو أمر يناقض سنة الله تعالى التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**.
[هود / 118 :119].

(2) AGriculture: Towards 2010, (hapterl, Introduction and Overview), Document C93/ 24 of the 27 th Session of The FAo Conference, Rome, 6-25 November 1993, P.16.

وفي نفس الفقرة تذكر الوثيقة أن «الحيوانات المجترة» تعد هي الأخرى مصدرا من مصادر زيادة «ظاهرة الدفيئة»!!

وتحت دعوى الحد من ظاهرة «التصحر» فإن الأمور تسير في اتجاه السيطرة العالمية المركزية على الغابات . وكذا يجري محاولة السيطرة المركزية على إنتاج الأسمدة.

ولعل من أخطر الأمور هو ما يجرى لمحاولة السيطرة على الأنهار، على تصرفات مياهها، واستخداماتها في الزراعة، والشرب ، والصيد، والصناعة، والنقل. كذا التحكم في المنشآت التي تقام في المجرى وعلى الشواطئ النهرية، باستخدام تكنولوجيا الاستشعار والتحكم من بعد، وبفرض «حماية البيئة» على بعض البحيرات والشواطئ.

هذا فضلا عن احتمال قيام منظمة عالمية للتحكم في الأنهار العالمية والمجاري المائية تحت دعوى «تنمية أحواض الأنهار والمجاري المائية»، وهو ما أوصى به «المؤتمر الدولي للموارد المائية الذي أنهى أعماله في القاهرة يوم 25 نوفمبر 1994م ... وذلك لمنع ما يسمونه «حرب المياه»!

وخطورة هذا أن الله تعالى قد جعل من الماء كل شيء حي، ومن ثم فإن محاولات التحكم في كمية المياه وتصرفاتها، يعني التحكم في الزراعة والثرورة الحيوانية، والثروة السمكية، وفي النشاط البشري بصفة عامة... ولن ينتج عن هذا إلا نقصا في الغذاء، وخللا حقيقيا في التوازن البيئى الذي هو من سنن الخالق جل وعلا.

وفضلا عن الإجراءات العملية التي تتم الآن للهيمنة على الأنهار[1] فإن علماء الغرب يستخدمون البحوث العلمية كرادع [2] ينذر بقرب حدوث ما يسمونه «بحرب المياه» في

---

(1) Le Monde, Mercredi 23 Octobre 1991, P.19, Spot Contre les Plaies d'Egypte (La Production agricole de la valle'e du Nil est Contr'ole'e par un satellite ...

قمر صناعي يتحكم في الزراعة بوادي النيل.

راجع أيضا : الأهرام القاهرية في 29 سبتمبر 1994م تحت عنوان «تحكم مركزي في مياه الري وتقليل الفاقد منها»، بإنشاء 800 موقع رصد في مصر، وهو مشروع أمريكي، يستهدف «إعطاء التعليمات لصرف المياه المطلوبة للأغراض المختلفة».

(2) كل التوقعات الخاصة بالبيئة لا تدخل في إطار العلم الراسخ، بل ولا حتى الظني، وكلها محل نزاع وعدم اتفاق بين العلماء . وكثيرون من العلماء يجدونها عارية تماما من الصحة ، ولا تستند إلى أساس علمي.

The Economist, April ist 1995, Stay Cool, PP. 11 - 12, 41-42, 83-85.

العالـم، ويضربون بـذلك أمثلـة بحدوث تغيـرات بيئيـة حادة في عدد مـن الأنهار مثـل: نهر كولورادو بأمريكا الشمالية، وبحر آرال بوسط آسيا، ونهر الفانغ ببنغلاديش، والنهر الأصفر بالصين... وغيرها. ورغم أساليب الردع العلمي هذه فإن المشاهد في السنوات الأخيرة كثرة الفيضانات والسيول في العالم، كما أن المياه الموجودة في باطن الأرض لم يكتشف منها إلا نسبة ضئيلة.

يقول الله تعالى : ﴿**وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون**﴾ [المؤمنون / 18].

إن أمور الميـاه شأن من شئـون الله تعالـى وعلى البـشر أن يفكروا ويـتدبروا في آيـات الله تعالى ليؤمنوا به، بـدلا من أن يفكروا في كيفية الاعتداء على سننه، ولـن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. قال تعالى:

- ﴿ **أفـرأيتم الماء الذي تـشربون . أأنتـم أنزلتمـوه من المزن أم نحن المـنزلون. لـو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾ [الواقعة / 68 :70]. قال تعالى:

- ﴿ **أو لم يروا أنـا نسوق الماء إلـى الأرض الجرز فنخـرج به زرعا تأكـل منه أنعـامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**﴾ [السجدة / 27].

وفي محاولـة قانونية مبـدئية «للسيـطرة على البيـئة» عقد مؤتمر قـمة عالمي[1] في ريـودي جنيرو (3 :14 يونيو 1993م) تحت علم الأمم المـتحدة، سمى «بمؤتمر قـمة أرض» ، أو «مؤتمر البيئة والتنمية». وكان الهدف الحقيقي – غير المعلن – لهذا المؤتمر هو اتخاذ خطوة هامة نحو تحقيق مركزية السيطـرة على «البيئة العالمية» ؛ أى على الموارد الطبيعـية والنشاط البشري على كوكب الأرض. وقـد بدا هذا الهـدف واضحا في الـنصوص التـي تشير إلـى ضرورة إجراء تغييرات تـشريعية داخل الدول، تعبر عـن التزامها بقرارات «مؤتمر قـمة الأرض» (مؤتمر ريو) المشار إلـيها حالا. وبدا هذا الهدف واضـحا أيضا في ما أسفـر عنه مؤتمر المناخ الـعالمي الذي

(1) نص الوثيقة ، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، أكتوبر 1992م، العدد 110 ، صـ 153 - 154 .

عقد في برلين اعتبارا من 28 مارس 1995م، ولمدة أحد عشر يوما، تحت رعاية الأمم المتحدة، وحضرته 130 دولة، والذي دعا إلي ضرورة تحويل التزامات «قمة الأرض» إلي برنامج عمل يستمر حتى عام 2020م.

وفي أواخر شهر يوليو 1995م دعا معهد «وورلد وتش» World Watch أي «العناية بالعالم» والمختص بشئون البيئة ، ومقره واشنطن، إلى إنشاء «منظمة عالمية للبيئة»، وأن يتم توفير ميزانية هذه المنظمة من ضريبة عالمية تفرض على تحويلات العملة مثلا، أو على المسافرين في المطارات...

وهناك خلاف حاد بين الدول الصناعية، التي تتسبب حقيقة في ما يسمى «بتلوث البيئة»[1]، وبين الدول «النامية» والفقيرة، التي يريد سادة «النظام العالمي الجديد» تحميلها تبعة هذا التلوث، سواء بتحميلها بنفقات «الحفاظ على البيئة» ، أو بإجبارها على استقبال النفايات النووية والصناعية في أراضيها، كما لو كانت أماكن لتجميع قمامة الدول الصناعية الغنية، أو بإجبارها على قبول وضع مواردها تحت رقابة الدول الصناعية الكبرى، خاصة الولايات المتحدة ، التي تستخدم في ذلك تكنولوجيا فضائية متقدمة تمكنها من التحكم في استخدام هذه الموارد، خاصة مياه الأنهار.

والحقيقة هي أن الدول الصناعية الكبرى لا تهتم بموضوع «حماية البيئة من التلوث»[1] – الذي لا يعدو مفتراه، فخالق الكون قد وضع فيه من السنن ما يجعله يتوازن تلقائيا، ومُسَخّر الأرض وما عليها وما تحتها للإنسان لم يجعل من وظيفة هذا الكائن تعديل نتائج سير هذه السنن، فما كان ربك نسيا – فالحقيقة أن «**تحالف الدول الصناعية الكبرى**» قد افترى هذه الفرية لفتح الأبواب أمام توفير وظائف وفرص عمل جديدة أمام شعوبها ، وفتح الأسواق في بلادنا أمام سلع وخدمات، من نوع جديد، تحقق لهم المزيد من نهب الثروات، والهيمنة على

(1) من صور تحميل الدول «النامية» بنفقات الحفاظ على البيئة: الضغط عليهم لشراء معدات تكنولوجية من الدول الصناعية، كي تستخدم في تنقية الهواء ومنع تلوثه. ومن الصور أيضا بيع الخبرة في مجال حماية البيئة إلى الدول «النامية» ، وفرض «ضريبة الكربون» على مبيعات الدول المصدرة للبترول ، مما يؤدي إلي الإضطراب في الدخول النقدية لهذه الدول وميزانياتها.

الموارد الطبيعية ، بشكل سافر ومباشر، أو بأسلوب غير مباشر، من خلال إعلان بعض المناطق، والشواطئ، أو البحيرات، أو الغابات، «محميات طبيعية».

والدول الصناعية الكبري المتحالفة في هذا المجال لا تسلك مسلكا شريفا، وإنما تعمد إلى وضع قيود على النشاط البشري في بلادنا – يصل أحيانا إلى درجة تعطيله تماما من خلال إثارة الحروب الأهلية والمذابح والقلاقل، التي ينتج عنها حدوث هجرات جماعية»، فيقل نشاط إعمار الأرض والإنتاج، وتخلص لهم الموارد الطبيعية[1] . وكلما قل النشاط البشري وضعف الإنتاج ظهرت الحاجة للاستثمارات الأجنبية، وللمزيد من الاستيراد.

وهناك توافق حتمي بين هذا المسلك، وبين سعي التحالف الصهيوني / الصليبي إلي تغيير أنماط السلوك والاستهلاك، ومنظومة القيم في بلادنا، كي تتواءم مع ما يقومون بإنتاجه، وكي تكون بلادنا أكبر استعداد لاستقبال فروع الشركات العملاقة التي يمتلكونها، أو تتحول إلى سوق لسلع استهلاكية أجنبية، يكن إنتاجها في بلادنا، لكنها تُستورد بحجة الحفاظ على البيئة من التلوث مثل: الأسمنت، والمبيدات الحشرية، والأسمدة!

وإزاء الضعف المتزايد للقوة الشرائية لدي الأفراد في بلادنا، فقد اتجهت سياسة الإقراض لدي الغرب إلى إقراض الأفراد بدلا من الحكومات، لكن هذه السياسة سوف تصل حتما إلي طريق مسدود، قد يؤدي إلى ظهور نظام السخرة، بل ونظام «الرق مقابل سداد الدين» من جديد ... وليس هذا بمحض تصور نظري، فقد علت شعارات مثل: «البيئة مقابل الديون»، و«تحديد النسل مقابل الديون» ... إلخ. في أعقاب مؤتمرات قمة الأمم المتحدة التي عقدت لبحث هذين الأمرين.

اتفاقية «الغات» GATT تنجب منظمة التجارة العالمية، وحربا تجارية:

---

(1) يدخل في هذا الإطار الحروب الأهلية في أفغانستان ، والجزائر، وطاجيكستان، وليبيريا، والبوسنة، والقوقاز، ورواندا، وغيرها ... كما يدخل في هذا الإطار ما سيعم بلادنا الإسلامية في المستقبل القريب تحت مسمى «المواجهة الدولية للإرهاب».

ويتوقع خبراء البيئة في العالم أن يتم تشريد أكبر من مائتي مليون شخص في العالم خلال السنوات العشر القادمة، إذ سيهجر كثير من السكان نشاطاتهم الاقتصادية تحت وطأة الحروب المحلية، وسوف يؤدى هذا إلى المزيد من الارتفاع في أسعار الحبوب والأسماك، وإلى قلة المعروض منها...

-أنجبت الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة GATT ، التي وقعت عام 1947م، بهدف تحرير التجارة العالمية، من خلال جولات (دورات) تفاوض، تحت علم الأمم المتحدة، سميت بجولة «أوراغواي» Uruguay ، (عاصمة بنما)، أنجبت ما سمي «بمنظمة التجارة العالمية» (WCO) . فقد أعلن في مؤتمر «مراكش» بالمغرب، الذي انتهي في 15 أبريل 1994م عن قيامها اعتبارا من الأول من يناير عام 1995م من أجل الإشراف على سير التجارة العالمية، وفض المنازعات التجارية بين دول العالم .. وكان هذا هو الهدف النهائى لاتفاقية «الغات» GATT .

وتستوجب هذه المنظمة أن تقوم دول العالم، المنظمة إليها، بإصدار تشريعات داخلية تضمن حرية حركة السلع، والإنتاج المرئى/ المسموع (الأفلام) والطيران المدني، وحماية حق الملكية[1] الصناعية والفكرية، وحرية حركة رأس المال والخدمات، ومنع إغراق الأسواق بالسلع.

وقد مارست الولايات المتحدة الأمريكية مختلف صنوف الضغط السياسي على كل الأطراف ، ومنها: «دول الاتحاد الأوروبي» للموافقة علي إقامة هذه المنظمة، باعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية تُعد في الوقت الحالي – على حد تعبير رئيسها السابق جورج بوش – القوة العظمى التصديرية "The exporting Superpower" ، ومن ثم سيمكنها الهيمنة على قرارات المنظمة المذكورة، ومن ثم الهيمنة المركزية على الاقتصاد العالمي.

مع ذلك فإن الأمور لا تسير – ويبدو أنها لن تسير – في اتجاه السيطرة المركزية على الاقتصاد العالمي، وأن الحرب التجارية أصبحت أمرا لا مفر منه. وتدرك الولايات المتحدة الأمريكية هذا الأمر جيدا لذا نجدها قد دعمت مؤسساتها الأمنية والاستراتيجية بإنشاء «مجلس الأمن الاقتصادي القومي» NEC عام 1993م، إلى جانب مجلس الأمن القومي

(1) ودول جنوب شرق آسيا بتزويد المنتجات الصناعية، وانتهاك قواعد براءات الاختراع، والحقوق المعنوية المختلفة. والجديد أن بعض الدول الصناعية الكبرى، تقوم هي الأخرى، بعملية غش، في إطار الحرب التجارية، وتزور المنتجات الصناعية الخاصة بها أيضا، وذلك بشراء مكونات المنتج، رخيص التكاليف – خاصة السيارات اليابانية ومعداتها الإلكترونية – ثم تطبق عليه العلامة التجارية لإحدى شركاتها الشهيرة، كي تستطيع أن تنافس، منافسة لا يقرها خلق أو قانون!! مثل هذه الأمور قد تؤدى إلى فوضى تجارية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل، وسوف تكون أسوأ آثارها في بلداننا «النامية» ، مسرح هذه الحرب وضحيتها، وغنيمة أطرافها.

NSC ، الذي سبق أن أسس عام 1947م. وأصبح منوطا بالمجلس الجديد التعامل مع الأزمات ذات الطبيعة الاقتصادية.

وفي أعقاب الأزمة المالية الحادة التي أصابت المكسيك فإنهارت عملتها، وأثرت من ثم علي الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، طالب وزراء مالية الدول السبع الكبرى في اجتماعهم في تورنتو (4-5 فبراير 1995م) بضرورة إنشاء نظام للإنذار المبكر يمكّن من سرعة التعامل مع الأزمات المالية بكفاءة أكبر.

وللحرب التجارية أكثر من خط للمواجهة، فنجد الولايات المتحدة واليابان قد اتخذ من شمال المحيط الهادي خطا للمواجهة بينهما. وأصبح شمال المحيط الأطلنطي خطا للمواجهة بين الولايات المتحدة وأوروبا. أما المواجهة الأمريكية / الصينية فتتم جنوب المحيط الهادي. وأخيرا فإن المواجهة الأمريكية الأوروبية تجد من البحر المتوسط خطا ثانيا للمواجهة في الحرب التجارية العالمية.

ومن الناحية الاقتصادية والتجارية البحتة فإن موضوعات النزاع في الحرب التجارية التي بدأت بالفعل منذ مطلع التسعينيات تتمثل في ما يلي:

– **المحصولات الزراعية** ؛ وتدور حول ضرورة خفض الدول الأوروبية الإعانات التي تقدم إلى المزارعين، وهذا يؤدى إلي غزو السلع الزراعية الأمريكية أوروبا، ومن ثم الإضرار بالفلاح هناك. وكانت فرنسا من أشد المعارضين الأوروبيين.

من جهة أخرى دعت الولايات المتحدة اليابان إلى فتح أسواقها أمام واردات الأرز (الإنتاج الزراعي الرئيسي هناك) .. وهو أمر رضخت له اليابان جزئيا تحت ضغوط سياسية وتجارية ومالية كبيرة.

وقد توصلت الأطراف إلي قدر من الاتفاق على حساب صادرات الدولة «النامية» ، ولصالح منتجيهم وصادراتهم إلى هذه الدول. وبدلا من أن نتوقع انخفاضا في أسعار الحاصلات الزراعية، فإن المتوقع أن ترتفع هذه الأسعار، وأن يقل المعروض منها (خاصة الحبوب) بما يهدد بنشوب الحروب الأهلية.

– **تجارة المنسوجات** ؛ والنزاع يدور حول رفع الإجراءات الحمائية لمنتجات النسيج والألبسة خلال عشر سنوات، بما يتيح حرية التصدير، التي لن تكون متكافئة بسبب التقدم

التكنولوجي الذي تحتكره الدول الصناعية الكبرى، وتفوق قدراتها على الإنتاج الكمي وإغراق أسواق البلدان «النامية» بما يقتل هذه الصناعات فيها، ويجعل المنتج الأجنبي هو المهيمن على السوق.

– **حماية حقوق الملكية الفكرية** ؛ وتتضمن حقوق الطبع، والنشر، وبراءات الاختراع، والعلامات التجارية، بما يدعم فكرة «احتكار التكنولوجيا»، وما تسببه هذه الفكرة من زيادة الفجوة بين الدول الصناعية الكبرى والدول «النامية».

– **حماية الاستثمارات الأجنبية** ؛ وذلك من خلال قيام الدول «النامية» بإصدار تشريعات داخلية تحمي رءوس الأموال الأجنبية، ونشاطات الشركات العملاقة ، والعمالة الأجنبية، إلي درجة مساواة العمالة الأجنبية بالعمالة المحلية في مجال التأمينات الاجتماعية. مثل هذه الحماية توفر ظروفا غير متكافئة بين الشركات الأجنبية والعمالة الأجنبية من ناحية وبين الاستثمارات المحلية والعمالة المحلية في بلادنا من ناحية أخرى، فهي بمثابة حماية القوي لتمكينه من أن يصرع الضعيف.

– **تحرير تجارة الخدمات** ؛ ويدخل فيها: النقل، والسياحة، والمقاولات، والاستشارات، والتوريدات، والخدمات المصرفية، والتأمين، وممارسة المهن المختلفة.

وتؤدى المعاملة المتساوية بين موردي الخدمات الأجانب، وموردي الخدمات المحلين إلى نتائج شبيهة تماما بحماية الاستثمارات الأجنبية.

خلاصة هذا أن «تحرير التجارة العالمية» بهذه الصورة، ما هو إلا فرض للنظام الاقتصادي الرأسمالي بكل مساوئه، التي تتمثل في سحق القوي للضعيف، وتجريد المعاملات التجارية من الأخلاق، فتحيلها إلي حرب بين أطراف غير متكافئة.. بين محتكرين ومستغلين.. وبين المحتكرين وبعضهم البعض للفوز بالغنيمة (الدول المسماه بالنامية).

ذلك؛ وتعتمد الحرب التجارية على أعمال استخباراتية لجمع المعلومات، فضلا عن أعمال إيجابية تتمثل في إثارة الإشاعات حول المنتجات، وإحداث انهيارات متعمدة للعملات، وتخريب للمحصولات الزراعية في كل مراحل الدورة الزراعية (البذور – الأسمدة – الري – مكافحة الآفات – التخزين – التصنيع الزراعي .. إلخ) . وتستخدم إلي جانب هذا الضغوط السياسية الواضحة والخفية (من خلال العملاء، وربط المصالح الخاصة لبعض

المسئولين أو ذويهم بهذه الدولة ، أو الشركة العملاقة، أو جهة الاحتكار، التي تمارس الضغط).

وتسير الحرب التجارية جنبا إلى جنب مع حرب ثقافية، بل ومع استعدادات عسكرية ، نووية وتقليدية، تتم تحت أستار مختلفة، وتعتيم إعلامي، ومنها: التجارب النووية التي أجرتها الصين في سبتمبر 1995، وتلك التي أجرتها فرنسا في أكتوبر 1995م ، وحاولت أثناءها اجتذاب ألمانيا كحليف نووي، لكنها لم تحقق نجاحا، في حين حققت نجاحا مع بريطانيا، عندما اجتمع الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» مع رئيس الوزراء البريطاني «جون ميجور»، في أول نوفمبر 1995م ووقعا عددا من الاتفاقات في المجال العسكري ، والنووي، والبحري، ومعاهدة تحالف استراتيجي ودفاع مشترك، وأيد «جون ميجور» التجارب النووية الفرنسية (التي لاقت هجوما شديدا من قبل الولايات المتحدة ودول المحيط الهادي).

ومنها أيضا إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على التواجد العسكري[1] المكثف في منطقة المحيط الهادي رغم طلب اليابان رسميا، في لقاء بين وزير دفاعها ووزير الدفاع الأمريكي، في طوكيو، في أواخر شهر أكتوبر 1995م ، طلب خفض عدد القوات الأمريكية المتواجدة في جزيرة «أوكيناوا».

من جهة أخرى نجد الولايات المتحدة الأمريكية تكثف من تواجدها البحري والبرى والجوي في شمال المحيط الهندي والخليج، وتعمل جاهدة على إرسال قوات برية كبيرة إلي البلقان، تحت مظلة حلف شمال الأطلنطي، بدعوى الإشراف على تطبيق اتفاقية السلام بين البوسنة وكرواتيا وصربيا، فضلا عن تواجدها البحري الكبير في البحر المتوسط وفي البحر الأدرياتيكي.

وكما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تكوين تحالف أمني في الخليج عام 1981م تحت مسمى «الإجماع الاستراتيجي»، والذي سبق ذكره، فإنها تسعى الآن إلى إنشاء مثل هذا التحالف، الذي يضم إسرائيل، ومصر، ودول الخليج، ليغطي منطقة الخليج والبحر المتوسط، وهو تحالف ستقوم فيه إسرائيل بدور هام ورئيسي في إطار التحالف الاستراتيجي

(1) من المتوقع أن يزور الرئيس الأمريكي بيل كلينتون اليابان في منتصف نوفمبر 1995م لبحث مسألة التواجد العسكري الأمريكي المكثف في المحيط الهادي.

بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

ذلك؛ وتقف الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب التجارية وحدها في مقابل أطراف متعددة، لكنها غير متحالفة (الاتحاد الأوروبي – اليابان – الصين) . ولا تمثل الأمة الإسلامية إلا مجرد مسرح للصراع التجاري، كما كانت من قبل مسرحا للحرب الباردة.

وفي خضم «الحرب التجارية الباردة» أقامت الولايات المتحدة الأمريكية محورا مع ألمانيا. ولم يبال كل من طرفي المحور ما قد يسفر عنه من انهيار الاتحاد الأوروبي، إذ يخل الاتفاق بينهما إخلال جوهريا بالشروط التجارية التي أقرتها المجموعة الاقتصادية الأوروبية في اتفاقية ماستريخت، التي يقوم الاتحاد الأوروبي على أساسها.

سد الثغرات الجغرافية وتسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى الهيمنة على الاقتصاد العالمي، ليس فقط من خلال إقامة «الفكرة الشرق الأوسطية» ، ولكن أيضا من خلال سد الثغرات الجغرافية بين التجمعات الاقتصادية الكبرى، واحتوائها: فتسعى الولايات المتحدة إلى إنشاء منطقة تجارة حرة عبر الأطلنطي للربط بين «الاتحاد الأوروبي» ومنطقة التجارة الحرة بشمال أمريكا المسماه (نافتا) NVFTA ، كما أنها أقامت بالفعل، منذ نوفمبر 1994م منطقة للتجارة الحرة للدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي المسماه (آبك) APEC ، وتضم الولايات المتحدة، واستراليا ، وكندا، وشيلي، والصين (التي لم تنضم بعد إلى منظمة التجارة العالمية)، وهونغ كونغ، واليابان، والمكسيك، ونيوزيلاندا، وبابوا، وغينيا الجديدة، وكوريا الجنوبية، والفلبين، وتايوان، وتايلند، وسنغافورة، وثلاث بلدان إسلامية هي: إندونيسيا، وماليزيا، وبروناي.. ونظرا لبقاء روسيا خارج كل هذه التجمعات، وهي التي تمتد أراضيها، حتى الآن من شرق أوروبا حتى المحيط الهادي، وتتاخم القوقاز ووسط آسيا من الجنوب، فقد لعبت تركيا دورا لصالح الولايات المتحدة الأمريكية في إقامة «منظمة التعاون الاقتصادي بين دول البحر الأسود» ، التي ضمت إليها مجموعة من الدول ذات المصالح والتوجهات المتناقضة، لكنها سدت المسافة بين وسط أوروبا والمحيط الهادي.

وقد قامت تركيا بهذا الدور لاحتواء مزدوج ، لكل من روسيا، والدول الإسلامية في وسط آسيا والقوقاز، وأملا في أن تساعدها الولايات المتحدة الأمريكية في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهو الأمر الذي تسعى إليه تركيا منذ عام 1963م.

وقد أوعزت أمريكا إلى تركيا بفكرة هذا التجمع عام 1990م ، ووقع ميثاق هذا التجمع في الثالث من فبراير 1992م، وأصبح نافذ المفعول منذ 25 يونيو من نفس العام .. وهو يضم تركيا، وروسيا، وأوكرانيا، واليونان ، واليابان، وقازاكستان، وقرغيزيا، وأوزبكستان، وتركمنستان، وطاجيكستان، وجورجيا، وأرمينيا، ورومانيا، وبلغاريا، وأذربيجان، وملدوفا. ومن المتوقع ضم البوسنة، وصربيا، ومقدونيا إليه في مرحلة لاحقة.

وقد جاء في أهداف هذا التجمع : «سرعة الاندماج في النظام الاقتصادي العالمي». فهو خطوة من خطوات مركزية السيطرة على الاقتصاد العالمي، وإجراء مضاد لاحتمالات قيام تجمع اقتصادي إسلامي[1].

ذلك؛ وبالنظر إلي الظروف المحيطة بالحرب التجارية الجارية حاليا فإنه من غير المستبعد أبدا أن تتحول إلى حرب تجارية ساخنة، أو إلي حرب عالمية ثالثة، ذات طبيعة خاصة، بعد أن تزايد حب المادة وغياب الأخلاق، بشكل يلقي بغشاوة كثيفة على الأسماع والأبصار والعقول. مثل هذه الحرب المتوقعة سوف تنصب على شعوبنا لإهلاكها بأسلحة غير تلك التي كانت تهدد العالم أثناء الحرب الباردة. فبلادنا ستكون مسرحا لتلك الحرب، وضحية لها، وغنيمة، في آن واحد.



(1) بدأ الحديث منذ عام 1981م عن قيام سوق إسلامية مشتركة في نطاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي فبراير 1992م اجتمع رئيسا جمهوريتي إيران وتركيا، ورئيس وزراء باكستان ليقرروا استعادة نشاط منظمة التعاون الاقتصادي (إيكو) ECO ، التي قامت عام 1965م بين هذه الدول الإسلامية، وجمد نشاطها عام 1979 ، وتقرر في اجتماع 15 فبراير 1992م قبول الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز في هذه المنظمة، فسارعت الولايات المتحدة الأمريكية تحث تركيا على إعلان قيام «المنظمة الاقتصادية للبحر الأسود» ، وقام جيمس بيكر وزير خارجية الولايات المتحدة ، في نفس الشهر بزيارة الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز لإقناعها بجدوى الارتباط بالولايات المتحدة، وعدم جدوى الارتباط بإيران. وتجمع «إيكو» هذا يضم ثلاثمائة مليون نسمة، وقدر هائل من الثروة والموارد الطبيعية والطاقة!

المحور الثاني

ضبط المواليد ونظرية نقص الموارد

فكرة ضبط المواليد Birth Centrol ، كغيرها من أفكار النظام العالمى الجديد، ظهرت مواكبة لظهور الأمم المتحدة. وقد بنيت هذه الفكرة على نظرية أو «نبوءة» القس توماماس روبرت مالتوس Malthus، البريطانى، الذى أعلن فكرته هذه فى القرن الثامن عشر، فأصبحت أحد معالم النظرية الاقتصادية الرأسمالية: والمنطق الذى يستند إليه مالتوس هو أن الزيادة العددية للسكان، دون قيود، يؤدى إلى انطباق قانون تناقص الغلّة low of diminish-ing returns ، وإلى التخلف، الذى يقاس بمقدار معدل نصيب الفرد من الدخل القومى، والناتج من حاصل قسمه الدخل القومى الإجمالى على عدد السكان.. ومن ثم فإن تقليل المقام، فى هذه العملية الحسابية، يجعل حاصل القسمة يزيد، ومن ثم تعد الدولة – حسب منطق مالتس – أكثر تقدما. وتقليل المقام يعنى تقليل معدل الزيادة السكانية. ويعتبر ضبط المواليد، من خلال تحديد النسل، أو ما يسمى خداعا (تنظيم الأسرة) طريقا فعالا فى هذا المجال، حسب منطق هذه النظرية. بيد أنه قد تم ابتكار طرق أخرى أكثر إغراقا فى محاولات تقليل الزيادة السكانية مثل الإجهاض، و«تقليل الخصوبة» ، والتعقيم، فضلا عن استخدام وسائل منع الحمل، ووسائل العزل، التى كانت معروفة من قبل، واستخدمت لإغراض أخرى، كمنع الحمل فى الاتصال الجنسى غير المشروع، فى غير نطاق الأسرة.

ولما كانت الموارد محدودة – حسب منطق هذه النظرية – فإن كل زيادة سكانية سوف تُبدد الزيادة فى إنتاج الغذاء والسلع الأخرى(1)، ومن ثم – والحديث موجه إلى «الدول النامية» – يزداد تخلف هذه الدول ولا يمكنها إحراز تقدم اقتصادى. وبتقدم علوم الطب، فإن مقاومة الأمراض بمعدل أكبر من معدل إنتاج الغذاء سوف يؤدى بالناس إلى أن تموت جوعا بعد أن كانت تموت بسبب الجراثيم، وهذه ظاهرة لا يمكن التغلب عليها فى البلدان الفقيرة إلا باستخدام وسائل منع الحمل، كالحبوب، واللولب، والتعقيم، ووسائل ضبط المواليد الأخرى، التى تمكن من الحصول على أسر صغيرة الحجم، تؤدى إلى عدم الزيادة السكانية، من خلال الاكتفاء بطفلين، أو إلى تراجع معدلات هذه الزيادة، من خلال الاكتفاء بطفل واحد (كما يحدث فى الصين).

(1) William Samuelson, Economics, McGraw - Hill, 11 th ed., 1981, P. 722.

ومن وجهة نظر العلاقات الدولية فإن «الزيادة السكانية» فى بلدان «الجنوب» «النامية» سوف يحدث خللا «ديموغرافيا» (سكانيا) ، ويزيد من عوامل عدم الاستقرار فى العالم؛ إذ سيزيد من انتهاكات «حقوق الإنسان»، ويعرض المجتمعات للانهيار ... ولن يستطيع «مجتمع العالم» أن يعزل نفسه عن هذه الآثار (1).

وفى طريق إقامة «النظام العالمى الجديد» ، الذى يتخذ من مركزية السيطرة على الاقتصاد العالمى آلية هامة من آلياته، تزعمت الولايات المتحدة الأمريكية العالم «الصهيونى / الصليبى» فى الدعوة إلى مؤتمر قمة عالمى، تحت علم الأمم المتحدة تحت عنوان «السكان والتنمية»وقد تم عقده فى القاهرة - باعتبار أن مصر، وبلدان الأمة الإسلامية هى المستهدفة من الرسالة التى يوجهها هذا المؤتمر، والتى تم وضعها موضع التنفيذ فى بلدان الأمة الإسلامية، واعتبارها هدفا استراتيجيا - عقد المؤتمر فى القاهرة، فى المدة من 5 : 13 سبتمبر 1994م، وسبقه منح رئيس جمهورية مصر العربية جائزة السكان العالمية، لاهتمام مصر بهذا الموضوع ولإنشائها وزارة خاصة له سميت «وزارة السكان وشئون الأسرة»، لأول مرة فى أكتوبر عام 1993م.

وقد خصصت الولايات المتحدة الأمريكية بندا ثابتا فى ميزانياتها ، منذ عام 1993م، لتحقيق ما يسمونه «تحقيق الاستقرار فى النمو السكانى فى العالم» ، وخصصوا له بندا رئيسيا فى برامج المساعدات الاقتصادية الأمريكية.

وقد تمت صياغة الفلسفة الأمريكية فى هذا المجال بواسطة ما يسمى «بمدرسة قارب النجاة» "lifeboat School" ، والتى تقول : إنه طالما لا يوجد أماكن كافية للجميع فى قارب النجاة ، فإنه يجب ترك البعض يغرقون، ومن ثم فإنه يجب التخلص من ثلث العالم، الفقير، اليائس، ومن ثم فإنه يجب الاتفاق، على نطاق واسع، بين الدول المانحة للمعونات ومن يتلقونها، للتأكد من استخدام برامج المعونات ، حقيقة، لسدّ حاجة الشعب، بما فى ذلك تكنولوجيا ضبط المواليد.

" ... Since There is not Sufficient room in The lifeboat For every one, The hopelessly impoverished Third of The World Will just have To be Written

(1) William C. Olson & Others, The Theory and Practice of International Relations, 6 th ed., 1983, P. 287.

off .... on an approach That involves a very brood agreement on objectives and moral values as between or amongst The donor and recipient nations to assure That assistance Programs Will realy deal Withe neads of people, including The need for birth - Control Techniques.(1)

محتوى وثيقة السكان

ولقد احتوت وثيقة «السكان» ، أو «وثيقة القاهرة» هذه الفكرة إذ جاء بها:

– «التخفيف من أعباء الدين» مقابل الاستثمار الحكومى فى برامج السكان والتنمية».

– «تشجيع المؤسسات المالية الدولية على زيادة ما تقدمه من مساعدات مالية، وبخاصة فى مجال السكان والصحة الجنسية والتناسلية وتنظيم الأسرة».

– «حث جميع الزعماء السياسيين وقادة المجتمعات على القيام بدور قوى ومتواصل وشديد الوضوح فى تشجيع توفير واستخدام خدمات تنظيم الأسرة و«الخدمات الصحية

(1) William C. Olson & Others, PP. 269 - 270.

على الرغم من غرابة الفكرة وعدم قبولها من الناحية الإنسانية أو الأخلاقية فإن المذابح التي جرت في رواندا خلال عام 1994م ، والمذابح التي جرت أيضا في ليبيريا وسيراليون وبوروندي ما هي إلا تطبيق غير إنساني لهذه الفكرة الشيطانية، التي غذاها التنافس بين أمريكا وفرنسا للهيمنة على أفريقيا بثرواتها الهائلة.. ففي رواندا ساندت الولايات المتحدة قبيلة توتسي التي تشكل الأقلية على ارتكاب جرائم ذبح جماعي ضد قبيلة «هوتو» ، واستولت الأولى على الحكم ، فكان من نتيجة ذلك ذبح أكثر من نصف مليون شخص خلال أقل من شهرين (يونيو ويوليو 1994م)، وتم تشريد أكثر من مليوني شخص إلى البلدان المجاورة، حيث مات منهم عشرات الآلاف جوعا، وبسبب الأوبئة التي تفشت فيهم، من الكوليرا وحتى الإيدز. حدث هذا كله تحت سمع وبصر مراقبي وقوات الأمم المتحدة.

وفي ليبيريا وسيراليون قتل مئات الآلاف، وتم تشريد قرابة نصف سكان البلدين خلال خمسة أعوام، وقد أدت هذه الأحداث إلى هجر الأراضي الزراعية فازدادت هذه الشعوب فقرا، كما تفشت في معسكرات اللاجئين أعمال السلب والنهب، وسرقة الأطفال لبيعهم في أوروبا للأسر الشاذة «وحيدة الجنس»، واستخدامهم كقطع غيار آدمية، وبيعهم كرقيق في الولايات المتحدة وأوروبا.

وعلى الرغم من الثروات الهائلة والمتنوعة الموجودة في البلدان الأفريقية فإن الغرب يعمل على إفقار القارة، وإبقاء أهلها في حالة تخلف ليكونوا مجرد حراس على الثروات إلى حين استيلائهم عليها وتوظيفها بمطلع القرن الحادي والعشرين، فضلا عن تحويل القارة إلى مدفن للنفايات الصناعية والنووية الغربية تحت مسمى «إدارة النفايات»! وإلى أرض للصراع الذي لا يهدأ:

Philippe Leymarie, L'AFrique appauvrie dans La Spirale des Conflits, Le Monde Diplomatique, September 1994, PP. 10 - 11.

إن ما يحدث في أفريقيا ليس إلا إهلاكا للحرث والنسل وإفسادا في الأرض، ﴿ والله لا يحب الفساد﴾.

التناسلية» (هذه إشارة إلى عمليات الإجهاض والعزل فى الاتصال الجنسى خارج نطاق الأسرة) وإضفاء الشرعية عليها ... وعليهم أن يترجموا تأييدهم العام للصحة التناسلية، بما فى ذلك تنظيم الأسرة، إلى مخصصات كافية فى موارد الميزانية والموارد البشرية والإدارية للمساعدة على تلبية احتياجات جميع من لا يستطيعون دفع التكلفة الكاملة للخدمات!

وقد أوضحنا فى أكثر من موضع من هذه الرسالة رفض الإسلام، وتناقض قيمه، مع أفكار «تحديد النسل»، وما تعنيه اصطلاحات «الصحة الجنسية والصحة التناسلية»، وغيرها من الاصطلاحات[1] مثل «التمكين للمرأة»، و«المساواة التامة بين الرجل والمرأة»، ومحاولة الاعتراف بوجود صور أخرى للأسرة غير التى عرفتها الشرائع السماوية من «رجل وامرأة»... وشن حرب حقيقية ضد «الزاج الشرعى» كنظام اجتماعى.

وقد جرت محاولة أخرى لإقرار هذه الثقافة الفاسدة، التى لا تتفق والفطرة الإنسانية السليمة، التى فطر الله الناس عليها، وذلك فى «مؤتمر المرأة العالمى الرابع»، الذى عقد فى بكين فى سبتمبر 1995م، وصدر عنه «وثيقة بكين» ، وحضره سبعة عشر ألف مشارك (أكبر تجمع دولى فى تاريخ البشرية).

ضبط المواليد

ومن الأمور التى تجدر ملاحظتها فى الاستراتيجية العالمية لضبط المواليد التأكيد على أفكار «ضبط المواليد» من خلال «طرق غير تقليدية»، والعبث «بالخصوبة» لدى الرجال والنساء، باستخدام «**الهندسة الوراثية**».. وتوجيه «نفقات التسليح» إلى إنتاج «وسائل منع الحمل».

كما أن من الأمور الجديرة بالملاحظة أن أعلى نسبة خصوبة فى العالم هى فى وسط أفريقيا، وتمتد شرقا إلى المحيط الهندى، وغربا حتى المحيط الأطلنطى، وأن أكبر تعداد لسكان دولة فى العالم هو فى كل من الصين والهند. وقد شهد عام 1994م مذابح فى رواندا شملت أكثر من نصف المليون، وتم تشريد أكثر من مليونين، مات منهم عشرات الآلاف جوعا، وبسبب تفشى الأمراض. وهذه ظاهرة لا يمكن استيعاب أسبابها أو نتائجها. فهل كانت هناك أصابع خفية حركت هذه الأحداث؟ وإذا سرنا وراء هذه الشكوك فقد يمكن تصور إشعال حرب مدمرة بين الصين والهند لإحداث تفريغ سكانى، واستهلاك السلاح والذخيرة!

---

(1) أصدر الأزهر كتيبا في شهر يوليو 1995م يستنكر فيه القضايا التي احتوتها «وثيقة بكين» ، قبل صدورها. كما أصدرت هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية بيانا في الأول من سبتمبر 1995م أعلنت فيه أن «مؤتمر بكين ينطوى على مصادمة صريحة مع الشريعة الإسلامية»، وأنه يعمل على «تحطيم نظام الأسرة».

الفصل الرابع

الترويج لثقافة السلام

تقوم فكرة «ثقافة السلام» على نزع طاقة التدافع الفطرية الموجودة لدى البشر، وإعادة توجيه هذه الطاقة إلى أمور أخرى غير القتال، ونزع كل ما من شأنه أن يستثير الميل نحو التدافع، وذلك من خلال بث أفكار بعينها تشكل ثقافة عالمية تتوافق عليها البشرية فى إطار فكرة مجتمع العالم World - Society ، أو «المجتمع الكوكبى» global Community .

ولبلوغ هذا الهدف فإنه يستلزم أن تمر البشرية – حسب تقدير أصحاب فكرة ثقافة السلام – بمرحلة صراع انتقالية ، هى مرحلة الصراعات منخفضة المستوى .L.L.C ، و«**الصراعات منخفضة الكثافة**» .L.I.C . والأولى تكون بين الجماعات العرقية، والجماعات الطائفية بداخل الدول. أما الثانية فتكون من خلال «حرب عالمية» ضد كيانات أقل من الدولة، تم وصفها الآن بأوصاف غامضة مثل: «الإرهاب الدولى»، «الجريمة»، و«المخدرات»، و«تلوث البيئة» .. فهى صراعات محكومة، داخل الدول، غالبا، وحدودية أحيانا...

السيطرة على التسليح في العالم

ومن خلال هذه الصراعات تجرى **محاولة السيطرة على التسلح فى العالم**، بهدف نزعة كلية، والتخلى عن فكرة الدولة ذات السيادة، وإزالة الخصومات الثقافية والعقدية، ذات الطبيعة الدينية، والتخلى التدريجى عن نظام الأسرة، والسيطرة على العقل البشرى وتوجيهه مركزيا إلى الاستمتاع بكل صنوف الملذات الحسية.. وتحويل الإنسان إلى كائن جدد غير ذلك الذى قال الله تعالى فيه:

– **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾**

[البقرة / 30]

– **﴿ ... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾** [البقرة / 251]

السيطرة على التسلح كمقدمة لنزع السلاح :

لا تعدد فكرة «السيطرة على التسلح كونها خدعة تعتمد على ضعف ذاكرة الشعوب،

فالحديث عن «السيطرة على التسلح» ، وعن «نزع السلاح» لم يتوقف منذ نهاية القرن التاسع عشر: في مؤتمرى لاهاى 1899م، و1907م، ومؤتمر واشنطن عام 1921م، ومعاهدة بريان كبلوغ 1928 "Briand - Kellog" التى كانت أول اتفاق يدعو إلى نبذ الحروب كوسيلة لممارسة العلاقات الدولية، لكن أطراف الاتفاقية اجتمعوا ست مرات فى أبريل عام 1929م، ثم علّقوا الاتفاق فى شهر مايو من نفس العام. وأعيد منح مؤتمر نزع السلاح، فى ظل عصبة الأمم، فى الثانى من فبراير عام 1932م، ثم عقد مؤتمر لندن البحرى (1935 - 1936 م).

وبقيام الأمم المتحدة أنشئت «لجنة نزع السلاح» كأحد اللجان الرئيسية «لمجلس الأمن»، وظلت فكرة نزع السلاح مجرد حلم؛ فعندما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية وضع قيود على امتلاك أية دولة أخرى للسلاح النووى من خلال الخطة التى قدمها «برنارد باروخ» عام 1946م، وسميت باسمه، لإنشاء هيئة دولية للتفتيش على المنشآت النووية، رفض الاتحاد السوفيتى الخطة، واعتبرها بمثابة خطة للتجسس.

وبامتلاك الاتحاد السوفيتى للسلاح النووى حدث توازن حال دون تحول «الحرب الباردة» إلى حرب ساخنة. وبامتلاك بريطانيا وفرنسا و«الصين الشعبية» للسلاح النووى بدأ الحديث عن ضرورة إنشاء معاهدة تحول دون انتشار الأسلحة النووية، فتمت صياغة «معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية» (NPT) عام 1968م، ووقعت فى الأول من يوليو فى لندن، وموسكو، وواشنطن، ودخلت حيز التنفيذ من الخامس من مارس عام 1970م، ووقعت عليها، حتى الآن، 147 دولة[1].

ولا تؤدى هذه الاتفاقية، ولا تدعو إلى نزع السلاح، وإنما تكرس احتكار السلاح النووى بواسطة الدول الخمس الكبرى، دائمة العضوية بمجلس الأمن. ولم تحل هذه الاتفاقية دون امتلاك كل من إسرائيل والهند، وجنوب أفريقيا، وباكستان السلاح النووى. وكادت العراق أن تمتلك هذا السلاح، لولا حماقة غزو الكويت، التى تلاها استباحة الأراضى،

---

(1) لم توقع على الاتفاقية كل من الهند - باكستان - أندونيسيا - إسرائيل.

وقد نصت الاتفاقية على أن تراجع كل خمس سنوات، وأن يتم تمديدها بعرض خمس وعشرين سنة (عام 1995م). وقد تم تمديدها بالفعل إلى أجل غير نهائى، بأغلبية الأصوات، وذلك في شهر أبريل 1995م.

والمنشآت العسكرية والمدنية العراقية بواسطة لجان التفتيش الدولية، وتم تفكيك إمكانات العراق النووية والصاروخية، والكيمائية، والبيولوجية.

وهناك دول تستطيع امتلاك السلاح النووى خلال مدة وجيزة مثل الأرجنتين، والبرازيل، وألمانيا، واليابان، وإيطاليا، فضلا عن دول كانت نووية إلى عهد قريب مثل روسيا البيضاء، وأوكرانيا، وقازاكستان، لكنها تخلت عن أسلحتها بعد سقوط الاتحاد السوفيتى. كما أن هناك أكثر من خمسة وعشرين دولة أخرى لديها من العلماء والفنيين ما يمكنها من تبنى برنامج نووى لإنتاج الأسلحة الذرية، خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وإمكان شراء المواد النووية المخصبة جاهزة.

ذلك، ولم تفلح – حتى الآن – محاولات منع التجارب النووية، إذْ قامت فرنسا بإجراء ثلاث تجارب نووية فى المحيط الهادى خلال شهرى سبتمبر / أكتوبر 1995م، وأعلنت عن عزمها إجراء تجارب أخرى للتأكد من فعالية ترسانتها النووية، وأيدتها بريطانيا رغم الانتقادات الدولية المكثفة.

من جهة أخرى نجد أن إسرائيل والهند ترفضان التنازل عن ترسانتيهما النوويتين، والخضوع للتفتيش الدولى، ونجد إيران تسعى نحو تنفيذ «برنامج نووى للأغراض السلمية»(1) ، الأمر الذى أصبح يعرضها لخطر تلقى ضربة عسكرية، كتلك التى تلقاها العراق عام 1991م، من جانب تحالف تقوده الولايات المتحدة الأمريكية أيضا... وقد تشارك فيه إسرائيل هذه المرة.

وعلى الرغم من أن كل الدول تتبنى شعارا واحدا وهو أن «تصبح منطقتى الشرق

---

(1) لدى إيران قاعدة مناسبة من العلماء والفنيين في هذا المجال. وقد بدأت إيران برنامجها النووي عام 1974م بالتعاون مع ألمانيا بهدف بناء مفاعلين نوويين في «بوشهر» ، بيد أن العمل توقف عام 1978م بقيام الثورة. بدأت مفاوضات إيرانية / فرنسية عام 1991م لتسوية ديون إيران لدى فرنسا مقابل قيام الأخيرة بتزويد إيران باليورانيوم المخصب. حاولت إسرائيل في يناير 1995م السعي لعرقلة هذه الصفقة (زيارة شمعون بيريز، وزير خارجية إسرائيل وصديق الرئيس الفرنسي السابق ميتران، لباريس لبضع ساعات). وتقوم إيران بالتعاون مع كل من باكستان، والصين، وروسيا في المجال النووي (تعاونا ثنائيا). وقد يكون لديها تعاون أيضا مع قازاكستان في هذا المجال. تقوم روسيا باستكمال بناء المفاعلين النوويين الذين بدأت ألمانيا بناءهما وتوقفا . وتخطط إيران لبناء المزيد من المفاعلات مستقبلا.

الأوسط وأفريقيا خاليتين من الأسلحة النووية» فإن اتخاذ خطوات جدية فى هذا الاتجاه لا يبدو أمرا ميسورا لانعدام الثقة بين الأطراف، ولتشعب الارتباطات، والتهديدات المتبادلة. ومع ذلك فقد نجد بعض الدول قد تخلت طواعية عن السير فى برنامج لإنتاج السلاح النووى كجنوب أفريقيا، التى كانت قد تعاونت مع إسرائيل فى المجال النووى، وأنتجت بالفعل ست قنابل، ولديها من اليورانيوم المخصب ما يمكنها من صنع عشر آخريات، كما أنها تعاونت مع إسرائيل فى مجال إنتاج الصواريخ القادرة على حمل هذه القنابل لمسافة تزيد عن ألف كيلو متر... وربما جاء هذا المسلك لأنه لا يوجد أى تهديد نووى موجه لجنوب أفريقيا، فهى، بالتالى ليست بحاجة لهذا السلاح، الذى أمكنها بالتنازل عن امتلاكه أن تكسب فى المجالين الاقتصادى والسياسى، دوليا وأفريقيا، بل وتم التغاضى عن استمرار مصانعها فى إنتاج الأسلحة التقليدية وبيعها.

والدولة الأخرى (أو بالأحرى ، الأولى) التى تخلت عن البرنامج النووى هى مصر[1]، التى كانت قد سبقت معظم دول المنطقة فى دخول هذا المجال، لكن قاعدتها العلمية لم تتلاق مع الإرادة السياسية.

---

(1) كانت مصر من أوائل الدول في «منطقة الشرق الأوسط» دخولا إلى مجال البحث العلمي النووي، فقد أنشأت هيئة الطاقة الذرية عام 1955م، وكان لدى مصر قرابة 1400 من العلماء والفنيين في مجال الطاقة النووية (وهو عدد يزيد قليلا عما كان لدى الصين الشعبية آنذاك). أنشأت مصر مفاعلا نوويا في انشاص، أمدها به الاتحاد السوفيتي لأغراض البحث العلمي، بطاقة 2.5 ميغاوات. حاولت مصر شراء مفاعل نووي من فرنسا لتوليد الكهرباء وتحليه مياه البحر ، في بداية الستينيات، لكن ذلك لم يتم لخلافات حول التمويل والتأمين.

تبنت مصر عام 1972م برنامجا نوويا لتوليد الطاقة النووية وتحليه مياه البحر من خلال إقامة ثماني محطات نووية على الساحل الشمالي، فأنشأت لذلك هيئة المحطات النووية لإقامة هذه المحطات خلال ربع القرن الباقي.

قدم «ريتشارد نيكسون» ، رئيس الولايات المتحدة عرضا بتزويد مصر بمفاعلين نوويين، ووقعت اتفاقية بين مصر وأمريكا بالأحرف الأولى لكن الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ.

أنشأت مصر «هيئة المواد النووية» عام 1977م. وبإعلان مصر قبولها تجديد التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وقع رئيسا مصر وفرنسا اتفاقية للتعاون النووي في فبراير 1981، تمد فرنسا بموجبها مصر بمفاعلين نوويين، وتقدمت شركات ألمانية وبريطانية بعروض لبناء أربع مفاعلات أخرى على الساحل الشمالي.. لكن كل هذه المشروعات والاتفاقيات ذهبت أدراج الرياح تحت الضغوط السياسية والتدخلات الصهيونية، فأعلن وزير الكهرباء والطاقة في مصر في أغسطس 1984م أن فكرة بناء ثماني محطات نووية لتوليد الطاقة بنهاية القرن قد تم تأجيلها إلى أجل غير مسمى لأسباب مالية، وأن مصر ستعتمد على المحطات الحرارية، والكهرباء والمستخرجة من السد العالي: =

ومع ذلك فيمكن القول بأن محاولة خفض السلاح النووى فى المسرح الأوروبى قد نجحت فى أعقاب اتفاقية واشنطن فى ديسمبر 1987م، ويرجع ذلك إلى الاستجابة الكاملة من جانب الاتحاد السوفيتى، ثم روسيا، ثم إلى زوال حلف وارسو، وتقدم حلف شمال الأطلنطى شرقا بدون قتال، وتحويل روسيا صواريخها التى كانت موجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وجمعها للأسلحة النووية التى كانت موجودة فى أوكرانيا، وروسيا البيضاء وقازاكستان، وبدء تفكيكها، فضلا عن تحويل مصانعها الحربية إلى الإنتاج المدنى، بل وتحويل بعض دباباتها إلى جرارات، وتحويل بعض الصناعات الثقيلة إلى صناعات استهلاكية. باختصار، لقد نجحت فكرة السيطرة على التسلح إلى حد كبير على المسرح الأوروبى.

بيد أن ما صلح فى ذلك المسرح قد لا يصلح بالضرورة عند محاولة تطبيقه فى منطقة «الشرق الأوسط» ، لأن أمريكا وإسرائيل متفقتان على الحفاظ على التفوق النوعى والكمى الإسرائيلى على كل الدول فى المنطقة، ولأنه لا يوجد لدى الدول الإسلامية إمكانات مراقبة أى اتفاق قد يتم التوصل إليه ، فى حين لدى أمريكا وإسرائيل هذه الإمكانات.

. ولئن كانت الدول الصناعية الكبرى وروسيا قد اتفقت فى شهر سبتمبر عام 1995م على العمل على إنشاء نظام للرقابة على تصدير الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدمة إلى بلدان المنطقة، فإن إسرائيل سوف تظل قادرة على تحقيق تفوقها النوعى والكمى بسبب قدرتها على إنتاج احتياجاتها من السلاح النووى والتقليدى المتطور والصاروخى، منفردة، أو بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، مثل ألمانيا، والصين، والهند، واليابان.. وتضر فكرة حجب التكنولوجيا عن دول المنطقة بلداننا ، سواء فى المجال العسكرى أو المجال المدنى، فى حين لن تحدث لإسرائيل ضررا يذكر.

- Shyam Bhatia, Nuclear Rivals in The Middle East, Routledge, London & New york, = 1989,. PP. 48 - 62.
- Frank Barnaby, The Invisible Bomb (The Nucleararms Raa in The Middle East), I.B Tauris & Co LTD Publishers, London 1989, PP. 77 - 126.

ولا تزال مفاوضات الحد من التسلح بين الجانب الإسرائيلى والجانب العربى قائمة على محاولة إقناع إسرائيل بالتخلى عن تفوقها، وإقامة نظام مشترك للأمن على المدى الطويل يقوم على تطوير العلاقات الاقتصادية، والتسامح، والديموقراطية، وحقوق الإنسان... «وتغيير النوايا العسكرية والعقائد العسكرية والسياسات العسكرية، مرورا بشكل وحجم القوة العسكرية التى تتمشى مع مفاهيم الدفاع غير الهجومى ... (شريطة) تحييد القوة النووية لأية دولة محتكرة للسلاح النووى»[1].

وتعد فكرة السيطرة على التسلح فكرة متناقضة فى ذاتها بحيث تكاد تكون مستحيلة، خاصة فى مجال السلاح التقليدى، فصناعة السلاح، فى الدول الصناعية الكبرى ، تشكل نسبة كبيرة من الصادرات، وتستوعب نسبة كبيرة أيضا من الوظائف والعمالة، بل وتعد مجالا هاما للبحث والتطوير اللازمان للحفاظ على التقدم التكنولوجى.

لقد كان من المحتم على روسيا – التى لا تزال الحكومة هى المسيطرة على الصناعات الحربية فيها – أن تحول مصانعها إلى الإنتاج المدنى[2] – كعلاقة على انتهاء الحرب الباردة .. وهذا ما قامت به روسيا منذ عام 1991م. وهذا هو ما أعلنت عنه الصين أيضا فى شهر سبتمبر 1994م. بيد أن مثل هذا التحويل أحدث مشكلة حقيقية فى الدول الصناعية الكبرى[3] (الرأسمالية) ، وكانت له آثاره الاقتصادية والاجتماعية، التى تمثلت فى تفاقم مشكلة البطالة، وإيجاد نوع من عدم التناسق فى المنظومة الصناعية القائمة، ونقص فى الصادرات، وخلل فى التسويق، فأدى ذلك إلى ظاهرة الركود التضخمى Stagflation، التى

---

(1) لواء أح أحمد فخر (رئيس المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط ـ عضو وفد مصر في مؤتمر مدريد للسلام) ، رؤية أمنية جديدة أوراق الشرق الأوسط، ربع سنوية تصدر عن المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط، أغسطس – نوفمبر 1995م، صـ 5 : 17 .

(2) أدى سقوط الماركسية، ثم تفكك الاتحاد السوفيتي، وبسحب القوات الروسية من أوروبا الشرقية، والانسحاب الأيديولوجي الروسي بين معظم بلدان العالم ، والضغوط السياسية الغربية إلى اتخاذ هذه القرارات التي أدت إلى آثار اقتصادية مدمرة.

(3) Laurent Carraue (auteur des industries d'armement, Masson, Paris, 1993), Difficile Reconversion des industries d'armement, Le Monde Diplomatique, September 1994, P. 12 - Inte'gration Croissante des industries d'armement, Mai 1994, P.11.

انعكست بدورها على العالم فى ظل التحرير النسبى الكبير الذى تشهده التجارة العالمية.

وحتى يتخلص الغرب من بعض هذه الآثار الضارة فقد حافظ على معدل عال من مبيعات السلاح التقليدى المتطور إلى البلدان المنتجة للبترول. وقد عقدت صفقات بيع سلاح إلى دول مجلس التعاون الخليجى فى إطار تعاون تنافسى بين أمريكا وحلفائها الغربيين. وكانت - ولا تزال - وراء هذه الصفقات أهداف أخرى بخلاف التخلص من الآثار الضارة لتحول الصناعات الحربية إلى مدنية فى الغرب. هذه الأهداف تتمثل فى : استهلاك أكبر قدر ممكن من الأرصدة «البترو دولارية» (الناتجة عن بيع البترول)، والمودعة فى البنوك الأمريكية والأوروبية، وتحويل هذه البلدان إلى بلدان مدينة للغرب، بضمان بترولها! ومن هذه الأهداف أيضا الحفاظ على الرابطة العسكرية / السياسية الأمريكية والغربية مع هذه البلدان[1] ، بما يمكن الولايات المتحدة من تحقيق استراتيجيتها الكوكبية من خلال الهيمنة على شمال غرب المحيط الهندى، تطبيقا لنظرية «القوة البحرية» التى تتبعها .. والتى أوضحناها من قبل. وهناك هدف أخير يتمثل فى طمأنة هذه البلدان، وإقناعها بإمكان الاعتماد على الولايات المتحدة فى ضمان أمنهم، ومن ثم يقبلون على التعامل مع إسرائيل فى إطار «الشرق الأوسطية» دون تحفظ، وهذا ما يتم الآن بالفعل، وهو أيضا ما يتيح للقوات البحرية والجوية الإسرائيلية التفرغ كى تلعب دورا رئيسيا، فى منطقة شرق البحر المتوسط، وذلك فى إطار تحالفها مع الولايات المتحدة.

من جهة أخرى فإن عمليات السيطرة على التسلح مع عدم الإضرار باقتصاديات الغرب تتم على طريقين آخرين هما: التوسع فى إنشاء المناطق منزوعة السلاح فى التسويات الحدودية بين الدول، واستهلاك موجودات الأسلحة فى الحروب الأهلية والعرقية والطائفية، وفى البلدان الإسلامية بصفة خاصة، مثل ما يحدث فى الجزائر، وأفغانستان، وطاجيكستان، وأذربيجان ، وكشمير، والسودان، والبوسنة والهرسك، وشيشان، وأبخازيا، والصومال، وليبيريا ، ورواندا، واليمن، وسيراليون... وغيرها. كذا التوسع فى إقامة التدريبات المشتركة مع بعض البلدان الإسلامية الأخرى، بغرض جذب إنفاقها على التسليح تجاه شراء قطع غيار

(1) Anthony H. Cordesman, The Gulf and The West, Westview Press, Boulder - Mansell Publishing Limited, London, 1988, P. 14.

وذخيرة، وإجراء الصيانة وأعمال الإصلاح الرئيسية فى البلدان الغربية المنتجة لهذه الأسلحة، وبصفة خاصة، الولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك خصوصية فى تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع باكستان، فعلى الرغم من مقتل اثنين من رؤسائها (ذو الفقار على بوتو – ومحمد ضياء الحق)[1] بسبب البرنامج الذى يسميه الغرب« القنبلة النووية الإسلامية، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية تقبل، على مضض ، استمرار هذا البرنامج حتى تحدث توازنا فى شمال المحيط الهندى بين باكستان والهند من ناحية، والهند والصين من ناحية أخرى، وكى تحد من أطماع الهند فى المنطقة، بعد أن أصبحت «قوة كبرى إقليمية».

وبسبب رفض باكستان الإسهام بقواتها فى التحالف الذى نفذ «عملية عاصفة الصحراء» عام 90 /1991م فقد أوقفت أمريكا إمدادات السلاح التقليدى لباكستان، رغم دفع ثمنه مقدما، ورغم أن باكستان كانت حليفا رئيسيا للولايات المتحدة الأمريكية طوال عقد الثمانينيات، إذْ كانت تعتمد عليها بصفة رئيسية فى تدخلها فى أفغانستان.

وبتفاقم المشكلة الأفغانية من جديد منذ عام 1993م ، عادت أمريكا تتطلع إلى باكستان كى تساعدها فى حسم هذه المشكلة[2]، من خلال مساعدة «منظمة طالبان» فى الاستيلاء على الحكم فى أفغانستان ووقف الحرب الأهلية هناك، بما يتيح للولايات المتحدة الأمريكية كسب أرض جديدة وهى تحكم الحصار على روسيا كى يتم تفكيكها سلميا، كما حدث مع الاتحاد السوفيتى من قبل. من أجل ذلك أعادت الولايات المتحدة الأمريكية فتح باب مبيعات السلاح إلى أفغانستان، بعد أن حققت «منظمة طالبان» نجاحا عسكريا ملموسا فى

---

(1) رغم محاولات الوساطة التي قامت بها العديد من الدول الإسلامية لدى الجنرال ضياء الحق حتى لا ينفذ حكم الإعدام على «ذي الفقار على بوتو» إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تحبذ تنفيذه، ومارست ضغوطا على القيادة الباكستانية للسير فيه قدما... وبعد بضع سنوات أسقطت طائرة الرئيس محمد ضياء الحق. ورغم أن السفير الأمريكي (وكان يهوديا) كان معه على متنها إلا أن أصابع الاتهام تشير إلى تدبير الولايات المتحدة لحادث إسقاط (أو نسف) الطائرة في يوليو 1988، بعد أقل من شهر من إصداره مرسوم تطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان (15 يونيو).

(2) Natan Glazer , Why Send Arms Aid To Pakistan?, International Herald Tribune, Friday April 15, 1994.

مارس/ أبريل 1995م.

- والحقيقة أن هناك تناقض بين مصالح الغرب فى بيع السلاح لأهداف اقتصادية وسياسية واستراتيجية، وبين مصالحه فى العمل على التحكم فى توريد السلاح حجبا للتكنولوجيا عن بلداننا، ودفعا لحكومات «الدول النامية» كى توجه القروض التى تحصل عليها لشراء السلع الاستهلاكية، ووسائل منع الحمل، ومشروعات البنية الأساسية والبيئة. وبجانب الدعوة إلى تسجيل مبيعات السلاح على مستوى الأمم المتحدة ضبطا لها، فهناك دعوة لمراقبة إنفاق القروض بشكل يمنع استخدامها فى شراء السلاح[1] ومع ذلك؛ فيمكن رصد ظاهرة تقلص أحجام القوات المسلحة فى معظم بلدان العالم، كذا تلقص ميزانيات الدفاع فى دول كثيرة، ومبيعات الأسلحة فى العالم تقلصت إلى أدنى حد لها خلال النصف الأول من عقد التسعينيات[2] ولا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تقود دول العالم، حتى فى هذا الاتجاه ، سواء بالضغط السياسى أو الاقتصادى، أو بضرب المثل. فقد أعلنت الولايات المتحدة عام 1994م عن خطة أعدت فى صيف عام 1993م تتناول «مراجعة شاملة» Bottom-up Re-vie'w لقواتها المسلحة، تستمر حتى عام 1999،[3] وتتناول استراتيجيتها العسكرية ، وتشكيل القوات، وتحديثها، وتغيير أهدافها من مواجهة الاتحاد السوفيتى إلى ما يسمونه: «الأخطار الجديدة»، وأهمها انتشار أسلحة التدمير الشامل،«النكوص عن الإصلاحات الديموقراطية» فى الاتحاد السوفيتى السابق، والتهديدات الموجهة «للأمن الاقتصادى» الأمريكى. وتعتمد هذه الاستراتيجية الجديدة على التواجد الأمريكى العسكرى ذى المصداقية فى ما وراء البحار، ومع بقاء فكرة الردع النووى فإن فكرة الحرب النووية قد بدأت تتوارى، وأصبح الاعتماد الأكبر على قوات أقل حجما، ذات فاعلية أكبر، وتكلفة أقل، وذكاء أكبر فى استخدامها ، مع تكثيف الاعتماد على التكنولوجيا المزدوجة (مدنى /

(1) Hobart Bown, Cut International Financing of Third World Arms, International Herald Tribune, Friday Avril 15, 1994.

(2) Intevational Herald Tribune, Armies are Slimming Down, May 31, 1994, P.6.

(3) Clinton Administration 1995 Budget Proposal in Review, February 1994, PP. 36 - 41.

عسكرى) dual-use technologies [1].

ومع الاتجاه نحو زيادة جاهزية القوات ورفع كفاءتها القتالية فقد أصبحت القوات المسلحة فى العالم رهن استدعاء بعضها للمشاركة فى ما أصبح يسمى بعمليات «فرض السلام» طبقا للفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، أو لعمليات «حفظ السلام» طبقا للفصل السادس من الميثاق.. كذا لما عرف حديثا. «بتقديم المعونات الإنسانية» ، تحت علم الأمم المتحدة، وبقيادة الولايات المتحدة... فى الوقت الذى يفترض فيه أن تمارس باقى القوات المسلحة ما أصبح يسمى «الدفاع غير الهجومى» و«الدفاع غير المستفز»، والذى يفترض وضع كل تحركات وأعمال تمركز وتدريبات القوات المسلحة تحت الرقابة، ومنع امتلاك الصواريخ الأبعد مدى من 300 كم.



---

(1) Michel Clarke (editor) New Perspectives On Security, The Center For Defence Studies, Brassey's (UK) , London & New York, 1993, P. 89.

لقد انعكست أفكار النظام العالمي الجديد، بكل أبعادها على المجتمعات المختلفة إلى درجة أن هناك من يتوقع، مثل تشارلز موسكوز Charles Moskos ، أننا بسبيل الانتقال إلى «مجتمع بلا حروب» "Warless Society" ، وأن الشكل العام للقوات المسلحة سيكون عبارة عن قوات عاملة صغيرة الحجم، والاعتماد الأكثر سيكون على قوات الاحتياط، وأن البلدان المختلفة سوف تشهد ظهور «الميليشيات المسلحة» بكثرة، وأن الاهتمام في التدريب سوف ينصب على النواحي الفنية أكثر من التدريب على القتال، وأن الجيوش سوف تكلف بمهام «بوليسية»، و«مدنية» بأكثر من تكليفها بمهام قتالية.

وبمراجعة الوثيقة الأمريكية سالفة الذكر (Linton Administration 1995 Budget Proposal) نجد أن هذه الأفكار قد صيغت لتصبح واقعا عمليا، فنجد الحديث عن الحرس الوطني National guard، والاعتماد على الاحتياط لتنفيذ خطط مدنية/ عسكرية في مجالات الصحة والتعليم والهندسة ، والاستخدام المزدوج للتكنولوجيا. ولا شك أن هذه الأفكار تنتقل إلى المفكرين الاستراتيجيين والقادة العسكريين في بلادنا الإسلامية، أثناء الدورات والدراسات، التي يحضرونها بالولايات المتحدة الأمريكية.

المحور الأول

هدم فكرة الدولة

ظهرت فكرة الدولة فى أوروبا عندما تناولها مفكرو وفلاسفة القرن السابع عشر، وتأكد مفهومها فى صلح وستفاليا Westphalia عام 1648م فى أعقاب «حرب الثلاثين السنة» التى سادت أوروبا. ومن ثم فقد رسخت فكرة «الدولة» بأركانها: شعب، ورقعة جغرافية، وسلطة حاكمة ذات سيادة ، تمارسها فى مقابل شعبها على الرقعة الجغرافية المذكورة، وفى مقابل الدول الأخرى من خلال حمايتها لحدودها البرية والبحرية. وقد صاحب فكرة الدولة ظهور الليبرالية بمفهومها السابق تفصيله، كما صاحبها فكرة «قدسية الحدود». وقد ارتبطت هذه الأمور ارتباطا لا يكاد يقبل التجزئة، وأصبحت من الموضوعات الرئيسية فى دراسة علم السياسة، والقانونين الدستورى والدولى.

ومن مجموع الدول النصرانية الأوروبية ذات السيادة تكونت «الأسرة الدولية»، أو المجتمع الدولى فى عصر ما قبل التنظيم الدولى (عصبة الأمم ثم منظمة الأمم المتحدة). وقد أدت المعاهدات ، والسوابق، والأعراف التى ظهرت خلال السنوات الثلثمائة والخمسين السابقة إلى صياغة قواعد القانون الدول المعروفة الآن.

ومع ذلك فإن «الدولة» فى الفكر «الديموقراطى الليبرالى الغربى» تعد شرا لابد منه، وهى بمثابة الجزاء الذى ضربه الله تعالى على البشرية بسبب خطيئة آدم الموروثة[1].

ويعتبر الفكر الصهيونى / الصليبى الحديث أن أحد أهم أسباب الصراع بين البشر وجود الدول ذات المصالح المتضاربة، التى لا يمكن التوفيق بينها. لذا فإن السلام الدائم لن يقوم إلا على أنقاض فكرة الدولة.

ومن الملاحظ أن يتفق أصحاب الفكر الليبرالى مع أصحاب الفكر الماركسى، الذين كانوا يرون فى جهاز الدولة أداة قهر «للبروليتاريا» ، وأنها حتما إلى زوال، ويزول معها القانون. وقد عدَّل فكر «النظام العالمى الجديد» النظرتين وقرب بينهما بقوله بضرورة هدم

---

(1) سبق تفنيد هذه الأفكار، وأنها لا توافق قيم الإسلام. فإقامة الدولة في الإسلام فريضة. فلا يُتصور تطبيق شرع الله، أو القيام بفريضة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله ما لم يتم إقامة الدولة، كما أن آدم عصى ربه ناسيا ثم اجتباه ربه وهداه، وهو لم يُورِّث بني آدم خطيئة . فهناك فرق بين عصيان آدم ثم تَلقيّه كلمات من ربه فتاب عليه، وبين إبليس الذي عصى ربه وأصر وجادل فلعنه الله.

فكرة الدولة ليقوم مقامها «مجتمع العالم»، ويرون أن تصورهم هذا قد بدأ يتحقق إذْ بدأت الدولة تتآكل من أعلى (بتقلص فكرة السيادة)، ومن أسفل (من خلال الصراعات العرقية والطائفية، وزوال قدسية الحدود)[1]. وقد ساعد على هذا الانحلال المتزايد «للدولة» نمو وسائل المواصلات، ووسائل الاتصال، والمنظمات غير الحكومية، والشركات متعددة الجنسيات، وانسحاب الدولة تدريجيا من المجال الاقتصادى وتركه للقطاع الخاص، وبالتالى انسحابها من التدخل فى المجال الاجتماعى لتناقص موارد الميزانيات العامة للدول هذا فضلا عن التوسع فى مفاهيم التحكم فى التسلح، وزيادة المناطق منزوعة السلاح، والمحميات الطبيعية، والمناطق الحرة، تبنى فكرة «الدبلوماسية الوقائية» [2].

وقد يحتاج هذا الموضوع الهام إلى قدر من الإيضاح والتفصيل:

فآلية «هدم فكرة الدولة» تعد من الآليات الهامة فى إقامة «النظام العالمى الجديد»، سواء فى المجال الفكرى أو فى التطبيق العملى، فقد رسخت الآن أفكار «الدبلوماسية الوقائية» و«التدخل لأغراض إنسانية»، كما أنها لاقت تطبيقا عمليا فى تفكك الاتحاد السوفيتى ، والاتحاد اليوغسلافى، وتشيكو سلوفاكيا، فضلا عن التقسيم الواقعى للعراق، وأذربيجان،

---

(1) Michael Clarke (ed.), New Perspectives On Security, PP. 45 - 69.

Ken Booth (ed.) , New Thinking about Strategg and International .. Security, PP . 56 - 71.

(2) تفترض هذه الفكرة أن تتدخل الأمم المتحدة (سياسيا أو عسكريا أو اقتصاديا) بهدف منع وقوع الأزمات. وهذا يعني اعتماد الأمم المتحدة عى شبكة معلومات واستخبارات ضخمة في كل أنحاء العالم، كذا قدرتها على تحريك قوات عسكرية أو شرطية لمنع وقوع الأزمات. وقد نصت المادة 34 من ميثاق الأمم المتحدة على هذه الفكرة، إذ تعطي مجلس الأمن سلطة التدخل مباشرة، حتى لو لم يطلب إليه أحد ذلك، في المواقف ، أو المنازعات، التي وإن كانت لا تهدد السلم فعلا إلا أنه من شأن استمرارها الإخلال به! فهذه الفكرة تهدم فكرتي السيادة والاختصاص الداخلي، وتكاد تُحل الأمم المتحدة محل سلطة الدولة. خاصة وأن المادة الثانية من الفصل السابع تنص صراحة على «عدم الخضوع الاختصاص الداخلي». ومن ثم يمكن تصور حدوث تدخل عسكري تحت علم الأمم المتحدة لمنع عمليات «تلوث البيئة» ، ولمحاربة «الجريمة» ، و«الإرهاب» ، و«تجارة المخدرات»، وللقضاء على «المجاعات»، ولمنع «الهجرات الجماعية» أو حماية «اللاجئين»، أو حماية «حقوق الإنسان» ... إلخ. . ولما كانت الأمم المتحدة لا تمتلك جهاز استخبارات، ولا قوة مسلحة أو شرطة خاصة بها فإنها ستعتمد على الإمكانات الصهيونية في الولايات المتحدة ، ومن ترى حتى أن تتحالف معه في هذا المجال .. لذا فليس غريبا أن يعبر زبيغنيو ريجنسكي عن الدبلوماسية الوقائية بأنها «الوجه الآخر للاعتماد المتبادل»!!

وجورجيا، والتقسيم الجارى للبوسنة والهرسك، وزوال مقومات الدولة عن الصومال، ووجود بلدان أخرى مهددة بمصير مشابه، كالسودان،وقازاكستان، وغيرها[1].

وبينما يؤكد الدكتور بطرس غالى [2]، سكرتير عام الأمم المتحدة أن «الدولة (لا تزال) هى الكيان الأساسى فى العلاقات الدولية، ووسيلة الشعوب لتحقيق وحدتها وإسماع صوتها فى المجتمع الدولى» نجده يسترسل قائلا: «... إن المبدأ السائد منذ قرون، مبدأ السيادة المطلقة والخاصة لم يعد قائما. والواقع أنه لم يكن أبدا مطلقا بالدرجة المتصورة له نظريا.

ولئن كان احترام السيادة الأساسية للدولة ووحدة أراضيها لا يزال محوريا، فمما لا مراء فيه أن المبدأ السائد منذ قرون، مبدأ السيادة المطلقة والخاصة، لم يعد قائما... ومن المقتضيات الفكرية الرئيسية لزماننا أن نعيد التفكير فى مسألة السيادة ... مثال ذلك أن الدول ألزمت نفسها فى مؤتمر الأمم المتحدة المعنى بالبيئة والتنمية، الذى انعقد فى ريودى جنيرو، فى حزيران / يونيو 1992م، بأن تراعى الاعتبارات الدولية فيما تتخذه من قرارات داخلية. وهذا تعهد أساسى حكيم من جانب أمم العالم» . ثم يضيف قائلا: «... فلم تعد الحدود السياسية ولا الجغرافية تشكل إلا عائقا هينا أمام هذه العملية... وقد تقدمت بمفهوم «بناء السلم بعد انتهاء الصراع» .. بل يمكن أيضا أن تعزز الثقة وهى ركيزة أساسية لتحقيق السلم . إن السفر بحرية أكبر، والتبادل الثقافى، ومشاريع الشباب، وتغيير أساليب التعليم، كلها أمور يمكن أن تمنع التوترات الثقافية والقومية التى قد تطلق شرارة الأعمال العدائية من جديد. وستكون هناك حاجة إلى بناء السلم بعد انتهاء الصراع، ليس فقط فى حالات النزاع الدولى، بل أيضا فى حالات العدد المتزايد من المنازعات الداخلية الناشئة اليوم داخل الدولة نفسها... وهذا بدوره يتطلب تخويل السلطة للشعب فى المجتمع المدنى والاستماع إلى صوته على جميع مستويات المجتمنع الدولى والمؤسسات الدولية.»

ذلك ؛ ويتم الاتصال بالشعوب مباشرة ، بهدف الهيمنة المركزية العالمية على المجتمعات، ووضع مقررات مؤتمرات قمة الأمم المتحدة موضع التنفيذ على المستوى الشعبى، من خلال

---

(1) Le Monde Diplomatique, Aout 1992, PP. 8-9 -Aout 1995 PP.1 &8-9.

(2) نحو دور أقوى للأمم المتحدة ، مجلة السياسة الدولية، العدد 111 ، يناير 1993م، صـ 6 : 13 .. كذا

Foreign Affairs, Winter92/1993.

ما صار يعرف بالجمعيات غير الحكومية، والتى أصبح لها صفة عالمية، وارتباطات بالأمم المتحدة، وبالصهيونية العالمية ، التى تعمل على تمويلها، وتوجيه نشاطاتها. وقد أصبح يرمز لها اختصارا "INGOS" ... وتمارس هذه الجمعيات نشاطاتها استنادا إلى مبدأ «التدخل لأسباب إنسانية» ، أو «الحق فى التدخل».(1)

ومن هذه الجمعيات «أطباء بلا حدود» ، و«صحفيون بلا حدود»، وجمعيات حقوق الإنسان، وسلسلة ووتش Watch ، مثل "M.E Watch" ، و "Africo Watch" وجمعية World Order models Project

وقد أيد «بابا الفاتيكان» هذه الأفكار بشدة ، فى تصريحه يوم الخامس من ديسمبر عام 1992م بقوله: «من الضرورة عدم الالتفات للحجج الاعتباطية مثل السيادة، وعدم جواز التدخل فى الشئون الداخلية، إذْ من الضرورى أن تتدخل القوات الغربية من أجل توفير الغذاء والصحة لكل إنسان على وجه الأرض.

وعلى أساس هذه الفكرة جرى التدخل فى الصومال منذ أواخر عام 1992م تحت شعار «مبادلة الطعام بالبنادق». وفى إطار هذه الفكرة أعلن «هيرمان كوهين» مساعد وزير الخارجية الأمريكى للشئون الأفريقية يوم 12 مارس 1993م أن بلاده تدرس إقامة منطقة آمنة فى جنوب السودان لإغاثة من يعانون من المجاعة ، ولإعادة اللاجئين الذين عبروا الحدود إلى البلدان المجاورة!

وفى إطار فكرتى «التدخل»،و«حماية البيئة»، فإن التطور المطروح هو أن يقوم فلاحون من بلدان الشمال «المتقدمة» باجتياز الحدود لزراعة أرض فى البلدان «النامية»(2) بمقولة أن هناك مصلحة مشتركة بين كل أمم الأرض فى تحقيق «الأمن الغذائى» ، الذى أصبح فى تقديرهم هو جوهر الأمن وضامنه، بعد النقصان الحاد فى المخزون العالمى من الغذاء، بصفة

---

(1) Scott Sullivan, A Right To Intervene, Newsweek / January18,1993, PP.6-8.

قامت بعض الدول – كمصر – بإنشاء هيكل مؤسسي رسمي يشرف على المنظمات غير الحكومية، ويقدم لها العون في أداء مهامها وينسق بينها !

(2) Christian de Brie, Pagsans Sans Frontie'res, Le Monde Diplomatique, Juillet 1995, P. 12.

عامة، والحبوب بصفة خاصة، وبعد زيادة معدلات تصحر الأراضى الزراعية والغابات.

وفى إطار أفكار «التدخل لأسباب إنسانية» قام «انفغار كارلسون» Ingvar Carlsson رئيس وزراء السويد، والرئيس المناوب للجنة الحكومة الكوكبية (المكونة من ثمانية وعشرين عضوا، والتى دعا إلى إقامتها المستشار الألمانى السابق فيلى براندت ، لتقديم مقترحات بخصوص السلام العالمى والحكم وكيفية تطويرها قدم انفغار كارلسون تقريرا بعنوان: «العالم يحتاج إلى الاعتراف بحق التدخل لأسباب إنسانية»[1]، جاء فيه:

«من الضرورى التأكيد على حقوق ومصالح المجتمع الدولى فى الأحداث التى تجرى بداخل الدول، حينما يتعرض أمن الشعب للخطر بشدة». وقد اقترح التقرير إجراء تعديل فى ميثاق الأمم المتحدة يسمح بالتدخل فى الدول المختلفة لأسباب إنسانية بما يحفظ المصالح المشتركة لسكان الأرض، التى أصبحت متصلة ببعضها البعض ومتشابكة ، ويتضمن هذا الجوانب العسكرية، والاقتصادية ، والمتعلقة بالبيئة، فقد أصبح أمن البشر مركزيا.

إن من صلاحيات أمين عام الأمم المتحدة أن يبعث بلجان تقصي الحقائق، وعلينا أن نتوسع فى استخدام هذه الوسيلة وغيرها، وعلى دول العالم أن تدعم إمكانات «الإنذار المبكر» والجهود الوقائية، بما قامت بجمعه من معلومات قد تساعد الأمين العام ومجلس الأمن فى القضاء على النزاعات المحتملة قبل وقوعها».



(1) International Herald Tribune, Wednesdag, January 25, 1995,

المحور الثاني

محاولة هدم نظام الأسرة

لئن كانت ثقافة السلام تعنى دفع الناس للانغماس فى شهواتهم، ونزع إرادة التدافع من خلال بث الشعور العام بعدم وجود ما يستحق أن يضحى الإنسان بنفسه من أجله، ومن ثم الاستهانة بالقيم، فمن الطبيعى أن توجه هذه الفكر سهامها تجاه نظام الأسرة كما عرفته الشرائع الإسلامية، وفصّله الإسلام كأكمل ما يكون التفصيل.

وقد جرت هذه المحاولة فى كل من مؤتمر السكان والتنمية، الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر 1994م، ومؤتمر المرأة ، الذى عقد ببكين فى سبتمبر 1995م، إذ أعلن فيهما أنه لا ينبغى للمعتقدات الدينية أن تشكل عائقا أمام وضع قرارات هذين المؤتمرين موضع التنفيذ...

فهذان المؤتمران يدعوان إلى اعتبار الزنا والعلاقات الجنسية الشاذة من الممارسات الإنسانية المقبولة، والتى يجب رعايتها وحمايتها بالقانون.. فمن حق كل بالغ - بحسب ما جاء بالوثيقتين أن ينجب وأن يلقى الرعاية، دون نظر لمشروعية الفعل الذى قام به، كما أن من حق ذات الحمل أن تتخلص من جنينها. ولا ينظر إلى الجنس (رجل أو امرأة) عند إقامة العلاقات الجنسية، فهناك - بمنطقهم - أنماط متعددة للأسرة!

كما تركز الوثيقتان على «**الثقافة الجنسية**» التى تتضمن الممارسة العملية «للمراهقين»، خارج نطاق الأسرة التى دعت إليها الشرائع السماوية.

وتخاطب وثيقة «المرأة» النساء بوصف كل منهن كيانا مستقلا، يسعى إلى الاكتفاء الذاتى، بمعنى القضاء على الأمومة، ودعوة المرأة إلى الدخول إلى مجال الرجل فى العمل ومنافسته ، والمساواة معه، بدلا من أن تتكامل معه وأن تقام بينهما المودة والرحمة، اللتان أمر الله تعالى بهما فى إطار الأسرة.

وتعطى هاتان الوثيقتان للجمعيات غير الحكومية سلطات تدخلية واسعة فى مجال الأسرة وجمع المعلومات، كما تربطان بين تخفيض نفقات التسلح، وتنفيذ ما جاء بهما من

برامج غير أخلاقية. ويعد ذلك بمثابة ربط بين ما أوردنا من عناصر ثقافة السلام (ضبط المواليد - هدم نظام الدولة - هدم نظام الأسرة - السيطرة على التسلح - إزالة الخصومات الثقافية والعقدية).

وإذا ما أضفنا إلى هذه الأفكار ما سمى «بحقوق الطفل»(1) لعلمنا أن هدف طواغيت الإنس الذين يودون صياغة علاقات الأسرة على غير ما أراد الله تعالى لا يهدفون حقيقة إلا هدم هذا النظام الاجتماعى الذى شرعه الله تعالى ليكون فيه صلاح الحياة على الأرض.

ويدعم سعيهم الباطل هذا أن هذه المؤتمرات جميعا تضع إلزاما على الحكومات التى أسهمت فى مناقشة وصياغة هذه الوثائق فى صورتها النهائية بأن تعدل فى قوانينها الداخلية بما ينقل هذه الأفكار إلى الواقع العملى، وأن تغير أيضا فى نظمها التعليمية والإعلامية بما يخدم ما جاء فى هذه الوثائق من نصوص لا تدعو إلا إلى هدم نظام الأسرة، الذى يميز الإنسان من الحيوان... بدعوى إقامة السلام الدائم المستقر على الأرض!

وحتى تؤتى هذه الوثائق الضالة المضلة آثارها فإن العبارات والمصطلحات كُررت بكل وثيقة، وبالوثائق المختلفة عشرات المرات لكل عبارة، ولكل مصطلح، حتى لا تأتى المناقشات، ومحاولات التعديل بنتيجة تذكر.



(1) يقصد بحقوق الطفل هنا إعطاء الأطفال والمراهقين مكنة ممارسة حياة الفسق والفجور دون رقابة من الوالدين، فحقوق الطفل ما هي إلا إفساد للأجيال القادمة منذ طفولتهم، وترسيخ فكرة «عقوق الوالدين» باعتبارها قيمة ، وما هي إلا مفسدة... وأي مفسدة... أو ليست من السبع الموبقات، فهي تلي الشرك بالله تعالى؟!

المحور الثالث

إزالة الخصومات والثقافة العقدية

من الأمور التى لا سبيل إلى إنكارها أن الفرق بين الصراع البشرى والصراع بين غيره من الكائنات الحية الأخرى أن الثقافة والعقيدة يمثلان الدافع الأساسى من وراء التدافع البشرى، فى حين تمثل الغريزة الدافع من وراء صراع الكائنات الأخرى، قال تعالى:

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

[الحج / 40 -41]

ويتصور صانعو «النظام العالمى الجديد» أن توحيد الثقافة لدى كل البشر سوف يجعل التفاهم يتغلب فى المعاملات على التدافع، لذا لم يكن غريبا أن يأتى هذا المفهوم فى خطاب الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» – وكان هو الخطاب الوحيد – فى مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى، الذى عقد بباريس فى 19 : 21 نوفمبر 1990م : «إن وحدة الثقافة فى دول العالم، بأن تسود قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان، هى الطريق الوحيد للتفاهم والتعاون الدولى، ولأن يسود الاستقرار والسلام». وليس هذا هو موقف فرنسا وحدها، لكنه موقف الغرب ذى الثقافة الصهيونية / الصليبية. وقد عبر عنه أيضا الرئيس الأمريكى ويليام (بيل) كلينتون يوم توليه الرئاسة فى 20 يناير 1993م إذ قال:

« إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشرى، وإننا نستشعر أن علينا التزاما مقدما لتحويل العالم إلى صورتنا».

وهدف الغرب من توحيد الثقافة هو أن تصدر دول الشمال «المتقدم» أمرا ما فتستجيب إليه دول الجنوب «النامية» دون تردد أو مناقشة، ولعل هذا ما حدث مع نيجيريا فى شهر نوفمبر عام 1995م، إذ أصدرت المحكمة فى نيجيريا حكمها على أحد الكتاب النيجيريين، ومعه ثمانية آخرون من قادة حركة الدفاع عن شعب أجونى، حكمها بالإعدام على الكاتب

المذكور ورفاقه، لارتكابهم جريمة القتل العمد، فتعرضت حكومة نيجيريا لانتقادات شديدة من زعماء دول الكومنولث البريطاني، الذين دعوا إلى إلغاء حكم القضاء عن الكاتب «كين سارو – ويوا» ورفاقه. ومع اعتبار هذا بمثابة تعد سافر على الاختصاص الداخلى لحكومة نيجيريا، وفى صميم عمل قضائها فإن دول الكومنولث وقعت عقوبات على نيجيريا[1]، وهددت بطردها من الكومنولث، وكان سبب ثورتهم على نيجيريا أنها لم تتبع النظام الديموقراطى، رغم الانتقادات المتكررة التى وجهت إليها، لذا فقد منحتها دول الكومنولث، بزعامة بريطانيا ، مهلة لإقامة الديموقراطية وإلا طُردت من الرابطة.

وتحاول الولايات المتحدة الأمريكية – بما لديها من إمكانات هائلة، وتفوق فى مجال تكنولوجيا المعلومات – على إعادة صياغة ثقافة عالمية موحدة من خلال برنامجها المسمى بطريق المعلومات فائق السرعة "Information Superheighway" ، الذى يستخدم الاتصالات الفضائية بصفة أساسية أو «ضبط الفضاء» "Cyberspace"، وذلك من خلال الإعلام المتعدد multimedia ، الذى يستخدم الكلمة المقروءة، والصورة، والصوت ترسل على شبكة عالمية للحاسوب (الكمبيوتر) صارت تعرف باسم (انترنت) "Internet" ، وتستخدم فى شتى الأغراض، اعتبارا من تسويق السلع والإعلان عنها، حتى «التعليم من بعد» ، مرورا بجمع المعلومات والتزويد بها، وعرض الأفلام، وتبادل البريد الالكترونى .

لقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية مشروعا لإنشاء «شبكة المعلومات الدولية» Inter-net منذ عام 1991م ، وقد وضع المشروع – والذى اتخذ من شبكة الكمبيوتر الخاصة بالجيش الأمريكى، والتى بدأت عملها منذ عام 1969م، نواة له – وضع المشروع تحت الإشراف المباشر لنائب الرئيس الأمريكى «ألبرت (آل) غور» منذ عام 1993م، ورصدت للمشروع عشرات المليارات من الدولارات فى الميزانيات المتعاقبة لينتهى عام 1998م وقد ربط ثلاثمائة مليون جهاز كمبيوتر فى كل العالم، فضلا عن ربطه لعدد كبير من مراكز المعلومات فى مختلف بلدان العالم.

---

(1) كان ذلك يوم العاشر من نوفمبر 1995م في اجتماع الرابطة بنيوز يلاندا.. وبعدها سعى «جون ميجور» رئيس وزراء بريطانيا نحو فرض حظر دولي على تصدير السلاح إلى نيجيريا، نفذته تلقائيا دول المجموعة الأوروبية، في الوقت الذي أخذ أمريكا في السعي لدى الأمم المتحدة بهدف فرض عقوبات جديدة على نيجيريا.. كل هذا من أجل فرض «الديموقراطية» باعتبارها جوهر «ثقافة السلام».

مثل هذا المشروع سوف يحدث باستكمالة ثورة هائلة فى الثقافة والمعلومات، وفى أسلوب تلقى العلم، وإجراء التجارب، والعمليات التجارية، وسوف يؤدى إلى إنشاء وظائف جديدة، وإلغاء بعض الوظائف التقليدية للأفراد، بل للمؤسسات كالمجالس النيابية (البرلمانات)، ودور النشر، ومؤسسات الإعلام، ومؤسسات التعليم، ومعامل البحوث، والمناورات الحربية ... إلخ وسوف يتيح إمكانية الغزو الثقافى لعقول الأفراد مباشرة ، والتأثير فى القيم والسلوكيات والتوجهات، وسرعة الوقوف على ردود الأفعال لدى الجماهير الأفراد.

ولتغطية القطاعات غير القادرة على اقتناء جهاز حاسوب (كمبيوتر) ، وهاتف (تليفون) دولى، وجهاز تشفير، كى يدخل على الشبكة، واشتراك زهيد كى يحصل على المعلومات، فإن الولايات المتحدة الأمريكية بصدد تنفيذ مشروع آخر للبث المرئى / المسموع (بالتليفزيون) يغطى الكرة الأرضية. وينتهى العمل فى هذه الشبكة الكوكبية خلال السنوات المتبقية من القرن العشرين.

وبجانب هذه الوسائل التى تهيمن عليها الأيدى الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن رجل الأعمال اليهودى المشهور «روبرت مُردوخ» Rupert Murdoch يعمل على إنشاء شبكة تليفزيون كوكبية Worldwide T.V. network موازية الشبكة الأمريكية التى يجرى إنشاؤها؛ إذْ يقوم مردوخ بشراء عدد من شبكات التليفزيون العالمية الشرق الأقصى، وبريطانيا، وإيطاليا، وقيادة حركة واسعة للتكامل بين شبكات التليفزيون الأمريكية ، وهذه الشبكات.

ويبقى القول هنا بأن هذه التكنولوجيا الحديثة، الخطيرة فعلا، لا تأتى بآثارها السلبية فينا إلا إذا فتحنا لها عقولنا وضمائرنا، واستقبلنا الطالح منها بإرادتنا. أما من يتحصن بقيم الإسلام فإنها سوف تكون له خير وجاء، بل وتمكنه من استقبال النافع من المعلومات، إذْ أنه يستطيع أن ينقيها مما يشوبها من الباطل والضلال. بل أكثر من هذا فكما أن هذه التكنولوجيا قد فتحت للمعلومات طريقين فإنها يمكن أيضا أن تكون سلاحا ذا حدين ، يكون أنفع وأجدى فى يد من يدافع عن الحق، شريطة أن يكون هو الأقوى إرادة وإيمانا بالحق، قال تعالى: ﴿ ... **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾.
[الرعد/ 17]

المحور الرابع

محاربة الإرهاب

وكما تفترض فكرة «ثقافة السلام» افتراضاً مبدئيا مفاده جمع أهل الأرض على ثقافة واحدة، وأن هذا يقتضى إزالة الخصومات الثقافية والعقدية بين البشر فإن إزالة كل عائق يقف أمامها يفترض ابتداء استخدام الإكراه المادى والمعنوى.

ولما كان لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه فإن من صاغوا فكرة «ثقافة السلام» توقعوا أن تكون هناك مقاومة لإكراههم المادى والمعنوى هذا، حصروها فى ما أسموه «الأصولية» Fundamentalism (1) . وهو مصطلح عرفته الحضارة الأوروبية كرد فعل لظهور المذهب «البروتستاننى» الذى ما ظهر إلا لإحداث تغيير جذرى فى العقيدة النصرانية التى كانوا يعتبرونها عائقا أمام التقدم العلمى والحضارى.

لقد استخرج صائغو النظام العالمى الجديد هذا المصطلح من خلفياتهم الثقافية، ومن تاريخهم، وعلى الرغم من أن هذا المصطلح لا يعطى نفس المعنى أو المضمون فى الإسلام إلا أن بعض المثقفين من أمتنا، ممن اعتادوا أن يقتاتوا على فتات الموائد الثقافية الغربية، التقطوا هذا المصطلح، وحاولوا استخدامه فى بلداننا الإسلامية ، للدلالة على الداعين إلى التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوصفوهم فى البداية بالمتشددين، واستخدموا أيضا اصطلاح «الأصوليين» لوصفهم.ولما لم يجد هذا المصطلح نجاحا صدّر الغرب إلينا لفظى «المتطرفين»، و«التطرف» . بيد أن هذا المصطلح أخفق هو الآخر فى تحقيق أهدافه الهدامة فى بلداننا الإسلامية؛ لأن تساؤلا ثار: من الذى يحدد المتطرف من غير المتطرف؟ ورغم استمرار استخدام هذا اللفظ للدلالة على اعتناق الفكر الإسلامى، الذى ينكره عليهم

---

(1) يؤكد هذا المذهب على أن نصوص الكتاب المقدس معصومة عن الخطأ في ما جاءت به من قضايا العقيدة والأخلاق والتاريخ والغيب كقصة الخلق، وولادة المسيح بدون أب، وعودته إلى الحياة مرة ثانية، والحشر يوم القيامة بالجسد بعد البعث. ولئن كان النصارى قد عرفوا مثل هذا المذهب فإنه لا يوجد مسلم ينكر ما جاء بالقرآن الكريم من غيب، كما لم يظهر مذهب في الإسلام شبيه بالبروتستانتية ، لذا فلا يعرف الإسلام لفظ الأصولية.

«العلمـانيون» فمن ينتسبون إلى الأمة الإسلامية بأسـمائهم وشهادات ميلادهـم فقط، أو من غير المسلمين الـذين يعيشـون فى الأمة و«لهم ما لـنا وعليهـم ما علينـا؛ فقد استحـدث لفظ جديد هو لفظ «الإرهاب» كـترجمة للفظ terrorism . وقد انتقـى هذا اللفظ ليكون مـشتقا من الـلفظ الـقرآنى «تـرهبون» المـوجود فى «الآيـة رقم 60 من سـورة الأنفال»، ولـيعبـر عن استخدام العنف فى فـرض الرأى أو للوصول إلى السلطة ، مع أن اللفظ الـقرآنى هو لفظ فى سياق آية قرآنية تدعو إلى إعداد القوة، قدر الاستطاعة، كإجراء وقائى يمنع أعداء الله وأعداء الأمة من الاعتداء عليها فيقول الله تعالى:

﴿ وأعدوا لـهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونـهم لا تعلمونهـم الله يعلمهـم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال / 60]

فالآية الـكريمة تـدلنا علـى المنهاج الإسـلامى لردع العـدو تجنبا لـلحرب؛ بدلـيل أن الآية التالية لها جاءت كما يلى:

﴿ وإن جنحـوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السـميع العليم ﴾

[الأنفال / 61]

فالمسلـمون لا يسالمون من موقـع الضعف فيكون استسلاما، ولكن من مـوقع القوة، ولا يدعون إعداد القوة حال السلم، حتى يرتدع العدو فلا يفكر في الاعتداء عليهم.

وعلـى الرغـم من أنه ممـا لا يخفـى علـى أى عارف بالإسـلام أو دارس له أن الإكـراه فى الدين لا يجوز، وفرض العقيدة أو الرأى بالإكراه محرم فى الإسلام - يقول الله تعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين قـد تبين الرشد من الغى فمـن يكفر بالطاغوت ويؤمن بـالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة / 256]

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهـم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكـونوا مؤمنين ﴾ [يونس / 99]

كما أن الاستيلاء على السلطة باستخدام القوة المسلحة فى الإسلام غير جائز، فلا وصول

للسلطة فى دولة الإسلام إلا «بالبيعة» ، و«بعد مشورة» أُولى العلم والرأى من المسلمين[1]، والملك بيد الله تعالى وحده، فهو مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران / 26]

هذا فضلا عن أن مجتمع المسلمين أشداء على الكفار رحماء بينهم، قال تعالى:

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآذره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [الفتح / 29]

وعلى الرغم من كل هذا فقد نجد أن الاتجاه العالمى هو التعبير بكلمة «الإرهاب» عن الإسلام، وبعضهم يضيف وصفا للإرهاب فيقول : «الإرهاب الإسلامى»، وهو ما نجده كثيرا فى تعبيرات قادة إسرائيل، وفى تعبيرات غيرهم من ذوى الفكر الصهيونى، وممن أعلنوا صراحة عداءهم للإسلام... ولا تكاد تجد زعيماً عربيا إلا وأعلن هذا العداء افتراء على الله وعلى المسلمين الذين لم يعلن أحدهم عزمه على الاعتداء على أحد لأن الله لا يحب المعتدين.

ذلك وتعتبر التعبئة العالمية لمحاربة «الإرهاب» أحد أهم مكونات «ثقافة السلام»؛ ويعبر بعض أعداء الإسلام بقولهم «محاربة أعداء السلام»[2]، وهم يشيرون إلى مسلمى فلسطين من «منظمة حماس»، إلى «الجهاد الإسلامى»، وحتى منظمة «حزب الله» التى تجاهد لتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الصهيونى.. ويضيفون إليهم كل المسلمين المجاهدين فى سبيل إعلاء كلمة الحق [3]، فى كل أنحاء المعمورة.

---

(1) جرت تسميتهم في الفقه الإسلامي «أهل الحل والعقد» . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من بايع أميرا من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا الذي بايعه» (رواه الإمام أحمد).

(2) راجع خطب الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في الكثير من المناسبات ، وآخرها توقيع اتفاق «توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني» يوم 29 سبتمبر 1995م.

(3) راجع خطاب «أندريه كوزيريف» وزير خارجية روسيا في البيت الأبيض يوم 13 سبتمبر 1993م بمناسبة توقيع اتفاق «غزة أريحا» إذ عبر بقوله «الإرهاب الديني» ، مشيرا إلى مجاهدي طاجيكستان وأفغانستان!

إن «محاربة الإرهاب» ليست حربا عسكرية فحسب، بل هى «حرب ثقافية» فى المقام الأول، لذا نجدهم يضيفون لفظ التطرف للفظ الإرهاب، ويتحدثون عن أن حرب الإرهاب يجب أن تمتد إلى «تجفيف منابعه»، وهم يقصدون بذلك محاولة القضاء على الفكر الإسلامى وأصوله... فقد وضعوا كل المسلمين فى قارب واحد، وعقدوا العزم على إغراقه أو حرقه.

إن شعار «التحالف الدولى من أجل محاربة الإرهاب» الذى يرفعه الرئيس الأمريكى «كلينتون»، ويوافقه عليه عدد كبير من قادة الغرب، بل ومن قادة «البلدان الإسلامية»، ما هو إلا شعار يحمل فى طياته خبئا هو شن «حرب عالمية شاملة ضد الإسلام» لاقتلاعه[1] من العالم إن استطاعوا ولن يستطيعوا، لأن إرادة الله تعالى أن يعلو هذا الدين حتى تقوم الساعة.

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾. [الفتح / 28]

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

[الصف / 8 - 9]

والسبب فى حقد قلوب أعداء الإسلام، الذى يدفعهم إلى شن هذه «الحرب الثقافية» الضارية التى سيحبطها رب العزة الذى قال:

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر / 51]

---

(1) Alain Gresh, Quand L'islame menace Le Monde, Le Monde Diplomatique December 1993, P.9.

- James Walsh, The Sword of Islam, Time, June 15, 1992, PP. 18 - 28.

– البعد الإسلامي في أزمة الخليج ، ترجمة وتعليق لواء أح د. فوزي محمد طايل، الزهراء للإعلام العربي، 1412هـ – 1992م، صـ 189:213 .

– لواء أح د. فوزي محمد طايل ، ثقافتنا في إطار النظام العالمي الجديد ، مركز الإعلام العربي، 1994 ، صـ 96:104 .

أقول إن السبب يرجع إلى أن الإسلام - حسب تعبيرهم - يحمل «مشروعا اجتماعيا»[1].

نفى الإسلام البديل الحضارى الأمثل

بعد أن فشلت الحضارة الغربية بجناحيها «الليبرالية والماركسية» ، وكُسِر جناحها الثانى، وجناحها الأول على وشك أن ينكسر، وتنهار الحضارة الغربية المفرطة فى ماديتها.

ودون إغراق فى الخيال، أو رجم بالغيب، فإن الحضارة الغربية على شفا جُرُفٍ هارٍ ، فهى على وشك الانهيار. وسوف يُحدث انهيارها فراغا هائلا، ودويا مروعا..! فهل أعدّ المسلمون أنفسهم لهذا اليوم؟

* * *

(1) Dennis M. Drew (col. USAF, Director A,vpower Institute), Responding to Low - Intensity Contlict Challenges, US Government Printing Office, Washington, DC, 1990, PP. 1 - 22, by Dr. Lewis B. Ware - Georges Lavernhe, La France et L'islam: Conjonction ou quadrature?, de'fense nationale, juillet 1991, PP. 75 - 89.

ثبت المراجع

أولا - المراجع العربية :

1- القرآن الكريم.

2- النظام السياسي في إسرائيل لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل، الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة. ط2، 1992 م.

3- آثار تفكك الاتحاد السوفيتي على أمن الأمن الإسلامية. لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل، دار الوفاء للطباعة والنشر - القاهرة، 1994م.

4- الجواسيس غير الكاملين - يوسي ميملمان - دان رافيف، ترجمة لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل.

5- شيشان والخطر المحدق بمسلمي آسيا. لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل، مركز الإعلام العربي، القاهرة. ط 1 ، 1995م.

6- ثقافتنا في إطار النظام العالمي الجديد، لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل، مركز الإعلام العربي، القاهرة. ط 1، 1994م.

7- مذابح البوسنة والهرسك (أندلس جديدة في أوروبا) لواء أ. ح. د. فوزي محمد طايل، الزهراء للإعلام العربي 1992م.

8- الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد (التوراة - الإنجيل) دار الكتاب المقدس/ الإسكندرية طبعة عام 1989 .

9- الكتاب المقدس - كتاب الحياة - ترجمة تفسيرية طبعة 1988.

10- الإسرائيليات في التفسير والحديث. سلسلة البحوث الإسلامية بمجمع البحوث الإسلامية- القاهرة - 1987.

11- الربا وخراب الدنيا. د. حسين مؤنس. الزهراء للإعلام العربي ط. 1986م.

12- المنقذ من الضلال. أبو حامد الغزالي. تحقيق الإمام الأكبر د. عبد الحليم محمود. ط 1968م.

13- الخراج - القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

14 – العِبَرْ وديوان المبتدأ والخبر. عبد الرحمن بن خلدون المغربي – دار الكتب العلمية، بيروت 1978م.
15– اليهود في البلاد الإسلامية – صموئيل أتينجر، ترجمة د. جمال أحمد رفاعي، مراجعة د. رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة رقم 197 طبعة عام 1995م.
16– الإسلام والنصرانية. الإمام محمد عبده.
17– الصهيونية غير اليهودية. رجينا الشريف. ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة 1985م.
18– فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية. للعلامة الهندي شبلي النعماني، ترجمة د. عبدالعزيز عزت عبد الجليل – الكتاب السابع – السنة 12 سلسلة البحوث الإسلامية1981، المجلات والجرائد.
19– مجلة السياسة الدولية العدد 111 يناير 1993م.
20– مجلة السياسة الدولية العدد 104 أبريل 1991م.
21– مجلة أكتوبر العدد 110 لعام 1992م.
22– جريدة الأهرام المصرية 29 سبتمبر 1994م.
– جريدة الأهرام المصرية 9 ديسمبر 1994م.
– جريدة الأهرام المصرية 25 مارس 1995م. صـ25 مقولة د. مرادهوفمان.
– جريدة الأهرام المصرية 23 يونيو 1995م.
– جريدة الأهرام المصرية 20 أكتوبر 1995م.
– جريدة الأهرام المصرية 7 أكتوبر 1995م. الأسبوع الاقتصادي.
– جريدة الأهرام المصرية 27 أكتوبر 1995م.
– جريدة الأهرام المصرية 11 أكتوبر 1995م. حديث رئيس التحرير مع الرئيس حافظ الأسد
– جريدة الأهرام المصرية 19 أكتوبر 1995م. الرؤية المصرية لقمة عمان.
23– ملف السياسة الدولية، مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط. مجلة السياسة الدولية يناير 1992م.

ثانيا - المصادر الإنجليزية:

1- Dr. Edward Norman, Importance religion is That it is not natural, The Times Saturday June 17, 1995. Credo.

2- The Times Monday November 7, 1994.

3- The Times Saturday November 12. 1994.

4- The Times July 4. 1994.

5- The Times Friday February 3, 1995.

6- International Herald Tribune April 1994.

7- International Herald Tribune Wednesday Januory 25, 1995.

8- International Herald Tribune August 2, 1995.

9- International Herald Tribune Feb, 17, 1995.

10- The Sunday Times October 30, 1994.

11- The Sunday Telegraph 30 January 1994.

12- Gray Mahers Newsweek March 27, 1995.

13- The New Encyclopedia Britanica, 1985.

14- William L.Langer, The Diplamacy of Imperialism, New York, Knopf 1935 Vol. 1.

15- Roberta Aliboni, The Red Sea Region (Local Actors and Superpowers) Croom Helm, London & Sydney, 1985.

16- William Stivers, America,s confrontation with Revolutionary Chnge in The Middle East (1948-1983) Macmillan Press, 1986.

17- Richard F. Nyrop, Israel (Acountry Study) The American University Washington, 1979.

18- Dr. Henry Kissinger, An Age of Transition, First (Forum For Decision Makers), Quarterly, Volume Number 2, London 1995.

19- Jaffee Center Study Group on War in The Gulf: Jmplication For Israel, Westview Press 1993.

20- The Economist, April ist, 1995 Stay Ceol.

ثالثا - المصادر الفرنسية

(1) Pierre Papon, Science et besoins Socioux, Le Monde Diplomatique, Fe-reier, 1994.

(2) USURY The Lender,s Long Lament, The Economist, 25 Dec. 1993.. 7 Jan- 1994.

(3) F. Ch., Toutes Les Banques en danger, Le Monde Diplomotique, Mai 1995.

(5) Le Monde Diplomatique, Octobre 1995. (Mass 14, 1995).

(6) Edouard Drumont, La France Juive, Essai D'histoire Contemporain, Tome Premier, 6 iem.

(8) Pierre Lellouche, L'Avenir de La Guerre, April 1985.

(9) Le Monde Diplomatique, Septembre, 1994.

(10) Le Monde Diplomatique, Aout 1992.

(11) Le Monde Diplomatique, Aout 1995.

(12) Le Monde Diplomatique, Juillet 1995.

(13) Le Monde Diplomatique, Decembre 1993.

الفهرس




المؤلف في سطور

لــواء أ. ح. د. فـوزى محمد طايـل

أستاذ الاستراتيجية الشاملة بأكاديمية ناصر العسكرية

- مواليد 1942/4/20
- تخرج فى الكلية الحربية 1960
- تخرج فى حقوق القاهرة 1978
- حصل على الدكتوراة 1986
- حصل على درجة الزمالة بكلية الدفاع الوطنى (أكاديمية ناصر العسكرية 1987).
- توفى ليلة الجمعة 13 رمضان 1416 الموافق فبراير 1996 م.

من مؤلفاتــه :

- أهداف ومجالات السلطة فى الدولة الإسلامية.
- النظام السياسى فى إسرائيل.
- البوسنة والهرسك أندلس جديدة فى أوروبا.
- آثار حرب الخليج على منظومة القيم الإسلامية العليا.
- آثار تفكك الاتحاد السوفيتى على أمن الأمة الإسلامية.

وله بعض الترجمات منها:

- (البعد الإسلامى فى حرب الخليج) عن اللغة الفرنسية..
- والجواسيس غير الكاملين (تاريخ مجتمع الاستخبارات الإسرائيلى) عن اللغة الإنجليزية.
- وله كتابات وأبحاث فى العديد من الصحف والمجلات.

رقم الإيداع: ٨٢٧٦/ ٩٧

الترقيم الدولى: ٤/ ٣٥/ ٥٢٧٤/ ٩٧٧

